يوري كوليسنيكوف



أرض الميعاد

يوري
كوليسنيكوف



رواية

دار التقدم موسكو

ترجمة : ابو بكر يوسف

Ю. Колесников
ЗЕМЛЯ ОБЕТОВАННАЯ
На арабском языке

يروى مؤلف الكتاب قصة شاب يهودى يدعى حاييـــم فولديتير ، هاجر قبيل الحرب العالمية الثانيـــة الى «ارض الميعاد» فلسطين متأثرا بالدعاية الصهيونية . وعندمـــا اصطدم بالواقع تبددت احلامه ، ككثير غيره من المهاجرين اليهود .

ويولى الكاتب فى هذه الرواية اهتماما كبيرا بفضـــح جوهر الصهيونية ، وقرابتها الروحية مع الفاشية .

طبع فى الاتحاد السوفييتى

K $\frac{11104-464}{014(01)-79}$ 607—79 0804000000

١

فى ساعة متاخرة من الليل استدعى طبيب السفينة للكشف على الراكب المريض . وبعد ان فحصه لم يتفوه بكلمة وتوجه الى القبطان . وكانت السفينة «ترانسلفانيا» المكتظة بالمهاجرين من اوربا ، قد جاوزت مضيق سكاربنتو وخرجت الى عرض البحر الأبيض المتوسط متجهة الى شواطئ فلسطين . ولم يكن قد تبقى الا يوم او اكثر على الوصول ، عندما مالت «ترانسلفانيا» على جانبها الأيسر قليلا وتحولت فجأة عن خط سيرها . فقد قرر القبطان ان يترك الراكب المريض قبل حلول الفجر فى اقرب ميناء قبل ان ينتشر خبر اندلاع الوباء على ظهر السفينة . اذ كان القبطان يدرك ما معنى تفشى الذعر بين الركاب . وبالاضافة الى ذلك فلو حدث وباء لما استطاعت «ترانسلفانيا» ان تدخل ميناء حيفا قبل انتهاء فترة الحجر الصحى ، ولاختل نظام رحلات السفينة . وربما كان هذا اخشى ما يخشاه القبطان وخاصة الشركة التى تملك السفينة .

ونقل المريض حاييم فولديتير الى قمرة ضيقة جدا فى مؤخرة السفينة ، كانت تستخدم حسب الضرورة تارة كمعزل صحى وتارة اخرى كمشرحة .

ولاحت تباشير النور عندما ظهرت بعيدا وراء خط الافق البنفسجى الداكن ملامح ذرى الصخور الشاطئية الحادة . وكانت الخضرة تتناثر عليها هنا وهناك وتبدت اشباح المنازل الحجرية البيضاء للمدينة الممتدة فى الجزء الجنوبى الشرقى من قبرص .

والقت «ترانسلفانيا» مرساتها على بعد ميل من المجرى الملاحى ، ورفعت على ساريتها علم الاشارة «نطلب معونة طبية عاجلة !» .

وكان سطح السفينة لا يزال خاليا من الركاب عندما انزلت نقالة تحمل المريض المغطى ببطانية حتى راسه الى زورق حراسة بريطانى رسا الى جنب السفينة .

ونقل حاييم فولديتير الى مبنى ميناء ليماسول المتواضع .

وكان مكتوبا فى شهادة المريض الرسمية «السرتيفيكات» ان «المتطوع حاييم بن اسرائيل فولديتير الذى ادى «الاكشارا» * يحق له دخول فلسطين» ، وعلى الوجه الآخر للوثيقة خاتم بيضاوى ازرق يؤكد صحة توقيع القنصل البريطانى الذى اعطى تأشيرة الاقامة فى الاراضى الخاضعة للانتداب البريطانى . وعند اطلاع السلطات المعتمدة فى ليماسول على هذه الوثيقة لم تضع اية عوائق فى وجه المريض الاجنبى وامرت بتسليمه لرئيس الطائفة اليهودية المحلية .

وحملوا حاييم على عربة جر بعجلتين الى الحاخام بن صهيون هاجرا . وقالت الحكيمة التى استدعاها الحاخام بعد ان فحصت المريض :

– تيفوس . . .

وجحظت عينا بن صهيون هاجرا البارزتان المحمرتان بالدم ، ووضع على بطنه يديه بأصابعهما الطويلة المصفرة كصفرة الموت ودمدم بعض الصلوات بفزع :

– شما اسرائيل ادوناى الوهينو ادوناى احود ! . . **

كان منزل الحاخام غاصا بالاطفال ، فنقلوا الضيف الثقيل فورا الى مبنى تداعى من القدم ويجمعه مع الحظيرة سقف واحد ولا يفصله عنها سوى حاجز متهالك . وتطوعت الحكيمة التى كانت طبيبا منزليا فى أسرة هاجرا لرعاية المريض . وكانوا يدعونها فى بيت الحاخام العمة بيتيا .

ومنع الحاخام الاطفال من الاقتراب من «الجناح» وامرهم ان يعلقوا على صدورهم اكياسا تحوى فلفلا اسود وثوما مقشرا واعشابا ما وكافورا ، الامر الذى كان ينبغى فى نظره ان يحميهم من العدوى . وامر خادمته اويًا التى كانت تعنى بالدار ان تطلى الجدران بالجير وتغسل عتبة الدار والارضية بحامض الكربوليك .

---

* التدريب العملى الذى كان الصهاينة ينظمونه خارج فلسطين وعلى اساسه يمنح المهاجرون حق دخول «ارض الميعاد» . هذه الملاحظة والملاحظات التالية للمؤلف .

** اسمع يا اسرائيل ، الرب الهنا رب واحد ! . .

وكان الشماس ، خادم الهيكل ، يسهر الليالى بقرب فراش المريض . وكان من الممكن ان تتعرف على هذا العجوز الأحول الملتحى من بعيد وذلك من منظر «الكسكتة» المائلة على احدى اذنيه ومن قفطانه الطويل الاسود المبقع . كان ياتى الى هنا فى ساعة متاخرة من الليل وينصرف قبيل الصبح ، ففى الصباح والمساء يكون الشماس مشغولا فى المعبد بالاعداد للصلاة . وكان هذا العجوز يحب ان يذكّر الناس بانه هو بالذات الذى يعتبر فى المدينة كبير الـ«حيفرا قديشو» * وان من مسئولياته غسل الموتى وتكفينهم حسب الطقوس . بالطبع الرجال فقط . . . وعموما فليس هذا بالشىء الهين !

وفى مساء اليوم الثانى تدهورت حالة حاييم ، اما العجوز فقد استدعى لسوء الحظ لاقامة طقوس الدفن لاحد افراد اسرة موسرة ، وكان الشماس يامل طبعا فى الفوز ببقشيش طيب . . . وبقيت العمة بيتيا الى جوار المريض طوال الليل . وفى الفجر اخبرت خادم الهيكل الذى وصل بان الشاب فى حالة سيئة جدا وليس من المحتمل ان يظل حيا حتى المساء .

اقترب الشماس من المريض ورفع جفنه ، وعندما تاكد من ان الحكيمة مصيبة ، مضى يهمس بالصلوات ويتنهد مصدرا صفيرا ، اذ كان فمه يخلو من سنتين اماميتين . وفى الوقت نفسه راح يقدر بعين خبيرة كم يبلغ طول الشاب .

وسرعان ما انصرف الشماس ، فقد كان المعبد فى هذا اليوم يحفل بنشاط غير عادى ، اذ لم يتبق على «الروش ـ جاشانا» ** سوى يومين اثنين . والأمر لا يحتمل المزاح هنا . خاصة اذا راعينا انه فى هذه «الأيام الرهيبة» تتقرر فى السماء مصائر سكان الأرض ! . .

وفى الصباح الباكر ، بعد صلاة الغفران الليلية ، اتجه الشماس وزميله الأعرج الى المقابر ، حاملا جاروفا ومعزقة . وليس من السهل أن تحفر قبرا فى تربة جافة حجرية ، زد على ضرورة

---

* «اخوان الدفن» .
** العام الجديد .

الاسراع ، فقبيل العام الجديد يحرم الدفن من الظهر ، واما بعد العيد – لسوء الحظ – فسيكون يوم سبت ! الدفن ايضا محرم . . ولكن حرارة الجو لا تسمح بتأجيل الدفن .

ودمدم زميل الشماس وهو يسوى ظهره المحنى ويرتكز على المعزقة :

– اذا كان العلى القدير قد قرر الا يسمح بعودة الشخص الى ارض الميعاد فلن تنفعه اذن السرتيفيكات او الشيفس-كارت او التأشيرة ، او حتى الشباب ! . . لقد كان الشاب على عتبة الجنة تقريبا ، ولكنه انتزع منه حياته . . . اليس هو القادر على كل شيء؟

ولم يرد الشماس الا بعد فترة :

– ايه ، عندما لا يكون مكتوبا للانسان السعادة فلن تساعده بشيء . لقد لاحظت ذلك منذ زمن بعيد . فليغفر لى الله اذا قلت انه يبدو قد اصابه فى الايام الاخيرة مس . . . فهو يحصد من لاداعى لموتهم ! هلا قبض اليه روح حاخامنا ، الا فلتخطفه النار . . .

وانتعش الاعرج ، فقد كان مثل هذا الحديث يلقى استجابة فى نفسه :

– ها – ها ! حاخامنا ؟ انه قوى كالفحل . . التيفوس لا يؤثر فيه . . .

– ليس فى الدنيا شيء خالد ! فلنأمل فى عون الله . . .

وظل الحفاران يحفران القبر طويلا وهما يعزيان نفسيهما بالامل فى انهما سيتمكنان بعون الله من حفر قبر للحاخام .

وعاد الشماس الى دار الحاخام بن صهيون هاجرا قبل غروب الشمس بفترة طويلة وتوجه على الفور الى المريض فى الحظيرة . ولكنه لدهشته وجد هناك ، بدلا من الحكيمة ، الفتاة الشابة اوينا الخادم اليونانية لدى الحاخام ، وهى تغسل الجدران الخشبية بعناية بالماء الساخن والصابون .

ودمدم الشماس وهو يقترب من المريض :

– عبثا ما تفعلين . . .

ونظر الى المريض ثم هز راسه ومد يده ليرفع جفن المريض

ليتاكد هل بقى له الكثير . ولكن اويّا انقضت فجاة على العجوز ودفعته جانبا . ونظر الشماس الى الفتاة بخوف وسارع بالانصراف .

وجن جنون الحاخام عندما علم بان اويّا تعنى بالمريض :

– من الذى اذن لهذه الحمقاء بدخول الحظيرة ؟ هل تريد ان تعدينا جميعا ؟ اياكم ان اراها هنا ثانية !

وكانت العمة بيتيا قد عادت من الصيدلية . وافقت بخنوع على ما قاله الحاخام ولكنها قالت :

– ما كان كان . . ومهما يكن فالمريض بحاجة الى من يرعاه . . . انه ما زال حيا ! اما انا ، فصدقنى ، لا اكاد اقف على قدمى . . .

وشينا فشينا هدات ثائرة بن صهيون ، فقال موافقا :

– سيسلم المتطوع روحه قريبا . . فلتبق معه . ولكن اياها ان تجرؤ على الاقتراب من دارنا ! هل تسمعين ؟ !

واكدت العمة بيتيا للحاخام انها ستعنى بذلك حتما . لم يكن هناك احد يعامل اويّا بمودة وعطف مثل العمة بيتيا . وعندما كانت تتذكرها كان قلبها يتفطر الما عليها . وتقول فى نفسها :

«لقد وهبها الله كل شىء ، الذكاء ، والجمال ، والقلب الطيب . ولكن ما اغلى الثمن الذى دفعته المسكينة مقابل ذلك . . .»

كانت اويّا صماء بكماء . وقد ولدت ، كما يؤكدون ، فى فماجوستا . وشبت هناك يتيمة ، فقد خرج ابوها البحار فى سفينة صيد الى البحر ولم يعد . ومن يومها واويّا تنظر بفزع الى البحر . ومر الوقت ، وذات مرة عادت امها فى المساء الى البيت بصحبة بحار طويل جميل . وضمت الفتاة الى صدرها بقوة وقبلتها ، ومسحت على راسها طويلا وهى تحدق بالم فى وجهها الاسمر الصغير . وفى الصباح ، عندما استيقظت اويّا ، وجدت الغرفة خاوية . وقفزت الفتاة من السرير وركضت الى الفناء . واشارت العجوز التى كانت الام تستاجر منها الغرفة الى البحر ، فرات اويّا فى ضباب الصباح الازرق سفينة بيضاء تمضى مبتعدة . . . وبقيت الفتاة لدى العجوز تساعدها فى شئون المنزل وتجلب الماء وترعى العنزة ، ولم تدخل

المدرسة بسبب عجزها ، وكانت تنظر دائما بالم ورجاء الى السفن البيضاء الكبيرة التى تصل الى الميناء . . .

وقد التحقت اويًا باسرة الحاخام فى فماجوستا ، وعندما انتقلت الاسرة الى ليماسول اخذت زوجة الحاخام المريضة معها هذه الخادم المفيدة . فقد كانت اويًا مثابرة ومطيعة .

وبعد ان تنهى اويا اعمالها فى المساء فتعتنى بهندامها كانت تبدو حسناء رائعة الجمال . وكانت الجارات اليونانيات يقلن ان الله قد حرم الفتاة النطق لانه وهبها كل هذا الجمال .

وفى ليماسول كان ينزل على الحاخام كثيرا الشرطى المتقاعد الرقيب ستيفانوس الذى كان شريكا للحاخام فى ملكية حانة وبيت دعارة قرب عنبر الميناء . وفى كل مرة يرى فيها الفتاة كان هـذا البدين يتملاها بنهم من قمة راسها الى اخمص قدميها وهو يمسد شاربه . . . ويتهامس طويلا مع الحاخام .

وحدث ذلك فى الربيع الماضى . فذات يوم قبل عيد الفصح ، عندما اوشك الاستعداد للعيد فى بيت الحاخام على الانتهاء ، اعلن بن صهيون هاجرا فجاة انه من غير المسموح به طوال اسبوع الفصح وجود شخص ذى عقيدة مخالفة فى منزلهم . . . واضاف قائلا ان كل شىء ، ابتداء بالطعام وانتهاء بالاوعية ، ينبغى حسب قوانين الفصح المقدسة ، ان يكون طاهرا ، وبالطبع يهوديا خالصا . والمح بن صهيون الى انه سيضطر ولو مؤقتا الى الحاق الفتاة بستيفانوس .

وعندما عرفت اويًا انهم سيلحقونها بالحانة هزت راسها بشدة وغطت وجهها بيديها وهربت . وظلت طوال الاسبوع مختفية فى الجناح الذى كان يهذى فيه حاييم فولديتير بحمى التيفوس . وكان الجميع ، ما عدا بن صهيون وابنته تسيليا يعرفون اين تختفى الفتاة . ورواحوا يحملون لها الطعام خفية عن الحاخام ويطيبون خاطرها ويعطفون عليها . ولكن ماذا كان بوسع الابناء ان يفعلوا وقد ارهبهم ابوهم . فلم يكن بحق لاى منهم ان يعارض الاب سوى تسيليا ، تلك الحسناء الرشيقة ، ذات الصدر النافر والعينين العسليتين ، محبوبة والدها . اما بقية الابناء : الابنة الكبرى الحدباء

لايثا ، بل وحتى الابن يوينى ، فكان عليهم ان يذعنوا فى صمت لمشيئة الاب .

ولم يعد حاييم فولديتير الى وعيه الا قبيل العام الجديد بقليل . وعندما ميز بالكاد الفتاة النحيلة الصامتة الجالسة بجواره ، ادار راسه نحوها بصعوبة وطلب ماء .

وانحنت الفتاة على المريض وهى تتطلع بعينيها السوداوين كالفحم الى وجهه المعذب ، وعلى الفور قربت من فم حاييم بمهارة كوب ماء .

كانت الشمس قد اشرقت عندما جاءت العمة بيتيا . وقاست حرارة المريض ثم تنهدت بارتياح : الحمد لله القدير . . لقد مرت الازمة . لا بد من اخبار الحاخام بذلك فورا ، فليفرح اذ تلطف الله واطال فى عمر هذا الشاب . ولكنها اصطدمت عند الباب بالشماس العجوز وزميله الاعرج . وكان احدهما يحمل فى يديه ملاءة سوداء مطوية وهى التى يغطى بها الموتى ، والآخر يحمل شمعدانا وشموعا .

ومن فرط السعادة لم تستقبل الحكيمة «اخوان الدفن» بالتحية العادية ، بل صاحت بفرح والدموع تترقرق فى عينيها :

– خلاص ! خلاص ! اتسمعان ؟ !

فسالها الشماس مندهشا وقد امال راسه جانبا :

– ولم الفرحة هكذا ؟ انا نفسى كنت اعرف ان المسكين لن يعمر حتى الصباح . . . هيا . . ينبغى ان نسرع ! علينا قبل منتصف النهار ان نحمل الجسد الى المكان المقدس . . . الا ترين اين بلغت الشمس ؟ قريبا يحل العام الجديد . – واشار العجوز الى السماء .

وصاحت الحكيمة وقد فطنت الآن فقط الى الغرض من مجىء «اخوان الدفن» :

– هل جننتما ؟ ماذا تفعلان ! . . لقد مرت الازمة بسلام . . . هل تفهمان هذا ؟ المريض يتماثل للشفاء . . . سوف يعيش !

فقال الاعرج بخيبة امل وهو يمد يده بالشمعدان لاارادیا :

– لقد كنا نظن . . .

فانقضت عليه المراة وهى تهز قبضتيها وتواصل تقريعه :

— من الذى طلب منكما هذا ؟! يا للشطارة . . . تحفران القبر للانسان وهو بعد حى ؟ ! يا للفظاعة ! » .

واحس الشماس بالاهانة ، فقال ساخطا عندما خرج مع زميله الى الفناء :

— ما معنى ان تنقض علينا بقبضتيها ؟ كما لو كنا نريد موت الشاب ! وتصيح «يا للفظاعة !» . . يا سلام . . . وهل هى تعرف ان هناك طقوسا ؟ طبعا لا يهمها ذلك فى شىء ! حسنا ، لنفرض ان الشاب مع ذلك مات . ما العمل اذن ؟ هل هى فكرت ان العيد غدا ؟ وبعد غد سبت ؟ ايضا ممنوع الدفن ! . . فلتحاول اذن ان تجلس هذه الايام فى هذا الحر مع جسد يتعفن . . . هه . . تظن ان الشماس يصبر على كل شىء . . هذه العجوز الشمطاء ، عليها اللعنة ! كأنما ليس لدى واجبات أهم من ذلك ! ملأت الدنيا صياحا وكأنما اردنا ان نقتل الرجل . . .»

فقال زميله الاعرج مقاطعا هذه الشكوى :

— لا بأس ، لا بأس ، ليكن الامر كذلك ، او غير ذلك . . لكن اريد ان اسألك يا حضرة الشماس المحترم لماذا كان علينا ان نحفر القبر فى هذا الحر ، ونحفره عميقا ؟ الم اقل لك كفى ! ولكنك كنت تقول : لا ، لنحفر اكثر ! كل ذلك قليل . . .

— وماذا هناك ، ماذا ؟ لخشى انه سيبقى خاويا ؟

— هذا مفهوم ، نعم ، ومع ذلك كان ينبغى ان نردمه . . . الامر محرج . ثم ان النظام يفرض ذلك . . . اعتقد انى اعرف . . .

— ممكن طبعا ان نردمه ، — قال الشماس موافقا دون رغبة . — واذا لم نفعل فماذا ؟ آه ! هذه المصائب تهون لو لم تزدد . . سنحتاج الى القبر . . على اى حال . . .

عندما فتح حاييم عينيه كان الوقت فى الصباح الباكر . جدران خشبية مطلية بالجير حديثا ، وارضية ترابية مكنوسة بعناية ، ونافذة صغيرة تلوح منها سماء زرقاء ساطعة لم يبهت لونها بفعل الحر بعد . اين هو ؟ وعلى الفور تذكر السفينة «ترانسلفانيا» ،

والايام الاخيرة قبل الرحيل ، والاضطراب ووداع الاصدقاء . نعم ، لقد كان ذاهبا الى فلسطين . ثم مرض بعد ذلك فيما يبدو . . . نعم ، نعم مرض فانزلوه من السفينة . ولكن اين ؟ على العموم يبدو ان الحظ حالفه ، فقد تلقفه اناس طيبون واعتنوا به حتى شفى .

وطاف حاييم بعينيه على الحظيرة من جديد ، فرأى على المقعد بجوار رأسه كوبا مغطى بخرقة نظيفة ويبدو ان به ماء ، وادوية ما : اذن فقد كان هناك احد يعنى به . وهداه هذا الاحساس ، بل افرحه ، وتواردت افكاره باطمئنان وتؤدة . وخيل اليه ان كل ما هو فظيع قد اصبح وراء ظهره ، ولا ينتظره فى الامام سوى السعادة .

وطفت على سطح الذاكرة مدينة رومانية صغيرة خضراء ، مدينة طفولته : بولجراد . . . الشوارع الضيقة الهادئة والحدائق الغارقة فى الشمس ، ومبنى مدرسة البنين الثانوية الحجرى حيث درس حاييم واصدقاؤه . وعموما فلم يكن الجميع اصدقاء . كان ايليا توموف صديقا حقيقيا . . ايليوشكا الحبيب الذكى المخلص . ذات مرة كانا يقلبان فى غرفة السطح المهجورة فعثرا على رزم كتب وصحف ومنشورات مخبأة بعناية ، واتضح انها مطبوعات بلشفية ممنوعة نجت بأعجوبة منذ ايام الثورة فى بيسارابيا .

وراح حاييم يحضر معه الى الصف منشورا تارة ، وبيانا تارة اخرى ، وصحيفة تارة ثالثة . وكان التلاميذ يقرأونها بنهم ويتناقشون فيها بحرارة . وكان انشط الجميع زميلاه فى الصف ايليا توموف وفالتر آدامى . ولكن الشرطة حاصروا ذات ليلة حى السوق ، ووضعوا مدفعا رشاشا امام منزل فولديتير . واقتحم عملاء المباحث المنزل وفتشوه . واخذوا حاييم معهم والقوا به فى «قبو» الشرطة .

وانتشرت فى المدينة شائعات مذهلة . وظهر مفوضو الشرطة فى المدرسة الثانوية ، واخذ عملاء المباحث يجوبون دهاليزها .

واطلقوا سراح حاييم فولديتير بعد فترة . كان حليق الشعر تماما ، شاحبا وهزيلا كأنما تعرض لمرض شديد ، فاستقبله اصدقاؤه استقبال الابطال . فبرغم التعذيب الشديد لم يرشد المباحث الى احد ، ولكنه عرف اسم الواشى . كان ذلك احد التلاميذ ، ابن ثرى محلى يملك مطاحن ومعاصر زيوت ومخابز .

واصبح اسم الخائن امثولة على السنة التلاميذ . وظهرت على الجدران عبارات تدين يهوذا . وكان الحراس يمسحون العبارات المكتوبة بالطباشير فتظهر اخرى مكتوبة بالطلاء والقطران وصمغ الاشجار . واخيرا اضطر مدير المدرسة ان يطلب من اولياء امر الواشي ان ينقلوا ابنهم الى مدرسة فى مدينة اخرى . وكان الثرى قادرا على كل شىء اما حاييم فولديتير فقد اغلقت فى وجهه ابواب جميع مدارس البلاد الى الابد . وهكذا اصبح يعمل فى حانوت بيع الكيروسين التابع لعمه . نعم ، مر زمن طويل على ذلك . . . انقضت الطفولة ، واظهرت لهما الحياة جانبها القاسى . كان ذلك بالنسبة لحاييم ولايليا . لقد التقى بايليا منذ قريب ، فى كونستانسا ، قبيل سفره . وكان ايليا يتسلم فى الميناء سيارات شحن «شيفروليه» مرسلة من امريكا الى جراج «ليونيد وشركاه» الذى كان ايليا يعمل فيه .

وسأله توموف :

«سمعت انك مسافر ؟»

فاجاب حاييم متنهدا :

«نعم ، مسافر» .

«والى اين ، اذا لم يكن سرا ؟»

«الى اين ؟ لا ادرى ، – وهز كتفيه كعادته وقال بصوت حزين – يقولون انه هناك خلف البحار الزرقاء يجرى العسل انهارا ، وها انذا ذاهب لكى اتذوقه . ولكنى خائف ان شئت الصراحة ، اخشى يا اليوشا ان اجد ذلك العسل حنظلا . . . اى والله ! ولكن ماذا افعل اذا كان هتلر يبتلع البلد تلو البلد دون ان ينزل به عقاب ، وينوى كما يقال ان يصل الى هنا ؟ انت نفسك تدرك ان فى ذلك نهايتى !» – وشد حاييم الى اعلى بطريقة معبرة رباط عنقه الباهت الملفوف حول رقبته .

لزم توموف الصمت طويلا وهو يتطلع الى حاييم ، الى سترته الرمادية البالية المتهدلة على كتفيه النحيلتين وكانها موضوعة على مشجب ، والى شعره الصلب النافر كموجة نارية ، والى هيئته كلها البائسة المضحكة والمؤثرة معا . . واخذ يفكر . . . فيم كان ايليا

توموف يفكر ساعتها ؟ بالطبع كان يعز عليه ان يفارق صديقـا ، وبالطبع كان يشفق عليه ، على حاييم ، فقد كانت بينهما صداقة متينة وخطط كثيرة لم تتحقق .

وقال له توموف آنذاك :

«لا تتعجل الرحيل يا حاييم . سنجد لك هنا عملا ما ، انـك لست وحيدا !»

وحدثه توموف عن عمله فى بوخارست وعن اصدقائه ، واشار اشارة عابرة الى زكريا الييسكو ، الميكانيكـــى بجراج «ليونيـــد وشركاه» .

ومضى توموف يقول باصرار وهو يرى تردد صديقه :

«انصحك بالبقاء يا حاييم . سنرجو هذا الميكانيكى وانا واثق من انه سيساعدنا وسيجد عملا لا بأس به . وبعدها ستجـــد ان رجالنا من وراء نهر الدنيستر سيقولون كلمتهم القاطعة !»

وانتعش حاييم على الفور وسأله :

«تقصد طبعا السوفييت ؟»

فاجاب توموف وكان ذلك امر مسلم به :

«ومن غيرهم ؟ الوضع لا يمكن ان يستمر هكذا طويلا . انهم صامتون وصابرون حتى الآن ، ولكن صبرهم سينفد .»

فأمن حاييم على قوله :

«هذا صحيح يا اليوشا ، وربما كنت على حق ، – ومضى يقول كأنما يبرر تصرفه – اننى ساذج . ولكن خبرنى ماذا افعل ؟ ماذا لو جاء هتلر الى هنا حقا ؟ لو بقيت فى رومانيا فسوف أشنق او أعدم بالطبع ، او أعذب حتى الموت . وليس هناك فرق كبير كما تعلم ان كان هذا سيفعله النازيون ذوو القمصان البنية ام الفاشست ذوو القمصان الخضراء . اننى يهودى وفى هذا كل شىء . ليس لى هنـــا مكان . ولهذا فانا ذاهب يا اليوشا بحثا عن السعادة . اتفهم ؟ ورغم انى لا اعلق آمالا على الدولة اليهودية ذات الملايين العديدة كمـا يجعجع الصهاينة ، ولا اصدق ان هناك جنة على الارض ، ولكنـــى آمل ، آمل جدا ان ابقى على قيد الحياة فى هذا الزمن الرهيب الذى يزحف علينا . اريد فقط ان ابقى حيا – ، وقلب حاييم الصحيفة

المغضنة فى يديه بانفعال – ولا تنظر الى هكذا بتانيب واسى . ربما اكون شخصا ضعيفا ، لست مثلك . لست بطلا ، بل لست حتى مناضلا . احيانا يستولى على الفزع ، واتخيل بوضوح كيف يقبض على ذوو القمصان الخضراء . سوف يسحقوننى كما تسحق ذبابة ، وذلك حتى قبل ان اتمكن من الصراخ ، ناهيك عن فعل شىء مفيد . . . الى المانيا يتوجه «الفولكس دويتش» (الالمان) ، اما نحن «الفولكس يودن» (اليهود) فنرحل الى فلسطين . . .»

وحاول توموف ان يثنى صديقه عن هذه الرحلة الطويلة الخطرة ، ولكن حاييم اجابه بان الوقت قد فات ، اذ قد حصل على تأشيرة القنصل البريطانى بدخول فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى . وفجأة تلفت حواليه وسأل :

«اسمع يا اليوشا ، الا تعرف اين يمكن ان اشترى مسدسا هنا ؟»

ونظر توموف الى صديقه فى سخرية .

فمضى حاييم يقول :

«لم تنظر الى هكذا ؟ أتعتقد اننا لا نملك سلاحا ؟ اذن فانت مخطىء ! . . لقد ابتلع هتلر تشيكوسلوفاكيا وكان لدى التشيكوسلوفاكيين مصانع اسلحة ممتازة . والآن تتجول هذه الاسلحة فى اوربا كلها تقريبا . يقال ان التشيك هم الذين وزعوها حتى لا تقع فى ايدى النازيين . . حسنا ما فعلوه ! ولكن الدنيا فيها ايضا صهاينة ، وقد ابتلعوا الطعم بالطبع اى راحوا يشترون هذه الاسلحة . . اى والله ! لقد اشترينا مدفع رشاش جديدا من طراز «ZB» . اتدرى ما معنى «ZB» ؟ بسيطة جدا . . «Z» تعنى «زبروينو» (مصنع سلاح) و «B» تعنى مدينة برنو ! . . اما اذا عرفت اين اشترينا هذا المدفع يا اليوشا فستموت من الضحك . هل اقول لك ؟»

ولم يقل توموف شيئا بل اشاح مباعدا بين يديه .

فقال حاييم بزهو :

«حسنا ، ساخبرك . اشترينا المدفع هنا ، فى كونستانسا ، فى بيت دعارة هنا بجوار الميناء . . . اننى اسألك ما معنى هذا فى

رايك ؟ لو انك تصورت للحظة ان حاييم فولديتير من بيساراابيا قد اشترى من الومسات الرومانيات ليهود فلسطين وبنقود الصهاينة الامريكيين مدفعا رشاشا من انتاج مصنع تشيكى اصبح ملكا للالمان . . هه ؟ اليست هذه اضحوكة ؟»

فاجاب توموف شاردا :

«قد تكون اضحوكة ، ولكنها ليست مضحكة مع ذلك . .»

فتساءل حاييم :

«ليست مضحكة ؟ حسنا ، حسنا . . انها دامية يا اليوشا . . دامية اتسمع ؟ واصارحك اننى اشفق ان اريق دمى ، اذ ربما اصبحت له فائدة بعد ذلك . . هل تذكر المنشورات فى غرفة السطح ببيتنا ؟ ولهذا ينبغى ان اسافر اردت ذلك او لم ارد . . وداعا يا اليوشا ! . . اكتب لى : تل ابيب لشباك البريد . .»

وهكذا افترقا آنذاك فى كونستانسا . وعندما بلغ حاييم تقاطع الطريق التفت خلفه . . . كان ايليا توموف لا يزال واقفا فى مكانه يتطلع فى اثره . . طويلا ، قويا ، غير هياب . . ترى اين هو الآن ؟ ماذا حدث له ؟ وشعر حاييم بالصداع من هذه الافكار المقلقة ، واحس بالظمأ ومد يده ولكنه لم يستطع ان يبلغ الكوب . وغامت الدنيا فى عينيه من شدة ضعفه ، وتشبع الهواء بنور ازرق رنان . . وفى هذا السراب ظهرت فتاة . . قد يكون ذلك خيالا او ربما حقيقة .

حل المساء . وفى مبنى الهيكل الضيق الذى استوعب بالكاد جميع المؤمنين كان الجو خانقا لا يطاق ، وانتشرت رائحة العرق والشموع المحترقة . وكانت الشموع الموضوعة على حوامل عتيقة او المغروسة ببساطة ، فى علب من الصفيح مملوءة بالرمل ، هذه الشموع المختلفة الانواع والقيمة ، ابتداء بالشموع المصنوعة يدويا وانتهاء بتلك التحف التى تنتجها الشركات العالمية المشهورة . . كانت دليلا واضحا على القدرات المالية لاصحابها . ولكن بغض النظر عن ذلك كانت الشموع اما ترسل لهبا منتظما وساطعا ، واما تسيل شمعا مصهورا وتميل وتتقلص وتحترق . مثل البشر . . .

وكان الحاخام بن صهيون هاجرا يقف امام ستارة مخملية تحفظ خلفها التوراة المقدسة فى اغلفة من الحرير المطرز والقطيفة . وعلى كلا جانبى طاولته التى كان عليها كتاب الترانيم السميك ، ارتفعت شمعدانات فضية ضخمة . وكان فى كل واحد منها سبع شمعـــات مشتعلة فى صف واحد ، وذلك حسب تعاليم التلمود الذى اكد ان الله قد خلق العالم فى سبعة ايام .

وفى الصمت المهيب المطبق حسب النظام القديم «من يرفـــع صوته فهو لا يؤمن فى قوة الصلاة» راح بن صهيون هاجرا يرتـــل بتحفظ ولكن بعظمة كما يليق بالحاخام وبصوت منغـــم مختارات خاصة للعام الجديد من صلاة «اميدا» . وكان المصلون يرددون بين الحين والحين «آمين» . لقد حل عام جديد ، عام خمسة آلاف وستمائة وتسعة وتسعون . . .

وعلى مقربة من الحاخـــام وقف شماس الهيكل متسربـــلا «بالطالس» * من قمة رأسه ، وهو يتمايل على وقع الترتيل ويصلى باستغراق تام . وحسب وصايا الاجداد العلماء انهمك تماما فى الصلاة المقدسة وهو يرفع العبرات بوقار ويمجد الاله القدير الجبار العلى القدوس . . . وفجأة احس بانه يختنق وكأنما يضغط احد ما عـلى رقبته ، ودق قلبه بقوة ثم توقف . ورفع عن رأسه الطالس المصفر بفعل الزمن وملأ صدره فى حذر بالهواء المكتوم ، ولكن الالم الحاد تحت صفحة كتفه لم يتوقف . عندئذ شق طريقه الى الاريكة وتهالك عليها بتثاقل .

واتجه اليه زميله الاعرج وتطلع الى وجهه باستفهام فقـــال الشماس وهو يشير الى صفحة كتفه اليسرى :

— هنا شىء ما . . .

وفى هذه اللحظة دوى صوت «الشوفارة» ** المهيب فتزلزل الهيكل بأصوات المصلين . ولم يعر زميل الشماس الاعرج اهتماما بذلك ، وحمل العجوز من تحت مرفقه وجره الى بـــاب الخروج ، واجلسه على اريكة فى الفناء .

* ملاءة بيضاء بخطوط سوداء واهداب صوفية فى الاطراف .

** المزمار ، آلة موسيقية نحاسية قديمة .

وقال حفار القبور الاعرج وهو يومئ برأسه الى الهيكل :

– الجو خانق لحد الموت . . لا بد ان ذلك بسبب دخان الشموع المصنوعة منزليا . هل تشعر بالم ؟ ترى ما السبب ؟

فقال الشماس بصعوبة وهو يلهث :

– وما ادرانى ؟

– ما رأيك فى ان احضر لك قليلا من الماء ؟

– وما ادرانى ؟

وجاءه الاعرج بقدح ماء فشرب الشماس جرعة واخرى ، واعتدل جالسا وتنهد بعمق وقال :

– يبدو انى احسن قليلا . . . – وفجأة بدأ يميل على جنبه .

وتجمع الناس وراحوا يبحثون فى الحشد عن طبيب ، ولكن العمة بيتيا اقتربت منه وقالت انه ليس فى وسع احد ان يقدم معونة للميت . . .

وحملوا جسد الشماس الى غرفة ضيقة وخاوية تقريبا فى الفناء الخلفى للهيكل حيث كان يعيش كراهب معتزل ووضعوه على الارض وصلوا عليه صلاة قصيرة وغطوه بالرداء الاسود الذى كان قد لفه بعناية من اجل الشاب الوافد .

وتمدد الميت الليل وطوال النهار التالى ، اول ايام العام الجديد ، ثم طوال يوم السبت ، ولم يحملوا الشماس الى المقبرة الا فى النصف الثانى من نهار الاحد . . ووضع حفار القبور الاعرج شقفة فخارية على كل عين وشقفة ثالثة اكبر على فمه ، حسبما تتطلب الطقوس : ففى العالم الآخر يتطهر الانسان من الآثام الملتصقة به وهو على الارض . . من عينيه الجشعتين الحسودتين ، ومن فمه النهم البذىء .

وبعد ذلك فقط غطوا جسد الشماس بالالواح واودعوه ذلك القبر الذى حفره لغيره بجد واستعجال . . ولدهشة الحاضرين قرأ الحاخام بنفسه صلاة الوداع الاخير عند القبر الحديث . وكذلك قداس الميت اذ لم يكن عند الميت الاولاد . وفى طريق العودة راح الحاخام يقص على المحيطين به فى تأثر ذكرياته عن الشماس ويقول انه كان اكثر خدم الهيكل غيرة على الدين ، ويردد انه ، هو الحاخام

بن صهيون هاجرا ، كان يعامله دائما بسماحة وعدل . ومن يدرى هل كان الحاخام سيمتدح المتوفى بهذه الصورة لو علم بحلمه فى ان يشهد جنازة الحاخام ويتشفى فيه جزاء على كل ما تحمل الشماس من بن صهيون طوال سنوات خدمته فى الهيكل .

اما حفار القبور الاعرج ، الذى اصبح شماسا الآن بقرار من الحاخام ، فقال بحزن وهو يمط الكلمات :

– وهل هذه حياة ؟ لقد كان العجوز رجلا طيبا ، فليغفر الله له ذنوبه . . كان كادحا شريفا ، طيب الله ثراه . كان تقيا جدا . . عليه الف رحمة . . كم بذل من جهد فى حفر القبر ، اتسمع يـــا حاخام ؟ كم كان مهتما بان يكون القبر عميقا ، وما دار بباله انه هو الذى سيرقد فيه الى الابد ، المسكين ، عليه الف رحمـــة . حسنا ، اننى اسألك هل هذه حياة ؟ هه ؟ !

٢

قهر الشباب المرضَ ، وراح حاييم يتماثل للشفاء ، ويستعيد قواه ببطء . وافكاره عن ابيه واخته ، اللذين تركهما فى رومانيا وعن صديقه ايليا توموف الذى يضرب هائما فى شوارع بوخارست ، لم تعد تبدو له سوداء بلا امل . لقد صبغت فرحة العودة الى الحياة كل شىء بلون الامل الساطع غير المألوف لدى حاييم . واخذ ينتظر اياما افضل ويؤمل فى قواه وعناده ، ويحلم بان يستدعى اباه واخته بمجرد ان يستقر فى الوطن الجديد ، وبانهم جميعا سيحيون حياة رائعة . ولسبب ما كانت اويا تتسلل الى هذه الاحلام الوردية الهشة . وعندئذ كان حاييم يغمض عينيه فيرى ابتسامتها الرقيقـــة الخجلى ورموشها الطويلة المنتشرة كالمروحة على خديها الاسمرين . ومر شهر ، واصبح حاييم يسير بمفرده دون الاعتماد على اويًا . واكتسى رأسه الحليق بشعر احمر نارى غزير وصلب كالفرشاة .

وكان يقول مازحا :

– ما اعجب الاحوال . . كنت راحلا لتخشوشن يداى من العمل فاخشوشن جنباى من الرقاد . . الى متى اظل عالة على الآخرين ؟

وعادت اوينًا الى واجباتها المنزلية ، فمضت الايام طويلة مملة بالنسبة لحاييم . واخذ يفكر فى الرحيل كثيرا .

وكان يقول بينما عيناه الرماديتان تلمعان بمرح :

— انهم فى فلسطين لن ينتظروني . . ماذا لو انهم شيدوا هناك الجنة . . ما الذى يتبقى لى اذن ؟ !

وفى اسرة الحاخام لم يعودوا يخشون «المريض بالتيفوس» . واصبح بن صهيون ماجرا نفسه يدعوه الى بيته . ولم يكن اهتمامه بهذا الشاب المجهول القادم من بيسارابيا البعيدة عفويا . فلم يدر بذهن حاييم انه غزا قلب ابنة الحاخام النزقة المدللة ببساطته وبراءته وسرعة بديهته . لقد بدت تسيليا الضخمة الجسم والجميلة جذابة فى نظر حاييم ، ولكن اعجابها المستمر بنفسها واحتقارها للمحيطين بها ورغبتها فى اصدار الاوامر لهم والسيطرة عليهم ، واخيرا اعتدادها المبالغ فيه بالنفس . . كل ذلك كان ينفره منها ويستثيره .

وذات مساء ممطر اقترح الحاخام على حاييم ان ينتقل من الحظيرة الى البيت .

فشكره حاييم وقال متهربا :

— آمل اننى لن ازعجكم طويلا . . الى متى اثقل عليكم واستغل صبركم ؟ !

— دعك من هذا ! لقد ألفك اولادى جدا . ستتخلى لك تسيليا عن ركنها ، بجوار الصوان . . . فقلبها رقيق جدا .

واسرعت تسيليا تقول وهى تتضرج :

— يمكن ان نضع هناك سريرا !

وشكرهم حاييم مرة ثانية واعتذر من جديد . كان يشعر بالحرية اكثر فى الجناح-الحظيرة ، ولكن لم تكن الحرية وحدها هى التى حببت اليه الجناح ، بل زيارات اوينًا له هناك . لقد الفته ، وفى لحظات راحتها القصيرة كانت تحدق بتوتر فى عينيه الرماديتين الذكيتين برموشهما الشهباء . واذا حدث ان ادار وجهه استحياء ، كانت اوينًا تغضب ، وتمسك راسه بيديها الصغيرتين وتدير وجهه نحوها . كانت تريد ان تعرف هل هو مخلص لها ، وهل سيبقى

هنا دائما ام سيقلع فى البحر المترامى المخيف ، الذى سلبها يوما ما اباها وامها .

وذات مرة اثناء العشاء ارادت اسرة الحاخام ان تسمع حكايات من حاييم . كان افرادها يتهامسون : «انه درس فى الثانوى ! ويتحدث بالفرنسية والرومانية ، بل وحتى بالروسية ! ويروى الحكايات فلا تمل السماع» . وبالفعل كان حاييم راويا لا تنفد جعبته من شتى القصص عن الحوادث والحكايات المضحكة . واستجاب عن طيب خاطر لرغبة بنات الحاخام وراح يروى بحزن ودعابة ذكريات عن طفولته . وبالطبع كان ذلك فى غيبة الحاخام .

وقال حاييم :

— كان ابى يرغب فى ان ادرس فى مدرسة التلمود ، ولكنى لم ارغب ! كنت اهوى الركض فى الشوارع . . . ولكن اذا كان احد يرغب فى شىء والآخر يرغب فى شىء آخر ، فلن ينتج عن ذلك فى النهاية اى شىء مفيد . . . وهذا ما كان . . كانت المرحومة امى تاخذنى الى المدرسة وتقول : «اذهب يا بنى واطع المعلم أتسمعنى ؟» فاقول لها «نعم ، طبعا» . وتنصرف امى المسكينة وهى تظن ان ولدها حاييم جالس الآن فى الصف ، اما انا فكنت اعود الى بوابة المدرسة واختبئ منتظرا حتى تنعطف امى عند ناحية الشارع ، وعندئذ انطلق هاربا بكل ما لدى من قوة . . .

وتنهال اسئلة بنات الحاخام :

— ولماذا ؟

— كيف ، لا تدخل المدرسة ؟ !

— والى اين اذن ؟

فيستطرد حاييم بمرح :

— الى اين ؟ اوه . . كان لدينا هناك ما نذهب اليه . . انها مدينة ممتازة لوكس ! اولا كان عندنا بحيرة ، اى بوسعنا ان نستحم . وثانيا كان يمكن ان نتفرج على الصيادين ، وعلى الزوارق ، ويمكننا ان نتريض فى الحديقة الاميرية ونتقلب على العشب . . وهو هناك طويل يصل الى الخصر . . وعموما ما اكثر ما يمكن عمله . . . انا مثلا كنت اهوى التسكع فى سوق الخيل . يا لها من متعة ! الخيول

من جميع الانواع والاسماء . . خيول الجر والامهر الصغيرة . تقف هناك وتتفرج على المشترين وهم يفحصونها ، والخيول ترفس . . . وكنت احب ان اتفرج عندما يتأملون اوجه الخيل ويتفقدون اسنانها . . . فهكذا يحددون عمر الحصان ! اما اذا حدث حريق او جنازة فى المدينة لا قدّر الله ، فانا اول الحاضرين ! وبالطبع لم اكن اذهب الى المدرسة . . .

وسألت ابنة الحاخام الكبرى بدهشة :

– وكيف كان الحال فى البيت ؟ الم يكن والداك يزجرانك ؟

– فى البيت ؟ لم يكن احد فى البيت يدرى شيئا . . فعندما يعود التلاميذ من المدرسة كنت اعود الى البيت . . . وفى المساء اتظاهر باننى احضر الدروس بينما ارسم منازل محترقة وخيولا ترفس . . . وعندما يعود ابى من العمل اكون قد نمت . اما والدتى فتقول باعجاب وهى سعيدة بتحضيرى للدروس : «ولدى سيصبح دكتورا ! يا حاييم ستكون دكتورا اليس كذلك ؟» فكنت اجيبها : «نعم» ولا اذهب الى المدرسة . . .

وتقهقه الفتيات بصوت رنان . اما يوينى فيهز رأسه متحسرا . وتتطلع تسيليا الى نفسها فى المرآة وتبتسم بتحفظ وهى تعجب بجمالها .

واستطرد حاييم :

– واستمر الحال كذلك حتى يوم سبت مشهود . ذهب والدى فى الصباح الى الهيكل . وهناك قابل معلمى اسحق الذى كنا نسميه ببساطة اتسك . كان مرا كالحنظل . وعموما فبسببه كنت لا احب الذهاب الى المدرسة . كنت اخافه . كان لا يفلت المسطرة من يديه اثناء الدرس ، وما ان يتحرك احد ما قليلا فى مجلسه حتى ينهال اتسك بالمسطرة على رأسه . وسأل المعلم ابى : «ماذا حدث ؟ هل ابنكم مرض لا قدر الله ؟» فاجاب ابى : «كلا ، انه بخير والحمد لله . . ولماذا تسأل هكذا ؟» فقال المعلم بغضب : «انت تسألنى لماذا اسأل هكذا ؟ انا اسأل هكذا لان ابنكم لم يحضر الى المدرسة منذ ثلاثة اسابيع !»

ومضى حاييم يروى بحماس وقد شجعه ضحـــك الفتيـــات الجماعى :
- كان لدى ابى حزام . . من الجلد ! ويا له من حزام ويا له من ابزيم نحاسى كان فيه . . فى ذلك اليوم احسست بهما جيدا فى جميع الاجزاء الطرية من جسمى . . .
فقال يوينى بدهشة :
- ياه ! ياه ! ايسمح ابوك بذلك يوم السبت ؟ ياه ، ياه . . كيف يمكن ان يضرب طفل يوم السبت ؟ ! اوه . . يوم السبت ؟
- لان اليوم كان السبت لذلـــك بقـــى ابى فى البيـــت وضربنى علقة حتى اننى ظللت اسبوعـــا لا استطيـــع ان امشى باتزان . . . ومنذ ذلك اليوم كان يصاحبنى بنفسه الىالمدرسة حتى باب الصف . وتصوروا اننى كنت اجلس فى الفصل . ولكن كيف كنت اجلس ، اه لو تعلمون ؟ ! لم يكن هناك عذاب اشد من هذا . كان فصلنا صغيرا وعلى كل مقعد يجلس ثلاثة او اربعة تلاميذ ، بينما كان ينبغى ان يجلس اثنان . . فكيف لا تشعر بالزحام ؟ وكان هذا التلميذ او ذاك يسقط بقعة حبر على دفتر زميله ، وجـــاره يلوثها بكوعه فيدوى صياح ممطوط : «يا حضرة المعلم . . انـــه دفعنى !» . وهذا بالضبط ما ينتظره اتسك . فينهال بالمسطـــرة حتى تظل تحلم شهرا بانها معلقة فوق رأسك ! اما المقاعد فكانت لا تصلح الا كوقود . . . كانت دائما تصدر صريرا ، تتمايل ثـــم تتكسر فنسقط نحن ونصاب بالرضوض فنصرخ ونعول . وماذا تظنون النتيجة ؟ ضربات من مسطرة المعلم اتسك . . وهل كان ذلك ذنبنا ؟ ولكن لا تظنوا انه كان يضرب الجميع ! لا . . لم يكن يمس اولاد الاغنياء . . اوه يا له من معلم ! كان يشعر بمتعة خاصة وهـــو يسحبنا من آذاننا . كان يأتى من الخلف ويقبض على الاذن ويجبرك على النهوض . وتقف بطول قامتك ، بل تشب على اطراف قدميك وهو لا يزال يشد الى اعلى ، الى اعلى حتى يكاد يصل الى السقف . ويخيل اليك ان جلدك سينسلخ الآن عن رأسك ، بينما هذا الجزار لا يزال يشد . . .

وتململت الفتيات خوفا وهن يصغين الى حاييم بافواه مفغورة .

وجاءت الحكيمة . وكان حاييم يروى قصة مضحكة وقعت له فضحكت الفتيات من قلوبهن .

وقالت العمة بيتيا وهى تتطلع الى حاييم باعجاب :

– ممثل حقيقى !

وفجأة قالت تسيليا :

– انظروا ، الآن ستظهر الخرساء عند النافذة ! ما ان نجتمع حتى تحشر نفسها .

ونظر الجميع لاإراديا الى النافذة المفتوحة . وبالفعل ظهرت اويّا فى فجوة النافذة المظلمة .

فهتفت تسيليا بانتصار :

– انظروا ، الم اقل لكم ؟

وضحك الجميع . وغضت أويّا بصرها بخجل ، وخفضت رأسها ، ولكنها لم تبتعد عن النافذة .

وشعر حاييم بالدماء تندفع الى وجهه وكأنما تلقى صفعة . وضبط نفسه حتى لا يقول عبارة حادة ، واقترب من النافذة فى صمت وابتسم لاويّا ، وتناول يدها بلطف .

وانقطع الضحك فورا . وظهرت على وجه تسيليا بقع حمراء ، ولمعت عيناها ببريق غاضب . واقتربت الحكيمة من اويا ومسدت رأسها . وعندما خرج حاييم الى الفناء دون ان يتفوه بكلمة واخذ الفتاة بعيدا عن النافذة ، قالت العمة بيتيا :

– لا داعى للضحك على مصائب الناس . . الله يرى كل شىء . انها هى ايضا انسان . . .

وتظاهر الحاخام بانه لم يلق بالا لتصرف حاييم ، ثم قال :

– اى حب ؟ حب هذه الشحاذة ؟ لقد كانت ترعاه وتغسل له ملابسه ، ولهذا احس نحوها بالشفقة . . حسنا وماذا فى ذلك ؟

كان بن صهيون هاجرا يقول شيئا ويفكر ويقوم بعمل شىء آخر اذا كان ذلك فى مصالحه .

وفى اليوم التالى استدعى الحكيمة لزيارة الهيكل . وبدأ يتحدث فى الموضوع ولكن من بعيد :

– انت يا عمة بيتيا ساعدت المرحومة زوجتى عند ولادة

تسيليا ، ثم اشرفت على علاجها من الحمى القرمزية ، اللهم لا تنزل بدارى شرا كهذا . . .

وهزت الحكيمة رأسها فى صمت وتنهدت بعمق . لقد تاثـرت بهذه الكلمات .

– اننى اعرف انك تحبين تسيليا ، ولذا ارجوك ان تجدى لها عريسا مناسبا . . .

فقالت العجوز بدهشة :

– هل تظن يا حاخام اننى استطيع ان اكون خاطبة ؟

فرد بن صهيون بنبرة لا تقل دهشة :

– ولم لا ؟ اليس هذا مما يشرفك ؟

– لا اقصد ذلك يا حاخام . . ولكنك تعنى بالطبع حاييم ؟

– طبعا !

– حسنا يا حاخام ، اذا كنت تعتقد ذلك . . . يمكن بالطبع ان احاول .

وقبيل الغروب فى يوم الجمعة جاءت لايا ابنة بن صهيـون الكبرى الى العمة بيتيا ، وقالت :

– جئت ادعوك الى الغداء عندنا غدا .

فسألت الحكيمة :

– وماذا حدث ؟

– تسألينني ماذا حدث ؟ وهل اعرف ؟ هكذا . . . لا شيء . سمعت ان حاييم سيرحل قريبا . . . الافضل ان تسألى ماذا حـدث عندنا اليوم ؟

– ماذا هناك ؟

– كل ما فى الامر ان تسيليا قضت طول النهار فى المطبخ . . . تصورى اذن ماذا جرى هناك ! ارتفع الصراخ والضجيج ، حدث هياج شديد لدرجة اننى لا ادرى كيف لم اجن حتى الآن !

فتساءلت الحكيمة باصرار :

– لكن ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟

– ماذا حدث ؟ . . لقد قررت تسيليا ، فليهبها الله الصحة ، ان تعد سمكا محشوا . . بنفسها ، بدون مساعدتى . . – وهتفـت

وهى ترفع يديها الى اعلى – كأنما انشقت السماء ! آه لو رايت يا عمة بيتيا ماذا كان يجرى ! كانت امعاء السمك وخياشيمه مبعثرة فى كل مكان ، وتطايرت القشور والدماء ، وتساقطت قطع السمك على الارض وقرقعت الاوانى ورنت المقالى واحترق البصل ، وتناثر الفلفل الاسود واصاب انوف الجميع ، فرحنا كلنا نعطس حتى طفـــرت دموعنا . . . اما هذه الخرساء فكانت تقفز هنا وهناك ، صدقينى ، اسرع من العنزة الجبلية بمليون مرة ! وكيف تظنين كانت النتيجة ؟ – وضحكت لايًا وهى لا تخفى سرورها – لقد جرحت تسيليا اصبعها . . اوه يا للمرح ! طنينه ما زال فى اذنىّ حتى الآن ! وباختصـــار كانت تسيليا فى المطبخ !

واصغت الحكيمة بانتباه وهى تتظاهر بالدهشة والاستنكار لكل ما حدث ، ثم سالت بنفس التظاهر الساذج :

– ومن ذا الذى ارادت ان ترضيه بطهيها ؟ اهو حاييم يـــا ترى ؟

– عم تسالينني ؟ ! وهل اعرف ؟ لقد سمعت انه ينـــوى الرحيل . . . اما اذا لم يكن كذلك فارجو ان اكون مخطئة اذ يبدو لى ان هناك شيئا ما بينه وبين الخرساء . . .

ورسمت الحكيمة على وجهها مزيدا من الدهشة ولكنها لزمـــت الصمت .

فمضت لايًا تقول :

– هكذا ! هى خرساء وهو مريض بالتيفوس ومع ذلك فهذا ما يحدث ! . . ولكن يبدو سيأخذون الفتاة من عندنا هذه الليلة . هكذا سمعت . ولكن فليبق هذا سرا بيننا يا عمة بيتيا ، اتسمعين ؟

ونظرت الحكيمة من فوق عويناتها نظرة تانيب الى لايًا وقالت :

– ماذا ؟ اتظنين اننى سأجرى لابلغهم ؟ وماذا اقول لهم ؟ !

ومضت ابنة الحاخام تقول :

– يبدو انهم سيعطونها لستيفانوس . . . لا احد غيره ولكنهم لم يقولوا لى . اننى قبيحة ، لست ذكية ، ويعتبروننى عدوتهـــم دائما ! ومكانى هو المطبخ . . . ما العمل اذا كان حظى تعيسا ؟ ! لا بد ان هذا نصيبى .كم اشفق على الفتاة ، الا تصدقين ؟ جدا !

سيكون وضعي اسوأ ، كل العمل فى المنزل والفناء سيلقونه على رأسي . . . انت تعرفين يا عمة بيتيا اية مساعدة يمكن ان انتظرها من تسيليا . . . حسنا ، حسنا . . . لا تسألى عما ينتظرنى من سعادة !

وهزت الحكيمة رأسها بحزن وهى تصغى الى لايئًا . وقالت فى نفسها : «يا له من حاخام ! سيلف حباله على الشاب المسكين حتى ينسى اهله ! والادهى انه ربما القى على كاهله بابنته تسيليا بدون اية بائنة . . هذه الحمقاء . . استغفرك يا رب !» .

وقطعت ابنة الحاخام على الحكيمة حبل افكارها :

— لكن ارجوك يا عمة بيتيا الا يبلغهم ذلك ، لا قدر الله — وتضرعت اليها قائلة — والا أكلونى حية . . . تعالى للغداء من كل بد ، اتسمعين ؟ سوف ننتظرك ! ضرورى .

لم يكن بن صهيون هاجرا حاخاما فحسب ، بل ورئيس بنك «الزمالة» المحلى . وكان من سلطته تقديم القروض وتأجيل السداد . وكانوا يحتكمون اليه فى قضايا النزاع حول عقد الصفقات التجارية وتنفيذها . وله الكلمة الفاصلة فى امور الزواج والطلاق .

كان شخصا ذكيا ومثقفا . وقد ولد فى غاليسيا وطاف بكثير من دول اوربا ، ودرس فى اثينا . وكان يجيـــد لا لغة «اليديش» والعبرية القديمة فحسب ، بل وكذلك اليونانية والانجليزيـــة والبولوندية ، ويستطيع ان يتفاهم بالالمانية والعربية .

وكان مديد القامة ، ضيق الصدر ، طويل الذراعين ، كبير الرأس ، متين العنق . وكان شعره الغزير ، ولحيته البيضاء الكثة ، ونظرته الثاقبة المطلة عن عينين عسليتين كبيرتين ، تجعله اشبه بنبى من انبياء التوراة .

وكان الحاخام بن صهيون هاجرا يسير فى ليماسول على نمط حياة مستقيمة ، بيد ان الاشخاص الذين كانوا يعرفونه عن قرب كانوا يتهامسون بان رقيب الشرطة المتقاعد ستيفانوس يدير بيت دعارة باموال الحاخام .

وكان بن صهيون هاجرا محبا للتسلط ، ولا يطيق المعارضة ، ولكنه كان يصغى لآراء ذوى الحكمة ، وخاصة اذا كانت آراؤهم تتفق ومصلحته . ولم يكن يتورع عن اية وسائل للدفاع عن مصالحه ، وان كان يبدو من الخارج دائما طيبا ومسالما . وقد يخيل للشخص غير المحنك احيانا انه ليّن الجانب وودع ، وذلك لانه كان يفضل ان يزيح الاشخاص الذين يحاولون الاضرار به او ببساطة يعرقلونه من طريقه بحذر ودون ضجة .

اما الرقيب المتقاعد ستيفانوس الذى كان يعمل شريكا له ويعرفه عن قرب فلم يكن يدعوه الا «الافعى هاجرا» ويقول عنه : «انه يزحف دون صوت ، فيلدغك ، وانتهينا !» . وعندما قرر ستيفانوس ذات مرة ان يتزوج بأرملة شابة من فماجوستا احس بن صهيون بان فى الامر شيئا . فقد بدت له المرأة ذات شخصية قوية وذكية . فكيف ستنظر امراة كهذه الى علاقات زوجها «بشريكه» ! ؟ وعلى الفور ازال هاجرا هذا الخطر . فقد اطلق عن طريق اشخاص مؤتمنين لديه شائعات تسيئ الى سمعة هذه الارملة الشابة ، وسرعان ما اضطرت الى مغادرة الجزيرة مجللة بالعار . . .

كان الحاخام هاجرا حريصا على ستيفانوس ، لا بسبب الدخل الذى كان يعود على الحاخام من الحانة اساسا ، حسبما كان البعض يظن بل لامكانية اقامة اتصال عن طريقه بعالم المهربين . . .

فبالاضافة الى مناصبه الرسمية كان بن صهيون هاجرا شخصية غير مشهورة ولكنها واسعة النفوذ فى «اكسيونس كوميتى» («لجنة العمل») المقر الرئيسى «للمركز القومى» الصهيونى القيادى . وكانت هذه المنظمة الغنية التى كانت ، بالاضافة الى دخولها المباشرة ، تحصل على الاعانات من كثير من رجال البنوك والحوانيت والمصانع والحرفيين اليهود فى كل انحاء العالم ، تعمل على اقامة قاعدة اقتصادية وعسكرية قوية، تنشأ عليها الدولة اليهودية الموحدة مع مواصلة توسيع مجالها الحيوى للمهاجرين من ابناء العقيدة المقيمين فى الدياسبورا * .

---

* الشتات – اى اليهود المقيمين خارج فلسطين .

كان بن صهيون يعمل غير باخل بقواه ، رغم انه كان يحرص على صحته وقد بلغ الرابعة والخمسين . ففى الصباح والمساء كان يصرف شئون العبادة فى الهيكل بمثابرة ، واثناء النهار يقوم بوظائف الحَكَم والراعى الروحى والقاضى والحكيم . واذا حدث ولم يتمكن خلال النهار من انجاز الاعمال التى استقر من اجلها فى هذه الجزيرة ، كان يسهر عليها ليلا . وكان يجرى المباحثات ويعقد الصفقات التى كانت تفوق من حيث ابعادها ولاشرعيتها اعمال الاحتيال التى كان يقوم بها اكبر رجال الاعمال الدنيويين وامهرهم . . . وكان حذرا وبعيد النظر فى شئون العمل ، وبالطبع لم يكن صدفة ان يتخذ من الفتاة اليونانية الصماء البكماء خادما فى بيته . فلو انها رأت شيئا او شكت فى امر فلن يكون بوسعها ان تتحدث عنه . ولكن ها هى فجأة تصبح عقبة .

وقال الحاخام فى نفسه : «ما اسوأ امورك يا بنيتى تسيليا عندما تصبح منافستك هذه الفتاة التعيسة !» ووعد ابنته ان يزيل هذه العقبة «التافهة» — على حد تعبيره — من طريقها .

ولكن الظروف حالت بينه وبين الانصراف الى ذلك .

— لقد حلت ايام ساخنة . . . — قال وهو يفتتح اجتماعا لمجموعة ضيقة من الاشخاص الذين وفدوا الى داره بمناسبة وصول مبعوث خاص من القيادة العليا لـ«اكسيونس كوميتى» الى قبرص . وبعد ان عرف المبشرين الصهاينة الوافدين على قبرص بهذا الشخص الذى كان يرتدى قميصا من التيل الحائل اللون بكتافيات صغيرة وجيوب صدرية محشوة ترك له بن صهيون هاجرا كرسى الرئيس عند الطاولة .

كان المبعوث رجلا معروقا ، اسمر ، يرتدى نظارة كبيرة الاطار ، بشعر مجعد خفيف وصلعة تلوح فى وسطه . وقد بدأ كلامه بالحديث عن الحياة السعيدة والعمل الشاق للمستعمرين فى الوطن ، فى ارض اسرائيل . واكد بصفة خاصة على اهمية النشاط المتسع باستمرار لـ«كيرين هايسود» * فى شراء اراضى جديدة وبناء عدة

---

* اتحاد صهيونى لشراء قطع الارض من العرب .

مستعمرات . وتحدث بحماسة خاصة عن نجاحات الصهاينة الكبيرة فى النضال اليومى ضد البريطانيين الذين يعرقلون هجرة الاخوان فى العقيدة ، وضد العرب الذين يقاومون اليهود فى توسيعهم للمجـال الحيوى . ولكن مبعوث المركز الصهيونى اعار اهتمامـه الرئيسى لتحليل الوضع الدولى والمهام التى يطرحها هذا الوضـع امـام «البيتاريين» * .

وقال المبعوث وهو يصاحب كلماته بحركات واسعة مـن يديه :

– بريطانيا منهمكة فى الحرب مع المانيا ، وهى تبذل محاولات يائسة لكى تبعد عنها الضربة التى يجهزها لها هتلر . وبالطبع ستجد مخرجا ، اليست هى بريطانيا ! لكنها الآن فى وضع صعب للغاية . وهى مهددة بخطر آخر . من جانب ايطاليا هذه المرة . فموسولينى ، كما تعلمون اعلن البحر الابيض المتوسط «بحرا لايطاليا» . وهو يسعى فى المقام الاول الى تامين سلامة الملاحة لسفنـه لاستنزاف ثروات الحبشة . . وهنا ستبدأ لعبة «القط والفأر» . فالبريطانيون عازمون على فك الحصار عن ايطاليا ، هذا الحصار الذى ضربوه اثناء غزوها للحبشة . وتصوروا انهم يجرون مباحثات مع ايطاليا لعقـد اتفاقية تجارية ! . . وباختصار يريدون استمالة موسولينى . اما الدوتشى فيعرف قيمة موقف بريطانيا الودى نحوه . ولكنهم فى لندن يعرفون ايضا ان ايطاليا هى عدوهم القادم ، وان محاولتها لتحويل البحر الابيض المتوسط الى «بحر مغلق» هى تهديـد خطير لمصر وقناة السويس .

– هذا امر سيئ . . . – قال بصوت ممطوط احد الاشخاص الموثوق بهم فى «اكسيونس كوميتى» ، وهو رجل لاذع اللسـان ، عجول ، يعمل محاميا . وكان طرف كم سترته القديمة الخـاوى مدسوسا فى جيبه .

ولم يرد المبعوث بل ضحك ضحكة قصيرة ساخرة ، موحيا بان

---

* جناح يمينى متطرف فى الحركة الصهيونية يستهدف تحرير «ارض الاجداد» بالكفاح المسلح .

هذه الاجابة سابقة لاوانها ، وراح يشرح على الفور كيف يمكن فى ظل الخط الذى وضعه «المركز» الصهيونى استخلاص منفعة كبيرة من الوضع الدولى الراهن .

ودوى صوت المبعوث :

– تكتسب فلسطين اهمية استراتيجية كبيرة فى هذه البقعة من العالم بفضل موقعها الجغرافى . ويخشى البريطانيـــون من ان موسولينى قد يجد ذريعة للحرب فى اقرب وقت . وتشجع قيـــادة «اكسيونس كوميتى» هذه المخاوف بكل الطرق . وقد تتساءلون : ولماذا ؟ الاجابة بسيطة جدا : هذا مفيد لنا . فالهجوم الايطالى ، كما يتوقعون فى لندن ، ينبغى ان يحدث عبر ليبيا على الارجح . عندئذ تصبح فلسطين القاعدة الحربية الرئيسية الضرورية لانجلترا . فعن طريق فلسطين بالذات سيتمكن البريطانيون من تقديم العون لقواتهم فى مصر . . . – وسوى المبعوث عويناته التى سقطت على انفه ، وشرب جرعة ماء من الكوب ومضى يقول : – ان لندن تعير اهميـة كبيرة قصوى لفلسطين لانها تمثل ايضا تغطية اقليمية لمصر من الشمال . . وليس ثمة ضرورة للحديث عن مدى اهمية مصر وخاصة قناة السويس ، بالنسبة للامبراطورية البريطانية . . . وبالاضافة الى ذلك فعبر اراضى فلسطين يمتد خط انابيب بترول كما تعلمون ، وخلاله يجرى نقل البترول العراقى . وبدونه سيذوق الاسطـــول البريطانى الامرّين فى هذه المنطقة من العالم !

ومن جديد تدخل المحامى وهو يسوى كمه الخاوى :

– ومع ذلك فليعذرنى السادة المحترمون ، اذا كنت لا ارى حتى الآن ما هو الشىء الذى يمكن ان نستخلص منه الفائدة . واذا لم اكن مخطئا فقـــد قال مبعوثنـــا المحتـــرم «وفائـــدة كبيرة» ؟ فبأى طريقة يمكن ان نستخلصها ؟ وفيم تتجلى هـــذه الفائدة ؟ عفوا ، اننى لا افهم ذلك .

تطلع الحاضرون الى زميلهم فى صمت ، وراحوا ينتظرون بفضول رد مبعوث «المركز القومى» . الا ان المبعوث تمهل ، واستغل فترة الصمت ومضى يمسح بعناية وجهه وعنقه المبللين بالعرق بمنديل كثر استعماله .

2—690

ونكس بن صهيون رأسه وهو يحاول ان يكتم ابتسامة لاارادية . شعر بالسرور من هذا السؤال ، اذ كان يعرف ان المحامى يحسن وضع الاسس المنطقية لآرائه ومن الصعب للغاية ان تعارض وجهة نظره . وقد تسنى لبن صهيون هاجرا ان يتأكد من ذلك غير مرة . فمنذ بضع سنوات ثار بينهما جدال حول بعض الصيغ التى تم التوصل اليها خلال لقاء زعيم الصهاينة فلاديمير جابوتينسكى مع زعيم ذوى القمصان السوداء الايطاليين بنيتو موسولينى . كان الدوتشى قد بدأ يهتم آنذاك بالشرق الاوسط ، ويضع الخطط لبسط نفوذه على فلسطين ايضا . واعرب جابوتينسكى عن دعمه الكامل للدوتشى بعد ان حصل على موافقة مسبقة منه بتلبية بعض مطالب «اكسيونس كوميتى» . وكان من بين تلك المطالب ارسال ثلاثين متطوعا يهوديا مختارين بشكل خاص الى ايطاليا لدراسة الملاحة البحرية . وسرعان ما بدأ مدربو موسولينى تدريب هؤلاء الشبان فى مدينة تشفيتافيكيا . وكان على هؤلاء المتطوعين – حسب خطة «اكسيونس كوميتى» – ان يقوموا بعد انتهاء تدريبهم بشراء سفينة لتهريب المهاجرين الجدد الى «ارض الميعاد» ونقل بعض الشحنات الممنوعة .

وكان المحامى منذ البداية يعارض هذا التدبير المغامر وقال :

– اذا كان الحصول على سفينة لا يمثل صعوبة ما ، فان استخدامها للغرض الموضوع سوف يصطدم حتما بعقبات وقيود خطيرة . وفى النهاية سنضيع الوقت دون ان نحقق الهدف المنشود .

ولكن بن صهيون هاجرا ادان موقف المحامى . وعندما وصف الاخير فى غمرة انفعاله هذا المشروع بانه مغامرة ، اتهمه الحاخام بالتخاذل والجبن ، فاضطر المحامى للتراجع . والاكثر من ذلك انه ، لكى يتجنب العواقب المحتملة للنزاع مع بن صهيون هاجرا ، توجه بنفسه مع المتطوعين الى تشفيتافيكيا . وهناك وقع له حادث ، فقد شب حريق فى السفينة ، فتصرف المحامى بفدائية وانقذ تسعة وعشرين متطوعا وكثيرا من المدربين الايطاليين من موت محقق ، ولكنه فقد ذراعه واصيب بارتجاج فى المخ . ومع ذلك فقد تحقق تنبؤ المحامى بعدم جدوى هذا التدبير كله .

وبعد الشفاء كلف المحامى الاكتع بعمل ذى طبيعة جعلته على اتصال اوثق ببن صهيون . ورغم خلافهما السابق فقد عملا معا بصورة لا بأس بها وابديا سعة حيلة غير عادية فى تنفيذ شتى الألاعيب التى كانت تمليها «اكسيونس كوميتى» . وربما كان الاختلاف فيما بينهما يتجلى فقط فى ان بن صهيون هاجرا كان يتلقى وينفذ دون ادنى اعتراض التعليمات «العليا» ، مؤكدا ان الغاية تبرر الوسيلة ايا كانت ، بينما كان زميله يجد فى هذه التعليمات دائما ثغرات ما وعدم دقة فى الصياغة ويتشكك فى جدوى تنفيذ القرارات التى تبدو له دنيئة .

وكان بن صهيون هاجرا يكن بعض الكراهية للمحامى الاكتع ، ولكنه كان مضطرا لان يحسب له حسابه ، فقد كان «المركز القومى» يقدره تقديرا عاليا لقدرته الفائقة على العمل وعلاقاته الواسعة . وعندما ابدى المحامى ملاحظته تلك للمبعوث ابتسم الحاخام بتشف ، فقد كان يعرف مسبقا بم سيرد مبعوث «المركز» ، اذ كان بن صهيون يعرف حقائق الامور افضل من اى واحد من الحاضرين ، وكان ملما اكثر من الآخرين «بدقائق» السياسة التى تنتهجها «اكسيونس كوميتى» . فهو بالذات الذى يرأس قاعدة الانتقال فى قبرص التى كانت تمارس فى الاساس شراء الاسلحة سرا وتقوم فى بعض المناسبات بتهريب المهاجرين الى «ارض الميعاد» . . .

واجاب المبعوث مخاطبا المحامى بنبرة الضجر :

— انت لم تخطئ . لقد قلت هكذا بالضبط ! ان الوضع الدولى يبدو للوهلة الاولى صعبا للغاية ، بل وخطيرا . ومع ذلك فنحن عازمون بقوة على استخلاص فائدة ضخمة منه ! بل ومن الضخامة بحيث انها ستصبح خطوة حاسمة نحو تحقيق برنامجنا ! . . — وراح المبعوث يعدد المزيد والمزيد من العوامل التى لن تمكن الانجليز ، فى رأيه ، من ترك فلسطين لعبث الاقدار .

وقال المبعوث بفخر :

— ان هذه الاراضى الواقعة تحت الانتداب البريطانى تلعب بالنسبة لبريطانيا دورا هاما للغاية ! كم تساوى حيفا وحدها ! فليس لدى البريطانيين هنا مجرد مرفأ ، بل قاعدة بحرية حربية ،

افلا يعنى ذلك شيئا ؟ وماذا عن الطريق الواصـــل بين فلسطين والخليج الفارسى ؟ انكم لتدركون بانفسكم انه الطريــق البـرى الوحيد لامداد القوات البريطانية فى حالة ما اذا نشأ وضع غير ملائم فى البحر الابيض المتوسط .

وبعد ان فرغ المبعوث اخيرا من طرح الحجج المؤكدة لاهمية فلسطين الفائقة بالنسبة لانجلترا ، انتقل الى شرح «السياســة الكبرى» «للاكسيونس كوميتى» و«المركز القومى» . فمضى يقول بنبرة آمرة : — لقد اقترحنا على لندن السماح لنا بتشكيل فيالق متطوعين يمكن ان تستخدم لمقاومة اعداء انجلترا فى حالة انزال حربى معاد فى شمال افريقيا . وتجرى الآن مفاوضات لتشكيل كتائب من ابنـــاء شعبنا على ارض فلسطين ذاتها ! بل هناك ما هو اكثر ! لقـــد اقترحنا تشكيل جيش كامل من رجالنا فى فلسطين ، يضم كل انواع الاسلحة ، ويمكن للانجليز استخدامه فى حالة الضرورة على مسرح العمليات الحربية فى اوروبا . . .

شرع المبعوثون الذين كانوا جالسين وكانما تحت تاثير تنويم مغناطيسى يتحركون فى جلستهم بوجل . اما المحامى فتململ على مقعده المتهالك . لقد اثارت اخبار المتحدث معارضته فعاد يقاطع المبعوث قائلا بنبرة مسالمة :

— لقد اصغيت اليكم بانتباه . . ولكن هل لى ان اعرف لاى غرض تفعلون كل هذا ؟ انى لاتساءل ما الداعى لالقاء ابنائنـا فى اتون حرب بعيدة ؟ وهل يعتبر قادة «المركز» المحترمون انها قليلة تلك الدماء التى اراقها شعبنا طوال قرون من حياته فى المنفى ؟

قطب مبعوث «المركز» حاجبيه ، وتبادل نظرة خاطفة مـــع الحاخام ، وابتسم بسخرية وقال بنبرة لوم ظاهر :

— قبل ان اجيب على سؤالك من حيث الجوهر ينبغى ان اقول انها اول مرة اسمع فيها فى اوساطنا مثل هذا اللوم الموجه الى قيادتنا ، وكانها لا تابه بحياة ابناء شعبها ومصائرهـــم . ولن اكون مخطئا اذا قلت لك انه لا يوجد فى حركتنا كلها شخص آخـر غيرك يشاطرك هذه الشكوك .

اربد وجه المحامى وابتلع فى صمت هذه «الغمزة» بينما اطلق

المبعوث العنان لمشاعره فصدر عنه بصورة مفاجئة له ولاكثرية الحاضرين اعتراف لا يدل ابدا على ان «المركز القيادى» «يابه بحياة ابناء شعبه ومصائرهم» بالفعل .

فقد قال المبعوث :

– ينبغى ان ندرك دون رجعة انه طالما لم يساهم شعبنا ، او لم يتظاهر على الاقل بمحاولة المساهمة فى توطيد اركان الامبراطورية البريطانية فلن تكون لديه الاسس الكافية للمطالبة بما يسعى اليه منذ امد طويل . . . وحتى لو اضطررنا للتضحية بالقليل من اجل بلوغ الكثير ، فسوف تقدم قيادة «اكسيونس كوميتى» على هذا ! وذلك هو تكتيكنا فى الوقت الراهن . . .

وادرك المحامى انه اخطأ فى تسرعه بالتعبير عن آرائه . . فتكتيك «المساهمة الظاهرية» كان يروق له . ومن ثم هدأت نفسه وراح يصغى بانتباه .

ومضى المبعوث يقول :

– ولكن هذا ليس سوى احد جوانب الموضوع . وللاسف فهناك من الاسس ما يجعلنا نعتقد بان لندن لن تقبل كل مقترحاتنا . . . لماذا ؟ لان هذه المقترحات تقوم على اساس التأكيد بقرب اندلاع النزاع العسكرى الذى قد يمتد ليشمل اراضى فلسطين ، وبالتالى فهو يهدد شعبنا . اما الواقع الفعلى فبعيد عن مثل هذا التأكيد . . ولا داعى للدهشة من ذلك . . . فرجالنا موجودون فى الاماكن المطلوبة ، ولذلك فنحن مطلعون بصورة جيدة على الخطط الحقيقية لدول المحور وامكانياتها ، ولدينا من الوسائل ما يكفى للتاثير على الاحداث بصورة حاسمة لصالحنا فى الوقت المناسب . وبوسع بعض الحاضرين هنا ان يؤكدوا هذا بامثلة محددة ، ولكنكم تدركون انه لم يات الوقت للخوض فى هذا الموضوع . ساقول فقط شيئا واحدا : ان كفاح شعبنا المشرد عبر آلاف السنين والخبرة التى اكتسبها قد علمانا بعض الاشياء . . .

ولاحظ بن صهيون الذى كان يراقب خفية كل واحد من الحاضرين ان هذا الجزء من الخطاب قد ترك انطباعا طيبا لدى الجميع . حتى المحامى فقد هز راسه مرحبا .

– ولكن !

صاح مندوب «المركز» فجاة ، وبعد ثانية من الصمت استطرد بنبرة ذات مغزى :

– اننا لا نتحدث جهارا عن تكتيكنا واهدافه . . فما الداعى للتظاهر بالشجاعة؟ ارجو من الجميع ان يذكروا هذا . بالعكس ، اننا نؤكد بملء الفم ان الخطر من قبل المانيا وايطاليا هو اكبر من اى وقت سبق ، وانه خطر حقيقى تماما !

ومضى يوضح بحماسة اية فائدة يسعى «المركز القومـــى» لاستخلاصها من هذا التكتيك .

– فلنتصور لحظة ان قبلت لندن مقترحاتنا . . ولو جزئيا . . ان هذا يعد انتصارا ! تسالوننى لماذا ؟ ببساطة لان تشكيل كتائب الدفاع الذاتى هو مجرد ستار يمكننا شرعيا ، واكرر واؤكد : شرعيا ، من تسليح رجالنا على نطاق اوسع بكثير مما يجرى حتى الآن ! وتلك هى مهمتنا الاولى ! – وهز المتحدث قبضتيه فوق راسه – ستكون هذه خطوة حاسمة نحو تنفيذ البرنامج العام : فعن طريق «عليًا» * والتسليح الشامل لرجالنا نمضى الى اقامة دولتنا المستقلـــة ذات الاراضى والقادرة على اشباع احتياجات ومتطلبات شعبنا كله ، بمن فيه من المقيمين فى الدياسبورا ! ان الحديث يدور حتى الآن حول جزء كبير من ارض فلسطين ! . .

كان المبعوث اشبه بعداء الماراثون . فقد انتشرت بقع مبللة على اطراف جيوب قميصه التيل المنتفخة على صدره ، وتساقط العرق من وجهه شلالا . وبدا وكأن مبعوث «المركز» الذى اثارته والهبته الصورة التى رسمها بنفسه ، لا يلاحظ الجو الخانق الى حد الغثيان ، ولا الهواء الفاسد الراكد فى الغرفة الضيقة المغلقة باحكام لدواعى الأمن حسب تعليمات الحاخام .

والتقط المبعوث انفاسه واكد بتحد :

– فهل يجرؤ ان يعارض هذا التكتيك اى شخص من اولئـك

---

* «الصعود» – دعوة ديماجوجية صهيونية لتوطين جميع اليهود بلا استثناء فى «ارض الاباء» .

الذين يطمعون فى حق ان يسموا ببنى اسرائيل الحقيقيين ، اولئك الذين تجرى فى عروقهم دماء الشعب المختار !

وتعالت همسات الاستحسان من جميع الاركان . وظل المندوبون يصغون اكثر من ساعتين دون ان يعكروا الصمت . وسرعان ما خمدت الهمسات المتصاعدة ما ان بلل المبعوث «المخول صلاحيات واسعة من القادة الكبار» حلقه بجرعة تالية من مياه فاترة وواصل حديثه بحماس لا يكل . واكد ان اللحظة التى طال انتظارها قد حلت الآن ، فى الوقت الذى ينبغى ان تكتسب فيه هجرة الافراد وتجميع السلاح طابعا شاملا .

ودوى بمهابة صوته الذى اصبح ابح بشكل واضح :

— ان معلمينا العظيمين تيودور هرتزل وفلاديمير جابوتينسكى قد تنبآ بحلول هذه اللحظة ! فلتتذكروا كلمات هرتزل الرائعة عندما اشار الى انه كلما ازدادت المذابح اقترب حلول اللحظة المناسبة لحل مشكلة هجرة رجالنا الى فلسطين . . . وبوسعنا اليوم ان نقول بكل ثقة ان تنبؤاته تحققت ! لقد حل الزمن المنشود ! وقد قال جابوتينسكى بهذا الصدد : «ان معاداة السامية اشبه بالقملة التى لا تؤدى عضتها الا الى ايقاظ النائم !» لقد بدا شعبنا يستيقظ . . .

وفجأة دوت قرقعة مقعد نحّى بحدة ، فاستدارت كل الرؤوس ناحية المحامي الذى قفز من مكانه ، وقال بعصبية مقاطعا المتحدث المنفعل :

— لقد تحدثت ببلاغة تجعل المرء يصغى مبهورا . وقد اعربت عن افكار مذهلة حتى انى لادهش كيف لم تطفر الدموع من اعين الحاضرين ؟ ! وبالفعل ، ماذا تكون عضة القملة . . شيء تافه ! ! فى غاية التفاهة ! وبالمقابل شعب يستيقظ . . ولكن ارجو المعذرة . . اريد ان استفسر عن شيء محدد : هل تعتقد انت شخصيا والقادة المحترمون فى «المركز القومي» ان معادة السامية التى يتبعها السيد هتلر والفاشيون عموما ، واضطهادهم القاسى لابناء جنسنا ، ليست سوى عضة من مثل هذه الحشرة المسالمة ؟ هه ؟

اختفى من وجه مندوب «المركز» على الفور تعبير الثقة

والتعالى . اذ لم يتوقع حتى من هذا الناقد المتهور مثل هذا الهجوم الصفيق ضد مؤسس الصهيونية . واحس مبعوث «المركز» وكان احدا بصق فى وجهه .

فقال وهو يكاد يختنق من الغضب الذى اجتاحه ، وراح يسوى نظارته بعصبية دونما حاجة الى ذلك :

– لقد ذكر احدهم هنا المستشار الالمانى ادولف هتلر . ان لدينا وجهة نظر خاصة فى هذا الصدد ، وسوف اشرحها بكل وضوح حتى نتجنب مستقبلا اية تلميحات وتأويلات كاذبة . وبتبسيط شديد فهى تتلخص فى انه لو لم يكن هذا الادولف هتلر موجودا اليوم لكان علينا نحن الصهاينة البيتاريين ان نوجده ! – صاح المبعوث بنبرة حماسية ، وانطلق يتكلم دون توقف خشية ان يقاطعه المحامى الاكتع من جديد – قد يقول البعض هذه صفاقة ! بالعكس ! اننا نعتبر نكران وجهة النظر هذه عاطفية عفنة وانسانية كاذبة لن تؤديا الا الى عرقلة تحقيق حلم امتنا منذ آلاف السنين ! . . ولا تلومونا على صراحتنا وعلى التشبيه الذى قد يكون فظا ، ولكن اذا كان البعض هنا قد اعتبر من الجائز توجيه النقد لتنبؤات هرتزل وجابوتينسكى العبقرية ، فاننى اجد لزاما على ان اقول بمنتهى الوضوح انه لو لم توجد النظرية القومية الاشتراكية ومبدؤها العنصرى ، هذه النظرية التى لا تعدو ان تكون احد مظاهر معاداة السامية ، لما تذكرت الاغلبية الساحقة من اخوتنا واخواتنا اصلهم ! . . وليس هذا ، ولتعذرونى ، استشهادا باقوال الشخصيات البارزة ، بل تقرير حقيقة مؤلمة ولكنها لا تقبل النقض .

وهب المحامى ثانية ولكن بن صهيون هاجرا سبقه وطلب منه بشكل مهذب الا يقاطع المتحدث وان يحافظ على النظام .

واخذ مندوب «المركز» وقد شجعه تاييد الحاخام له ، يبرهن بحرارة ان بنى اسرائيل قد اضطروا الى التوجه بانظارهم صوب «ارض الاجداد» بالذات نتيجة للاضطهاد الذى يعانونه فى المنفى .

– فلنتصور ان ادولف هتلر ومبداه العنصرى قد قضى عليهما . . اذن لصرخنا برعب : «شما اسرائيل ! * . . . يا للكارثة

* اسمعى يا اسرائيل ! . .

التى حاقت بنا من جديد !» . ان احدا من اولئك الذين يتعرضون الآن للاضطهاد الوحشى ومن ثم يهرعون الى ارض آبائهم مـا كان ليهجر المكان الذى الفه ولو اغدقت عليه كل النعم ! نعم اننا نحن الصهاينة ذوو مصلحة فى تسعير العداء للساميـة ! قد تقولون ان هذا مؤسف ! نعم مؤسف ، ولكنه حقيقة ! فمعظم اليهود الذيـن هاجروا الى فلسطين مؤخرا لم يفكروا من قبل ابـدا فى الهجرة ! وكانوا يعيشون فى المانيا هذه بصورة لا بأس بها قبل وصـول النازيين الى السلطة . وكان بينهم رجال البنوك واصحاب المصانع ومالكو المؤسسات التجارية . . . ولم يكن اى منهم يرغب حتى فى مجرد سماع كلمة العودة الى ارض الميعاد . . . — ومسح مندوب «المركز» بيده على جبينه المبلل بالعرق .

فصاح المحامى مستغلا فترة الصمت :

— وهؤلاء بالذات هم الذين نهجرهم الآن فى المقام الاول !

ومضى على الفور يدعم استنتاجه . واعاد الى الاذهان انه منذ بضع سنوات كانت سياسة النازيين تنحصر اساسا فى طرد اليهود قسرا ، وفيما بعد اصبحت امكانية الهجرة مشترطة بدفع مبلغ معين راح يزداد حتى بلغ رقما خياليا . وبعد ذلك اعتبر النازيون حتى هذه الاجراءات غير كافية ، فراحوا يزجون بالمساكين فى معسكرات الاعتقال فارضين عليهم السخرة والامراض والحرمان .

واخذ المبعوث وهو يصغى للمحامى يمسح صلعته المبللة اللامعة بالمنديل بين حين وآخر وينظر الى الحاخام بقلق .

ومضى المحامى يقول بانفعال :

— اذا كان رجالنا الواقعون تحت اقدام النازية يقـدرون فى الماضى بعشرات او مئات الآلاف ، فانهم الآن يعدون بالملايين ! ومأساة هؤلاء المساكين هى انه ما من احد ، ولا حتى اولئـك الجالسون فى «المركز القومى» ، يفكر بل ولتعذرونى على صراحتى ، ولا حتى يرغب فى التفكير فى المصير الذى ينتظرهم ! . . فهل سيتمكن هؤلاء من الهجرة ، ام لا قدر الله سيضطرون للبقاء فى الاسر ؟ ما الذى ينتظرهم ؟ آلام فوق طاقة البشر ، بل ربما الهلاك . . . كم

بودى ان اومن بان الله سيجنبهم هذا المصير الرهيب ، ولكـن هذا لا يعنى انه يحق لنا ان نقف مكتوفى الايدى . . .

ووجد بن صهيون هاجرا انه ينبغى ان يتدخل ، فسأل المحامى دون ان يرفع نبرة صوته :

– الا يعرف الرفيق المحامى اننا على اتصال بالاشخاص ذوى النفوذ فى الرايخ الالمانى ؟ اليس الرفيق المحامى هو الذى استأجر بنفسه فى مارس من العام الحالى السفينة «كولورادو» التى استقبلت على ظهرها فى ميناء كورفا خيرة ابناء شعبنا من رايخ ادولف هتلر ؟

فهتف المحامى بغضب :

– ولكن ذلك قطرة فى بحر ! ثلاثمائة شخص !

فقاطعه المبعوث ولاحت فى صوته بوضوح نبرة عصبية :

– صحيح ! لكن لا يجب ان ننسى ان لسفينة «كولورادو» ليست سوى البداية !

فقال بن صهيون هاجرا بتؤدة وخبث :

– اتظن ان السيد المحامى لا يعرف ذلك ؟ انـــه يعرف ! ويعرف جيدا كذلك ان النقل بالسفن فى المستقبل لن يجرى سرا كما كان بالنسبة لـ«كولورادوا» ، بل علنا ، وسترسو السفن بصورة شرعية تماما فى مينائى هامبورج وايمدين الالمانيين . . . ويعرف ايضا الكثير من الامور الاخرى – ، قال الحاخام بابتسامة ساخرة فى ختام كلامه – ولكن هكذا طبعه القلق . . .

فصاح المحامى بحدة :

– وما دخل طبعى بذلك ! ان كل ما ذكرته يا حضرة الحاخام المحترم وكل ما اعرفه بالفعل لا يشمل الا قلة قليلة من العائـلات الغنية جدا ، او بعض الاشخاص الذين ادوا خدمـــات خاصـــة للصهيونية ! ولكن هلا خبرتمونى لو سمحتم كيف يتفق هذا الاختيار مع تأكيداتنا الاساسية ومبدئنا الذى يفرض على جميع ابنـــاء جنسيتنا ، بغض النظر عن اوضاعهم المادية والفئوية الاجتماعية ، ان يتعاونوا كأمة يهودية واحدة ؟ اى تعاون هذا اذا كنا نهتم ببعض المختارين ولا نعمل شيئا لانقاذ الملايين ممن لا يملكون رؤوس اموال ولم يؤدوا – تصوروا ! – اية خدمات خاصة للصهيونية !

– ان هؤلاء الناس العاديين كغيرهم من اصحاب الملايين والمشاهير الآخرين قد دمغوا فى مملكة النازية بعلامة «موجن دوفيد» * التى تميزهم عن غيرهم من ابناء القوميات الاخرى ! ان هذه العلامة تعنى انه قد كتب عليهم الهلاك ! . .

وما ان صرخ المحامى بهذه العبارة حتى وضع يده على قلبه وتهالك على المقعد فى بطء وهو يتنفس بصعوبة .

وخيم صمت ثقيل مقبض . ولزم المبعوث ايضا الصمت . كان الغضب قد شوه سحنته ، ومن وراء عدسات نظارته السميكة زر عينيه السوداوين باحتقار . واصبح الصمت خطرا . واذ احس المبعوث بذلك فقد قطع حبل الصمت بصوت متهدج من الغضب :

– لكيلا يضل احد من الحاضرين طريق الصواب فى مثل هذه اللحظات الحاسمة ، ولكيلا يبدى احد تخاذلا سأرد على هذه الاتهامات الباطلة ضد «المركز» بكلمات وايزمان المبجل . . . فمنذ وقت غير بعيد سئل اثناء اجتماع اللجنة الملكية فى لندن : كيف يراعى تنظيم هجرة بضعة ملايين من اليهود من البلدان التى استولى عليها النازيون ؟ فاجاب وايزمان بوضوح وايجاز :

«ان العجائز سوف يزولون من الوجود . . . انهم غبار ، غبار اقتصادى ومعنوى للدنيا الكبيرة . . . ولا يبقى الا الجيل الجديد ! . .»

تطلع بن صهيون الى المحامى الاكتع . لقد قرر الحاخام ان يتدخل هذه المرة فيما لو عاد المحامى الى مقاطعة المبعوث . بيد ان المحامى كان يجلس صامتا وقد نكس راسه فى اسى . كان يود بالطبع ان يعارض مندوب «المركز» ثانية ، ويقول له ان كلمات مفكر الصهيونية وايزمان صفيقة وقاسية فى جوهرها ، ويؤكد من جديد صحة موقفه هو ، اى المحامى . ولكنه لم يجد لديه من القوة ما يكفى حتى لينهض من معقده ، فقد كان قلبه يدق بعنف ، واظلمت الدنيا فى عينيه من الالم الحاد فى صدره . ولهذا ظل صامتا فترة طويلة .

---

* النجمة السداسية «درع داوود» .

واستطرد المبعوث يقول رافعا صوته من جديد :

ـ لكنه من الضرورى ان نجرى بعض التعديل على هذه العبارة الرائعة ، التى حتى وان كانت قاسية ، فانها مبنية على اساس تحليل الواقع الفعلى وليس على تمنيات طيبة عقيمة . فليس بخاف على احد ان اشقاءنا اساطين المال يعتبرون احيانا من مقررى مصائر الشعوب الاخرى . وعلى اى حال فلهم تأثير هائل على سياسة حكام تلك الشعوب ! ولهذا السبب فانهم بوجودهم فى بلدان المنفى قادرون على تقديم العون الفائق بل ويقدمونه فعلا لقضيتنا . ولا تستثنى من ذلك الآن سوى المانيا النازية والبلدان السائرة فى فلكها . فاليهود فى هذه البلدان ، بمن فى ذلك اصحاب البنوك منهم ، لا حول لهم ولا قوة . ومهمتنا هى تحرير هؤلاء الاغنياء ذوى النفوذ فى المقام الاول ، ان نحافظ عليهم حتى تأتى اللحظة التى يصبح بامكانهم فيها ان يقولوا كلمتهم الفاصلة من جديد فى المانيا نفسها . . . وعبثا يحاول البعض هنا اتهامنا بان هذا الاختيار يتعارض مع المبدأ الاساسى للصهيونية بخصوص تعاون جميع ابناء الشعب بغض النظر عن انتمائهم الطبقى . فالتعاون فى المرحلة الراهنة يتلخص فى ان ننقل الى ارض الاجداد فى المقام الاول اولئك الذين سيعودون باكبر الفائدة على شعبنا المضطهد وعلى امتنا المعذبة كلها . وبوسعكم ان تصدقونى فان زعماء «المركز» مثلنا جميعا ، يشعرون بأسى عميق لكل مصاب يمنى به شعبنا ، ولكن فيما يبدو لا مناص من التضحية . . . وليس عبثا ان جاء فى التوراة «ان النور الحقيقى والفرج الاكيد لا يأتيان الا عندما يشتد الضيق ويتكاثف الظلام . . .»

صمت الخطيب العرقان المنفعل بشعره المشعث لحظة وهو يطوف على المستمعين بنظرة فاحصة . وكان هؤلاء قد حبسوا انفاسهم وهم لا يحولون عنه ابصارهم ، الا المحامى الذى جلس مطرقا . ومضى المبعوث فى سرد التعليمات الرسمية بهدوء ، فوجه نقدا شديدا «للكتاب الابيض» الذى صدر مؤخرا فى لندن واعلن فيه عن وضع قيود صارمة على الهجرة الى فلسطين بحيث لا تتجاوز خمسة عشر الف شخص فى العام ، واشار باعجاب شامت الى ان هذه

القيود سوف تتطاير فى القريب العاجل كفقاعة صابون نتيجة للحرب التى شنها هتلر على بريطانيا .

وفى الختام اهاب بالحاضرين فى حماسة ان يستفيدوا استفادة شاملة من الوضع الناشئ فى العالم والملائم لتنفيذ البرنامج الذى وضعه «المركز» ، وان يعملوا بلا تردد ودون تافف من اى شىء ، ودون تورع عن استخدام اية وسيلة .

واختتم المبعوث حديثه قائلا بصوت مبحوح :

– على الصهاينة البيتاريين اكثر من اى وقت مضى ان يكتشفوا الامكانيات لتكديس اكبر قدر من الاسلحة ولتوسيع الهجرة باستمرار الى ارض الاجداد لافضل رجالنا فى الدياسبورا . وسوف نحقق هذه المهمة المقدسة باى ثمن بعون الله القدير ، لان ارادتنا صلبة . وذهننا صاف ، وطاقاتنا فياضة !

انهمك بن صهيون هاجرا فى مشاغل شراء الاسلحة . لقد طالبه «المركز القومى» بالتوسع فى نطاق هذا النشاط ، فقد كان من الضرورى استغلال الفرصة . ولذلك فلا عجب انه كان ينسى احيانا وعده لابنته بطرد اويئا من البيت بعد ان وافق على عرض ستيفانوس . بيد انه لم تكن لديه دقيقة فراغ لا لكى يبر بوعده فحسب ، بل وحتى للقاء شريكه . وغرق ستيفانوس ايضا فى الاعمال : فهو الذى كان يقيم الصلات مع تجار الاسلحة ويجرى معهم المباحثات التمهيدية . ولكن ذلك لم يكن يهم تسيليا فى شىء !

«مثل طبعى !» – قال بن صهيون لنفسه بسرور وهو يتذكر حديثه الصباحى مع ابنته . كان الحاخام يستعد للسفر مع مبعوث «المركز القومى» ليقضى النهار بسبب امور مستعجلة ، فقال لتسيليا انه فى المساء حتما سيحقق رجاءها ، ولكنه لم يعد الى البيت فى ذلك المساء . كان ذلك لا يحدث له الا نادرا ، ومع ذلك فلم يثر غيابه قلقا خاصا لدى اسرته . ولم يحضر الحاخام ايضا صلاة المساء عشية السبت فى الهيكل ، ولكن ذلك لم يثر دهشة خاصة لدى المصلين : فكم لدى الحاخام من اعمال . تسيليا وحدها هى التى

لم تخف استياءها . ولم يكن ما اغضبها هو غياب والدها بل وجود هذه الفتاة البغيضة اويًا فى الدار . وقالت فى نفسها : «غدا السبت وهى ما زالت هنا !» وتطلعت بحقد الى الفناء حيث كانت الفتـــاة اليونانية تعمل . وكان من المقرر اقامة حفل غداء يوم السبت ، وقد استعدت له بعناية . «ستحضر العمة بيتيا ايضا ! وربما كالعادة فى مثل هذه الاحوال ستتحدث مع حاييم فى الموضوع . ومن يدرى ، ربما تتم الخطبة !» . وتطلعت تسيليا الى نفسها فى المرآة وشعرت بالرضى .

دلف حاييم الى المدخل ، واخذ الفرشاة وراح ينفض الغبار عن ملابسه وحذائه . كان قد ذهب الى الميناء وعرج على الوكالة ليعرف ما هى الاجراءات المطلوب القيام بها قبل السفر . ولحسن الحظ فقد اعتبر موظفو الادارة البريطانية بطاقة سفر سارية المفعول ولم يكن عليه الا ان يدفع مبلغا اضافيا بسيطا . وكان حاييم يأمل فى مساعدة الحاخام ، وقال فى نفسه : «سأرده فورا ما ان اكسب من عملى» .

بهذه الافكار دق حاييم الباب . وما ان رأته تسيليـــا حتى اسرعت تسوى شعرها ، ودعته وهى تبتسم الى الدخـــول . وعبر حاييم الى غرفة الطعام . كان مزاجه ممتازا ، بالرغم من انـــه كان مرهقا جدا لانه انقطع وقتا طويلا عن المشى وفى غاية الجوع . وعندما رأى الطاولة المغطاة بمفرش ابيض بدلا من المشمع العادى ، والغرفة المرتبة بعناية خاصة ، قال مازحا :

– اووه ! الا تنتظرون خُطّابا ؟

احمرت تسيليا ولم تجب . وخيل اليها ان حاييم لم يذكر ذلك صدفة . وعندما دخلت لايًا الى غرفـــة الطعام وكرر حاييم مزحته ، هزت هذه كتفيها بلا مبالاة وقالت :

– من اين جئت بهذا ؟ ببساطة اليوم عشية السبت ، ولهذا رتبنا البيت بما يليق والعيد ، كما هو الحـــــال لدى اليهود المحترمين .

ولكن تسيليا صرخت فى اختها على الفور :

– عندما يأتى المرء من الشارع جوعان يقدمون له الطعام لا الاحاديث . لقد وضعت البطاطس المهروسة بالفرن على حافـــة

النافذة . وفى المطبخ توجد الشعرية مغطاة بطبق . . هاتيها ايضا . . انه لم يأكل منذ وقت لا يعلمه الا الله !

وهرولت تسيليا هنا وهناك ، واكثرت من الخروج الى المدخل وهى تتهامس مع اختها . وافسد كل ذلك مزاج حاييم واثار ريبته . فشكرهما دون ان يمس الطعام وخرج . ولدهشته لم تلح عليه تسيليا فى البقاء كعادتها .

كانت اويًا تنتظره فى الفناء ، فابتسم لها ، واوضح لها انه متعب جدا اليوم ويريد ان يرتاح ، فصحبته اويًا حتى الجناح .

تمدد حاييم على الفراش دون ان يخلع ثيابه واخذ يفكر كيف سيستقبله فى ارض الميعاد اصدقاؤه من جماعة «الكووتس»* الذين ادى معهم الدورة التدريبية وكيف سيبدأ العمل ويوفر النقود ويستدعى اباه واخته اللذين بقيا فى بولجراد . وماذا عن اويًا ؟ ما الذى سيحدث لها ؟ انه لا يستطيع ان يفارقها ، فهى غالية عليه كأبيه واخته . كلا ، انه لا يستطيع العيش بدونها . . سيخبرها غدا بذلك ، وسيرحلان معا .

استيقظ حاييم على صخب شديد . لقد دلفت الى الفناء سيارة وقد زأر محركها . وسمع وقع خطوات ، وصفق باب السيارة ، ثم صرير عجلاتها وهى تبتعد . ونهض حاييم وتطلع الى الفناء ، فلاحظ مصعوقا ان جميع النوافذ مضاءة فى بيت الحاخام . وقال لنفسه : «الوقت متأخر ، ولكنهم لم يناموا لسبب ما . ترى هل وقعت مصيبة ؟»

واستولى القلق على الشاب فركض نحو البيت . وعندما اطل فى نافذة غرفة الطعام وجد تسيليا واقفة فى وسط الغرفة وهى تدق بقدميها فى غضب واختها الحدباء تبكى بحرقة . وعندما رأته الشقيقتان صمتتا بخوف . واحس حاييم بالحرج ، فقال :

— ارجو المعذرة . . لقد رأيت الضوء فظننت ان شيئا قد حدث . .

فقالت لايًا وهى تكتم العويل :

— حدث لأويا . . . — وركضت من الغرفة .

* جماعة عمل عسكرية .

ودمدمت تسيليا من بين اسنانها :

– اليونانية اختفت .

فصاح حاييم :

– كيف اختفت ؟ – ودون ان ينتظر الاجابة اندفع راكضا الى الحظيرة ، واطل فى المطبخ ، وفى الجناح ، وفى الشارع ، وفى كل مكان لم يجد احدا . واصاخ السمع . تناهى من ناحية الميناء ضجيج محرك سيارة كانت تتسلق مرتفعا حادا . وبعد قليل مزق الظلام شعاع ضوء عريض قادم من زاوية الشارع . واصطفق باب السيارة ، وقفز منها رجل اقترب قليلا وتوقف فاضاءه نور الكشافات الساطع . ولدهشة حاييم فقد عرف فيه الحاخام . وقال لنفسه : «يا لها من امور ! فى يوم السبت يركب الحاخام سيارة ؟ غريبة . . .»

واسرع حاييم الى الدار وقد اعتراه القلق . ورغم تاخر الوقت فقد كانت تسيليا لا تزال جالسة فى غرفة الطعام تطرز وسادة بخيوط سميكة ملونة . ونظرت اليه ثم خفضت بصرها على الفور الى التطريز .

– سبت مبارك ! – قال الحاخام بن صهيون هذه العبارة التقليدية وهو يدلف الى الغرفة .

ورد حاييم على التحية بتحفظ . وساعد الحاخام فى خلع ملابسه الخارجية فأحس بشئ صلب يصطدم بركبته ، ورأى حاييم من تحت ذيل معطف الحاخام المنحسر مسدسا رشاشا معلقا فى حزام ، من تلك الرشاشات التى لم ير مثلها الا فى الافلام . وتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئا فمضى نحو المشجب وهو يحمل ثياب الحاخام .

ومضى بن صهيون هاجرا الى غرفته ، وتبعته تسيليا ، وسرعان ما عاد الحاخام الى غرفة الطعام وسأل بأسى :

– تسيليا اخبرتنى بان اويّا هربت . هل هذا صحيح ؟

لزم حاييم الصمت . لم يكن يفهم كنه ما يحدث . ربما كان الواقف امامه الآن ليس الحاخام بل زعيم عصابة اشقياء ما ؟

ومضى الحاخام يقول مواسيا وهو يحدق فى حاييم مباشرة :

– هذا سيئ ! ولكنها ليست خسارة كبيرة . . . ستظهر . ليست هذه اول مرة . لقد هربت ذات مرة قبيل عيد الفصح . وبحثنا عنها اسبوعا كاملا فلم نعثر عليها ، وفجأة ظهرت بنفسها. هل تدرى اين كانت هذه الحمقاء مختبئة ؟ فى الحظيرة ، بجوار الجناح ! مثل هذا ينتابها احيانا . .

كان قلب حاييم يلح عليه بانه لا يحق له ان يغضب من الحاخام رغم انه كان يفترى على الفتاة . فقد كان الحاخام هـو الشخص الذى آواه وهو متطوع مجهول ، وانقذه من محنتـه وساعده فى غربته ولذلك فقد اكتفى حاييم بان قال على استحياء انه ينبغى البحث عن الشخص المفقود ، فحتى الفرخة ان ضاعت يبحثون عنها ، فما بالك اذا كانت فتاة . وقد يكون حدث لها مكروه ؟ فماذا اذاً ؟

ولكن بن صهيون هاجرا قال ببرود :

– لا داعى لاثارة ضجة . . يا لها من كنز ! ستظهر ! . .

وانصرف حاييم الى جناحه متكدرا . لم يكن فى حال تمكنه من النوم ، وطافت بذهنه شتى الافتراضات المخيفة . وبعد ان خارت قواه اغفى قرب الفجر ، ولكنهم ايقظوه على الفور . وخيل اليه ان اوريًا تهزه لتوقظه ، ففتح عينيه ، ورأى تسيليا واقفة امامه . وابلغته بجفاء دعوة والدها اليه بالمجىء الى البيت .

كان الحاخام يقف فى غرفة الطعام ملتفاً بمعطفه ، واستقبله بابتسامة قائلا :

– لقد شفيت بعون الله ، واليـوم سبت ! وينبغى على جميع اليهود ان يذهبوا الى المعبد ليصلوا . . ستذهب معـى الآن . غط راسك وخذ هذا «الصدور» * من على الطـاولة . . سيكون لك منذ الآن . . .

وفى المعبد قرأ حاييم كتاب الصلاة وهو لا يفقـه معنى الكلمات ، فقد كانت كل افكاره مع اوريًا . اين هى ؟ ماذا حدث لها ؟ لِمَ لم يبق معها بالامس فترة اطول ؟ لم يعترف لها بانه يحبها ولا يستطيع العيش بدونها ! لقد خجل وتردد . . .

* كتاب الصلاة .

كان المصلون يرددون الصلوات خلف الحاخام باصوات متنافرة دون ان يلقوا بالا لحاييم . كان هنا غريبا ، ولا احد منهم يهتم ببلواه ، ولا يبالى بالامه ومصيره . مع من يستطيع ان يخوض فى امور تعاسته وخسارته ؟ وممن سيسمع كلمة عزاء ومن ذا الذى سيساعده ؟ وتذكر بحزن صديقه ايليا توموف . بالطبع ما زال يعمل فى الجراج ويعيش ان لم يكن فى بحبوحة ، ففى هدوء ، ولا يخشى الفاشست ، وليس هناك ما يجبره على الفرار الى حيث يعلم الشيطان جريا وراء السعادة . . . اما حاييم فقد اضطر الى الارتباط باناس لا يعلمهم الا الشيطان ، وهاهى المصائب تنهال عليه الواحدة تلو الاخرى . ومضى حاييم يقول فى نفسه : «وعموما لو جاء الفاشست الى رومانيا فسيعانى ايليا لامرين . كل شىء جائز . . .»

لم يكن حاييم فولديتير يعلم اية مصيبة حلت بصديقه ، لم يكن يعلم ان توموف فى هذا الوقت كان ممددا على الارض الباردة الملوثة بالدم فى سجن مديرية الشرطة ببوخارست .

نهض توموف بصعوبة وجلس مستندا بظهره الى الحائط . كان رأسه يدور وجسده يؤلمه ، والظمأ يعذبه . وتخثرت بقع الدم على ذقنه وصدره . نعم ، لقد «وضّبه» رجال المباحث جيدا !

قبضوا على توموف بناء على وشاية من عميل للمباحث . وكانت الشرطة تبحث عن مطبعة حزبية سرية تطبع المنشورات المعادية للفاشية . وكان يقوم بالتحقيق مفتش الشرطة الرومانية سولوكانو المعروف بقسوته .

ومضى سولوكانو يقول برتابة :

— هيا بنا نتفق . لا تظن انها ذات قيمة تلك الاعترافات التى نريدها منك . فقط اخبرنا اين كنت تحصل على المنشورات . ولا شىء اكثر . سنخلى سبيلك فورا . فنحن نعرف جيدا انك تورطت فى هذا العمل القذر بالصدفة ، اما الذى اوقع بك فيتجول الآن طليقا ، فما الذى يجعلك ايها المغفل تتحمل وزرهم ؟ انك

فيما يبدو شاب عاقل ، ولكنك لا تدرى فى الغالب ان السادة «الرفاق» الذين اداروا راسك ، يتلقون من موسكو زكائب نقود . . . اتعرف كيف يحيون ؟ نصيحتى لك : اعترف بمحض ارادتك ، وسوف تشكرنا فيما بعد . . .

لزم توموف الصمت .

والقت به ركلة قوية فى البطن على الارض من جديد . وغامت عيناه من شدة الالم ، فلم ير فوق رأسه سوى وجه نائب المفوض سطيرتشا المقلوب من الغضب .

راقب المفتش سولوكانو هذا المنظر كما يتفرج مشاهد ذواقة من اهالى العاصمة على تمثيلية يؤديها ممثلو مسرح ريفى .

وصاح نائب المفوض وهو يضغط على رأس المعتقل الى الارض بنعل حذائه اللامع :

– تكلم ! سأقتلك ! أتسمع ؟ سأقتلك !

فقال سولوكانو بنبرة تقزز :

– كفى يا حضرة نائب المفوض ! انك لا تدرى ما تفعله . تدوس على زور الشاب وتطلب منه ان يتكلم . .

فاجاب نائب المفوض وكأنه يعتذر رغم انه كان يدرك تماما لعبة رئيسه :

– الى متى يمكن ان نصبر عليه يا سيادة المفتش ! ضيعنا ثلاثة ايام ونحن نحاول معه . انه يكذب بوقاحة .

وابتعد كانما دون رغبة منه نحو النافذة ، واشعل سيجارة .

وحل مفوض الشرطة الطويل محل سطيرتشا مرة اخرى . كان يلعب منذ البداية دور الرجل الطيب الذى يرجو للمعتقل الخير . وساعده مع رجل الشرطة الواقف فى صمت طوال فترة التحقيق على النهوض والجلوس على المقعد ، وجاءه بكوب ماء وعرض عليه سيجارة .

وشرع المفوض يقول بلهجة مسالمة :

– اسمع يا توموف . هل المسالة تستحق ان تتحمل انت كل هذا العذاب من اجل بعض المتمردين الحمقى ؟ انك شاب متعلم ، درست فى الثانوية ، واردت ان تلتحق بطيران جلالة الملك ، ومع

ذلك تسلك هذا السلوك المتهور . اننا لا نبغى شيئا سوى ان نساعدك على الخلاص من هذه الورطـــة . بل والاكثر من ذلك سنكافئك ونعطيك وظيفة عندنا . ستصبح محترما ! - ونظـــر المفوض الى سولوكانو ليعرف ان كان الاخير يوافق على هــذه الخطوة .

وكان توموف يدرك ان الجلادين لن يدعوه فى هدوء ، فقرر ان يعجّل بالنهاية .

فدمدم قائلا :

- صحيح انكم تعدون ، ولكن من يدرى هل ستدفعون ؟

فهتف المفوض :

- هذا كلام آخر ! بوسعك الا تشك فينا يا توموف . اننا دائما نبر بوعودنا . . . فلتسمع اذن : اخبرنا اين توجد المطبعة و . . .خذ الفاً على الفور . موافق ؟

فتساءل ايليا مذهولا :

- الف لى ؟

- نعم الف . . . وماذا فى ذلك ؟

- مقابل هذا المبلغ ساقول للعالـــم كله ان مطبعـــة الشيوعيين موجودة فى القصر الملكى . . .

واستطرد توموف وقد لاحظ نظرات الدهشة التى تبادلهـــا الجلادون :

- نعم ! طبعا ! المطبعة وضعت هناك بموافقة ملكنـــا المحبوب كارل الثانى !

ولم يتمكن ايليا من مواصلة الكلام ، فقد ضرب سولوكانو على مفرش المكتب بقبضته ، وعلى غير عادته رفع عقيرتـــه الى درجة الصراخ :

- انه يسخر منا !

وكان آخر ما يذكره توموف قبضتى المفوض الطويل وهما تلوحان امام عينيه ، وسحنة سطيرتشا المقلوبة من الغضـــب وقد سارع بالقفز مـــن على حافة النافذة وانهال عليه بالهراوة المطاطية .

في عشية اليوم السابق كان صقيع الشمال القارس لا يزال سائدا ، ولكن فى الصباح حل الدفء فجأة . وفى حديقة تشيشمجيو ، على بعد خطوات من الادارة العامة لمديرية الشرطة فى بوخارست كانت اكوام الثلج المســـود الرطب تتناقص ، وتساقطت من الاسقف قطرات الثلج الذائب الرائقة كالدموع فى ايقاع رتيب .

وكان الشرطى المناوب،وهو رجل ضخم الجسم ، كهـــل ومتطير ، قد انصرف عن تغيير الكمادات التى امره الممرض ان يضعها كثيرا للمعتقل ، بعد ان ايقن ان «الشيطان من بيسارابيا الراقد على النقالة لن يموت» قبل تغيير نوبة الحرس القريب . وتهالك الشرطى ، على الاريكة بتثاقل ، وحك قفاه ، ومد ذراعيه وهو يتمطى بتكاسل ، وتثاءب .

وتناهى من ناحية بوليفار اليزابث صريـــر عجلات الترام الطويل الصارخ وهو يقطع شارع كاليا فكتوريـا . وخلف جدران مستشفى سجن المباحث كانت الحياة تسير فى مجراها . . .

كان الممرض الثمل يغط فى نوم عميـــق . وكان الحارس مغتاظا من شخيره ذى الصفير والفحيح ، فود لو هوى على رأسه بشىء ثقيل . وعلاوة على ذلك فقد عاد المعتقل الى وعيـــه وراح يئن . وزقزقت معدة الشرطى وقرقرت بالحاح وبشدة فى هــذه اللحظة على غير مناسبة فرسم علامة الصليب وتثاءب واقترب من النافذة الضيقة ذات القضبان الغليظة . واعتمد بمرفقه على القضبان ورفع رأسه وحدق فى الشعبة الجليدية المتدلية من افريز السطح ، فقد كانت تشبه المسيح المصلوب فى مدخل المذبـــح الذى كان مواظبا فى التردد عليه .

ونزع الشرطى قبعته بوقار ، ورسم علامة الصليب بتعبد مرة وثانية ، وما ان رفع يده ثالثة حتى تناهى من وراء الستارة التى ينام خلفها الممرض صوت طويل كريه . . . فتجمد الحارس المتدين للحظة ، ثم اطلق سبابا مغيظا ، وأنهى رسم الصليـــب للمرة الثالثة واغمد رأسه فى القبعة ذات الشعار الاصفر الكبيـــر المزين بالتاج الملكى المتسخ . وقطب حاجبيه امتعاضا وفتح الكوة . . .

اخيرا جاء بديله فى الحراسة ، فسلم له الشرطى المعتقل ذا الرضوض والكدمات كانه يسلم شيئا . ونصح زميله الذى تسلم الحراسة بان «يحرس هذا الشيطان لانه ما زال يتنفس ، ومن يدرى ربما يعن له ان يهرب . . فهو على اى حال بلشفى ، وينبغى ان تتوقع منهم اى شىء . . .» .

وبالرغم من ضيق افقه فقد كان الشرطى حويطا ، اذ طلب من بديله ان يوقع فى الدفتر بخط واضح والاهم من ذلك ان يكتب بانه «تسلم المعتقل وهو حى يرزق . . .» .

ونفذ المناوب الجديد كل ما طلب منه دون معارضة . لم يكن يترنح فى وقفته ، ولكن لسانه المتلعثم فضحه ، ولذلك فضل ان ينفذ كل شىء فى صمت . ففى الليلة السابقة احتفل كما ينبغى بمولد السيد المسيح ، ولكنه لم يتمكن من ان ياخذ قسطه من النوم ويفيق من السكر .

انتشر الفجر تماما . وكان الممرض لا يزال يغط فى نومه . ونام الشرطى الذى تسلم المناوبة وهو جلس على الاريكة . كان الجو خانقا جدا . ولم يعكر صحو السكون سوى فحيح النائمين وزمارات السيارات وصرير الترامات المعول ، والتى كانت تزداد شيئا فشيئا .

ونهض توموف قليلا وطاف بنظراته على ما حوله ، فادرك اين يوجد ، فاستلقى ثانية على النقالة . كان جسده يؤلمه ، والتهبت جراحه ، وعذبه الظمأ . والحت عليه بصفة خاصة افكار مقلقة : «اى ايام الاسبوع اليوم ؟ اين الميكانيكى البيسكو الآن ؟ كيف يفكر فى موضوع اعتقاله ؟ هل اتخذوا تدابير الحيطة ؟ ترى الا يظن رفاقه بانه قد يعترف ؟ ربما ، ستعرف امه بذلك قريبا . ربما . . ربما . . .» .

ودق الباب مرة ، وثانية ، ثم ثالثة . فقفز الشرطى وهرول كالملسوع وهو يسوى تارة سترته ، وتارة حزامه ، وتارة عمرته . وجاء بديل الممرض وظل طويلا يوقظ النائم ، ولكنهم انهوا اسرع بكثير اجراءات «استلام وتسليم» المناوبة . وبعد

ذلك فقط تطلع الممرض المستيقظ الى الساعة وشهق ، اذ اتضح ان بديله جاء متاخرا عن موعده باكثر من ساعة ونصف ، فانفجر فيه الممرض بعدة جمل لاذعة دون ان ينسى فى غضون ذلك ان يحشر فيها اسم العذراء ومولودها ، ربما بمناسبة اعياد الميلاد . وانصرف صافقا خلفه الباب بقوة جعلت الرنين يتصاعد من قوارير وقنانى الدواء الموضوعة على مائدة ذات ارجل معوجة .

وضحك الممرض الذى تسلم المناوبة وفتح الباب وارسل فى اثر زميله بعض العبارات المفعمة بالمشاعر المماثلة . ثم اقترب من المعتقل الراقد بعينين مفتوحتين ورفع الكمادة المبللة من على وجهه بالملقط وصاح متهللا :

— اوه ، ما كل هذه الزينات فى وجهه ! تناسب تماما شجرة عيد الميلاد !

وتجشأ الشرطى المجدور المحدودب الواقف على مقربة بصوت عال .

فقال الممرض بصوت اخنف مظهرا سعة اطلاعه :

— يبدو من الاسلوب ان هذا من صنع السيد سطيرتشا نائب المفوض ! . . هل هو شيوعى ؟

نعم ، بالضبـ . . . — لفظها الشرطى بصعوبة ، ولم يستطع ان يكمل الكلمة فقد تجشأ ثانية .

واشاح الممرض ذو النظارة بيديه نحو الشرطى متقززا واسرع خلف الستارة . وعلى الفور عاد ودس تحت انف الشرطى المهتز من التجشأ لفة شاش بمحلول النشادر وكرر هذه العملية عدة مرات بالرغم من نخير الشرطى وسعاله ودموعه وسبابه .

ثم اتجه باهتمامه الى المعتقل ، فغسل جروحه بالمنجنيز ومسح بمحلول مركز من صبغة اليود على مواضع النزيف ، وفى النهاية كشف على قلبه ثم قال :

— مثله سيتحمل اكثر من استجواب . . .

وجىء بالافطار : كوب شاى وكسرة من الخبز الاسود اللزج

كمعجون النوافذ ، وبمناسبة العيد جاءوا بقطعة من الجبن الابيض المغطى بالعفن .

ونهض توموف قليلا ، وشرب الشاى الفاتر القليل السكارين الذى فاحت منه رائحة الخيش . ولم يأكل شيئا ، فقد كانت اسنانه تؤلمه ولثته تنزف ورأسه يدور .

وحوالى الظهيرة جاء نائب المفوض القصير مرتديا حلة التشريفة ذات الاشرطة المذهبة . وكان توموف قد عرف ان اسمه سطيرتشا . وتبادل مع الممرض التهنئة بالعيد ، وانقض على توموف كالوحش الذى يطارد فريسة وتفحص بعناية آثار «عمله» وسأله بابتسامة خبيثة :

– حسنا ، ماذا تقول ؟ هل اعادك بابا نويل الى صوابك ؟

وتطلع توموف الى السقف .

فقال سطيرتشا رافعا صوته :

– اننى اسألك ، هل ستقول الحقيقة ؟

فأجاب توموف وهو لا يزال يتطلع الى السقف :

– لقد قلت كل شيء . وانت وعدتنى بالنقود . اين هى ؟

– اخرس !

فردد توموف ببرود اعصاب رغم ان كل كلمة كانت تكلفه جهودا هائلة :

– انتم شاطرون فى الوعود ! . .

واصيب سطيرتشا بحالة هستيرية :

– سأريك النقود ايها الشيطان المثقف ! سأريك كيف تتظاهر بالغباء ! سأجعلك تتكلم . . .

وخرج سطيرتشا وهو يصب اللعنات والوعيد ، فقد حان موعد نوبته .

لم يزعج احد توموف بقية اليوم ، مما ساعده على ان يستجمع قواه قليلا . بل لقد أحس بعد الغداء انه اصبح اقوى . وقبيل المساء فقط ، عندما خيل اليه ان اليوم مضى على خير ، جاء الى المستشفى عريف الشرطة المناوب وساق توموف الى التحقيق بصحبة الشرطى حارس توموف . .

نفس الغرفة ولفس المقعد المخصص للسجين تحت التحقيق . كان كل شيء هنا معروفا لتوموف : الاثاث ، الارضية التي كان يلقى عليها عندما يعذبونه ، سحنة نائب المفوض ، الهراوة المطاطية وصورة الملك الذى كان خدمه الغيورون ينكلون منا «باحد رعايا جلالته» و . . اوه ، كلا ! هذا شيء جديد . . . فعلى الجدار ، بجوار صورة الملك الجبار ظهرت لافتة ضخمة متعددة الالوان . وفتح توموف فمه قليلا واخذ يهز رأسه وهو يتامل اللافتة باهتمام مبالغ فيه . كان مكتوبا فى الجزء الاعلى منها بحروف كبيرة : «البلشفية» . وتحتها رسم المصور مدفعا ثقيلا ونساء مربوطات اليه . كن جميعا مشعثات الشعر ، يحملن اولادهن الرضع على اذرعهن ، وقد ارتسم الرعب على وجوههن . ويسوقهن بالسياط فرسان القوزاق ذوو الشوارب والقبعات السوداء ذات الاسطح الحمراء .

وكانوا ملفوفين من قمة رؤوسهم الى اخمص ارجلهم بالاحزمة الجلدية وتتدلى منهم المسدسات والبنادق ، وفى فم كل منهم خنجر مدمى . وعلى جنب اللافتة ،وعلى امتداد ارتفاعها يقف هيكل عظمى فى كفن ابيض ويمسك بمنجل ضخم كتب على نصله بحروف تنزف دما كلمة «الشيوعية» . وعند اقدام الهيكل العظمى مقبرة تمتد الى ما لا نهاية بصلبانها المائلة .

وقال توموف لنفسه وهو يتأمل وجوه النساء المرهقة : «يا سلام ! بهذه الطريقة يريدون تخويف الشعب اذن ! . . ولكنهم سيفشلون . فالكادحات الرومانيات ، من فلاحات وعاملات ، وخاصة بنات بيسارابيا ، سيقلن عن حق ان مصيرهن الراهن الصعب هو الذى تصوره اللافتة . . .»

وتحول ايليا عن اللوحة ونظر الى الرجل القصير وادرك من نظرته ان نائب المفوض كان يراقبه طوال الوقت .

وقال سطيرتشا وهو يومى الى اللافتة :

— أتريد ان يحدث هذا فى بلادنا ؟ — واستطرد دون ان ينتظر الرد وهو يبتسم بخبث : — كلا ! لن نمكنكم من ذلك ،

كلا ! سنبيدكم جميعا قبل ان ترفعوا على رؤوسنا هذا المنجل ! اتسمع ايها الشيطان المثقف ؟ !

ضم توموف قبضته بقوة ونظر الى نائب المفوض بجراة وحقد واضح .

واثارت حركة الاحتجاج الصامت هذه جنون نائب المفوض القصير الضيق المنكبين والجبين ، والمتمتع بصلاحيات واسعة غير محدودة ، وذى الاسنان الصغيرة الصفراء ، والفم المقلوب دائما من الحقد ، والعينين الصغيرتين العكرتين المزرورتين ، والاذنين الكبيرتين الممدودتين . واندفع هذا الرجل من مكانه وانقض على المعتقل وامسك براسه واداره بشدة ناحية اللافتة :

– كلا ، بل انظر ! انظر ! هاهى نتائج افعال اخوانك ، ايها الشيطان البيسارابى !

واستولت على سطيرتشا نوبة اخرى من نوبات الحقد الوحشى ، فمضى يستخرج من ترسانة العبارات البوليسية الخاصة عبارة تلو اخرى ، ويتبعها بين الحين والحين «بتل هائل» من كلمات السباب .

وتطلع توموف باحتقار الى نائب المفوض وفكر فى نفسه لاارا‌ديا : «وهذا المعتوه يملك حق ضرب الناس وحرمانهم من الحرية دون ان يتعرض للعقاب . . . اما رايه فيرسل عبر رئيس الادارة العامة للمباحث فى تقرير الى الملك ! وبناء عليه تتخذ فى القصر «الحلول الجذرية» وتصدر «المراسيم» و«القرارات» وتوضع «الاجراءات» الموجهة لحماية النظام وتدعيم الحكم الذى تجسده الشرطة والجندرمة والجيش ومعالى الوزراء وجلالة الملك . . .»

وانقطعت افكار توموف وشتائم سطيرتشا بمجىء المفوض الطويل . كان هو ايضا فى نوبة عمل ، ويرتدى بمناسبة العيد زى التشريفة ذا الشريط المذهب العريض المتدلى من الاسبليطة .

– مرة اخرى يا توموف لا تتكرم بالوقوف عند حضور الرؤساء ؟ عيب ! ام تراهم لم يعلموك ذلك فى المدرسة الثانوية ، هه ؟ اين درست ؟

فاجاب توموف بلا رغبة ودون ان يتطلع الى المفوض :

– فى مدينة بولجراد . . . فى مدرسة الملـــك كارل الثانى الثانوية للبنين . . .

– هكذا ! فى مدرسة صاحب الجلالة ! ولكنك تسلك مسلك الجهلاء . . امر سيىء . . .

وظل توموف جالسا يحدق فى الارض .

وسأل المفوض الطويل بنبرة ثاقبة :

– حسنا ، وكيف الحال اليوم ؟ هل ستقول الحقيقة ام تامـر بان نبدأ كل شيء من جديد ؟

وفكر توموف فى نفســه : «نفس الكلمــات والاساليب من جديد . . . ان ما يسمونه حقيقة له اسم آخر تماما : خيانة» .

واجاب توموف :

– انا لا اعلم شيئا عن الامور التى تسألنى عنها ، ولســت مستعدا لأن اختلق على نفسى اى شيء ! ولو قتلتمونى !

وصر الرجل القصير باسنانه من الحقد ، بينما اقترب الطويل من توموف وسأله وهو يبتسم بمكر :

– واذا اثبتنا انك كنت تتلقى وتوصــل لآخرين المطبوعات الشيوعية ؟ بم تامرنا اذن ان نفعل بك ؟

فهز توموف وقال بلا مبالاة :

– لست ادرى كيف يمكن اثبات شيء لا وجود له فى الواقع !

– تنكر . . . حسنا ، ذنبك على جنبك .

وما ان قال الطويل ذلك حتى اعطى اشارة لسطيرتشا فخرج هذا من الغرفة على الفور . وجلس المفوض فى مقعده «الفوتيل» وراح يقلب صفحات عدد مجلة «رياليتاتيا ايللوستراتى» المخصص لعيد الميلاد .

وانتابت توموف شتى الظنون : «ربما اعتقلوا احد الرفاق ؟ وربما هذا فخ ؟ ومن الذى يمكن ان يكون هو الواشى ؟ اهو ليكا ؟ بالطبع هو وحده . . . واذا كان هو ، فما العمل ؟ هل انكر كـل شيء ؟ . .»

وفتح الباب خلف توموف ودخل احدهم ثم توقف عند العتبة . واستبدت الرغبة بتوموف فى الالتفات ومعرفة بسرعـــة من الـذى

سيواجهه . ولكنه بذل جهدا اراديا كبيرا ليجبر نفسه على البقاء جالسا دون حراك والحفاظ على تعبير اللامبالاة على وجهه . وفى تلك الثوانى المعدودة دار فى نفسه صراع متوتر بين اعصابه وعقلـــه .
واخيرا تنفس الصعداء عندما سأله الطويل هازئا :

– هل انت نائم يا توموف ؟ انظر هنا . . . هل عرفته ؟

فالتفت ايليا ببطء واخذ يتفحص القادم بصورة توحى بانه يرى لاول مرة هذه السحنة المجدورة وهذه القامـــة النحيلـــة المشوقة . فعجل سطيرتشا بقطع فترة الصمت التى طالت :

– ما لك صامت ؟ هل انعقد لسانك من هذه المقابلـــــة ؟

فاجاب ايليا بهدوء :

– ولماذا ينعقد ؟ اذا كان هذا السيد يعرفنى فليقل . امـــا انا فاراه لاول مرة .

كان ذلك ليكا . روى بالتفصيل كيف ابلغه قائد الجماعـــة السرية بكلمة السر لكى يقابل توموف ويتسلم منه المنشورات ، وكيف وصل الى المكان المتفق عليه فى الموعد المضروب فى ساعـة متأخرة من المساء ، وكيف القى كلمة السر وانتهز فرصـــة الظلام فوضع حلقة القيد بغتة فى يد توموف ، ولكن هذا وجه اليه ضربة قوية فى خن وركه .

وقال ليكا معتذرا امام مفوض المباحث :

– لقد انكمشت من شدة الالم رغما عنى ، فلـــم استطع ان اضع الحلقة الثانية فى يدى . . وهكذا تمكن هو من الفرار . .
والالتمدد الى جوارى دون حراك ! . .

اصغى ايليا الى الرواية وكأنه يصغى الى رواية ممتعة حقـــا ولكنها لا صلة لها به . فقد كان يعلم ان نتيجة التحقيق ستتوقف على سلوكه فى هذه المواجهة مع عميل المباحث . ولذلـــك حاول الا يكشف نفسه باية حركة او تعبير او تنهيدة . وقال لنفسه مؤكدا : «ينبغى ان اصمد ، وان العب اللعبة الى النهاية !» . ومضى فى اللعبة رغم ان رأسه كان يتحطم الما ، وزوره يغص غضبا . وقال لنفسه : «سامح الله رفاقنا . . كيف يجند للعمل السرى مثل هذا !»

وعندما انتهى ليكا اخيرا من روايته قال توموف بدهشة :

– لا استطيع ان افهم لماذا يحاول هذا الشخص ان يتقوّل عليّ بما لم يحدث منى ؟ ! ربما حدث كل ما رواه هنـــا مع شخص آخر ؟ وعموما ، فهل هو شخص سليم العقل ؟ . . . – قال ايليـا وهو يؤمئ نحو الخائن – ما هذا الهراء الذى يقوله عن الحلقة ؟ اية حلقة ؟ وما دخلى انا بذلك ؟

ولم يحتمل المفوض الطويل فقال :

– اسمع يا توموف ! اقول لك بالتى هى احسن . . . كفاك تصنعا للغباء . . والا فسوف اهتم بك كما ينبغى . . . احذر ! فلن تستطيع ساعتها ان تفلت من الاشغال الشاقة ، بل من اشياء اسوأ منها ربما . . . هيا ، الاحسن ان تعترف ، وستعمل مع هـذا الشاب . هو ايضا ركب رأسه عندما سقط فى ايدينا ، ولكنه ثاب الى رشده فى الوقت المناسب . . . وقد غفرنا له كل شىء واعطيناه مكافأة طيبة . انظر الى هندامه الآن ! والنقود ترن فى جيبه دائما ، وعموما . . . هيا بنا ننسى الماضى ونعقد صداقة ! موافق ؟

حملق توموف كأنما يريد ان يظهر انه لم يعد قادرا على ترديد نفس الشىء ، ومع ذلك قال :

– ليس عندى اية فكرة عن الاشياء التى رواها عميلكم ولا افهم ماذا تريدون منى ؟ ! كل هذا سوء تفاهم . . . ليس الا !

وخيم الصمت . وحدق ثلاثتهم فى المعتقل المستكن الممزق الثياب وكل منهم يفكر فيما ينبغى ان يقوله لكى يوقع به ويضطره الى الاعتراف . وكان سطيرتشا اول من وجد ما يقول :

– وماذا لو جئنا الى هنا بصاحبك الميكانيكى ايلييسكـــو ؟ وماذا لو اكد ما كنت تفعله ؟ ماذا تقول عندئذ ؟

خفق قلب توموف بقلق ، وومضت فى خاطره للحظة : «أحقاً سقط الرفيق ايلييسكو فى ايديهم ؟ ولكنه لا يمكن ان يشى . . . كلا ، هذا فخ ! استفزاز !» . ورد بعد ان تمالك اعصابه :

– هيا ، احضروه ايضا من فضلكـــــم . انكم تخوفوننـــى بالميكانيكى طوال الوقت : فمن هو بالنسبـــة لى ؟ ليس عمى او خالى . . لقد تعرفت به اثناء عملى فى الجراج ولست مستعدا ان اتحمل وزره اذا كان قد ارتكب شيئا . كل ما يمكن ان اقوله ان الجميع ،

بمن فيهم كبير المهندسين ، كانوا يعتبرون السيد ايليسكو الميكانيكى ، شخصا شريفا . اسألوا اى شخص وسيؤكد لكم هذا .

واحس ليكا ان المواجهة لم تحقق ما كان اسياده يؤملون فيه ، فبادر الى انقاذ الوضع :

– اذن فانت تقول انك لا تعرفنى يا توموف ؟

فقال توموف ساخراً :

– اوه ، وتعرف اسم عائلتى ايضا ! من زمان يا ترى ؟

فقال ليكا محتدا :

– لا تتمحك باسم العائلة ! لقد عرفته هنا ، الآن ، ولكنى اعرف اسمك الحركى من قبل . انت «كوستيكا» ! اما انا فكنت «ليكا» . انك تعرف ذلك جيدا ، فلا تتظاهر . . .

فهز توموف رأسه بأسى ، وقال :

– اليوم عيد الميلاد ، ويبدو ان عميلكم قد افرط فى الشرب ! لقد عمّدنى واطلق علىّ اسم «كوستيكا» . ولكن هذا فى منتهى الغباء . فاذا كان هناك فى الدنيا شخص اسمه «كوستيكا» فلتبحثوا عنه . فانتم لا تدفعون لهذا الشاب جيدا من اجل ان يضلل الناس وهو غائب عن وعيه ! . .

اسقط فى يد ليكا بسبب رد توموف ، فلم يكن يتمتع بذكاء ما . الشىء الوحيد الذى كان قادرا عليه هو ان يضع «اوراقه الرابحة» على الطاولة مباشرة . وازداد حدة وهو يقدم دليلا آخر خيل اليه انه لا يُدحض :

– لا تتعلق بقشة ! فانا اعرفك حتى من صوتك !

ولم يضطرب توموف ، بل استغل هذه العبارة ضد الخائن . سأله ببطء :

– تقول انك تعرفنى من صوتى ؟

– نعم من صوتك ، فحتى الآن لم يخنى سمعى ابداً !

فقال توموف موجها كلامه الى رجال الشرطة :

– انظروا يا حضرات الرؤساء . . يبدو ان عميلكم انساق وراء اكاذيبه . . . يقول ان سمعه لا يخونه . . . ولكنكم تعرفون جيدا ان صوتى كان مختلفا تماما عندما جئتم بى الى هنا . . . وبعد

ان فعلتم كل هذا بى فانى لا اتكلم بصوتى بل ببحة ! لقد حطمتم لى اسنانى . . . هنا . انا نفسى لا اتعرف على صوتى ، اما هو فقد عرفه على الفور . . . يا له من شاطر !

لمح العميل نظرة تقريع فى عينى نائب المفوض سطيرتشا ، فتوقدت البثور فى وجهه بالحمرة . وعقد حاجبيه القليلى الشعـــر واسرع يبرر موقفه :

— فليقل ما يشاء ، ولكنه هو ! اقسم بشرفى يا سيـــادة الرئيس ! لست مخطئا . . .

استدار توموف عنه بازدراء . اراد ان يؤكد له انه حتـــى وهو هنا ، فى المباحث ، معذبا ومضروبا ، فهو مفعم بالاحتقـــار للخائن .

وامروا ليكا ان يخرج ، وتبعه المفوض الطويل . وعندما بقى سطيرتشا مع المعتقل على انفراد بدأ يستخدم اسلوبه المعتاد فى الاصرار على ان يعترف له توموف باسماء من ساعدوه فى خلـع حلقة القيد عن معصمه واين اخفوا القيد ، ولكنه عندما لم يتوصل الى شىء ، صاح فجأة ودون اية صلة بما سبق :

— اتظن اننا لا نعرف ماذا كنت تفعل فى ايام الدراسة ؟ اين ذلك اليهودى الخبيث الذى كنت تصاحبه ؟ اننى اسألك ايـن هو ؟ ما اسم عائلته ؟ تكلم ايها الشيطان !

ادرك توموف على الفور من المقصود بالسؤال ، ولكنه تظاهر بانه لا يعرف اى شىء . ورسم على وجهه علامات الدهشة ولـــزم الصمت .

فاندفع سطيرتشا الى الطاولة وراح يقلب بعض الاوراق ، ثم صرخ :

— فولديتيـــر ! حاييم فولديتيـــر ! اين هو ؟ باســـم مسيحك ، ربك ، الهك ، روحك . . . تكلم !

ولم ينبس توموف ببنت شفة .

— اتصمت ايها الشيطان المثقف ؟ اننى اسالك اين ذلـــك الجاسوس البلشفى ؟ اليس هو الذى جرك الى العمـــل السرى ؟ اعترف ايها الشيطان ، اين هو ؟

فاجاب توموف وكانما ادرك الآن فقط عمن يدور الحديث :

– ومن اين لى ان اعرف ؟ اذكر انه فصل من المدرسة ، ومن يومها لم نتقابل ، فقد جئت انا الى هنا ، الى بوخارست ، اما هو . . . فربما بقى فى بولجراد . . . يبدو ان والدته تعيش هناك . . .

لم يذكر توموف الحقيقة عن عمد . فقد كان يعرف جيدا ان والدة حاييم ماتت اثناء المذبحة . روى له ذلك حاييم عندما تقابلا فى كونستانسا . وكان توموف يعرف والدة حاييم حق المعرفة . كانت امراة طيبة ، بشوشا ، هادئة . وعندما كان يحدث ان يبقى توموف طويلا لدى حاييم ، كانت دائما تقول : «فلتمكث قليلا عندنا يا ايليوشكا * ! علام تستعجل ! سنتعشى سويا . . لقد صنعت من نصف دجاجة مرقا ربما لم يذق الملك نفسه مرقا مثله فى حياته ! . . ابق . اذ ربما ياكل حاييم فى صحيبتك . . . انظر كم هو نحيل !»

وكان نائب المفوض سطيرتشا يعلم ايضا ان والدة حاييم فولديتير قد ماتت ، ولكنه لم يظهر ذلك ، وراح يردد :

– ياله من حمل وديع ! . . «لم ار شيئا !» ، «لا اعرف شيئا!» ، «لم اصنع شيئا سيئا !» ، «كل هذا سوء تفاهم !». ولكن تذكر ايها الشيطان البلشفى ، اذا لم تعترف بما كان بينك وبين ذلك اليهودى ، فسوف اضربك ضربا مبرحا ، ولن اضربك فحسب بل لن اجعلك انت وعجوزك الشمطاء تخرجان الى النور ، الى ان تتعفنا هنا عندى ! . .

تخيل ايليا على الفور والدته المريضة الوحيدة التى تعانى من العوز الدائم ، والتى ذاقت العذاب بسبب ابيه الذى حل ضيفا بجميع سجون المملكة تقريبا لاشتراكه فى انتفاضة فلاحى بيسارابيا فى تتاربونارى . واستولى على توموف غضب لا يطاق :

– لماذا اعتقلتم امى ؟ ماذا فعلت بكم من سوء ؟

فردد نائب المفوض ليقلده :

---

* صيغة تدليل مشتقة من اسم «ايليا» . المعرب .

— «ماذا فعلت بكم من سوء؟» ، «لماذا اعتقلتم امي؟» فليكن اننا اعتقلناها على الاقل لانها بنت متمرد بلشفي ! ولأنها ملات بنفس الروث راس ابنها الفاسد النسل ، الذى لا احد يعرف ممن حملته . . .

لم يتمالك توموف نفسه فانفجر غير عابئ بشيء :

— لا بأس يا حضرة نائب المفوض . . . ستحاسب يوما ما على كل هذا ! . . ستحاسب .

وصعق سطيرتشا ، وانكمش كالقط البرى قبيل الانقضاض ، ولوى شفتيه الضيقتين جانبا ، واقترب من المعتقل على مهل .

وصاح نائب المفوض بصوت رفيع ورفع يده :

— ماذا قلت ايها الشيطان البلشفي ؟ لى انا ؟ اتجرؤ على تهديدى ؟! سوف اسحقك . . .

نفد صبر توموف ، وخانته اعصابه تماما ، فامسك بيد نائب المفوض فى الهواء ودفعه بشدة الى جنب . وارتطم سطيرتشا بحافة المكتب . . .

ومد نائب المفوض يده بعصبية وهو شاحب الوجه من الذعر واخرج مسدسه من جيبه وحشاه برصاصة ، وانتظر لحظة ، ثم دار من حول المعتقل ببطء وهو ملتصق بالحائط ، وفقط بعد ذلك وثب الى الباب بقفزة وفتحه على مصراعيه وصاح مناديا الشرطى المناوب فى الطرقة بصوت عال . ووضعا كلاهما القيد فى معصمى توموف . ثم امر سطيرتشا الشرطى ان ينصرف ، ثم مسح ببطء حبات العرق من على جبينه ، واقترب من الحائط ، ونزع من المسمار الهراوة المطاطية المعلقة وفحصها من كل جهة . وابتسم وهو يقترب من المعتقل حتى لاصقه ، وسأله :

— اذن فانت لا تعرف شيئا عن الشيوعى حاييم فولديتير ؟ افلا تعرف ايها الشيطان البلشفى ماذا تعنى «اديو مامى» ؟ *

كلا ، لم يكن حاييم فولديتير يعرف بالطبع ، ولم يكن بوسعه ان يعرف ما حل بصديقه توموف ، وبينما كان يغبطه على

* وداعا يا ماما (بالرومانية) .

حياته الهادئة راح ياسى فى هذه الساعة على اويا فقط . وفى تلك الاثناء واصل الحاخام بن صهيون ماجرا تلاوة صلاة «مودين» ولما كان هذا السبت يوافق مطلع الهلال ، فقد انتقل الحاخام الى تلاوة صلاة «عطا يزارتا» بينما ردد المصلون معا «ينكى الوهينو . .»

وبعد فترة طويلة ، عندما انتهى بن صهيون ماجرا اخيرا من تلاوته الرتيبة ودق براحته الثقيلة على كتاب الصلوات ، افـــاق حاييم من خواطره المؤلمة واغلق «صدوره» . وكاد ان يتجــه الى باب الخروج ولكنه اكتشف انهم سيقيمون طقوس «بار ميتسوى *» لاحد الصبيان .

واعلنت فترة راحة قصيرة ، فانطلق المصلـــون الى الفناء وهم يتسابقون كما يفعل التلاميذ اثناء الفسحة . . . واقترب بـن صهيون من حاييم بوقار ، وقال بصوت هادئ ولكنه آمر :

– لقد جئنا الى هنا معا . . ومعــــا سنخرج من هنا . . .

وطاطأ حاييم راسه واخذ يراقب الصبى وهو يقبل «التيفللين»، المكعبات المربعة المغطاة بجلد رقيق اسود ، وكيف وضــع اول «التيفللين» على ذراعه اليسرى العارية حتى الكتف ، وبينما استمر فى تلاوة الصلـــوات ، فتل عليهـــا سبع حلقـــات من اعلى الى اسفل حتى بلغ اصبعه الوسطى فلف عليها ايضا ثلاث لفات مـــن شريط الحزام المتدلى من المكعب . واخيرا ، وبحذق القى عـــلى قفاه بحزام جلدى وجعل منه عقدة – اذ لا ينبغى ترك الراس حاسرا فى الهيكل لحظة واحدة – وثبت «التيفللين» الثانى على الجزء الاعلى من جبينه . وهنا بدأ الصبى يقرأ مختارات من التوراة بعاطفة مشبوبة وخشوع ، وهو يرتل كما ينبغى . واحيانـــا كان يسترق النظر الى الحاخام شزرا ولكن باحترام خاص . وكان بن صهيـــون منتصبا كالصخرة .

اما آخر مراسيم سن الرشـــد فكان اشبه بامتحان يعقـــد للمحتفى به . وكان بن صهيون اول من وجه اليه سؤالا . وتوالت ردود الصبى وكانها منطلقة من آلة اوتوماتيكية : بسرعة ووضوح

---

* طقوس دينية لادخال الصبيان الذين بلغوا سن الرشد فى العقيدة .

وايقاع . كان يقول فى اجاباته بان «التيفللين» الموضوع على اليد يسمى «شيل يد» و«شيل ذراع» ، والثانى المتدلى من الراس يسمى «شيل روش» ، وهما يحتويان على اشرطة جلدية تتضمن اربعة مقاطع من الكتاب المقدس ، وان «التيفللين» الموضوع على اليد يحتوى من الداخل على قسم واحد وفى كل فقرة سبعة اسطر اما «تيفللين» الراس ففيه اربعة اقسام فى كل قسم اربعة اسطر . وفى كلا «التيفللين» لف الجلد على شكل اسطوانة مربوطة بشريط ضيق من الجلد وبشعرة عجل يدعى «الحيوان الطاهر» غسلت حسب ترتيب معين . . وبعد ذلك اجاب الصبى بان نزع «التيفللين» عن اليد والراس ، اذا حدث ذلك فى يوم ظهور الهلال ، تصاحبه تلاوة صلاة «موساف» .

تذكر حاييم وهو يتابع هذه المراسم المملة كيف كان هو نفسه يجهد فى الاجابة بنفس الطريقة يوم بلوغه سن الرشد ، وكان ينظر الى الحاخام باعجاب ويتصوره مثل اله تقريبا . . . وقال الآن فى نفسه : «لو راى هذا الشاب كيف جاء هذا «الاله» ليلة السبت فى سيارة من مكان لا يعلمه الا الشيطان ، وكان يحمل مسدسا يحسده عليه حتى رجال عصابات شيكاغو !»

ولم ينتبه حاييم الى ان المراسم اوشكت على الانتهاء ولكنه ادرك ذلك عندما راى الشماس الاعرج يطوى «الطالس» فى كيس مخملى بال . ولكن الحاخام بقى فى مكانه . وفى تلك الاثناء اخرج والد الصبى لفة واخذ منها كعكتين احد هما عادية من البسكوت والاخرى بالعسل ، ثم صب خمرا عكرا مصنوعا من التين فى كؤوس صغيرة كالكستبان احضرها معه خصيصا .

ورفع الحاخام كاسه اولا ، وحور عينيه الكبيرتين وتلا «البركات» الضرورية فى مثل هذه المناسبات ، مباركا الثمار التى صنع منها هذا الشراب :

— باروخ عطا ادوناى الوهينو باره برى اجيفين ! * —

رتل الحاخام هذه العبارة وصب ما فى الكاس فى جوفه ثم مزّ بالكعكة

---

* بارك اللهم ثمار الكروم !

واعرب عن تمنياته بان يلتقى الجميع فى القريب العاجل على ارض الميعاد . وقال :

– اومين ! •

وردد المصلون وراءه بنفس النبرة :

– اومين !

فى الظهيرة عاد صهيون هاجرا وحاييم الى المنزل . وربما لم يتسن لحاييم ان يرى من قبل كل هذه الاطعمة الوفيرة التى حفلت بها مائدة العيد فى دار الحاخام . كان هنا الفسيخ المقطع بالجوز ، والبيض المسلوق المختلط بدهن الفراخ ، ومعجون كبدة بالبصل المحمر و«بيتسا» من ارجل الفراخ ورقابها واجنحتها وقوانصها وغيرها من امعائها المغطاة بصلصة من صفار البيض المضروب واللوز المسحوق والنبيذ ، والمزين بشرائح الليمون . وفى وسط المائدة وضع صحن كبير يحوى فجلا مبشورا مشربا بدهن الاوز والقرفة . ولا تخلو اية مائدة من موائد يوم السبت من هذا الطبق المفضل لدى الحاخام . وفى صحن عميق وضعت الشطائر القبرصية الشهيرة المحشوة بلحم الفراخ المفروم مرتين . واخيرا كان هناك سمك محشو فى مرق متجمد احمر غامق بسبب البنجر ! اما طبق المائدة الرئيسى فقد اعدته تسيليا بنفسها ، وشهدت على ذلك اصبعها المضمدة .

كان الجميع حاضرين . وانتهز حاييم فرصة وقوف العمة بيتيا وحدها بجوار النافذة فاقترب منها وابلغها بنبأ اختفاء اوينّا . واتضح ان الحكيمة على علم بما حدث . وذهل حاييم للهدوء الذى استقبلت به العجوز النبأ . فقال فى نفسه بمرارة وهو ينصرف عنها : «اهى ايضا بلا قلب !»

جلس الجميع فى اماكنهم ولكن احدا لم يقرب الطعام فقد كانوا ينتظرون جلوس الحاخام فى كرسيه الكبير البالى .

وتطلع حاييم الى وجه الحاخام المشبع بالرضى عن النفس وتذكر اللوحة البدائية التى عثروا عليها منذ عدة سنوات فى علّية

• امين .

منزلهم . وقال حاييم فى نفسه : «لو نزعنا عن الحاخام طاقيتـه المخملية لاصبح نسخة طبق الاصل من جريشكا راسبوتين !» • .

كان بن صهيون هاجرا راضيا ، فقد سار كل شىء مثلما رسم له : اختفت اوينا ، وامتثل حاييم فيما يبدو لهذه الخسارة ، كمـا اعد الغداء بصورة رائعة . وانشد الحاخام بصوت خافت لحـن «زميريس» المناسب لمائدة يوم السبت ، وما ان وضع فى طبقه ملعقة من الفجل حتى فتحت النافذة على مصراعيها واطل منها راس خادم ستيفانوس الاسود الشعر .

وصاح الصبى بصوت عال وهو يدخل :

– كالى ميرا ! ••

واراد ان يبلغ شيئا ولكن الحاخام استوقفه ، ونهض ببطء وانصرف الى المدخـل . وعلى الفـور تبعتهمـا تسيليا . وساد الصمت غرفة الطعام .

نظر حاييم الى النافذة فرأى تسيليا تركض الى آخر الفناء ، حيث يقوم الجناح ، ومرقت من الباب ، ثم خرجت راكضة ، واختفت ثانية خلف باب الحظيرة . ودهش حاييم وقال لنفسه : «ما الذى تبغيه هناك ؟» . واقترب من النافذة فسمع صوت تسيليا الخافت تقول :

– انها ليست هناك ! فتشت كل ركن . . .

وذهل حاييم للخاطر لذى قطن له : انهم يبحثون عن اوينا !

وعاد بن صهيون وتسيليا الى غرفة الطعام . كانا منزعجين بصورة واضحة ، رغم محاولتهما اخفاء ذلك . وجلسا الى المائدة . وانقض الجميع على الطعام ما عدا حاييم . وسرعان ما نهض وشكرهم على الوليمة واراد ان ينصرف . ولكن الحاخام اوقفه وقال له بعـدم رضا انه لا ينبغى ان يترك مقعده حتى يغادر الاكبر سنا المائدة .

واخرجه سؤال العمة بيتيا من استغراقه فى التفكير . كانت تتساءل عما اذا كان سيتركهم قريبا .

• جريجورى راسبوتين (١٨٧٢–١٩١٦) – محبوب قيصر روسيا الاخير نيقولاى الثانى والقيصرة الكسندرا فيودوروفنا . مغامر . المعرب .

•• نهار سعيد (باليونانية) .

فاجاب حاييم بحدة ، ودهش هو نفسه لجراته :

– لن اسافر الى اى مكان ما لم اجد اويتا !

ودهش الجميع لهذه الاجابة القاطعة الصادرة عن شاب خجول بطبعه وسرت فى وجه بن صهيون ابتسامة حاقدة . فقال مخاطبا العمة بيتيا بهدوء مفتعل :

– يقولون ان الغريب الاطوار اسوأ ممن ترك دينه واعتنق المسيحية . . . واذن فالناس على حق . . . – والتفت الحاخام الى حاييم وقال – حسنا ، فلنفرض انك لن تجدها ؟ ماذا اذن ؟ لن تسافر ؟ هراء ! بالطبع ليس لانك مقيم عندنا وتثقل علينا . . . لا سمح الله ! ولكنك ايها المتطوع ، يا ولدى العزيز ، قد تدربت فى «الاكشارا» ، ومكانك الآن فى ارض اسرائيل فقط ! ثم خبرنى من فضلك ، ما الذى وجدته فى هذه «الشكسا» * الصماء البكماء ؟ الانها رعتك اثناء مرضك ؟ حسنا ! وما الذى يمكن ان يترتب على ذلك ؟ وهل قليل ما فعلته من اجلك العمة بيتيا ؟ ونحن كلنا ؟ من الذى كان يعد لك الطعام ؟ومن غير تسيليا كان يذهب الى الاتراك من اجلك ليجلب لبن الماعز ؟ فهل تدرى اية كلاب لديهم ؟ هل سالت عن ذلك ولو مرة ؟ فليهبنى الله من الاعوام السعيدة بقدر المرات التى كانت تعود فيها تسيليا باللبن مذعورة ، شاحبة الوجه ! فهل هذا لا يساوى شيئا فى نظرك ؟

فسدت وليمة العيد ، ولم يعد هناك مجال للكلام عن الخطبة . كان الحاخام يدرك ذلك ، فنهض ، ونهض حاييم ايضا وشكرهم على الغداء ، ومضى متجها الى الباب ولكن الحكيمة اوقفته ، وسألته بصوت خافت :

– هلا اوصلتنى ؟

فاجاب حاييم دون رغبة :

– تفضلى .

ونادى الحاخام الممرضة وانحنى على اذنها هامسا :

– اخبرى هذا المعتوه ان تسيليا تملك فى رصيد حسابها

---

* الفتاة غير اليهودية .

فى بنك «امبريال بنك اوف بريتيش» فى القدس اثنى عشر الف جنيه استرلينى عدا ونقدا ! اتسمعين يا عمة بيتيا ؟ اثنا عشر الفا ! افهميه ما معنى هذا ! فاننى ارى انه ليس ذكيا كبيرا ولا غبيا صغيرا . يرتدى بنطلونا مهترئا ويتصرف ككبار السادة . . .

فقالت الحكيمة :

– اننى اعرف يا حاخام . انت نفسك ترى انه شاب ذو خيال . ولكن اطمئن ، سابذل جهدى . . . وهل هذا يحتاج الى كلام ؟ . .

عندما وصل حاييم والعمة بيتيا الى منزلها سألته وعدسات نظارتها السميكة تلمع :

– هل تحب اويّا ؟

فاجاب حاييم دون تردد :

– نعم !

فتنهدت الحكيمة بزفرة ، وقالت :

– لم ادرك ذلك الا اليوم . وارى انك لا تثق بى . . . عبثا . . . لا تعامل الجميع بمعيار واحد . . هل تسمع ؟

وهز حاييم كتفيه . ودعته الحكيمة الى بيتها لدقيقة :

– هيا اقول لك ! هل تفهم ؟ انا لست عدوتك . . .

وما ان تخطى حاييم العتبة حتى وقف حائرا . كانت الغرفة نظيفة ، بستائر من الدانتلا ، وطاولة مغطاة بمفرش ابيض . وكان الباب المغلق يفضى فيما يبدو الى غرفة اخرى او الى المطبخ .

وقالت العمة بيتيا برقة وهى تنظر الى حاييم بابتسامة حزينة :

– افتح هذا الباب . . ستكون الحياة صعبة عليك يابنى . . الخجل ليس افضل صفة فى الرجال . – وعندما رأت ان حاييم ما زال يقف مترددا ، دفعت هى الباب . فى الغرفة الصغيرة الضعيفة الضوء كانت اويّا تقف مذعورة فى الركن .

وقالت العمة بيتيا :

– اترى . . . ليس الناس جميعا من طينة واحدة . . بل مختلفون . . . تذكر ذلك طول عمرك ! لقد جاءتنى المسكينة فى الفجر ممزقة الثياب ، حافية مليئة بالكدمات . لم استطع ان افهم شيئا ! ماذا حدث ؟ . . انظر اية تضحية اقدمت عليها دفاعا عن شرفها !

مسد حاييم ذراعى اويّا المخدوشتين ، وضمها اليه برقة فاخذت الفتاة ترتعش كالمحمومة من الخوف والفرحة .

ومضت العمة بيتيا تقول :

– لقد كانت عند ستيفانوس المشهور هنا . انت طبعا لا تعرفه فلتحرقه جهنم . والآن ينبغى ان تعجل بالانصراف ، واحذر لاقدر الله ان تتفوه بانها عندى . . . . هل سمعت ؟ سوف ترحل من هنا ، اما انا فسأبقى لاعيش ما تبقى لى من ايام . . . وليس عندى كما تدرك اى رصيد فى البنك . . . ولكنى لا اشكو . يكفينى القليل ! . . طوال حياتى كنت اساعد الناس . . وسوف اساعدكما .

اراد حاييم ان يقول للحكمية انها ردت اليه حياته مرتين : عندما ساعدته على مقاومة المرض الشديد ، والآن عندما آوت فتاته الحبيبة . اراد حاييم ان يقول هذا الكلام لهذه المراة العجوز الطيبة التى اعادته الى الحياة وتهديه الآن السعادة ، ولكن العمة بيتيا قاطعته ما ان تفوه باول كلمة :

– ارجوك ، انصرف الآن . كن على حذر مع حاخامنا ! انك لم تعرفه بعد ! ولا داعى لان تعرفه . . . اكنت مقيما عنده ؟ وشفيت ؟ الحمد لله . . انني افهمك ! أتظن لا ؟ تحبها ؟ حسنا ، هذا من عند الله.ولكنى اصارحك كابنى . . . انا لا اتصور كيف ستعيشان معا ؟ ! فانكما ترحلان الى هناك ! فليجعل الله حياتكما هنيئة ! ولكن الحياة غادرة . . ما اغدرها من حياة ارجو الا تعرفاها ! . .

٣

كانت سفينة «ترانس اطلانطيك» العتيقة والقبيحة الشكل ، والمشهورة سابقا بسرعتها ، تغادر الخليج ببطء مخلفة وراءها السفن التجارية الصغيرة البالية ، وقوارب الصيد الغريبة الاشكال ، وزوارق الحراسة البريطانية الرهيبة ، والمباني القبرصية القميئة الممتدة على طول الشاطئ . وكان ذيل الدخان المتصاعد كعمودين كثيفين من مدخنتى السفينة الكبيرتين يحجب الجزيرة كستارة سوداء .

وتناثرت فى كل مكان فى غرف وسطح السفينة الحقائب واللفف واناس لا حصر لهم . كانوا متعبين ، متوترين ، قلقين : ففى الامام ، فى مكان ما خلف هذا الافق الازرق كان بانتظارهم حياة جديدة . ترى كيف ستكون ؟ افضل من تلك التى تركوها الآن ؟ وعندما رات امراة شابة بشعر اسود ناعم ممشط ومجموع بعقدة كثة من الخلف تلك الفتاة المذعورة الواقفة بالقرب منها فى ثوب خفيف ، دعتها الى الجلوس بجوارها على الصندوق . وقال ببشاشة وهى تحمل على ذراعيها احد ولديها التوامين :

— بيتى ، بيتى . . نيمين زى بلاتس . . . •

ونظرت اويا الى حاييم متسائلة ، وعندما ابتسم ودفعها برقة نحو المراة ذات الشعر الاسود ، جلست بخجل على حافة الصندوق . لقد تمكنت باعجوبة من الافلات من حانة ستيفانوس ، والتخلص من مطاردة بن صهيون هاجرا المنتقم القاسى ، ولكن الخوف لم يفارقها بعد ، ولم تحس بالسعادة . بالعكس ، كانت تنظر بأسى الى البحر الذى انزل بها كثيرا من البلايا . وخيل اليها الآن ايضا ان البحر الساطع الساكن سيوقع بها مصيبة .

وكان حاييم ايضا لا يكاد يصدق ما حدث : فهو مع اويا على ظهر الباخرة ! كان ذلك اشبه بمعجزة ! وظل لا يحول عينيه عن وجه اويا الرقيق ، ويمسد يدها ، ويلمس كتفها وكانما يريد ان

• تفضلى ، تفضلى بالجلوس (بالالمانية) .

يتأكد من ان هذا ليس حلما . نعم . الدنيا لا تخلو من الطيبين . ولو لا العمة بيتيا لما اصبحا معا . وقد ساعدهم ايضا ميكانيكى الباخرة اليونانى ، وكانت الحكيمة قد انقذت طفله المريض من موت محقق . لقد نقل اويا الى السفينة سرا . وكانت المخاطرة كبيرة ولكن ظرفا معينا حدث ، وظل لغزا غامضا بالنسبة للميكانيكى والحكيمة ، وهو الذى ساعدهما على تنفيذ خطتهما . فبينما كان الزورق الصغير يقترب بالفتاة من السفينة كان الصخب الذى عمها من قبل قد هدأ . فالحمولة «الهامة بصفة خاصة» والتى نقلها رجال بن صهيون هاجرا من الشاطئ قد تم وضعها فى العنبرين الرئيسيين وكان البحارة يستريحون بعد هذا المجهود الشاق فلم يلحظ احد من افراد الطاقم الفتاة وهى تصعد الى السفينة وحاييم يستقبلها .

وبمعونة العمة بيتيا ايضا استطاع حاييم ان يضع اسم اويّا فى «شهادته» كزوجة ، ولكن حتى العمة بيتيا لم تستطع ان تحصل له على شهادة زواج مسجلة حسب العرف والقانون . والآن لم يعد هناك ما يعكر سعادة حاييم . فماذا تعنى بعض الشكليات ! كل شيء سيكون على ما يرام ، فقد خلفا وراء ظهرهما اصعب الاهوال .

وسأل حاييم المرأة ذات الشعر الاسود وهو يبحث عن الكلمات الالمانية بصعوبة :

— هل انت من المانيا ؟

فاجابته بصوت خافت وهى تنظر بقلق الى المرأة المسنة الجالسة بجوارها ، وكانت امها :

— كلا ، من النمسا . وهل تتحدث الإلمانية ؟

فاجاب حاييم :

— قليلا جدا . . ولكنى افهم كل شيء تقريبا .

وتحولت المرأة عن والدتها لكى لا تثير اشجانها فيما يبدو بالذكريات الحزينة . وروت لحاييم ، وهى تحاول ان يكون صوتها خافتا بقدر ما يمكن ، ان اسرتها كانت تعيش فى فيينا ، وكان ابوها طبيب اسنان وزوجها عازف كمان . اما هى فعازفة بيانو ، وكانت

تعطى دروسا فى الموسيقى . وقد قتل النازيون اباها وزوجها على مشهد منها . ولكن بعض الطيبيـــــن ساعدوهم على الهجــرة الى يوغسلافيا ، والآن يتوجهون الى يافا .

وقالت عازفة البيانو فى ختام روايتها :

– ذاهبون الى خالى . انه مهندس بناء ، خبير خرسانة . هو الذى رتب لنا «الدعوة» . وآمالنا كلها معقودة عليه الآن .

لم يعد حاييم يدهش الآن من كثرة الشيب فى شعر هــذه المراة الشابة ولا من الظلال الزرقاء تحت عينيها ، ولا لسفرها مع اطفال صغار على سطح السفينة ولا لذراع والدتها اليمنى المدلاة بلا حياة . . . وتذكر والدته التى وافاها الاجل سريعا بعد المذبحة التى دبرها بلطجية خوريا سيمـــا زعيـــم «الحرس الحديـــدى» الفاشيستى .

وابتسمت عازفة البيانو وقالت :

– غدا ينتهى كل هذا الكابوس . . . الحمد لله لقد نجونـا الآن ! . .

وامتلات عيناها المشرقتان بالدموع .

والتقط حاييم خيط هذا الحديث عن طيب خاطـــر ، ومضى يشرح لاويتا انهم سيقضون ليلة واحدة فقط على السفينة . وادركت المراة ما الذى يوضحه الشاب «لاخته» ، فراحت هى الاخرى تشرح للفتاة بحركات اليدين وتعابير الوجه ان حياة جميع الوافدين الى فلسطين على ظهر هذه السفينة ابتداء من الغد ستسير فى مجرى جديد ، وستكون حياة طيبة ولا بد سعيدة .

واستطردت عازفة البيانو تقول بثقة :

– نعم ، نعم – وابتسمت لاويتا بمودة وضمتها اليها . – هكذا سيكون ، طبعا ! سترين ، سترين ! . .

حدقت اويتا بعينين مفتوحتين تارة الى هذه المراة الرقيقة المدهشة ، وتارة الى فتاها الحبيب ، ولم يكن واضحا ما اذا كانت تصدق هذا الذى يحاولون توضيحه لها واقناعها به ، ام ان الخوف والريبة لا يزالان يسيطران عليها مثلما من قبل .

اخرجت عازفة البيانو من محفظة بنية كبيرة مظروفـــا قديما

ومدته لحاييم . وكان مكتوبا عليه عنوان الراسل ، خالها مهندس البناء غوردون من يافا ، واسم عازفة البيانو . كان اسمها شيللى بيكر . . .

مالت الشمس نحو المغيب . واظلم البحـــر الهادئ البراق كمرآة وكأنما غطاه الصدأ . وكان كثير من المسافرين قد تعارفوا على بعضهم البعض ورووا لبعضهم البعض من اين جاءوا وهل لديهم اقارب فى «ارض الميعاد» ، وماذا يعمل هؤلاء الاقارب وما هـــو وضعهم المالى . وكان سؤال واحد يشغل بال الجميع : هل سيحصل الوافدون الى فلسطين على عمل ومسكن ، ام سيكون عليهم ان يسعوا ايضا لتدبير هذا وذاك ؟

وكان يلوح من الاسئلة المستعجلة والاجابات المستعجلـــة مثلها قلق هؤلاء الاشخاص وعدم ثقتهم فى الغد ، والرغبــــة فى الحصول على تأييد وطمأنة وامل فيما هو افضل .

وبجوار حاييم استقرت مجموعة صغيرة من الرجال الذيـــن كانوا يتحدثون بحيوية . وكان الحديث يدور عن احداث الحرب : عن اشتراك المقاتلين البولنديين السابقين فى القتال على خط الدفاع الفرنسى «ماجينو» ، وعن اغراق سفينة تجارية بريطانية فى منطقة ما من المحيط الاطلسى ، وتجادلوا فى امكانية تسلل الغواصات الالمانية الى البحر المتوسط ومهاجمتها لسفن الركاب .

وفى هذا الصدد قال شاب ذو لحية خفيفة قصيرة :

– لقد حالفنا الحظ ، فالسفينة تسير تحت علم دولـــــة محايدة !

فقال رجل نحيل يضع نظارة سوداء بنبرة الشخص المطلـــع على الامور :

– لقد اهتم البعض بذلك فى الوقت المناسب . ففى مثـــل هذه الفترة العصيبة ليس مـــن السهل ان تحصل على سفينة . . ولكن . . امكن تدبير ذلك ! فكيف ولماذا ؟ لانهم هناك ، فى الدوائر العليا ، يعيرون هذه الرحلة اهمية كبيرة . . .

فقاطعه رجل سمين صغير يرتدى قبعة من القش وسترة فاتحة

اللون مخططة . وتدلت سلسلة ذهبية ثقيلة من عروة سترته الى داخل جيبه الجانبى :

— اتظن اننا صيد ثمين الى هذه الدرجة ؟ ! ام انك تظن ان عنابر هذه الخرقة البالية محشوة بالذهب ؟

فقال الشاب ذو اللحية مؤمنا على ما قال ذو النظارة السوداء :

— سواء كنا مهمين ام لا ، وسواء كان فى العنابر ذهب ام لا فانهم فى مكان ما ، لعلمك ، يعيرون لهذه السفينة بالذات اهمية كبيرة . ولهذا السبب بالذات سيصل كرشك ذو السلسلة الذهبية بسلام الى ارض اسرائيل ! . .

وسدد الشخص ذو النظارة السوداء نظرة ثاقبة الى الرجل السمين وقال بلهجة ذات دلالة :

— وعموما فاننى لا انصحك بتوجيه اسئلة فارغة .

فقال الرجل السمين وقد شعر بالاهانة :

— وماذا هناك ؟ ما الذى سألته ؟ ماذا ؟ ! وهل هذه مدمرة حربية ؟ ! يا سلام ! — ولوح بيده هازئا . — اننا نجيد اطلاق الفقاعات من انوفنا ونصيح فى العالم اجمع مؤكدين انها مناطيد . دعونى وشأنى . . . لست صبيا ، فاننى اعرف الاعيب المتطوعين هذه من زمان ! نعم ، نعم . . لا تحدقوا فىّ هكذا . . . اطمئنوا ، فنحن ايضا نعرف بعض الامور ! . .

لم يهتم حاييم بهذه المشادة ، فالعالم ملىء بالثرثارين . ومع ذلك فقد فكر بانه لا بأس ابدا اذا كانوا «فى الدوائر العليا» قد اهتموا لسبب ما اهتماما خاصا بسلامة رحلة هذه السفينة .

اختفت الشمس خلف الافق تاركة فى طرف السماء خطوطا حمراء . وحمل النسيم الخفيف عبر السفينة روائح شهية من المطبخ . وخرج من مقصورات الدرجتين الاولى والثانية ركاب ينتمون الى المجتمع الراقى ، اولئك الاشخاص اصحاب النفوذ والذين ادوا «خدمات خاصة» للصهيونية ، اولئك السادة الذين كان «المركز القومى» يعتبر هجرتهم فى الدرجة الاولى من الاهمية .

تجمهر الرجال فى الصالون نصف الدائرى ذى الستائر التى حال لونها من الشمس . كان الاستعداد يجرى على اشده لصلاة

العشاء . واشعل المصلون الذين كانوا يحيون الذكرى السنوية لوفاة اقاربهم بعض الشموع . وكان عليهم ان يرتلوا بخشوع صلاة «فاديش» التى تليق بالمتوفى الورع . وتجمع الرجال الذين تلوح عليهم سيماء الجدية ، ليقيموا شعائر «مينين» التى تتطلب ان يجتمع للصلاة ما لا يقل عن عشرة ذكور ممن بلغوا الثالثة عشرة .

اطل حاييم فى باب الصالون . وعندما رأى الرجال الذين يحملون كتب الصلاة فى ايديهم احس بخيبة امل فانصرف ومضى يتسكع بعيدا . احس هو واويا بجوع شديد . واخيرا تمكنا ، بعد ان ابرزا كوبونات الاكل من بطاقات السفر من حشر انفسهما فى قاعة المطعم المزدحمة . لأول مرة كانت اويا تجلس مع اناس غرباء يلبسون ثيابا فاخرة على طاولة واحدة مغطاة بمفرش ناصع البياض . ودق قلبها بعنف وتورد خداها الاسمران .

وجئ بالعشاء . ولم تلمس اويا شيئا ، وظلت تختلس النظرات حولها ، وكأنها تخشى ان يطردوها فى اية لحظة . وذهبت هباء كل جهود حاييم فى تهدئة روع الفتاة وجعلها تأكل . عندئذ اخرج من جيبه صحيفة ، ودون ان يلقى بالا لنظرات الدهشة فى عيون الجالسين معه الى الطاولة ، لف فيها الفطائر والجبن .

وعندما صعدا الى سطح السفينة مدت اويا يدها الى اللفة وهى تبتسم ابتسامة مذنبة ، ومضت تلتهم الفطائر بشهية . وابتسم حاييم وهو يغالب الغصة التى امسكت بزووره .

انتعشت الحركة على سطح السفينة ، فقد رفع نسيم المساء المنعش والطعام الشهى الوفير من معنويات الركاب . وتناهت من مؤخرة السفينة اغنية مرحة .

وقالت شيللى مخاطبة حاييم واويا القادمين :

— آخر ليلة فى البحر ! سنستيقظ صباحا وتلوح لأعيننا شواطئ فلسطين . .

وتنهدت ام شيللى وقالت :

— ليت ذلك يحدث بسرعة . لم اكن اظن ابدا ان الانسان يتعرض لكل هذه المصائب ولا يموت .

وحمل حاييم فى يديه دودى الصغير ، احد التوامين ، واسرع مع اويًا الى المكان الذى تناهت منه الاغنية .

كانت مجموعة ضخمة من المتطوعين تغنى عند مؤخرة السفينة امام السطح المكشوف :

قومو قومو هولوتسيم
قومو قومو هاردوليم !
قادما ميزراحا !
ميزراحا آقادما ! *

كان حاييم يعرف هذه الاغنية ، فقد كان يغنيها فى الامسيات اثنا' «الاكشارا» . فراح يردد معهم الاغنية ويرقص على ايقاعها . وكركر الصغير بصوت رنان وهو جالس على ذراعى حاييم .

لم يشعر حاييم على الفور بان اويًا تهزه بشدة . والتفت فراى شيللى تفتش بنظراتها فى الحشد باضطراب . ورفع حاييم يده فمضت شيللى تشق طريقها اليه على عجل . واقتربت منه حتى لاصقته ، وهمست فى اذنه بان شيئا غريبا يحدث على ظهر السفينة . اما المتطوعون فواصلوا الانشاد بجذل :

بانو-بانو باديريخ !
بانو-بانو باديريخ !
كى هولوتسيم — اقريم
اوميريم — اكشيم ! **

انتهت الاغنية ولكن المغنين بدأوا اغنية اخرى عسكرية . بينما اشارت شيللى الى متطوع فى قميص من لباس خاص بكتافيات ، مشمر الكمين حتى المرفقين ، ويضع على جيب صدره

---

* قوموا ، قوموا ايها المتطوعون ، قوموا ، قوموا ايها الهاردوليون ، الى الامام نحو الشرق ! الشرق فى الامام ! (الهاردوليون اعضاء «هاردوليا» وهى فرع من منظمة صهيونية تعمل فى تجنيد الشبان وتهجيرهم الى فلسطين .)

** استعدوا ، استعدوا للرحيل ! استعدوا ، استعدوا للرحيل ! المتطوعون اليهود يهدولكم التحية !

5*

نجمة سداسية زرقاء كبيرة . كان يشق طريقه وسط الحشد ويصدر اثناء سيره تعليمات ما ، فينصاع لها الشبان والشابات المتطوعون بلباسهم الخاص . واصبح صوت كورس المغنين اضعف فاضعف ، حتى انقطع الغناء اخيرا . وساد الهرج بين المتطوعين ثم تردد امر : على جميع المتطوعين ان يجتمعوا مع مجموعاتهم وعلى الركاب اخلاء مؤخرة السفينة والعودة الى مقصوراتهم واماكنهم .

لم يكن احد يدرى السبب فى ذلك وما الذى يعده المتطوعون ، فراح البعض يسخر منهم ، والبعض الاخر يشتم ، والبعض الثالث اذعن فى صمت واتجه الى مقصوراته . وسيطر القلق على الجميع .

وعاد حاييم واويًا وشيللى الى مكانهم على السطح . وبجوار صندوق ادوات الاطفاء وقف الشخص السمين ذو السترة المخططة . كان يمسك فى يده ساعته الذهبية ذات السلسلة ويقول لام شيللى بسخط :

– اقاموا الدنيا واقعدوها هؤلاء ال . . . ! والسبب ؟ الداعى ؟ اين ؟ ! فى وسط البحر . يريد متطوعونا ان يقيموا عرضا عسكريا غدا بمناسبة الوصول الى فلسطين ! افلا يستطيعون عمل هذا التدريب بهدوء وسكينة ، ووقار ودون صخب . ولكن لا ، فهم بحاجة الى ان يخاف الناس ويصابوا بالذبحة الصدرية . . .

اراد حاييم ان يبدد القلق المسيطر ، ولذلك تظاهر بانه يصدق السمين وقهقه ضاحكا . وكانت شيللى جالسة ، شاحبة الوجه ، مذعورة ، وقد ضمت الى صدرها وليديها . كانت اشبه بالدجاجة الحاضنة التى تحرس كتاكيتها .

وثار القلق فى نفس اويًا وهى تنظر اليها محاولة فهم اسباب هذا الاضطراب ، ولم تهدئ روعها ابدا ضحكات حاييم . فقد حدقت فى عينيه فاحست فى نظراته قلقا ما .

وسأل حاييم عازفة البيانو :

– هل فهمت ما قاله هذا السمين الظريف ؟

– يستعدون لاستعراض . . ولكنه شىء غريب . . .

فقاطعها حاييم بلطف :

– ما هو الغريب ؟ – واضاف ضاحكا – انهم متطوعون ! وهم يتدربون كالجنود . اليس كذلك ؟ بالطبع انت تعرفين من هم «المتطوعون» ؟

هزت شيللى كتفيها وقالت بعدم ثقة :

– شىء شبيه «بفرق العاصفة» . اليس كذلك ؟ بالطبع انت تعرف ما هى «فرق العاصفة» ؟

اتسعت عينا حاييم الرماديتان ، ولكنه اكتفى بهز راسه . . فقد كان موضوع الحديث حساسا للغاية ، وكان المتطوعون ينتشرون من حولهم ، ولذلك وجد من الحكمة ان يلزم الصمت .

ولفتت انتباه حاييم فتاة فى زى متطوع . كانت تروى بانفعال شيئا ما للركاب المحيطين بها ، فاصغى حاييم . كانت تتحدث عن سفينة حربية ما تطارد سفينتهم وتطلب منها فيما يبدو ان تتوقف .

ويظهر ان هذه الاشاعة قد انتشرت وسط الركاب ، فاندفع الكثيرون منهم نحو الجانب الآخر للباخرة على امل ان يروا السفينة الحربية . وفجاة مزق سكون البحر دوى طلقة مدفع .

دب الذعر على سطح السفينة ، واجتاح الركاب كموجة عاصفة .

– طوربيد !

– اننا نغرق ! . .

وتدفق الركاب من المقصورات والعنابر الى السطح واندفعوا الى قوارب النجاة وهم يتخاطفون اطواق النجاة واحزمة الفلين من بعضهم البعض . كانت وجوههم شاحبة ، عرقانة ، وعيونهم جاحظة من الرعب ، وشفاههم مقلوبة من الصرخات الهستيرية . . واحس حاييم بالرعب يشلج اطرافه ، اذ لم ير فى حياته شيئا اهول من هذا . . لقد مال السور الحديدى الذى يطوق السطح تحت ضغط الكتلة البشرية المجنونة وكان على وشك ان ينهار بين لحظة واخرى . وطغت الصيحات التى تمزق نياط

6—690

القلب ، الصادرة عن اناس تملكهم الرعب ، طغت على كـــل شىء حولهم . . .

وفى تلك اللحظة ظهر البحارة ومجموعة من المتطوعين عـــلى سطح السفينة . واعملوا قبضاتهم دون حرج فأبعدوا المسافرين عن الاسوار دون ان تأخذهم شفقة بالنساء او الاطفال وغيـــر عابئين بالصرخات اليائسة والعويل .

ومن السطح العلوى اخذ الرجل القصير اللحية يدعو الركاب الذين جن جنونهم الى الهدوء عبر بوق مكبر للصوت واوضح لهـــم انه لا توجد اسباب للذعر . .

لقد عرفه حاييم : انه ذلك الشاب ذو اللحيـــة ، الذى كان يتحدث منذ فترة قريبة بلهجة متعاليـــة الى السمين ذى السترة المخططة والسلسلة الذهبية .

وقال حاييم فى نفسه : «هذا الرجل هو الزعيم هنـــا على الارجح . .» .

ورددت صوت المذيع الآمر جميع مكبرات الصوت على ظهر السفينة :

— انتباه ، انتباه ! اوقفوا الضجة ! ليلزم الجميع الصمت !

وعرف حاييم من الصوت ان المتكلم هو نفس الشـــاب ذو اللحية . فى البداية تكلم باللهجة العامية * ثم بالعبرية القديمة ، ثم بالانجليزية مطالبا بالتزام الهدوء واطاعـة اوامـــر المتطوعين المكلفين باقرار النظام فى السفينة .

هدأ الذعر تدريجيا . واخبر نفس الصوت المسافرين عبـر المكبرات انه قد تشكلت على السفينة اركان خاصة «للهاجانا» ** اخذ على عاتقه مسئولية ايصال المسافرين الى «ارض الميعـاد» . واطفئت انوار السفينة ، واعلن المذيع على الفور انه ممنوع منعا باتا على الجميع ان يشعلوا الضوء الكهربائـــى او الكبريـــت او التدخين . . . وسيتعرض المخالفون لمحاسبة صارمة .

* اللغة اليهودية المسماة «اليديش» .

** حرفيا تعنى : الدفاع ، الحماية . وهى فصائل عسكرية سريـــة صهيونية .

وصاح المذيع بصوت نشيط :

– اننا نعلن عن ثقتنا بان المسافرين سيثبتون بسلوكهم النموذجى انهم جديرون بالتوطن فى ارض اجدادنا المقدسة ، التى لم يبق على موعد الوصول اليها الا ساعات معدودة ! وبذلك سنبرهن من جديد على عظمة الامة بأسرها !

واذيع هذا النداء باستمرار بعدة لغات ، وفى كل مرة كان ينتهى بالكلمة التقليدية «شالوم» * .

وكان لنداء اركان الهاجانا على السفينة اثره فقد استتب الهدوء والنظام . . . وكانت مجموعات المتطوعين تجوب السفينة باستمرار ، ويطلون برؤوسهم داخل المقصورات بلا حرج . واحكموا رقابتهم على كل ركن فى السفينة . وحذروا الركاب من ان اقل مخالفة للنظام ستعرض مرتكبها للحبس فى غرفة انفرادية ، بل وحتى الالقاء به فى عرض البحر . .

بيد انه لم يكن بوسع اية اجراءات صارمة ان تمنع انتشار شتى الظنون والاشاعات المزعجة . واستمرت الاقاويل تتردد زاعمة ان السفينة الحربية التى تطاردهم هى سفينة المانية تتستر تحت علم دولة اخرى . وفى رواية اخرى كانت هذه السفينة بارجة ايطالية تحرس قافلة بحرية قادمة من الحبشة . . .

ومن جديد اهتز الهواء بقذيفة مدفع . واضطر قبطان السفينة بعد اصراره على الصمت الى ان يرد على اسئلة سفينة الحراسة الحربية المتكررة ، فابلغهم ان السفينة التى يقودها سفينة ركاب صرفة تسير فى خط سيرها المقرر حسب المواعيد والجدول . . . كما اشارت برقية القبطان اللاسلكية الى تفاصيل اخرى مثل تبعية السفينة وحجم حمولتها .

وبالرغم من هذه الاجابة الواضحة الى حد ما فقد طالبتهم السفينة الحربية بالتوقف ، فرد القبطان بالرفض معللا سبب رفضه بان السفينة تقل اساسا نساء واطفالا ، وان القبطان ، تجنبا لاستمرار الذعر الذى دب على ظهر السفينة اثر طلقات

---

* السلام .

الانذار التى اطلقتها سفينة الحراسة مضطر الى المضى فى السير . واعرب القبطان عن استعداده لتلبية اى مطلب لسفينة الحراسة ولكن عند حلول الفجر او فى مرفأ الوصول ، اى فى بيروت .

وجاء من السفينة الحربية امر للقبطان باشعال الاضـواء . ولكن ممثلى اركان الهاجانا ، الذين كانوا منذ بداية الرحلة يعملون بتنسيق وثيق مع القبطان ، اوصوه بالابطاء فى الرد . فقـــد كان من الضرورى مهما كلف الامر المماطلة حتى حلول الظلام التام ثم محاولة الافلات من المطاردة تحت جنح الليل .

ولكن المسافة بين سفينة الركاب وسفينة الحراسة تقلصت الى حد كبير ، ومن جديد صدر الامر باشعال الاضواء فوراً والسير من الآن فصاعداً حسب قواعد الملاحة الدولية لسفن الركاب ، اى السير بدقة حسب خط الملاحة الى بيروت .

وادرك القبطان نية قيادة السفينة الحربية ، فاجاب بانـــه موافق تماما على الاقتراح ، ولكنه يأسف بشدة لعدم استطاعتـه تنفيذه فورا لان مولـــــدات الانارة فى السفينة معطلة ويجـــرى اصلاحها ، ومن المتوقع ان تعود للعمل بين لحظة واخرى ، والى حين ان يتم ذلك فهو مضطر الى الاكتفاء باضواء الاشارة .

وما ان ابلغت هذه البرقية اللاسلكية حتى انطفأت اضواء الاشارة فى السفينة ، وتحولت السفينة عن خط سيرها بحدة .

وسرعان ما افلتت السفينة من المطاردة . وحـــل الظلام . وظلت الاشارات اللاسلكية الواردة من سفينة الحراسة الى الآن بلا جواب . واخيرا صمت اللاسلكى ايضا . . . ولم يكن احد يعرف هل توقفت سفينة الحراسة عن المطاردة ام انها فقط فقدت اثـــر سفينة الركاب .

ولم يعد القبطان الى خط السير السابق الا بعد ساعتين .

لف ظلام الليل الحالك السفينة بستار كثيف مضاعفا قلـــق الركاب الخائفين . وشغل اذهان الجميع سؤال واحد : لماذا لـــم ينفذ القبطان امر السفينة الحربية ، ولماذا لم يتوقف ما دامـــت سفينة الحراسة انجليزية كما يؤكد الجميع ؟

وكثرت التكهنات والتفسيرات حول هذا الموضوع : فقـد

قال فريق ان بعض الركاب ليس لديهم تاشيرات القنصلية البريطانية بالدخول الى اراضى فلسطين الخاضعة لانتداب الامبراطورية البريطانية . وادعى فريق آخر انه توجد بين الركاب شخصيات هامة جدا من القيادة الصهيونية العليا تفرض على اسمائها سرية مطلقة . وقال فريق ثالث انهم راوا فى فجر اليوم السابق ، والركاب نيام ، ان السفينة توقفت قرب قبرص وتسلمت من سفينة اخرى كمية كبيرة من الاسمنت . . . وراح الركاب يخمنون :

– لا بد انه اسمنت مهرب ؟

– او ربما لم تدفع عليه الجمارك ؟

– ولهذا شحنوه فى الفجر . . .

– وسرا . . فى عرض البحر !

– هل رأيت ذلك بعينيك ؟

– كلا ، ولكنهم يقولون . . .

وقال الرجل السمين ذو السلسلة الذهبية المدلاة من عروة سترته بدهشة :

– أكل ذلك بسبب بضعة براميل تافهة من الاسمنت ؟ ! ياله من تهريب ! بسبب هذا الشىء التافه لا يمكن ان يفتحوا نار المدافع ! خاصة اذا كانوا بريطانيين . اننى اعرفهم . . فهم مهذبون ! اناس مثقفون ، رهيفون ، لا يسببون لاحد اهانة ابدا . . . لقد خبرتهم جيدا . . فانا مجوهراتى . . كنت اصدق لو ان المسألة فيها مثلا ذهب او عملة ما ! . . اما هنا فماذا ؟ ومن الذين تقلهم هذه الخرقة ؟ عدة مئات من اليهود البؤساء الهاربين من هتلر ، لتزهق روحه ، وهؤلاء المتطوعون التافهون ؟ كلام فارغ ! والكلام عن الاسمنت ايضا كلام فارغ . . .

وبالتدريج تفرق الركاب الخائفون المتعبون كل الى مكانه ، وأووا الى النوم .

وكانوا يفكرون وهم يخلدون الى النعاس فى يوم الغد وفى قرب لقياهم بالاهل والاصدقاء ، وفى نهاية الرحلة وبداية حياتهم الجديدة فى ارض اسرائيل المنشودة المباركة !

وبالنسبة لحاييم ايضا اصبحت «ارض الميعاد» املا مكنونا بعد كل هذا التشرد . واستغرق فى النوم هو الاخر وهو يمنى النفس بسرعة الوصول . وعندما ايقظته شيللى فى الصباح الباكر لم يدرك لاول وهلة ما الذى يجرى . كان السطح غاصا بالنساء والاطفال فقط تقريبا . ولم تكن اويّا نائمة كذلك . وارتبك حاييم ثم نهض و . . . بهت : كانت هناك سفينة حربية تسير بمحاذاة سفينتهم على مسافة غير بعيدة .

وقالت شيللى :

– انها بريطانية ، كما يقولون . . ترى كيف سينتهى هذا كله ؟

واتضح ان نفس الشىء يحدث على الجانب الاخر للسفينة . فغير بعيد عن «ترانس اطلانطيك» كانت تسير مدمرة انجليزية مماثلة . وازدحم سطح السفينة بالنساء والاطفال الذين اخرجوا من المقصورات والعنابر السفلية بناء على تعليمات اركان الهاجانا . فقد كانوا يقصدون بذلك ان يرى الانجليز من هم الذين تحملهم السفينة .

تطلع الركاب برعب الى منظر المدمرتين الرهيبتين المنطلقتين . وفرض حظر التجول على سطح الباخرة . وبالقرب من كل مخرج وامام كل قارب نجاة وقف فتيان وفتيات يرتدون زيا موحدا بكتافيات على القمصان ونجوم سداسية كبيرة . وبناء على تعليمات اركان الهاجانا تجمع الرجال فى مؤخرة السفينة ووضعوا على اكتافهم «الطوالس» ، واخذوا يصلون على مرأى من الجميع . . . كان الموقف مرعبا .

واصدرت السفينتان الحربيتان امرا مشددا «بالتوقف فورا والا فسيتحمل القبطان المسئولية الكاملة عن كل ما سيترتب على ذلك» .

وردت السفينة بانها لا تستطيع ان تتوقف الا فى مرفأ الوصول الذى لم يبق على بلوغه سوى خمسة وستين ميلا . وذكر اسم حيفا كميناء وصول . .

واقتربت المدمرتان من السفينة .

وتجمد الركاب فى اماكنهم فى انتظار ممض لكارثة ستقع لامحالة فى تصورهم . ومع كل ثانية تمر كان التوتر يزداد . ورغم التحذيرات الصارمة فقد كان يعلو هنا وهناك صراخ امراة او بكاء اطفال . واقتربت المدمرتان من السفينة من الجانبين فى وقت واحد حتى لاصقتاها . ومن الاطراف الجانبية لجسر المدمرة التى اقتربت من الجانب الايسر للسفينة قفز بحاران انجليزيان الى قارب النجاة المعلق فوق سطح سفينة الركاب فى مواجهة صندوق ادوات الاطفاء . ولكن المتطوع الذى كان يحرس القارب جذب ذراع التشغيل فهوى القارب بالبحارين الى الفجوة الواقعة بين المدمرة والسفينة . حدث ذلك فى لمح البصر ، فلم يتسن للمدمرة ان تناور ، وانسحق الزورق امام اعين الجميع بين هيكلى السفينتين المصطدمتين كما تسحق قشرة البيض .

ودوت طلقة نارية من المدمرة ، وثانية ، وثالثة . . . واختفى الركاب من السطح كما لو ان موجة اكتسحتهم . اندفع الجميع الى المقصورات وهم يدوسون على بعضهم فى الابواب . واستطاع حاييم ان يرى المتطوع الذى كان يحرس قارب النجاة وقد سقط ، بينما تكور رفيقه ، وصرخت شيللى بجزع وهى تلتقط احد توأميها . . . وضم حاييم التوأم الآخر الى صدره واندفع عبر السطح الخالى نحو شيللى . كانت تتشنج فى هستيرية ودودى ملقى على ذراعيها وقد غطت الدماء وجهه . .

وبالقرب منها على الصندوق جلست امها شاحبة كالموتى ، جامدة ، وهى تحدق فى وجه حفيدها الذى فارق الحياة بعينين لا تطرفان .

واقبلت اويًا ركضا . وعندما رأت هذا المنظر اطبقت يديها على رأسها وتجمدت بفم فاغر مرتجف وكأنها تجهد لكى تقول شيئا ما .

وفى تلك الاثناء اقترب بعض المتطوعين من حاييم واخذوه وابلغوه ان اركان الهاجانا يامر جميع الركاب بلا استثناء بان يمزقوا «شهاداتهم» وبطاقات السفر احتجاجا على تصرف الانجليز ،

وان يسلموا نصف البطاقة الممزقة الى المتطوعين دليلا على تنفيذ اوامر اركان الهاجانا . واصغى حاييم صامتا الى الفتيان ، ومضى فى صمت الى الصندوق الذى كان دودى ممددا عليه الآن .

اصبح حاييم يرى كل ما يحدث على السفينة بعد ذلك وكانه يرى حلما . لقد التصقت المدمرتان بالسفينة ، ونزل منهما البحارة الانجليز ، فاستقبلوا بالعلب الفارغة والزجاجات والاطباق . . . ونظر بلا مبالاة الى البحارة ذوى «البيريهات» القرمزية وهم يحتلون السطح تلو السطح ، ثم وهم يندفعون الى جسر القبطان . .

ولم يكن القبطان هناك ، ولا مساعدوه ولا افراد الطاقم . فقد بدلوا ملابسهم واختفوا فى الجمع . واصبح كل منهم ، كبقية الركاب ، يحمل بدلا من الوثائق قطعا من «الشهادات» و«بطاقات السفر» التى مزقها الركاب . لقد رتبت اركان الهاجانا التى طلبت من الركاب ان يعربوا عن «احتجاجهم» بهذه الصورة الغريبة هذا الامر سعيا فى الواقع وراء هدف واحد : انقاذ اعضائها وعدد كبير من الاشخاص الذين لم يكونوا يحملون وثائق دخول الى فلسطين .

وعبر السفينة تنقل من فم الى فم امر الاركان : «عدم تسليم طاقم السفينة للانجليز باى حال ، والا . . .»

وقاوم المتطوعون الانجليز مقاومة عنيدة بصفة خاصة عند باب احد العنابر . ودارت هنا معركة ضارية . وكانت لدى الانجليز خبرة فى هذه الامور . كما كانوا مجهزين بعتاد خاص : صديريات واكمام مطاطية واقية من الضربات ، وهراوات مطاطية ايضا . . . وظهر جرحى من الطرفين . . . فكان البحارة يحملون جرحاهم الى المدمرتين ، اما المتطوعون فالى «مستشفى» اعدوه على عجل .

وعندما ظهر البحارة ذوو «البيريهات» القرمزية حطم المتطوعون السلمين المؤديين الى العنبر ، فاحضر البحارة سلالم متحركة ، ولكن ما ان حاولوا النزول عليها الى العنبر حتى ووجهوا بسيل من الاكواب والكؤوس والعلب وكل ما كانت تقع عليه ايدى المتطوعين .

وانسحب البحارة . بيد انهم مدوا بعد قليل خراطيم مياه من المدمرتين . وكان تيار المياه القوى يلقى المقاومين ارضا ، لكنهم تمكنوا من الاستيلاء على السلالم المتحركة وانزلوها الى العنبر .

وجن جنون قيادة المدمرتين فاستخدمت القنابل المسيلة للدموع . وانهارت المقاومة . واخرج الانجليز المتطوعين من العنبر ، وكانوا مضروبين ، ممزقى الثياب ، وقد تورمت عيونهم من القنابل المسيلة للدموع . وهبطت الى العنبر مجموعة من الضباط الانجليز تحت حراسة مشددة من البحارة . اما المتطوعون الذين غيروا ملابسهم واختلطوا بالحشد فقاموا ، بتحريض من الاركان ، بتشييع الضباط بصيحات السباب والتهديد والبصقات.

ثم اخرج البحارة من العنبر الى السطح ، حيث كانوا لا يزالون يصلون هناك للرب ، برميلا عاديا مستطيلا على شكل الليمونة ، وقد كتب باحرف عريضة على قاعه الخشبى كلمة «اسمنت» وعلى شنبر البرشمة اسم الشركة والوزن القائم والصافى ، وسنة الانتاج : ١٩٣٩ . وامام اعين المصلين الذين كانوا يلعنون الانجليز لايصالهم الامور الى حد المصادمة الدموية بسبب اسمنت ما مهرب ، نزع البحارة ذوو «البيريهات» القرمزية الحلقات الحديدية عن البرميل . وبهت المصلون المرتدون «الطوالس» وكتب الصلاة فى ايديهم من المفاجأة . فقد تساقطت من البرميل مواسير رشاشات وقرابات وقرنافات وعبوات طلقات ، وترابيس. وكانت كلها تحمل علامة مصانع «شكودا» التشيكوسلوفاكية .

وتساءل احد المصلين :

– تشيكوسلوفاكية ؟ هل هذا معقول ؟ أليس النازيون هم المسيطرون هناك ؟ شيء لا يصدق . .

فرد عليه آخر :

– لا يصدق ؟ يالك من ساذج ! هل أنت من بورسعيد ؟

– وماذا فى ذلك ؟ لماذا تهيننى ؟

– لانه لا ينبغى ان تكون غاية فى الذكاء لكى تدرك ان انجلترا تحارب المانيا ، وان المانيا مهتمة بان تفسد الامور على انجلترا . . . هل هذا صعب الفهم ؟

فقال المجوهراتى السمين ذو السترة المخططة والسلسلة الذهبية الذى كان بين المصلين بانفعال :

– بورسعيد ام غيرها ، ذكى ام غيره ، فلتحاول اذن ان تعرف من هؤلاء الذين تسافر معهم ، وما هذه السفينة وما الذى يمارسه هؤلاء المتطوعون . . . اننى اسأل من هم ؟ ومن اين لهؤلاء الاولاد الصغار بالرشاشات وغيرها فى هذا الزمن المضطرب ؟

ذاع على السفينة خبر اكتشاف اسلحة مصنوعة فى تشيكوسلوفاكيا فى براميل الاسمنت ، هذه الاسلحة التى يبدو ان هتلر قد استولى عليها ، وتسلمها الآن الصهاينة على الارجح لمحاربة الانجليز والعرب . واخذ الركاب يلعنون هتلر والانجليز ، ويسبون المتطوعين والسفينة وقبطانها وذلك اليوم والساعة اللذين وافقوا فيها على ركوبها .

وفتش البحارة الركاب ، ونقبوا فى حقائبهم ولفائفهم بحثا عن السلاح ، وصادروا كل المواد الحادة ابتداء بسكاكين المطبخ ومبارى الاقلام وانتهاء بشفرات الحلاقة . وفى منتصف النهار اصبحت «ترانس اطلانطيك» تسير مقطورة . وانقطعت مياه الشرب ، وتوقف المطبخ عن العمل ، واغلق المطعم والبوفيهات والبار . . . وفى نهاية النهار بدا يغمى على بعض الركاب من العطش . وانهمك المؤمنون فى الصلاة .

وعندما حل الظلام لاحت بوضوح اضواء متلألئة .

– انها حيفا !

– ارض اسرائيل !

– ارض الاجداد !

– نهاية الآلام !

وعندما لم يبق على بلوغ المرفأ اكثر من نصف ميل ، صدرت اشارة من المدمرة القاطرة ، فصلصلت سلاسل الهلبين الثقيلين على السفينة . واحيط الركاب علما بان النزول الى الشاطئ ، لن يجرى الا بعد حلول الصباح . . .

واقلق هذا النبأ الركاب ، ومن جديد انتشرت شتى

التكهنات والشائعـــات . وعاد الركاب يلعنـــون المتطوعين والانجليز . وتذرع البحارة بالصبر وهم يسمعون اللعنات ولزموا الصمت ، واحيانا كانوا يؤكدون ، بشعـور بالذنب ، بان هـذه الاوامر ليست صـادرة عنهم . اما المتطوعون الذين ركنوا الى السكون فقد تظاهروا بانهم ليسوا المسئولين عن «هذه المعمعة» .

كانت الليلة الثانية التى قضاها الركاب على السفينة الخالية من الانوار ، اشد هولاً . فقد اضناهم العطش الذى لا يحتمـل والجوع ، ورائحة العفن المتزايدة . وتوقف تدفق مياه البحر الى السفينة ، وكانت جميع محركاتها متوقفة .

واثناء الليل نقلت جثة دودى الى صالون الموسيقى ، حيث وضعت هناك جثتا المتطوع القتيل وزميلـه الذى توفى متأثـرا بجراحه . ووضعت جثة الطفل بجوارهما على الارض وغطيت مثلهما بملاءة سوداء نقشت عليها على عجل نجمة سداسية بيضـاء . وانهارت الام الثكلى شبه فاقدة الوعى بالقرب من رأس وليدهـا بجوار شمعتين داخنتين وضعتا فى شمعدان مصنوع بصورة فظة من علبة محفوظات . وكانت تحمل ابنها الآخر على ذراعيها طوال الوقت .

رجع حاييم واويًا الى السطح لكى يساعدا والدة عازفـة البيانو على النزول الى الصالون ورفعاها بصعوبة عن الصندوق وجراها من تحت ابطيها ، ولكن ما ان سارا بها بضع خطوات حتى ارتعشت ، وترنحت ، وبدأت تتهاوى . وتمكن حاييم واويًا بالكاد من الامساك بها .

وركض الناس اليهم ، وعثروا على طبيب ، واتضح ان المرأة المسكينة اصيبت بالشلل للمرة الثانية .

كتموا ذلك عن شيللى ، اخبروها انه من الاحسن لوالدتها ان تظل على السطح ، لان الجو هنا خانق ، والشموع ترسـل الدخان . . واصغت عازفة البيانو فى صمت ، ثم هبت واقفة بغتة ، وانطلقت راكضة الى السطح وهى تترنح وتضم ابنها الى صدرها . وعندما رأت امها ممددة على الصندوق الذى كان ابنها ممددا عليه

منذ فترة قريبة وادركت ما جرى لها ، سقطت على الارض مغشيا عليها .

وكان حاييم واويتا فى غاية الارهاق ، فلم يفارقا عازفة البيانو وابنها الذى لم يغمض له جفن طول الليل ! وفى تلك الاثناء اختفى البحارة ذوو القبعات القرمزية من على سطح السفينة ، ورفعت المدمرتان هلبيهما . وقد لاحظ حاييم اختفاءهما عندما انتشر نور الفجر ، ورأى مكانهما زورقا حربيا صغيرا من زوارق خفر السواحل البريطانية .

وما ان اشرقت الشمس حتى تحرك الركاب المتعبون المجعدو الثياب ، واخذوا يروحون ويجيئون على عجل وهم يتبادلون الحديث خطفا وكأنهم غارقون فى المشاغل وكأنما لم يبق على النزول سوى دقائق . اما المتطوعون فقد راحوا يتجولون على السطح ثانية بعد ان غيروا ملابسهم . وبمجرد رحيل المدمرتين المفاجئ شرعت اركان الهاجانا فى تدبير امر ما .

ولم يبق قرب حواجز السفينة الا نفر قليل من الركاب ، اخذوا يتطلعون الى الارصفة والمرفأ التى لاحت من بعيد ، والى المدينة التى كانت لا تزال غارقة فى النوم .

بيد ان زورقا سريعا لاح قادما من ناحية الميناء ودار دورة واسعة وهو يقترب من السفينة ، وهدأ من سرعته ثم توقف بين السفينة وزورق الحراسة . وكان يقف على ظهره شخص يرتدى فانلة بيضاء ويصيح فى مكبر صوت :

– شالوم ايها اليهود ! قدوما سعيدا الى ارض الميعاد يا اخوتنا المنتظرين !

ومن كل انحاء الباخرة اتجه الناس الى السطح وكأنما هبط من السماء فجأة المخلّص المنتظر منذ آلاف السنين . كان كل منهم يود ان يرى بسرعة ويسمع اول شخص من «ارض الاجداد» الاسطورية . واجهش كثير من النساء تأثرا ولوحن بالمناديل والقبعات تحية للرسول . . واصغى الركاب المجتمعون على السطح بشوق دقيقة او دقيقتين الى عبارات الترحيب المعسولة الموجهة اليهم . ولكن واحدا منهم صاح :

- ان حالتنا سيئة !

وبالرغم من انه كان واضحا ان الشخص الواقف على ظهر الزورق لن يسمع اصوات الركاب ، الا ان موجة طويلـــة من الصيحات المتعددة انطلقت فى اثر الصيحة الاولى :

- بيننا مرضى !
- نحن بلا طعام !

اما الرجل فى الزورق فقد واصل كلامه المعسول :

- هذه ارض المنّ ، وانهار اللبن وشواطئ العسل . فاهلا بكم فى داركم ايها اليهود .

- ليس لدينا خبز !
- نموت من العطش !
- بيننا قتلى !

اطلق زورق خفر السواحل صاروخا احمر .

فادرك الرجل ذو الفانلة البيضاء معنى التحذير ، فهبط من سطح الزورق ملوحا بمكبر الصوت وهو يودع . وانطلق الزورق ناحية المرفأ بسرعة متزايدة .

وعندما تأكد الركاب من «انهم هناك قد علموا» بوصـــول سفينتهم ، تنفسوا الصعداء ، ولم يساورهم الشك فى ان «مَنْ هناك سيهتمون طبعا بهم» . . . ولم ير اىّ منهم انه اثناء اندفاعهم الى احد جانبى السفينة ، وبينما كانوا يصغون بتأثر الى ترحيب الرجل ذى الفانلة البيضاء بهم ، اقترب من جانب السفينة الآخر زورق صغير لا يكاد يبدو فى اشعة الشمس المشرقـــة الباهرة . ولكن اويّا ، التى بقيت مع والدة شيللى المريضة ، هى وحدها التى شاهدت نزول شخص بحقيبـــة كبيرة من الزورق الى عنبر البضائع السفلى . لم يساورها شك فى شىء ، ومضت تتابع ما يجرى بدافع حب الاستطلاع . ولكن عندما عاد الشخص الى الزورق ليأخذ حقيبة اخرى ورفع رأسه الى اعلى ونظر متلصصا ، انتفضت اويّا . لقد عرفت هذا الشخص . رأته فى قبرص مع الحاخام بن صهيون هاجرا عشية ذلك اليوم المشهود عندما اخذها ستيفانوس الى حانته فى ساعة متأخرة من الليل . نعم ، لقد كان هو . . قصير

القامة ، نحيف ، ذو صلعة ، يرتدى نظارة كبيرة . وعاد خوف الملاحقة الذى عذبها فى الساعات الاولى من وجودها على الباخرة ، يستولى عليها ثانية بقوة .

وعندما رجع حاييم راحت اويّا تشرح له بانفعال شيئا ما ، لكنه لم يفهم الا القليل ، وظل سبب اضطراب الفتاة غير واضح له .

وحوالى الساعة العاشرة صباحا رست سفينة مريحة قرب سفينة الركاب . كانت تحمل موظفى ادارة الميناء ورجال الجمارك ومفتش بوليس المستعمرات البريطانى وطبيبا وممرضين . وتبعتها سفينة اخرى تحمل ممثلى البلدية البريطانية العربية اليهودية الذين جاءوا معهم بهدايا للركاب من جمعية «جوينت» الخيرية المحلية عبارة عن علب بها قطع من البسكوت الجاف ، وارغفة بالنعناع ، وبرتقال وسندوتشات صغيرة بالجبن المسيَّح ، وصناديق زجاجات عصير يشبه الليمونادة . وكانت هذه السفينة مخصصة لنقل الركاب الى المرفأ .

واعلن موظفو الجمارك انه سينقل اولا الجرحى والمرضى . وفى الوقت نفسه اعلنوا انه لا يمكن لاحد ان يغادر السفينة الا بعد ابراز جواز السفر او «الشهادة» بتأشيرة القنصل البريطانى لدخول فلسطين . وهبت من جديد عاصفة من الغضب على السفينة . وتصايح الركاب وتجادلوا وبكوا وهم يلعنون تشمبرلين وهتلر والمتطوعين ايضا الذين تسببوا فى انهم فقدوا الوثائق المطلوبة ولم يعد معهم سوى مزق بائسة .

وثارت ثائرة المتطوعين ايضا . وراح بعضهم يقنع الركاب الحائرين بألا يستسلموا وان يقاطعوا قرار ادارة الميناء بينما حاول البعض الاخر الضغط على ممثلى السلطة قائلين :

– ينبغى تفهم حالة هؤلاء الناس الذين بلغوا حد اليأس نتيجة مقتل اخوتهم !

وعمت موجة الاحتجاج ركاب السفينة جميعا :

– انه لمن التجديف ان تطالبوا الناس ببعض الوثائق

بينما جثث اخوانهم ممددة بجوارهم ولما تجف دماؤها ! ثمة طفل قتيل ، ابن ثلاث سنوات !

– هذا ما لم نسمع به ! يستوقفون سفينة فى عرض البحر ويضربون ويقتلون ركابها الابرياء !

ولكى تتخلص ادارة الميناء من هذه الورطة قررت تصنيف الركاب فى مجموعات . وبعد ان اعربت عن اسفها لما وقع وكانها لم تعد مهتمة بالسلاح المكدس فى العنابر ولا بالمسئولين عن تهريبه ، بل زعمت انها ترغب فى انهاء الموضوع ، طلبت من اعضاء طاقم «ترانس اطلانطيك» ان يشغلوا اماكنهم حسب نظام الرسو ، وان يساعدوا على سرعة نقل الركاب الى الشاطئ .

ولكن هذه المناورة لم تعد بالنتيجة المطلوبة ، اذ لم يظهر سوى البحارة العاديين وغيرهم من افراد الخدمة . اما القبطان ومساعدوه فلم يتقدموا ، ولم يمكن اكتشافهم وسط الركاب .

وفى تلك الاثناء استعدوا لنقل الجرحى الى الشاطئ واتضح ان عددهم كان كبيرا بحيث شك الانجليز فى الامر فقرروا اجراء تفتيش اختبارى قبل انزال الجرحى . ولكن اول متطوع جريح ، وكان يضع ضمادة على رأسه وعينه ، رفض الامتثال للامر بصورة قاطعة . وايده بقية الجرحى وهم يدينون بغضب ممثلى السلطة على سوء ظنهم الذى لا مبرر له بضحايا الاستبداد .

وهاجت المشاعر ، وتدخل ممثلو البلدية والشرطة ، واقتيد المتطوع الى التفتيش . واخذوا يفكون الضمادة عن رأسه ببطء وحذر ، واخيرا نزعوا الضمادة و«الوسادة» القطفية و. . . اصبح المتطوع الاعور ذا عينين سليمتين تماما ورأس يخلو من اى خدش .

ومنيت بالفشل حيلة اركان الهاجانا فى السفينة بغية تمرير المتطوعين الذين لا يملكون وثائق الى فلسطين . لكن المتطوعين لم يستسلموا لليأس ، واعلنوا بإيعاز من اركان الهاجانا :

– اما ان ينزل الجميع الى الشاطئ والا فلا احد !

ووعدهم ممثلو سلطات الميناء ان يتشاوروا مع الجهات العليا حول كيفية التصرف مع حاملى مزق الوثائق ، اما الآن فقد

سمحوا بنقل جثث القتلى الى الشاطئ كما سمحوا بالنزول لمن يحتفظ بوثائق دخول سليمة .

ولدهشة المتطوعين فقد ظهر امثال هؤلاء . وانهال عليهم سيل من السباب المنتقى والتهديدات :

– ايها الخونة !
– هتلر اشتراكم !
– يا خونة الامة !
– ارض الميعاد ليست لامثالكم !
– سنعثر عليكم ، لن تفلتوا منا !
– يا ميشوميت ! *

وكان المجوهراتى السمين ذو السترة المخططة والسلسلة الذهبية من بين «الميشوميت» . ولم يكن يتصور فيما يبدو مع من يتعامل ولا مدى التهاب الموقف ، ولذلك صاح فى حشد المتطوعين :

– انظروا الى هؤلاء العيال ! انهم يريدون تعليمى ! امسحوا انوفكم اولا ثم . . .

ولم يكمل كلامه . فقد عزل عن الركاب وحشر بحاجز السفينة بنية واضحة لالقائه فى البحر . ولو لم يخف رجال الجمارك والشرطة اليه لكانت عاقبته سيئة . وعندما جلس فى الزورق الذى كان يقله مع الركاب ذوى الوثائق الى الشاطئ تحسس عروة سترته فجأة ولمس جيبه وصرخ :

– الكلاب الحقراء ، خطفوا الساعة ! ماركة «لونجين» آخر موديل ، عيار ٩٢ . . اتعرفون اى ذهب هذا ؟ والسلسلة وحدها كم تزن !

ومن جديد حاولت اويتا ان تشرح لحاييم شيئا ما ، بالغ الاهمية كما خيل اليه : لقد رأى القلق فى عينيها ، فما السبب ؟ ولكنه لم يدرك ذلك ، بل ولم يكن ثمة وقت للتفكير ، فالمشاغل كثيرة . لم يكن لدى اويتا وثائق دخول الى فلسطين ، وكان من

---

* الميشوميت هو المتخلى عن دينه والمعتنق المسيحية .

المحتمل الا يسمحوا لها بالدخول . ولكن المأساة التى حلت بشيللى ساعدتها . فعندما خارت قواها تماما اعطت ابنها لاويًا واعتمدت على ذراعها . واعتقد المسئولون ان اويًا قريبة المنكوبة .

ونقلت جثث المتطوعين القتيلين ودودى الى سفينة النقل ، بينما بقيت ام شيللى على ظهر السفينة ، فى انتظار مجىء سفينة خاصة بأطباء لنقلها مع بقية المرضى .

وفجأة قبضت اويًا على ذراع حاييم وهى تشير الى رجل نحيل بنظارة ظهر فى نهاية الممر الضيق فى السفينة . ولم يكن من الممكن ان يخطئ حاييم فى التعرف عليه ، فقد رآه ذات مرة مع بن صهيون هاجرا . وقالت عنه لايًا الحدباء ، ابنة الحاخام ، انه «مبعوث» و«شخص هام» . وأوضحت انذاك بصورة غامضة انه جاء «من هناك» . اما الآن فقد صعق حاييم عندما رأى زعيم اركان الهاجانا ورئيس المتطوعين ، الشاب ذا اللحية القصيرة ، يسير الآن الى جانب المبعوث ذى النظارة .

وفكر حاييم فى نفسه : «اسرار بلاط مدريد ! كان المتطوعون يصيحون بألا يجرؤ احد على مغادرة السفينة ويسبون المغادرين «بالخونة» ، بينما زعيمهم يختفى اول الكل لسبب ما ! . . فمن اين جاء بالوثائق ؟ الم يقولوا ان جميع المتطوعين مزقوها احتجاجا ؟!»

ورست السفينة على الرصيف . وعرضوا على الركاب ان ينتقلوا الى منزل متواضع بالقرب من المبنى الرئيسى للميناء . وهنا ارسلوا النساء والرجال الى اقسام مختلفة اذ كان عليهم ان يمروا بالاجراءات الصحية . وفى نهاية الفحص الطبى السريع كان كل مسافر يحقن بلقاح مضاد للكوليرا ويرش بجرعة كبيرة من مسحوق ابيض فى عبه وتحت ياقته . وكانوا يخرجون من المبنى الواحد تلو الآخر وهم يسعلون ويتمخطون ويعطسون .

وراح المجوهراتى السمين يتذمر كعادته :

— ياله من اختراع هذا التطعيم وهذه المطهرات ! . . كان الاحسن لو منعوا السرقة فى وضح النهار . . . — وعطس ثم بصق بتقزز . — من بحاجة الى ذلك ؟ ما الداعى ؟

6—690

وخرج حاييم الى ساحة كانت تبدو كملعب تنس كبير ومحاطة بسياج عال من السلك المجدول . وعلى الناحية الاخرى من السياج تجمهر اناس يرتدون ملابس العيد . ووقفت مجموعة من الشبان والشابات على انفراد ، وكانوا يحيون كل من يخرج الى الفناء بعد الفحص الطبى بصيحات عالية :

- بروخيم أبائيم ! *
- بروخيم ابائيم شى ايجاتيم لا اريتس ! **

وغنى كورس من الفتيات المرتديات بلوزات بيضاء وفى ايديهن اغصان الزيتون اغنية حماسية :

ارجيت تسوم بافرايونج
فون انجلاند
دوم بريج
كاين اريتس اسرائيل
تسو ليخيجى تيج ... ***

وكان كثير من الشيوخ بمجرد تجاوزهم باب الخروج وسماع تحيات المستقبلين يركعون ويقبلون الارض بخشوع والدموع تترقرق فى اعينهم . . . وكان بعضهم يهمس بصلوات خافتة ، والبعض الآخر يجهر بالصلوات للعلى القدير على الخلاص من اهوال الماضى .

وشيئا فشيئا امتلأ الفناء بصخب الاصوات . ومن كلا جانبى السياج تصايح الناس بأسماء اقاربهم ومعارفهم الذين كانوا يأملون فى لقائهم .

وصاح رجل عجوز بصوت ابح وهو يروح ويجىء بحذاء السور :

- جوتفار فروييم ! جوتفار فروييم ! تاجر دقيق من نتانيا . . جوتفار فروييم ! . .

* وصولا مباركا !
** وصولا مباركا ايها النازلون بارضهم !
*** انه ذاهب للتحرير من الانجليز ، الى شواطئ ارض اسرائيل ، الى الايام المشرقة !

وتجاوب مع ندائه صوت رنان لامرأة بدينة تتصبب عرقا :
— تويفـــي جرينشبون من مستوطنة كفار شـــاليم !.. جرينشبون ! تويفى جرينشبون ! . .

انتحى حاييم جانبا كاليتيم ، وتطلع الى وجوه الناس القلقة وهم فى انتظار اقربائهم الذين بقوا على ظهر السفينة ، وفكر بقلق فى ابيه واخته . ترى هل سيتمكنون من الوصول اليه ، ومتى ؟ وهل سيتمكن من تدبير المسكن ولقمـــة الخبز لهمـــا ؟ ومضى ببطء وهو مستغرق فى التفكير الى البوابة الشبكية التى كان يقف على جانبها الآخر حارس انجليزى فى برج «بمظلة» . ولفتت انتباه حاييم خشبة مسرح غير عالية تحت سقيفة كبيرة مخططة من فوقها لافتة بيضاء خط عليها باحرف زرقاء ضخمة :

اريتس خالاف اودفاش *

وعلى الخشبة كان صبيان وفتيان يروحون ويجيئون وهم يرتدون قمصانا زرقاء وسراويل قصيرة فاتحة اللون . وكانوا يرتبون حاملات النوت ويثبتون النوت وقد علت وجوههم سيماء الجد ، ويجلسون فى اماكنهم مع آلاتهم النحاسية المجلوة الى درجة جعلتها تلمع كالمرايا .

ومن خلال صخب الاصوات المتعددة والغنـــاء وصيحـــات الترحيب تناهت الى سمع حاييم كلمات اثارت انتباهه :
— . . من فيينا . . . مع اطفال . . .

والتفت ، فرأى على الجانب الاخر من البوابة رجلا طويلا يقف قرب امرأة قصيرة وفتاة ممتلئة . كان يصرخ فى راحتيـــه اللتين طواهما كمكبر صوت :
— فيجا شتاينهاوز وشيللى بيكر مع الاطفال ؟ من فيينا !..

وادرك حاييم ان هذا الرجل هو خال شيللى بيكر مهندس الخرسانة المقيم فى يافا .

وعند باب الخروج من المبنى رأى اويّا تحمل الطفل على

---

* ارض الحليب والعسل .

ذراعيها وبجوارها شيللى . وابرزت الشمس الساطعة بوضوح راس عازفة البيانو الاشيب الابيض كالثلج .

وصاح حاييم للمهندس الواقف عند البوابة :

– شيللى بيكر ! ها هى ذى شيللى بيكر من فيينا !

ولم يفهم المهندس الى من يشير هذا الشاب الغريب الهيأة . لم يكن يعرف ابنة اخته الا من الصور ، وكان يتوقع ان تأتى مع طفلين وامها . . .

واسرع حاييم الى شيللى يقول :

– هذا هو خالك يا شيللى ! انه يقف هناك مع زوجته وابنته ويبحث عنك !

واندفعت شيللى وهى تتأوه نحو البوابة :

– خالى بيرل ! ها انا ذا . . شيللى بيكر البائسة . . ها انا ذا يا خالى بيرل . . شيللى شتاينهاوز !

– شيللى ؟ شتاينهاوز ؟ ماذا بك ؟ اين ماما ؟

– شيللى ! يا حبيبتى ! ماذا حدث ؟

– ها انذا يا خالى بيرل ! ياللمصيبة ، ياللمصيبة الكبيرة ! قتلوا صغيرنا دودى ! قتلوه ، هم ! – واشارت الى الحارس الواقف على البرج وهى تصرخ . وخارت قواها فتشبثت فى الشبكة بيديها وتعلقت بها ثم خرت على ركبتيها . – ماذا فعلت لتحل بى هذه المصيبة ! النازيون قتلوا ابى وزوجى . . . والانجليز قتلوا صغيرى المسكين . . . دودى ابنى لم يعد حيا ! وماما هناك يا خالى بيرل ! انها مريضة . ظلت هناك على ظهر السفينة . . .

ودوى على خشبة المسرح صوت الاوركسترا النحاسية عازفا نشيد «آتيكوا» * . واثار القلق والمعاناة وفرحة الوصول والامل فى المستقبل ، اثار ذلك كله دموع التأثر فى اعين الناس المرهقين . وفجأة اهتز الهواء بصوت انفجار ، وتزلزلت الارض تحت الاقدام ، وانفتحت ابواب ونوافذ مبنى الميناء فى صخب ، وتناثر الزجاج برنين ، وتبعثرت على خشبة المسرح حوامل النوتات

---

* اى الامل ، وهو نشيد صهيونى .

والنوتات والابواق النحاسية . وطارت «مظلة» البرج التى كانت تحمى الحارس من الشمس الحارقة . وهدأ كل شىء وتجمـــد للحظة . . .

وفجأة صاح الحارس من على البرج :

– السفينة انفجرت ! انها تغرق !

وكالصدى تجاوبت من جميع الانحاء اصوات مليئة بالرعب :

– السفينة انفجرت !

– انها تغرق !

– بها الركاب ! . .

وسط الصخب المتصاعد للاصوات المضطربة انطلق عويل حاد وقاطعته قهقهات . كانت تلك هى شيللى بيكر . لقد تعلقت بشبكة السياج وهى ترتعد فى نوبة هستيرية . . .

وضغط حاييم غريزيا على يد اويّا المرتجفة ، ولم يستطع ان يحول بصره عن اللوحة الجدارية الضخمة التى انتزعتها موجة الانفجار فاصبحت معلقة من احد اطرافها . وحدق حاييم ببلادة فى حروفها الزرقاء الكبيرة وهو لا يستطيع ان يفهم الكتابة المقلوبة :

اريتس خالاف اودفاش

٤

لم يكن احد من الركاب الذين نزلوا من «ترانس اطلانطيك» المشئومة يعرف الى اين ولماذا ينقلونهم بسيارة مغطاة بالمشمع وتنطلق بسرعة جنونيـــة . وكان هؤلاء المتعبون يتدحرجون من جانب الى اخر عند المنحنيات ، ويتشبثون بعضهم ببعض فى عصبية ويدقون بأيديهم بالحاح على جدار كابينة السائق وهم يأمرونه ويتوسلون اليه ان يتوقف ولو دقيقة .

وفى النهاية فرمل السائق بحدة ، وقفز من الكابينة ولفظ بغل عدة الفاظ نابية معلنا انه قد منع منعا باتا من التوقف فى الطريق .

عندئذ تجرأ احد المسافرين وقال للفتاة الجالسة فى الكابينة وترتدى ثيابا شبه عسكرية :

– الناس تقطعت امعاؤهم ! الا يمكنكم ان تتذرعوا بقليل من الصبر ! هل نحن مستعجلون لاطفاء حريق ؟ كفانا ما بنا ، لقد رأينا الحريق . . .

واجابت الفتاة :

– وهل تظنون ان هذه نزوة من السائق ؟ مخطئون . ان النظم هنا غير نظمكم فى مكان ما هناك ! عندنا ينفذون الأوامر بدقة !

ودمدم المجوهراتى السمين بكلمات غير واضحة ، وتنهد جاره بصعوبة وقال :

– يبدو ان الامر ينبغى ان يكون هكذا . . .

وتحركت السيارة . ومن جديد عادوا يهتزون ويتطايرون عند المطبات ، ولكنهم تذرعوا بالصبر . «يبدو ان الامر ينبغى ان يكون هكذا . . .» .

وحوالى منتصف الليل توقفت السيارة وقد لاصقت مقدمتها بوابة من الاسلاك . واطفأ السائق المحرك وانوار المصابيح . وقفزت الفتاة من رفرف السيارة وغابت فى الظلام . غمر الهدوء المكان وكأن كل شيء مات هنا . واطل الركاب من تحت اطراف المشمع وهم يتطلعون بقلق فى الظلمة الى سماء الجنوب اللامبالية ذات النجوم الكبيرة الباهرة بصورة غير مالوفة .

واخيرا تناهى وقع اقدام عجلى . واقترب رجل من السيارة . ووجه الى القادمين ضوء مصباح طويل يشبه هراوة الشرطة وحياهم بفرح بالعبارة التقليدية «شالوم خافيريم» * وتمنى للجميع موفور الصحة وعمرا سعيدا مديدا فى «ارض الميعاد» . وبنفس الود طلب ان يصغوا باهتمام الى نصيحة صغيرة للادارة المحلية ولكنها فى غاية الاهمية وان يلتزموا بها ، وهى ان يلزموا الصمت بخصوص مأساة السفينة «ترانس اطلانطيك» .

---

* السلام عليكم ايها الاصدقاء !

وقال الرجل ذو المصباح :

— لا يمكن بالطبع تكتم ما حدث . . ولكن لا داعى للخوض فى التفاصيل وافتراض شتى الظنون . . . الافضل السكوت الى حين ، على اى حال حتى يصـــدر خبر رسمى بذلك . وعموما فالصمت من ذهب . هذا ما ننصحكم به . هنا يسود السـلام والنظام والوئام بين الناس الذين يعيشون بروح الامتثال لوصايا اجدادنا الابرار . وبالمناسبة ينبغى ان تضعوا فى اعتباركم ان ارض الميعاد لم تتحرر بعد للأسف من الاعداء . وهذا بالطبع امر آخر ، ولكن لا ينبغى علينا ان ننساه . ولن نكف عن التذكير والتأكيد بملء الفم على ان الاعداء سوف يتجرعون مرارة الكأس جزاء على كل ما ارتكبوه ضد شعبنا . . .

وبعد ان قال الرجل ذو المصباح هذه الكلمات قفز الى رفرف الكابينة ودخلت السيارة ارض المنطقة التى كانت تسمى «نقطة التجمع» .

وامام مبنى طويل منخفض يشبه العنبر اتيحت لحاييم واويا ضمن اربعة عشر شخصا اخيرا امكانية النزول من السيارة ، هذه الامكانية التى انتظروها طويلا .

وبالرغم من هذه الساعة المتأخرة من الليل فقد جاء كثير من المهاجرين الذين وصلوا من قبل وما زالوا يعيشـــون على ارض «نقطة التجمع» لاستقبال الوافدين الجدد . ولم يكن اى منهم قد سمع بعد عما حدث فى الميناء ، ولكنهم ارادوا ان يعرفوا من الذى جاء ومن اين جاء وماذا يحملون من اخبار ، والاهم من ذلك هل يوجد بينهم اقارب او معارف .

ودعى الوافدون للعشاء ، غير ان معظمهم رفض ، وابدى بعضهم رغبته فى اطفاء ظمئه . وعلى الفور احضروا محلابا ضخما يلمع طلاؤه المينا الابيض الناصع . واخذت امرأة شابة مدملجة تغرف منه بابريق فخارى كبير وهى تقول :

— ذوقوا حليبنا ! اتعرفون اى حليب هذا ؟ حليب طاهر طبعا . . . ذوقوه !

وتناول احد الوافدين الكوب وشرب عدة جرعات وقـــال متاثرا :

– يا سلام ! لم اذق فى حياتى مثل هذا . . فليهبنى الله الصحة . . . ليس هذا حليبا ، بل قشدة صافية !

ادرك حاييم فولديتير منذ الايام الاولى ان «نقطة التجمع» قد انشئت للمهاجرين الذين لم يكن لديهـــم اقارب فى فلسطين ، وبالتالى فليس لديهم مسكن .

وكانت «نقطة التجمع» عبارة عن معسكر عادى . وعلى قطعة ارض رملية طينية جرداء انتشرت خيام عديدة من المشمع . وغير بعيد عنها قام مبنى المطعم الطويل وقرابة عشرين بيتا مربعـــا منخفضا من خشب الابلكاش والكرتون المضغوط ، مخصصـــة للشيوخ وللمهاجرين اصحـــاب العائلات ولمبعوثى الحركـــة الصهيونية .

واسكن حاييم فولديتير واويّا ، التى سجلوها هنا كزوجة شرعية بناء على اعلانه ، فى خيمة مدببة القمـــة تقوم على عمـــود واحد .

وبخلاف اويّا التى لم تقهر بعد شعورهـــا بالخوف وظلت تتجنب الناس ، تكيف حاييم بسهولة مع الانظمة المحلية ، وتعرف بسرعة على المهاجرين ، وكان يصغى بانتباه الى ما يروى عن الحياة هنا . وخيل اليه ان السكينة التى بلغها هى قمة السعادة . وعندما علمت الادارة انه متطوع وأدى «الاكشارا» فى رومانيا ولكنه تخلف عن فوجه بسبب المرض ، عطفوا عليه ووعدوا بالمساعدة . وظل حاييم ينتظر فى صبر تعليمات فوجه الذى ينبغى حسب النظـــام السارى ان يحدد مصيره المقبل . صحيح ان حاييم لم يستبعد ان مجيئه مع زوجة يمكن ان يكون نوعا من المفاجأة بالنسبة لقادة الفوج ، ولكنه لم يعر ذلك اهتماما خاصا ، وكان راضيا بما بلغه. وحتى خيمته البائسة التى لم تكن تحوى شيئا غير مراتب رفيعة فوق الواح نزعت من صناديق قديمة وبسطت على الارض العارية ، وبطانية خفيفة ووعاء فخارى للماء ، سماها تدليلا «قبيبتى» !

وعندما سمع المجوهراتى السمين ذو السترة المخططة هذا

الوصف الذى اطلقه حاييم على مسكنه ، وكان قد اصم اذان الجميع بترداده انهم اتوا به الى هنا خطأ ، عندما سمع بذلك غلى من الغضب :

– اية قبة هذه ؟ ان الغجر لا ينامون ابدا مثلنا !

وحاول حاييم ان يقلب الحديث الى مزاح فقال :

– ولا يهمك ، المثل يقول : فى غياب السمك يصبح حتى سرطان البحر سمكة .

– وما دخل سرطان البحر والسمك هنا ؟ هل سبق لك ايها الشاب ان زرت امريكا ؟ كلا ؟

وابتسم حاييم ابتسامة مذنبة وهز كتفيه .

– هذا ما كنت اتوقعه ! حسنا ، ولكن سمعت على الاقل عن هارلم ؟ كلا ؟ اذن فعليك ايها الشاب ان تلتزم الصمت . ان الاكواخ التى يأوى اليها الزنوج الفقراء والمتهالكون لا تختلف فى شىء عن «قبيبتك» .

كان حاييم يصغى فى هدوء بينما اخذ السمين يحتد اكثر فاكثر . وتوافد الناس وقد شدهم الحديث الصاخب . ولم يكن لفضولهم هنا حدود . فقد كان كل شىء هنا بالنسبة للمهاجرين من البلدان الاوروبية جديدا وغير مفهوم وغامضا : العادات الغريبة المنسية ، والطقوس العتيقة التى فقدت معناها منذ مئات السنين ، واللغة العبرية القديمة قدم العالم والتى كان يتكلمها السكان المحليون وبعض الوافدين . ان مستقبل الحياة على «ارض الميعاد» هو الذى كان يثير بالطبع اهتماما خاصا . كانوا يتحدثون عن ذلك من الصباح الى المساء .

فقال الجواهرى السمين مخاطبا من تجمع حوله :

– ارأيتم هذا المتطوع ؟ ياله من خيالى ! مثالى ! انظروا كيف اخترع «قبيبة» ! . . اننى ما كنت لأعطى مرحاضا واحدا فى بيتى بوارسو مقابل كل هذه الخيام المخرومة والاكواخ الكارتونية! ولكن هتلر قدم الآن الى وارسو ، ألا فلتزهق روحه ، ولذلك فانا مضطر الى الاحتماء فى هذه القبة القذرة !

تابعت اويًا بقلق كل حركة من حركات السمين . وقد

ازعجها ان هذا الرجل الذى كانت معاملته لهما حتى الآن لا باس بها ، يتهجم الآن على حاييم كالديك لسبب لا تدريه ، ويقول اشياء ما بانفعال . ولاحظ حاييم ذلك فأصبح يبتسم لها كلمـــا التقت نظراتهما ليطمئنها الى انه ليس هناك شىء سيىء . الا ان ابتسامات حاييم اثارت حنق السمين فمضى يلوح بيديه بشدة والزبد يغطى شفتيه مؤكدا صحة آرائه .

ولكن شابا يتشح بالسواد : قفطان اسود لامع وقبعة ضخمة عريضة الحوافى ولونها قد بهت بشدة قاطعه قائلا :

– على اليهودى المؤمن ان يتقبل كل شىء بالصبر . . . فكل ما يحدث من مشيئة الله !

زر السمين عينيه ، وتطلع بتعال الى وجه الشاب الشاحب كقطعة شمع وقال :

– اتقدم لمثل هذه النصيحة الحكيمة ؟ اننى فى غاية الامتنان لك ! . . وماذا اقول . . على ان اقول لك انك تأخرت قليلا ايها الشاب . . نعم ! اذا شئت الحقيقة فاننى لم افعل فى حياتى سوى انى كنت «اتقبل كل شىء بالصبر» . تلك مشيئة الله ! كنت اعمل تفكيرى فى كيفية سداد الضرائب ودفع الكمبيالات والاحتماء من المذابح ومن اشياء اخرى لا يعلمها الا الشيطان . . . وقد بدأت حياتى من العمل ليل نهار بصورة اسوأ الف مرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، فى ورشة باردة رطبة كالقبو . . كنت اصنع خواتم وصلبانا واساور ، واصلح الساعات وغيرها . . وباختصار كنت اكدح كالثـــور لادخر قطرة قطرة ، بالحق او بالباطل ، جزءا ولو يسيرا من رأس المال . واخيرا عندما وقفت على قدمى كانسان ولله الحمد ، واصبح بامكانى ان افتتح محل مجوهرات فى وارسو ، باريس الثانية ، محل لا فى طرف مهمل بعيد ، بل عند تقاطـــع شارعى نوفى سفيات ومارشالكوفسكايا الرئيسيين ، عندما بدأ عالم رجال الاعمال يستقبلنى اخيرا كرجل محترم ، ويأتمننى على مبالغ كبيرة ، بينما اواصل التوفير شيئا فشيئا ، وابخل على نفسى بكل شىء كالشحاذ ، عندها ينقض ادولف هتلر عـــلى رأسى بغتة ودون انتظار . . . وفى لحظة واحدة اتسمعون ؟ فى غمضة

عين يطير كل شىء كفقاعة الصابون . . كل ما جمع حبة حبة ، وخيطا خيطا طوال سنوات ! ولكنها «مشيئة الله» ! ويقولون لك ، كما يقول الآن هذا التقى الشاب انه «ينبغى على اليهودى المؤمن ان يتقبل كل شىء بالصبر . . .» فتتقبل ، وتصبر ! . . انني اسالكم : وماذا بوسع المرء ان يفعل غير هذا ؟ وهل ثمة مخرج آخر ؟ ثم سرعان ما تفرح لانك استطعت على الاقل ان تنجو على قدميك المصابتين بالروماتزم . . وبالفعل فأنت انسان سعيد اذا كنت قد استطعت ايضا ان تفلت بساعة ذهبية حصلت عليها بكدك ! ولن احدثكم عن عيارها ولا ماركتها ولا عن غطائها المرصع بالماس . . . والاهم من ذلك انك لم تفلت بالساعة فقط ، بل وبسلسلتها ! وفوق ذلك فهى ليست سلسلة رفيعة كما يظن البعض ، بل سلسلة كسلاسل القيود ! وهى بالطبع ذهبية وثقيلة ، وبها احجار كريمة لا تقدر بثمن ! أتسمعون ؟ انها شىء فريد . . . وها انت تستقل مطمئنا سفينة «ترانس اطلانطيك» . . ليتنى ما عرفتها .

فسأل احدهم :

— تلك السفينة ؟ حقا ؟!

فزفر السمين زفرة ثقيلة وقال :

— هى بعينها ، ودعك لو سمحت من «حقا» — ثم استطرد وقد خفض صوته — نعم . . ولكن لا كلمة عن ذلك الآن . . هس !

وسرت موجة من الهمس المنفعل بين الاشخاص المحيطين بالسمين . وترددت اصوات :

— هدوءا !

— لا تشوشوا !

— دعوا الرجل يتكلم !

— هذا شيق جدا ! انه من هناك ولا يزال حيا ؟!

فتساءل الجواهرى مقلدا نبرتهم :

— حى ؟ شيق ؟! انه شيق الى درجة اننى ارجو من العلى القدير الا يجعل احدا يرى مثله فى حياته ابدا . . . واذا كان هناك

شيء شيق فعلا فهو انك مسافر فى امان واطمئنان ، على مهل ، وباحترام ، والاهم من ذلك انك مسافر بصورة شرعية ، لا كأحد المهربين او المهرّجين ذوى العقول الطائشة ، بل تحمل معك كل هذه البطاقات وغيرها من الكوبونات والاذونات ، وجواز السفر والتأشيرة ، وكل ما ينبغى ان يكون فى جيب رجل محترم . وفجأة يهبط عليك لا شطار ادولف هتلر «الرائعون» ، قاتلهم الله ، ولا حتى منافسوك – الذين كانوا هم ايضا يجيدون شق البطون – بل اقرب المقربين اليك ، ذوو القرابة الحميمة ، وفى وضح النهار وفى البحر الازرق وتحت السماء الصافية يسلبونك تلك الساعة الذهبية ذات الماس والسلسلة الذهبية ذات الاحجار الكريمة ! . . هل هذا يعجبكم ؟

وترددت الصيحات من كل مكان :

– ما معنى «يسلبونك» ؟

– هكذا ببساطة ؟ بدون سبب ؟

– رجالنا ؟ حقا ؟!

فأجاب السمين بعصبية :

– معقول ، غير معقول . . المهم انهم سلبونى حتى دون ان يقولوا «يرحمكم الله !» انتزعوها منى كما يسلخ جلد الشاة مع لحمها . . . تفضلوا انظروا ! – وطاف بحلقة المستعمين وهو يهز ياقة سترته الممزقة .

وهتف احدهم :

– اى-ياى-ياى ! يبدو انه كذلك بالفعل ! . .

ومضى السمين يقول :

– وبالطبع فعليك ان تتذرع بالصبر ! والا فمـــا هو المخرج ، هلا اخبرتمونى ؟ الست رجلا تقيـــا وعليك ان تذعن «لمشيئة الله» . . اما اذا كنت تؤمل بان المعاناة قد انتهت عند هذا الحد فانت ابله تماما كما كنت فى وارسو ، عندما كان لديك محل غنى بالسلع المكدسة بينما تحرم نفسك من كل شيء . . . ويتضح انه قد قدِّر لك ، كيهودى تقى وصبور ، ان تنجو بمعجزة من الغرق فى البحر ! وينبغى ان اقول لكم ان ذلك ليس من المتع

العظيمة . . . ولكن ربما تسالون اين حدث كل ذلك وكيف ؟ لن افشى لكم سرا كبيرا اذا قلت ان ذلك لم يحدث فى عرض البحر ولا اثناء عاصفة او اعصار ، بل قرب الشاطئ تماما ، فى جو صحو هادئ . . اتفهمون ما معنى هذا ؟

والتقط الجواهرى انفاسه ، وتطلع الى من حوله وقد تجمدوا من الدهشة ، ومضى يقول بحمية اكبر :

— وكل ذلك يحدث بعد ان تكون قد عبرت بحـــرا كاملا تقاذفتك امواجه واصابك فيه الدوار ، وحيث انبعثت روائح العفن وانتشر الدخان ، وسالت الدموع بل والدم انهارا ، واحاط بك الانين والفزع ! وكان يبدو ان ذلك كله كاف ! ولكن لا ، بل لا بد ايضا من ان ينطلق الرصـــاص . . . وآه لو تعلمون كيف انطلق ايها الاتقياء ! افظع الف مرة مما يحـــدث فى الحـــرب الحقيقية . . . لقد شهدت ما جرى فى بولندا . ولكنك هناك كنت على الارض ، بوسعك ان تجد حلا بشكل ما اذا كان لديك عقل يفكر ، او ان تصرخ بشىء ما . . . وعلى اسوأ الاحوال بوسعك ان تهرب الى اى مكان فلديك قدمان لذلك . ولكن ماذا بوسعك هنا ؟ بحر بلا قرار وسماء بلا حدود . يمكنك ان تصرخ كما تشاء وتستنجد ! يمكنك ان تجرى كما يحلو لك ، ولكنـــك ستبقى فى مكانك ، ولا احد يهمه أمرك ! . .

عطف الناس على السمين وهم يتبادلون النظرات ويتهامسون احيانا ، ولكن الهدوء كان سرعان ما يستتب ما ان يبدأ فى ذكر شىء جديد .

— ثم يتضح ان هذا ايضا ليس هو افظـــع شىء . ففى انتظارك انفجار . . . والسفينة تغرق . . . والناس عليها طبعا . وبالمناسبة لا يبقى على قيد الحياة احد . . . رائع ، اليس كذلك ؟ ولن ندخل الآن فى تفاصيل مسألة كيف حدث ذلك وكيف وقـــع وكيف نجوت من جديد ، فهذا لا داعى له . سأقول لكم شيئـــا واحدا : لقد بدأت معمعة كبيرة ، لعن الله مدبريها ! . .

وصاح احد الواقفين بفزع :

— اى-ياى-ياى ! شىء يجنن !

– وماذا كنت تظن . . نعم لقد جن الناس ! . . ولكن لا داعى للحديث عن ذلك الآن . . . فمهما يكن فأنت سعيد مرة اخرى لانك استطعت ان تنجو بجلدك وبمساعدة ساقيك عافاهما الله ! فقد خلصتانى ليس للمـــرة الاولى . . . وهنـــا ، اتسمعون ؟! – صاح فجأة ودق الارض بقدمه – هنا بالذات ، حيث تجرى انهار اللبن ذات الشواطئ المهلبية ، وحيث الارض مشبعة بالعسل من اقصاها الى اقصاها ، وحيث ترسل السماء على الناس المن ليلا ونهارا ، هنا يمسكون بك وكأنك نهبت شخصا ما ، ويلقون بك كالبهيمة فى سيارة ، الا فلتحترق فى النار هى وسائقها جزاء له على «حسن» نقله للركاب ! . . ولكن الى اين ؟ ولماذا ؟ ولاى غرض ؟ لا احد يدرى شيئا . ومرة اخرى كما على السفينة ، تسافر بين الحياة والموت . . . واخيرا تصل فى منتصف الليل الى مكان ما . والظلام حالك كأنما سكبوا فى عينيك حبرا . وفجأة يضربك شعاع من الضوء فى وجهك حتى لتوشك ان تفقد بصرك ! ومن شدة المفاجأة يخيل اليك اما ان الارض انشقت وقفز الشيطان من الفجوة ، واما ان السماء انشطرت وهبط موسى العظيم بنفسه الى البشر ! وتتجمد دون حراك ، وتكتم انفاسك وتغمض عينيك ! ولكنك تسمع صوتا ويا له من صوت لو تعرفون ! صوت عذب ، رخيم ، ناعم كصوت المنشد فى الهيكل يوم عيد «سيمحا تورا» . . . يقول لك انك وصلت الى الجنة بالسلامة . وتقول لنفسك : اخيرا ثاب العلى القدير الى رشده وجعلك انسانا سعيدا . . . بينمـــا الصوت لا يزال يتحدث مؤكدا لك انه بوسعك ان تنسى منذ الآن كل مصائبك وآلامك ، وكل عذابك ومآسيك ، لان العلى القدير ونفر آخر يعرفون عنك كل شىء . . صحيح ان ذلك لا يخفف عنك بعد ولكنك لا تستطيع ان تقول ذلك فتلوذ بالصمت كالسمكة . . وشعاع الضوء مسلط عليك ، بينما الصوت يخبرك بانه عليــك منذ الآن بان تعمل «بوصايا اجدادك الابرار» بكل طاعة . . . وتقول لنفسك . . . حسنا ، بكل طاعة . . فالطاعة ليســـت بجديدة عليك . ولكن يتضح ان هذا ايضا غير كاف . اما اروع ما قاله الرجل الخفى فهو تأكيده بان الذهب ليس ابدا هو الساعة التى

انتزعت منك بسلسلتها الشهيرة ، بل هو مجـــرد السكـوت ليس الا ! وهكذا ايها اليهود الاتقياء ، فان السكوت هو الذهب ، اما الساعة والسلسلة فاشياء تافهة . . . فما رأيكم ؟ هل يعجبكـم مثل هذا المزاح ؟!

وجاء صوت الثغ من وسط الحشد :

– هو كذلك بالضبط ، فالسكوت من ذهب ، بينما تطلق انت العنان للسانك !

وفجأة اصبح وجه السمين المرفه الذى كان يلمع منذ لحظة تعيسا مثل صبى شقى ارتكب اثما . ومط عنقـــه القصير وتلفت حوله لكى يرى من تفوه بهذه العبارة بنبرة تأنيب وتهديد . وسرت حركة فى الحشد ، وتهامس الواقفون بحيوية .

وطاف البدين بنظرة مرتبكة على وجوه الواقفين حوله وقد تسمروا فى صمت قلق . وسأل بصوت لا يكاد يسمع :

– حسنا ، من يطلق العنان للسانه ؟ والمهم اين يطلق العنان للسانه ؟ ام ان هذه ليست ارض اسرائيل ؟ انا لا افهم . اين انا ؟ ثم ماذا هناك فيما قلته ؟ هل اخترعته ؟ هل انا افترى ؟ ثم خبرونى لو تفضلتم ما الذى يمكن ان يفعلوه بى على ذلك ؟ ماذا ؟!

فقال الشاب ذو الوجه الشاحب والقفطان الاسود بتهديد :

– ربما لا يفعلون بك شيئا ، وربما . . . من يعش ير . . .

تفحصه السمين من قمة رأسه حتى قدميه بنظرة احتقار ، ثم قال باضطراب :

– اسمع ايها الشـــاب . . لا تخوفنى . انا لا اعرف من انت ، ولا من اين جئت وماذا رأيت فى حياتك وقاسيت . . . ولكنى ارد عليك : ما وقع وقع ! بل وبأكثر مما ينبغى ! . . نعم . . هلا قلت لى اين السفينة ؟ اين من كانوا عليها ؟ لقد كانوا عدة مئات ! تصوروا ، كلهم رجالنـــــا . . نعم ، يهود ! هرب هؤلاء البؤساء من وجه هتلر ، واذا بهم يلقون مصرعهم على ايـــدى ذويهم ! ام تظن ان الجميع مغفلون ؟

طافت عينا السمين باشفاق على وجوه من حوله . كان ينتظر

منهم المساندة او التعاطف على الاقل . الا انهم جميعا ركنوا الى الصمت كالاحجار . وتململ السمين بقلق ، وتفصد العرق من جبينه وذقنه . وادرك انه ثرثر باكثر مما ينبغى فحـــاول اصلاح هفوته .

– ولكن من ذا الذى يذكر ذلك ولو بكلمة ؟ لقد قال لنا الرجل ذو المصباح فى الليل آنذاك : «تلك مشيئة الله ، وينبغى ان نسكت . . .» ، وها نحن نصمت . . الا فلتحرقهم النيران جميعا . اننى اعرف ما معنى ان نتعامل مع بنى جنسك ، اعرف ذلك من ايام وارسو . . . ان هذا اسوأ شىء يمكن ان يكون ! . . يأتى الواحد منهم ليزورك ، ويحييـــــك فى الشارع باحترام ، وفى المعبد يصلى بجوارك كأكثر الناس ورعا ، ويدعو لك بكل خير ، ولكن ما ان يشتم انك قد تكسب اكثر منه قليلا حتى يصبح على استعداد لاغراقك ولو فى فنجان شاى . هذا ليس بجديد علىّ . ولكن من كان بحاجة الى اصدقائنا هؤلاء ؟ ومن ذا الذى يتعرض لهم عموما ؟ لقد كنا ببساطة نتحدث هنا عن ان هذه «القبب» اسوأ من المراحاض . وهذا كل ما هناك ! ولماذا ثار هذا الحديث فى تصوركم ؟ اقســـــم لكم بشرفى انه لا انا ، ولا جارى – وليكن شاهدا على صدق كلامى – لم يغمض لنا جفن طوال هذه الليالى !

فضحك احدهم قائلا :

– من عض البق ؟

فانتعش البدين وقال :

– وهل هذا يسمى عضا ؟ انه ينهش من لحمنا قطعـــــا بكاملها !

ولم يكن الضحك الجماعى للاشخاص المتجمعين راجعا الى ما قاله السمين بقدر ما كان مبعثه الرغبة فى تصفية النزاع الذى نشب .

وضحك حاييم ايضا . كان يرغب بشدة فى ان يؤكد لاويتًا بان احدا لا يتعرض لهما بسوء .

فجأة اوما السمين الى حاييم وقال :

– وهذا الشاب يستطيع بالطبع ان يسمى مسكنــه تدليلا

«قبيبة» . . . ولم لا ! فهو لا يهمه ان تعضه الحشرات ام لا . . . فمعه زوجة شابة . . . عنده شهر عسل ! فليت لدى مثل همومهما ! . .

وعاد الجميع يضحكون . ووجد حاييم نفسه فى بؤرة الاهتمام ، فاحمر وجهه ، وارتبك ، ولكنه لم يكف عن الضحك .

ومضى الجواهرى يقول :

– فى سنهما يكفيك ان تجد ما تسند اليه رأسك ، اما الباقى ف. . . وفوق ذلك فهذا الشاب ، لو اردتم ان تعرفوا ، هو اسعد زوج فى العالم . تسألوننى لماذا ؟ ببساطة لان زوجته بكماء ، ولذلك لن تنغص عليه ابدا . . . تصوروا ؟ هذا ما يمكن ان تحلم به ، أليس كذلك ؟

اثارت كلمات الجواهرى عاصفة من الضحك والفحيح ، فلم يكن الجميع يعرفون عيب اويًا .

وتطلع حاييم الى الجواهرى بامتعاض . لم يكن يريد فى حضور اويًا ان يوبخ الرجل ويفهمه ان ليس كل شئ مباح للمزاح . فوقف فى مكانه متململا وهو يبتسم فى ارتباك دون ان يدرى ماذا يفعل . ولحسن حظه صاح رجل كان يمر بهم بصوت عال :

– ايه ، ايها الخطباء ! الى متى ستظلون تعملون بألسنتكم؟ هلا ذهبتم الى المطعم . هناك شخصان هامان من حيفا يختاران من يريد ان يدمى يديه . لقد اسعدانى باختيارهما لى للعمل فى البناء قرب ناتانيا . . .

اندفع الجميع الى المطعم كالجوعى طلبا للخبز . وظل حاييم واقفا وهو فى حيرة . كان يعلم تماما انهم لن يرسلونه الى اى مكان ما لم تصل تعليمات من فوجه . ومع ذلك فقد شيع اويًا الى الخيمة واسرع الى المطعم .

وعندما دار حاييم حول ركن المبنى راى على حافة الطريق سيارة ركوب مكشوفة ومجموعة من المهاجرين يتحدثون بحماس . كانوا يمطرون كل خارج من المطعم بسيل من الاسئلة محاولين ان يعرفوا عم يسأل القادمون من حيفا ، واى عمل يقترحونه وباية

شروط والى اين يرسلون الاشخاص وهل يعدون بتدبير السكن . . .

واخذ حاييم يتنقل بين مجموعة واخرى مصغيا فى صمت الى احاديث الناس ومحاولا الا يلفت اليه الانظار . وكان يغبط من عينوا فى العمل ، بالرغم من قلة الراضين بينهم عن اعمالهم القادمة . وعلم حاييم من الاحاديث انهم يرسلون الكهول ، حتى لو كانوا اصحاب عائلات ، الى المستوطنات اذا كان فى عداد هذه العائلات افراد قادرون على العمل ، حيث يقال ان تروست «كيرين هايسود» قد ابتاعت لهم قطع ارض من الاقطاعيين هناك . كذلك سمع حاييم انهم يرسلون الشبان والشابات الذين بلغوا الثامنة عشرة الى صرفند ، وهى بلدة صغيرة قرب رام الله .

وقال شاب مطلع :

— انها بين تل ابيب والقدس ، مكان لا بأس به . . . للانجليز هناك معسكر حربى محصن حسب آخر صيحات التكنولوجيا . وهم ، كما تعلمون ، لا يختارون لانفسهم مكانا سيئا . الظاهر انهم سيسكنوننا فى مكان ما هناك . وسوف يعلموننا لكى نصبح سائقى سيارات ، وبرادين ، وخراطين وكهربائيين وميكانيكيين ، بل وسائقى جرارات ايضا على ما يبدو!

وقالت فتاة وهى تبتسم بسخرية :

— الا يبدو لك انهم سيشرعون فى تعليمنا لكى نصبح طباخين وغسالين ومنظفى اوعية ؟

فاجابها رجل قوى الجسم ، فى حوالى الاربعين ، بلهجة واعظة تعليمية :

— ليس فى هذا ما يعيب . يمكنكم ان تصبحوا مهندسين او اطباء مثلا ، ولكنكم هنا ، اذا كنتم تعدون انفسكم متطوعين حقيقيين مدركين للمهام التى تواجه الامة باسرها ، فعليكم ان تجيدوا كل شىء ! قيادة الجرار ، واعداد الخبز ، وطبعا تحضير الطعام . . . ليس فى ذلك ما يعيب . فاليوم تقودون جرارا ، وغدا دبابة ! ان الحالة الراهنة واهدافنا يحتمان علينا ان نتصرف هكذا بالضبط . . .

وقرر حاييم من منظر الرجل بقميصه الازرق المصنوع من قماش خشن ، والكتافيتين الصغيرتين اللتين تدلى من تحت احديهما خيط غليظ مجدول بلون الخاكى ينتهى بصفارة عريضة تبرز من جيب الصدر ، انه مدرب عسكرى . لقد صادف اناسا فى مثل هذا الزى اثناء تدريبه قبل السفر الى فلسطين . وكانوا جميعا يذكرون حاييم بمعلم التربية البدنية فى المدرسة الثانوية الملكية . كان يرتدى قميصا اخضر زاهيا ، وعلى كمه شريط ابيض بصليب معقوف يحمل احرف LANC • . وكان الناس يخشون صاحب القميص الاخضر فى المدرسة .

وقرر حاييم الآن ايضا ان ينأى بنفسه عن المتاعب ، ولكنه رأى فجأة بضعة اشخاص خارجين من المطعم ، وبدا له احدهم معروفا له بكتفيه العريضتين وقامته الطويلة . ودار حاييم حول السيارة التى اتجهت نحوها جماعة من الرجال ودقق النظر . . . نعم ، كان هذا نوتسى يوناس ! الذى امضى معه فترة التدريب قرب مدينة طيرجوجيو الرومانية . ولم يتجرأ حاييم على المبادرة بمخاطبة نوتسى ، ولكن هذا لمحه فحياه بسرور باسطا ذراعيه . وصاح بدهشة شديدة :

— حاييم فولديتير ؟! اسمع ! كنا نظن انك من زمان فى عداد الاموات !

وتعانقا كاخوين . كان حاييم يبتسم بخجل وكانه اذنب فى حق زملائه فى التدريب . اما نوتسى فقد تأبط ذراع حاييم ، وشق به الحشد بنشاط حتى خرجا الى الطريق .

وفهم حاييم ان صديقه نوتسى يشغل منصبا هاما ، ومع ذلك سأله :

— اصبحت يا نوتسى شخصية هامة كما ارى ؟ هذا عظيم جدا . اننى مسرور من اجلك ، اقسم لك !

فاجاب نوتسى متهربا :

— غارقون فى المشاغل ، والمشاكل اكثر . حدثنى عن نفسك

• عصبة الدفاع عن المسيحية القومية المتعصبة .

احسن . هل صحيح انك مرضت بالتيفوس ؟ كيف حدث ذلك ؟ ومن عالجك ؟

وحدثه حاييم عن بلاياه باختصـــار . واخبره وهو مرتبك بزواجه من تلك الفتاة التى انقذته من الموت .

ففرح نوتسى باخلاص وقال :

– هذا رائع ! شاطر ! واين هى ؟ ارنيها ، لا تخفيها !

– كلا ، انا لا اخفيهـــا . . . – قال حاييم متلعثمـــا – ولكنها . . . اتدرى . . . – لم يشأ ان يقول كلمة «صماء بكماء» ولم يستطع ان يجد كلمة اخرى تجعل سامعه يفهم كل شيء بوضوح على الفور .

وكان مزاج نوتسى طيبا ، فلم يفكر طويلا والقى باول خاطر ورد على ذهنه :

– هل تنتظران طفلا يا حاييم ؟

فازداد حاييم ارتباكا وغض بصره . ثم قال بتحفظ :

– كلا يا نوتسى . . . انها لا تستطيع ان تتكلم . . . منذ الولادة . اطلاقا . . . هل تفهم الآن ؟

كان الرد مفاجأة غير متوقعة ، حتى ان نوتسى توقف كانما اصطدم بجدار . وقال بصوت لا يكاد يسمع :

– صحيح ؟!

وكان وجهه ينم عن الدهشة البالغة . لكنه استدرك اخيرا واغتصب ابتسامة ، وقال بصوت مرح مبالغ :

– وماذا فى ذلك ؟! اية اهمية لذلك فى النهاية ؟ الســـت تحبها ؟

فاجاب حاييم بصوت خافت ولكنه حازم وهو يحدق فى عينى نوتسى :

– اكثر من حياتى . ومدين بحياتى كما اخبرتك لها هى بالذات اكثر من اى شخص آخر .

– هذا رائع يا حاييم ! – وشد نوتسى على يد صديقه . – هذا هو المهم ! . . اعذرنى ، فى البداية لم افهمك . . .

استقبلت اويًا نوتسى بريبة شديدة ، ولم تستطع ان تكتم

خوفها من قدوم انسان غريب فجأة . وعندما فهمت ان هذا الضيف صديق طيب لحاييم ، تهللت كلها ، ونفضت الغبار عن مقعدين وهى تبتسم ، وقدمت واحدا للضيف والآخر لحاييم .

واذهل جمال اويًا نوتسى ، ولكنه قال فى نفسه ان حاييم على ما يبدو شاب شريف وفى الوقت نفسه غريب الاطوار . فالجمال وحده لا يجلب السعادة . . . اما الطاعة التامة فيمكن ان تحصل عليها من خادم . . .

وقال حاييم بأسف وهما يخرجان من الخيمة :

— مستعجل ؟ انا مقدر ، فالاعمال كثيرة . . . ولكننا لم نتمكن من الحديث عن شيء . . .

ولزم نوتسى الحذر . ظن ان حاييم سيطلب منه الان طلبا . وكان نوتسى يوناس لا يحب تقديم العون الى الاشخاص المستبعد ان يستفيد منهم فى يوم ما . ولذلك سأل بلا مبالاة دون ان ينظر الى حاييم :

— هل انت بحاجة الى شيء ؟

فقال حاييم ماطا الكلمة :

— لا ! فقط كنت اريد ان اعرف كيف يعيش زملاؤنا فى الفوج ، اين هم ؟ وما ذا يفعل كل منهم ؟

تنفس نوتسى الصعداء . ومع ذلك قال بلا اكتراث وهو يحاول التخلص من حاييم باسرع ما يمكن حتى يتحاشى طلباته المحتملة :

— وما الذى يمكن ان تفعله هنا ؟ ها انت ترى : الجميع يكدون ويشقون ، وحياتهم ليست رغدة بعد . . .

وتحدث نوتسى باختصار عن زعمائهم . ولما تطرق الى سيمون سلمونزون تذكر ان حاييم ادى التدريب عوضا عنه ، وان سيمون اسف عندما علم بمرضه ، وتذكر مرارا حادثة دلت على الاخلاص المتناهى لهذا المتطوع ، وان سيمون كان يعتزم ارساله هو بالذات ، يوناس ، الى قبرص ليعرف ما اذا كان حاييم على قيد الحياة ام لا ، ولاحضاره اذا كان حيا . ولكن بعضهم اشاع ان حاييم فولديتير توفى بالتيفوس ، ولذلك لم تتم السفرية . . .

ولما كان نوتسى شخصا عمليا فقد بدأت تتضح فى مخيلته خطة للاستفادة من هذا الشاب الذى بدا له غريب الاطوار . وقال لـــه :

– اسمع يا حاييم . ماذا لو تحادثت مع الاصدقاء فى الادارة المحلية هنا لكى يسمحوا لك وزوجتك بمغادرة المعسكر ؟

فلم يفهم حاييم مقصده وسأل :

– الى اين ؟

– كيف «الى اين» ؟ معى الى تل ابيب . انا هناك اعمل عنـد سيمون سلمونزون فى مكتـب استيراد وتصدير . لقـــد شرع هنا فى نشاط واسع لا يمكن ان اوضحه لك بكلمتين . انـــه باختصار شخصية ذات نفوذ كبير !

فقال حاييم وهو يضحك بسخرية :

– هكذا ! على العموم هذا مفهوم ، فهو ابن صاحب مصنع ! والمصنع كما هو معروف يصنع النقود . . . فمن الممكـــن اذن تنمية نشاط واسع ، بل وان يصبح شخصية بارزة ! لم لا ؟

فاجاب نوتسى بشىء من العصبية :

– لا يا حاييم ، انت لم تفهمنى جيدا . ليس ابو سيمون ، ولا طبعاً سيمون نفسه ، هو المالك الحقيقى لكل شىء ، بل هـو خاله . وهذا الخال يعيش فى الخارج ، اما سيمون فيمثله فقط . . اما هذا الخال فشخصية كبيرة . . . صاحب ملايين ! صديـــق شخصى لموسولينى . . تصور ؟

فقال حاييم باسطا ذراعيه :

– لا افهم شيئا ابدا ! صديق شخصى لموسولينى ؟ هـل تدرك يا نوتسى معنى ما تقول ؟ اى موسولينى ؟

فضحك نوتسى وقال :

– وهل تعرف انت موسولينى آخر ؟

ثم اضاف بجدية مقصودة :

– مهما يكن فانا قضيت عدة سنوات عضوا فى «الهاردونيا» ،

وقبلها كنت فى «المكابيا» * وتعلمت فهم بعض الاشياء فى القضايا الدولية . . . اننى اعمل فى مكتب سيمون للتصدير والاستيراد ، لكننى اؤدى هنا مهام مختلفة تماما . . . ربما كنت تتصور اننا اخترنا الشبان والشابات ببساطة ؟ كلا ، الامور لا تجرى كما يبدو لك . . . فليس كل الشبان يرسلون الى ما يدعى «بتاربا» ** ، وربما عرفت فيما بعد ما معنى هذا وما هى اختصاصاته ، ولكن دع هذا الآن سرا فيما بيننا ! . . . واذا قلت لك شيئا فلا تجادل ، اتفقنا ؟

فقال حاييم موافقا :

– اننى لا اجادل معاذ الله ! ولكنى لا استطيع ان اتصور ، والله ! . . ربما كنت لا افقه شيئا . لا تغضب يا نوتسى ! فكيف يمكن ان يتصادق زعيم عصابة القمصان السود الايطاليين واليهودى سلمونزون ، وليكن حتى من اصحاب المليارات ؟ !

– تصور ! . . بالمناسبة ليس اسم عائلته سلمونزون . انه خال سيمون . ولكن ليست هذه هى القضية . . . فى مرة اخرى ساحكى لك شيئا ستصعق له ! ولكنى اكرر : هذا فيما بيننا فقط ! اما الآن فساذهب الى السلطات المحلية واخبرهم اننى سآخذكما معى .

– مهلا يا نوتسى ! ينبغى ان افكر جيدا . . .

فسأله نوتسى بدهشة :

– وفيم تفكر ؟

فقال حاييم مترددا :

– اتدرى . . . انا لا اعرف كيف سيتقبل قادة فوجنا ذلك ؟ !

– لا تعر لهذا الامر اية اهمية . فكلهم تابعون لسيمون .

---

* منظمة شبه رياضية ولكنها عسكرية الاتجاه وتخضع مباشرة للمنظمة الصهيونية العالمية .

** المكتب الرابع ، المختص بالتدريب العسكرى .

وموقفه منك طيب . هذا هو المهم ؟ الم تؤد التدريب بدلا منه ، وكدحت حتى قصمت ظهرك ! انني اذكر ! يا لك من غريب !
فاجاب حاييم بكآبة :
- هذا لا يعني اي شيء . . . وخاصة بعد ان اصبح شخصية هامة كما تقول . وعلاوة على ذلك فقد دفع ابوه لصندوق الفوج مقابلا نقديا لكل ما قمت انا به . الا تعرف ذلك !
- اعرف . . اعرف كل شيء . . . ومع ذلك فلا تتفوه بحماقات !
واشاح نوتسي بيده وانصرف ، تاركا حاييم في حيرته . ولم يمر وقت طويل حتى ظهر نوتسي من وراء ناصية المطعم ، صاح من بعيد :
- استعدا ! ستسافران معي !
عندما توقفت السيارة القديمة المتهالكة امام الخيمة وخرج حاييم واويًا يحملان لفائفهما ، اقترب منهما الجواهري السمين . وعلى الفور تجمع المهاجرون الآخرون من الخيام المجاورة . كانوا جميعا مذهولين لرحيل الزوجين الشابين المفاجئ .
وصاح الجواهري مخاطبا الاشخاص الذين كانوا ينظرون الى حاييم واويًا نظرة لا تخلو من حسد :
- انظروا اليهما ! كان هو يتصنع طوال الوقت المسكنة ، اما هي فلا تنطق بحرف ، واذا بهم يقدمون لهما سيارة ركوب ! . . يا لهما من شخصين بارزين ! قد يتصور المرء انهما تعودا على السفر دائما بهذه الوسيلة عند ابويهما ! ! فليخطفهما الشيطان هما وآباؤهما واجدادهما ! . .

لم يفرح سيمون سلمونزون بقدر ما ذهل عندما اخبره نوتسي على غير توقع بان حاييم فولديتير حي يرزق ، وهو جالس ينتظر في السيارة عند المدخل مع زوجته الشابة .
وقال نوتسي بتزلف :
- حسناء ! ولكنها صامتة كسمكة . . . انها بكماء .

فقال سيمون بدهشة :

– هكذا ؟

وبعد ان تردد وراح يفكر بصوت مسموع :

– ما معنى هذا ؟ هل اغرته بائنة كبيرة ؟ يبدو ان حاييم ليس ساذجا كما كنت اظن . . .

فقاطعه نوتسى قائلا :

– من اين لها بالبائنة ؟ انها شحاذة ! اما حاييم فهو فعلا شاب ليس غبيا ، ولكنه قروى وغريب الاطوار . . . لقد وضع فى عنقه هذا النير لانها ، حسبما يدعى ، هى التى انقذت حياته .

فازدادت دهشة سيمون :

– صحيح ؟ اذن فهو فعلا ساذج ، ساذج شريف اكثر من اللازم . . .

فضحك نوتسى قائلا :

– نعم ، احمق شريف ! . . قروى . . .

– حسنا . . . فلننظر ما الذى يمكن ان يقوم به .

وخرج مع نوتسى لاستقبال الضيوف غير المنتظرين . وشد سيمون بقوة على يد حاييم وربت على كتفه بمودة ، وحيا باحترام اويًا الخجلى ، ودعاهما الى البيت .

ولاحظ حاييم ان نوتسى يجعل بينه وبين سيمون حاجزا من الاحترام . واربك ذلك حاييم الخجول بطبعه . وعندما اجلس رب الدار ضيفيه الى المائدة وطلب من حاييم ان يحكى له عن سياحاته ، احس هذا بنفسه كتلميذ امام ممتحن صارم ، فقد كان يعرف سيمون كرجل خشن وكتوم . فاية صراحة عندئذ ! وروى حاييم بكلمات متلعثمة مقتضبة كيف مرض فى قبرص ، وكيف وصل الى فلسطين بعد شفائه . وتذكر حاييم «نصيحة» الرجل ذى المصباح التى لا تقبل التأويل ، وحادث الجواهرى البدين ، فلم يذكر شيئا عما حدث لـ«ترانس اطلانطيك» . وحاول ان يتخلص من الموقف بالمزاح فقال فى الختام :

– على الرغم من المعونة الطبية فقد شفيت . . وها انذا قد جئت !

دخلت الغرفة امرأة قوية الجسم . وكانت الصينية التي تحملها غاصة بالاواني والمأكولات . ووضعت على الطاولة فناجين الشاي واطباق المربى والتورتة المقسمة الى قطع ، والبسكوت ثم انصرفت في صمت وسكون .

ودعا سيمون حاييم وزوجته الى ان يتذوقا ما رزقه به الله بعد وعثاء الطريق ، واعتذر بان الاشغال ستضطره الى ترك الضيوف لفترة قصيرة ، وخرج على الفور من غرفة الجلوس . وتبعه يوناس .

طاف حاييم بنظره على غرفة الجلوس . كان كل شيء هنا يشهد بثراء اصحاب الدار ، وفي الوقت نفسه يثقل على النفس بكآبته وتكلفه وثقله : النجفة الكريستال ذات السلاسل السوداء الضخمة ، والجدران المكسوة بسجاد ثمين ، والستائر المخملية الحمراء الداكنة المطرزة بالذهب والصور البيضاوية الثلاث المعلقة فيما بينها وذات الاطر البرونزية الثقيلة . وفي الوسط علقت صورة كبيرة لرجل ذي لحية كثة وعينين كبيرتين صارمتين . وعرف فيه حاييم دون جهد تيودور هرتزل مؤسس النظرية الصهيونية . فقد رأى صورة مثلها في مطعم «نقطة التجمع» .

واصغى حاييم الى الصوت الناعم لحركة الساعة الكبيرة ذات الاطار الخزفي والموضوعة على رف من المرمر فوق بوفيه متعدد الادراج كالمعبد البوذي ومطعّم بالعاج باسراف . ومن خلف زجاجه السميك المرآوي تلألأ كريستال المزهريات والدوارق والاطباق والكؤوس .

وقال حاييم في نفسه باستسلام مر : «نعم ، الاغنياء دائما في الجنة ، ليس مثلنا نحن الفقراء . فليتعذبوا في «نقاط التجمع» ، وليجوعوا ويمرضوا . . فمن بحاجة اليهم . . .»

قطع قدوم سلمونزون ونوتسي على حاييم خيط افكاره الحزينة .

وقال رب الدار :

– لقد احسن يوناس صنعا اذ احضركما معه . اننا بحاجة

الى عاملين شرفاء . ولكن علينا ان نقرر قبـــــل كل شيء ايـــن ستسكنان .

وكأنما كان نوتسى يتوقع هذا السؤال . فقد عرض على الفور ان يسكنا عنده . وقال لحاييم موضحا :

— انا اسكن مع زوجتى وحماتى فى بيت الصديق سيمون . . فى بلدة بنى بيراك ، غير بعيد من هنا . . . ولدينـــا فى الفناء جناح . . صحيح انه بحاجة الى بعض الترميم . . .

فقال سيمون مقاطعا نوتسى وموافقا على الفور :

— عظيم جدا ، اتفقنا !

فشكره حاييم وسأل مترددا :

— وما رأيكم ، الن القى متاعب من قيادة فوجنا بسبـــب مغادرتى «نقطة التجمع» بدون اذن ؟ اليس من الافضل ان نخبرهـم بذلك ؟

فاجاب سلمونزون بثقة :

— بسيطة ! رتب امورك ، ورمم المسكن ، ثم نتفاهم بعد ذلك عن الاشياء الاخرى . المهم العمل ! هل فهمتنى يا صديـــق حاييم ؟ العمل !

٥

كان النهار على وشك ان ينتهى عندما توقفت السيارة التـى كان يجلس فيها بعظمة نوتسى يوناس وزميله السائق وعلى مقعدها الخلفى يجلس حاييم واويًا ملتصقين ، عند باب بيت منخفض ، مائل قليلا ، وذى اربع نوافذ . واضفى عليه شيش النوافــذ الخشبى المقشور الطلاء والمكسور فى بعض الاماكن صورة البيت الكئيب المهجور .

وعلى الفور احاط بالسيارة جمع من الصبيان الذين اقبلوا من افنية المنازل المجاورة . وراحوا يتصايحون بالتحية :

— شالوم خافيريم !

— شالوم !

اطفأ زميل نوتسى محرك السيارة وهو ينوى ان يدخل الى المنزل مع رب الدار ، لكن احد الصبية ، وكان اسمر البشرة ، يرتدى سروالا يبلغ اسفل ركبتيه بقليل ، وفى «بيريه» صغير من الساتان يشبه الطبق ولا يكاد يغطى شعره المجعد ، اقترب منه وقال بتحد :

– انت شبت جوى ! * عما قريب سيحل السبت وانت ما زلت تركب السيارة !

فقال نوتسى وهو يتطلع الى السماء المذهبة بشفق الغروب :

– ما زال الوقت مبكرا . اتدرى كم بقى حتى الغروب ؟ وانت تصرخ «السبت» ! اذهب من هنا ، اتسمع ؟

فتراجع الصبى مكرها وقال مكشرا :

– اذهب انت ! ما ان تظهر اول نجمة حتى نخرق جميع اطارات سيارتكم الملعونة . . . سترى !

هدد نوتسى الصبى ، ولكن السائق راوده القلق بوضوح فادار المحرك ورحل على الفور يشيعه صياح الصبية :

– شبت جوى ! شبت جوى !

وطارت الاحجار فى اثر السيارة .

وقهقه نوتسى بتكلف :

– أرأيت يا حاييم اى شبان يترعرعون هنا ؟ ليسوا مثلى ومثلك ! ابطال ! . .

فابتسم حاييم ولكنه لم يقل شيئا . لم يفهم سبب تجاسر الصبية ، ولماذا اثنى عليهم نوتسى رغم ارتباكه الواضح .

وما ان فتح نوتسى باب سور البيت حتى صاح بالرومانية :

– ايتًى ، ماميكو ! اين انتما ؟ استقبلا الضيوف !

وظهرت على عتبة الباب المفتوح امراة شابة فى رداء حريرى ازرق زاه مطرز بازهار كبيرة . ولم يكن من الصعب ان تقرأ فى ملامح وجهها انها ليست فرحة ابدا باصطحاب زوجها لضيوف يحملون لفائف بائسة .

---

* شبت جوى ، هو اليهودى الذى لا يراعى عيد السبت .

— هذا صديقى ! — سارع نوتسى بتقديم حاييم اليها بمرح وباللغة الرومانية حتى يتحاشى اية تعليقات لا داعى لها — متطوع من رومانيا ! وهذه زوجته . . .

فقالت اتيليا زوجة نوتسى :

— كم انا مسرورة لانهما من رومانيا ! — ونظرت الى زوجها باستنكار وقالت بتهكم : كم يسرنى هذا . . .

وحياها حاييم بانحناءة وهو مرتبك ، وذكر اسمه ، ومس مرفق اويًا بحذر وقدمها اليها فى خجل :

— زوجتى اويًا .

فقهقهت اتيليا وهى تتساءل :

— اويًا ؟ ! ما هذا . . اسمك ام لقب تدليل ؟ اويًا ! * . .

فاسرع نوتسى بالرد مستبقا حاييم :

— كلا يا ايتى ! هذا هو اسمها بالفعل . انها فعلا رقيقة ووادعة كالنعجة . . . — واسرع يقول مرتاحا الى استطاعته تحويل سؤال زوجته الساخر اللاذع الى مزحة . — اتعرفين يا اتيليا ان رفيقى هذا صديق كبير لسيموتنا ! نعم يا عزيزتى . . سلمونزون استقبلنا بحفاوة كبيرة . . . ونحن الآن قادمون من عنده اقسم لك !

جحظت عينا اتيليا ، واستطال وجهها فجأة ، وتهدلت شفتاها . لقد كانت مشدوهة .

وقالت مخاطبة حاييم المحنى الظهر وكأنها لا تصدق كلام زوجها :

— وكنتم جميعا عند سيمون ؟ انت تعرفه ؟

واومأ حاييم بالايجاب وهو لا يدرك بعد ذلك التأثير السحرى الذى تركته فى نفسها رواية زوجها عن زيارتهم لسلمونزون .

واجاب نوتسى بعصبية :

— قلت لك يا اتيليا اننا كنا فى بيته ! جلسنا فى الصالون ، وضيفنا شايا ومربى وبسكوتا وتورتة واشياء اخرى . . . مائدة

---

* اويًا بالرومانية تعنى : نعجة صغيرة .

حافلة ، اقسم لك ! ورجانى سيمون شخصيا ان اساعدهما فى العيش هنا مؤقتا ، فى الجناح . . .

وتناهى صوت حريمى مرتعش :

– اتيليا ، نوتسى ، لماذا لا تدعوان الضيوف للدخول ؟ لماذا تقفون فى الفناء ؟

التفت حاييم ، فرأى عند الباب امرأة بدينة ، قصيرة ، بشعر اشيب قصير . فانحنى لها محييا باعتذار .

ومضت العجوز تؤنب ابنتها وصهرها :

– الناس قادمون من سفر ، ولا بد انهم متعبون وانتما تبقيانهم فى الفناء وكانه لا بيت لدينا لذلك ؟ ! يا للفظاعة ! من يستقبل الضيوف هكذا يا اتيليا ؟ !

لقد سمعت حماة نوتسى الرهيبة بالطبع ان هذين الزوجين الشابين الفقيرى الثياب قد استقبلهما سيمون سلمونزون نفسه . . .

وهمس نوتسى بشىء ما لزوجته فنظرت الى اويّا بدهشة ، وقالت لها مترددة بعض الشىء :

– تفضلا طبعا . . . الى هنا ! ادخلا الى هنا . . . تفضلا !

دلف حاييم واويّا الى مدخل صغير مطلى بالجير ونظيف ، مكتظ بالصناديق والعلب التى خط عليها «جوينت ديستربيوشن كوميتى USA » * . وتذكر حاييم انه فى ذلك اليوم الرهيب نقلوا اليهم فى «ترانس اطلانطيك» الطعام فى علب كهذه تماما وبنفس الماركة . وادهشه ان توجد مثل هذه العلب فى بيت نوتسى .

وقال حاييم مشيرا الى متاعهما :

– هل يمكن تركه هنا ؟

فنفرت اتيليا كقطة غاضبة وقالت :

– وما هذا السؤال ؟ حتى لو كانت لفائفكما محشوة بالذهب فلن يمسها احد !

وتضرج وجه حاييم ، وقال بخجل انها لم تفهمه ، وكل ما اراد

* جمعية صهيولية خيرية يمولها اليهود الامريكيون .

ان يقوله هو انه يخشى ان يأنف اصحاب الدار من متاعهما القبيح المنظر .

وقالت العجوز وهى تخرج الى الردهة :

– ماذا ! لماذا تقفون هنا ؟ ادخلوا !

وشكرها حاييم ، ووضع لفائفهما على الارض بحذر ، وخلع حذاءه البالى وبسرعة دسه تحت اللفائف خجلا من منظره البائس . وحذت اويَّا حذوه ، واتجها معا على اطراف اصابعهما الى الغرفة الكبيرة .

ودعاهما نوتسى الى الجلوس :

– هنا مقاعد ، وتخت وفوتيل . . اجلسا حيث تشاءان

وخرج الى الردهة .

واشارت اتيليا الى اويَّا وقالت :

– دعها تخلع الجاكت . . افهمها ان البيت دافئ !

وساعد حاييم اويَّا على خلع جاكت الصوف . ونزعت ايضا منديل الرأس وسوت جديلتها ، فتبدل منظرها فورا . تطلع اليها حاييم بولعه ، وعندما خرجت اتيليا من الغرفة ، قبلها برقة . وتهللت اسارير اويَّا ، واومأت بدورها الى سترته المجعدة البالية .

اقترب حاييم من المرآة وتطلع الى صورته : خداه غائران ، ودوائر سوداء تحت عينيه ، اما النمش فبدا انه لم يكن فى وقت ما اوضح منه الآن .

– اوه ، صح ! – قالت العجوز عندما دخلت الغرفة ورأت حاييم يخلع السترة – تصرفا وكانكما فى بيتكما ! نحن قد خبرنا ماذا يعنى ان تفد الى بلد لا تعرف فيها احدا ولا يعرفك احد . شىء فظيع ! ولكن . . . ماشى الحال ! لم نمت والحمد الله . . . نوتسى يعمل عند سلمونزون كما تعرفون . واتيليا ؟ انها ايضا تعمل . . . ليس عملا مرضيا ، ولكن لا بأس . . . تعلم الاولاد الموسيقى . – واشارت الى بيانو قديم . – لقد حملته معى من جالاتس ! . . كم كلفنى من جهد وعافية الله وحده يعلم . . . ولكن لكى تشترى شيئا كهذا هنا لا بد ان تكون معك اموال

خرافية ! ومن اين ؟ ابنتى وصهرى ، وهبهما الله الصحة ، لا يعجبهما عندما اتحدث هكذا ، فهما رغم كل شيء يشغلان منصبين كبيرين . خاصة نوتسى ! لقد احرز تقدما كبيرا . . . ولكنه فى المقابل يعمل كالبغل ! والا فلن يستبقيه سلمونزون . . . صدقونى اذا قلت انه احيانا لا يأتى الى البيت اسبوعا كاملا . . ونحن لا نسأل ماذا يفعل هناك ، والى اين يسافر . ما دخلنا بذلك ؟ وبالطبع فالاشخاص الذين هم مثل سلمونزون لا تتصدع رؤوسهم من التفكير فى كيفية الحصول على النقود للذهاب الى السوق ، او من الذى ينبغى ان يردوا له الدين اولا : البقال مقابل التموين ام صاحب البيت مقابل ايجار المسكن . اما الاسعار ، عليها اللعنة هى ومن اخترعها ، ففى ارتفاع مستمر . . .

ودخلت اتيليا ، فصمتت العجوز ، ونزعت بحركات متسرعة عن الطاولة المفرش القطيفة ذا الشراشب الطويلة وفرشت مفرشا آخر ناصع البياض منشى ، ووضعت الملاعق والشوك على الطاولة ، واخذت شيئا ما من البوفيه مثل ابنتها وتبعتها خارجة .

عندما اصبح حاييم واويًا بمفردهما تبادلا النظرات واخذا يجيلان النظر فيما حولهما بفضول . كانت الغرفة واسعة ونظيفة . واضفى عليها طابعا مريحا بصفة خاصة ذلك البساط الترانسلفانى الساطع الضخم الذى كان يتدلى من السقف تقريبا ويغطى الكنبة العريضة التى كانت تتناثر عليها وسائد كثيرة متعددة الالوان كما هو الحال على ارض غرفة الجلوس لدى سلمونزون . وفى ابرز مكان ، فوق البيانو علقت صورة سيمون سلمونزون بحجم كبير وبالالوان . كان يبدو فى الصورة اكبر من سنه رغم انه رسم مرتديا قميصا رياضيا ابيض بياقة مفتوحة واكمام قصيرة . وعلى جيب صدره تألقت نجمة «درع داوود» السداسية الكبيرة المحاكة بالخيوط الزرقاء .

وتوقفت نظرة حاييم عند باب مفتوح على مصراعيه ويفضى الى غرفة اخرى صغيرة . وكان الصوان والكنبة الملتصقة به يتركان ممرا ضيقا .

عندما دخل نوتسى الغرفة لاحظ نظرة حاييم الى الباب المفتوح فقال :

– هناك تعيش ماما . اما خلف الحائط فتسكن عائلة اخرى . ان سلمونزون يؤجر النصف الآخر من الدار لعائلتين . . . ولديهم مدخل مستقل . اننـــا لا نختلط بهم . . . انهم «فاتيكيـم» * . كانوا يعيشون هنا قبل ان يشترى والد سيمون هذا البيت . ان لديه ضعفا بشكل عام ازاء المنازل . . . ما ان يأتى الى فلسطين حتى يشترى بيتين او ثلاثة . . .

فقال حاييم :

– «ضعف» لا بأس به . . . افهم من ذلك انه ينقل راس ماله بالتدريج من رومانيا الى هنا .

فقال نوتسى مرتبكا :

– كيف اوضح لك ؟ اعتقد ان الامر ليس كذلك تماما . . .

وفى تلك الاثناء جاءت اتيليا وامها وشرعتا فى رص اطباق المزة على الطاولة . ودعت الام الضيفين الى المائدة اما نوتسى فاخرج من تحت التخت زجاجة تحوى سائلا شفافا . وعندما رأتها العجوز على المائدة استولى عليها الفزع .

– لقد عاد الى عادته ! ياللفظاعة ! مهما قلت له ان هذا هو الهلاك بعينه وان كوب العصير افضل بكثير ، فانه مع ذلـــك يمصمص هذه القذارة ولو قتلته !

وضحك نوتسى ضحكة مذنبة ومع ذلك فض سدادة الزجاجـــة على مهل . وسأل حاييم :

– هل سمعت يا حاييم ما هو «العرق» ؟ يشبه الى حد مـــا «التسويكا» الرومانية . . .

فقالت اتيليا ضارعة :

– اوه يا نوتسى ، ان ماما لا تريدك ان تشرب . . . – وقالت لحاييم موضحة :

– انك تدرك اى مشروب هذا اذا كان البدو هم الذيـــن يصنعونه ؟ !

* سكان فلسطين الاصليون من اليهود .

فقالت العجوز بغضب :

– انها فظاعة ! معدتى تنقلب بمجرد ان ارى البدوى ! اعوذ بالله ! انهم دائما قذرون ، لا يستحمون ، ولا يمشطون شعرهم ، وفيهم كل ما تشاء . . . اما هو فيشرب ولا يأبه ! وكيف يشرب ، آه لو رأيته يا للفظاعة ! انها قذارة حقيقية . . .

وفرقع نوتسى بلسانه متوقعا اللـــــذة ، وصب لحاييـــم ولنفسه . وقال بهيئة العارف :

– العرب يشربونه مع الماء . . مثلما فى رومانيا ، فى ارقى المطاعم يملأون ثلاثة ارباع الكأس نبيذا ، والربع سيفون . . فتحصل على شمبانيا !

فقال حاييم بتواضع :

– على شبريتس !

– مضبوط ، شبريتس ! – امن نوتسى على كلامه وظهرت فى صوته رنة اسى . – اذن فانت تذكـــــر كل شىء يا حاييم ؟ ! شاطر .

وصب نوتسى ماء فى الكاسين ، فتعكر لون الشراب . وافرغ ما فى الكأس فى فمه بهمة ، اما حاييم فاحتسى نصفه على مهل ، وقال بهدوء فاذهل اتيليا وامها اللتين كانتا ترقبانه :

– لا بأس . . .

وصاحت العجوز وهى تقطب وجهها :

– مزا بسرعة ! يا للفظاعة !

اقترح نوتسى على حاييم :

– هل تريد بعض الماء ؟ جرعة ؟

وقالت اتيليا بقلق :

– هل تحس بسوء ؟ لا بد ان جوفك يحترق ؟

فاجاب حاييم :

– كل شىء على ما يرام ، والله ! شكرا .

وساد صمت . انكب الجميع على الطعام . واكل حاييم واويًا على مهل البيض المخروط مع دهن الدجاجة والبصل المحمر وكان

كل هذا موضوعا امامهما على طبقين منفردين . ووضعت العجوز فى كل طبق قطعة دجاج وملعقتين او ثلاث من الفاصوليا المسلوقة .

وعرضت على الضيفين :

— جربا الفاصوليا ! هذه ليست فاصوليا بل سكر ! تذوب فى الفم . . .

وبعد المزة وطبق اللحم صبت فى الاطباق مرقا من وعاء حديدى مغطى بطبقة سميكة من السواد .

— كانت دجاجة اليوم موفقة بشكل نادر . . . اوه ، لماذا لا تأخذان من البقسماط . انظرا اى مرق هذا ؟ ذهب خالص ! خذا بقسماطا ، هيا ! — قالت وهى تزحزح نحو حاييم طبقا به قطع مربعة صغيرة من الخبز المحمص — ضع ايضا لزوجتك . . . . يبدو انها قليلة الاكل . افهمها اننى انا التى اعددت هذا البقسماط . . .

— يا سلام ! . . — صاح نوتسى وهو يمصمص شفتيه لكى يرضى حماته . — لن تجد امهر من ماما فى الطبخ ! شىء غير عادى ! لقد استضفنا سيمون ذات مرة .. اتذكرين يا اتيليا كيف اكل ؟

— كيف لا اذكر ؟ ! — اجابت اتيليا وكأن الحديث كان يتناول حدثا خارقا — كان يلحس اصابعه . . .

وتململت حماة نوتسى فى جلستها وقالت :

— كم يسرنى مديحكم يا ابنائى ، وهبكم الله الصحة والسعادة ، ومع ذلك اقول لكم ان جميع الاطعمة كان من الممكن ان تكون افضل والذ ، لو لم يكن لدينا مثل هؤلاء الجيران الملاعين . . . نعم ، نعم ، لا تندهش ! — وحدقت العجوز فى عينى حاييم . — اليوم عشية السبت ! بالطبع قبل وصولى الى هنا ، لم اكن اراعى هذا التقليد بدقة . ليس ذلك لاننى ضعيفة الايمان ، معاذ الله ! بل لاننا تعودنا ذلك . اما هنا ، فسواء شئت ام ابيت ، فعليك ان تراعى تقاليد لا احد بحاجة اليها ، تقاليد ربما ظهرت من آلاف السنين ! وتصوروا ان السكان المحليين ما زالوا يراعون هذه التقاليد مثلما كان اجدادهم يفعلون فى وقت ما ! والا فما الذى يجعلنى اراعيها ؟ انهم جيرانى . . .

وقالت اتيليا مؤيدة :

– لدينا هنا جيران ، خير للمرء الف مرة الا يعرفهم قط ! اعوذ بالله لو عرفوا مثلا ان احدا اشعل النار يوم السبت ، ودعك من باقى الاعياد . . .

فقاطعتها امها :

– يا للفظاعة ! وماذا اقول ! هؤلاء ليسوا بشرا ، ولا اعرف حتى كيف اسميهم . . . صدقونى انهم اسوأ من العرب !

فقال نوتسى مصححا حماته بحذر :

– لنقل انهم ليسوا اسوأ . ولكن ليست هذه هى القضية . العرب هم العرب ، ونحن جميعا نعـــرف كيف يحبوننـــا وكيف نحبهم . . . ولكن جيراننا هم ببساطة اناس متخلفون ومؤمنون بالخرافات .

فلم تهدأ اتيليا ومضت تقول :

– وهل هذا فقط ؟ ماذا تقول يا نوتسى ؟ ! انهم ليسوا بافضل من العرب . . . الم تقل انت نفسك هذا مرارا ؟ !

دفع نوتسى زوجته بقدمه قليلا من تحت المائدة فسكتت ، ولكن حماته الجالسة فى نهاية الطاولة كانت ابعد من ان تطال . وعلاوة على ذلك فقد كانت من النوع للبشر الذى لا يمكن ان يسكت اذا مست كرامته .

فقالت بحدة :

– لا تجعلوا منى بلهاء لو سمحتم ! انا لم اخرَف بعـــد ! ولعلمكم فانا لا ادرى كم اعطى من هؤلاء «الفاتيكيم» امثال جيراننا مقابل عربى واحد . . انظروا كم يساوى جارنا وحده ؟ يا له من طيب . . . لو وضعته على الجرح يبرأ !

– لا احد يقول انه طيب . . . – قال نوتسى بتزلف وحاول تغيير مجرى الحديث فقال لحاييم موضحا :

– انه والد ذلك الصبى الاسمر ذى السروال القصيـــر والطاقية السوداء على راسه . وابوه يعتزم ارساله الى «اليشيوا» * ولذلك يراعى بدقة كل اصول «قوانين الاجداد» .

* مدارس دينية ذات تعليم غيبى ، مغرقة فى التخلف والتعصب .

فقالت العجوز بحذر :
– وماذا كان يريد منك هذا المعتوه ؟ ما الذى كان يحتاجه ؟
– وما الذى يمكن ان يريده ؟ لقد رأى السيارة ولهـــذا جاء . . .
فتساءلت العجوز بلوم :
– وهل يمكن ان يأتى هكذا ؟ يا له من صبى . . فظاعة ! من الافضل الا يولد امثاله ، صدقونى . . وعموما فاسرتهم اعوذ بالله ! . .
فعادت اتيليا تقول وهى لا تقوى على السكوت :
– اتدرى كيف نسميهم ؟ «الصابرا» !
حاول نوتسى ثانية ان يخفف من انتقادات زوجته وحماتـه الحادة بان يضفى على الحديث طابع المزاح ، فقهقه قائلا :
– نعم . . نعم . . هنا يوجد نبات – كهذا . . الصبار * . . ثماره حلوة ولكنه حاد الاشواك . وهكذا سمى السكان المحليون «الصابرا» . . فهم ايضا شائكون الى حد ما . . . وان كان بينهم اناس محترمون ! ولكن جيراننا من نوع خاص . . . شائكـــون قليلا .
فقالت العجوز بسخط :
– قليلا ؟ اتسمعين اتيليا ؟ الست مضطرة بسبب هؤلاء ، «الصابرا» ان اضع على النار عشاء مطبوخا وغداء كاملا من يـــوم الجمعة حتى مساء اليوم التالى ؟ ! ومن غيرهم يزعجنا دائما بطقوسه الحمقاء ؟ انك تدرك اننا لسنا كالخنازير حتى نأكل طعاما باردا – قالت العجوز مخاطبـة حاييم بالرومانية – فقد تصاب بوجـــع فى المعدة ينغص عليك كل حياتك ! اما ان تشعل النار يوم السبت ، ودعك من اعداد طعام طازج ، بل مجرد تسخين الطعام . . اعوذ بالله ! اننا ايضا لا نريد ان يعلم هؤلاء «الشائكون قليلا» فيهيلون علينا القاذورات فى كل ارض اسرائيل . . . فى وسعهم ان يرتكبوا اى شىء ! يا للفظاعة ! . . ولكنى لا اخشاهم ، صدقنى . . لا

---

* يطلق عليه ايضا : التين الشوكى .

ابالى بهم على الاطلاق . ولكن صهرى وابنتى وهبهما الله الصحة يؤكدان دائما انه من المحرج لهما مخالفة التقاليد . ولذلك فقط فنحن لا نثير معهم اية مشاكل . ترى اننا بسبب ذلك نضطر يوم السبت ، وفى ايام الاعياد خاصة ، الى اكل طعام بارد ، حامض ، بل ونتن وعفوا على ذكر ذلك على المائدة . . . يا للفظاعة ! ولذلك فالطعام لا تفوح منه رائحة الدخان فقط او الشياط ، بل ورائحة الكيروسين احيانا . . .

تململ نوتسى على الكرسى ، ولما لم يجد وسيلة اخرى لوقف سيل الصراحة المتدفق من فم حماته ، راح يصب الكأس تلو الكأس من «العرق» ، ويفرغها فى جوفه متعمدا . وتضرج وجه اتيليا وهى توجه الى امها بحذر نظرات تأنيب . واخيرا فهمت العجـــوز وبدأت تهدأ .

وقالت بنبرة اقل عنفا :

– لكن لم يمت احد من جراء ذلـــك . لقد تعودنـــا ، وستتعودون انتم ! وكما يقال ليت هذه المصيبة وحدها تبقـى ولا يرى احد مصائب اخرى . . . فلتأكل اذن ولا تأنف . . بالهناء والشفاء . فهذا المرق من دجاجة موفقة تماما !

فى نهاية المأدبة انتشى نوتسى بشكل واضح ، وعندما نهض الجميع عرض على حاييم ان يتنزها قليلا .

واشار بيده الى مبنى صغير فى عمق الفناء لا يكاد يبيـــن فى الظلام وقال :

– ها هو الجناح الذى ستسكنانه . اقضيا الليلة عنـــدى اليوم باى شكل ، وغدا نتفقده . لقد قال سيمون انه مسكـــن مؤقت ، للبداية فقط ، فليس له سقف . . . لكن السطح ممتاز يا حاييم ، والابواب ايضا . . .. صحيح ينبغى تركيـــب زجاج للنافذة . . وسنحصل لكما على حصيرة تفرشانها على الارض . عندى الكثير منها فى الميناء . انها رخيصة ، تفوح منها رائحـــة العشب اللطيفة ، والتخلص منها لا يسبب اسفا . .. الكثير من السكان المحليين يفرشونها حتى فى الغرف ، اقسم لك . ولكن الامر اسوأ بالنسبة لوسائل الراحة .

فصاح حاييم بشيء من الدهشة :
– ماذا تقول يا نوتسى ! اى حديث يمكن ان يكون عن وسائل الراحة ؟ ! هل انا لا ارى كيف تعيش غالبية الناس هنا ؟ اننى ممتن لك يا نوتسى جدا ، والله اقولها من كل قلبى . . .
– لا يا حاييم ، لا ، وسائل الراحة التى اتحدث عنها ضرورية للجميع ، سواء كانوا عبيدا ام اباطرة ! فانت لست بدويا لا يحتاج لشيء ؟ وطالما ستعيشان هنا فيوجد غير بعيد هذا المكان .
– ماذا تقصد ؟ تواليت ؟
– وماذا تظن . . حمام ودش بماء ساخن وبارد ؟ ! – وضحك نوتسى – هذه الاشياء لا يستطيع ان يتمتع بها الى الآن سوى اناس مثل سيمون سلمونزون ! سنذهب الان واريك اين يقضى الفاتيكيم حاجتهم . . . وستضطر ان تتمشى انت وزوجتك حتى هناك . ليس بعيدا . . .
خرجا الى الشارع وسارا على الرصيف الملء بالحفر والذى تضيئه بوهن مصابيح قليلة متباعدة .
واستطرد نوتسى فى الحديث عن الموضوع السابق الذى خيل لحاييم انه يقلق نوتسى جدا لسبب ما :
– ما ان تنتظم فى العمل حتى نجد لك مسكنا آخر ، اكثر راحة . وعندئذ لن تعودا مضطرين الى القيام بهذه النزهات غير السارة . . . فى الحقيقة كان سيمون على وشك ان يشيد مبنى كهذا فى فنائنا ، ولكن عمالنا الاوغاد طلبوا اجرا خرافيا .
– من تعنى بعمالنا ؟ تعنى اليهود ؟
فاجاب حاييم بسخط :
– بالذات ! وعندئذ احضرت اثنين من البدو ، وكانا مستعدين للعمل لقاء بضعة قروش . ولكن فكرة طرأت على ذهن ماما . . فقد قالت لماذا نصنع مرحاضا عاما فى الفناء ، ونضطر عندئذ شئنا ام ابينا ، للاختلاط بهؤلاء «الصابرا» القذرين ؟ ولو وضعنا قفلا فسينزعونه مع الباب والمفصلات فى اول ليلة ! عندئذ قلنا اليس من الافضل ان نخصص لذلك ركنا لدينا فى المطبخ ؟

وهذا ما صار . ليس هذا طبعا «شيك مودرن» . . بل انه ليس حتى مستورا باى حاجز . والمطبخ حتى بدونه ضيق لا يمكن ان تستدير فيه . وعليك فى كل مرة ان تطرد الجميع منه ، اما هم فيستعجلونك دائما ، لان هناك ثمة شيء قد يحترق او يشيط . . . وباختصار فليست تلك «غرفة تأمل» . . .

فهم حاييم الآن ما كان يزعج صديقه . لم تكن دهشته لسوء المساكن التى يقطنها السكان المحليون باقل من دهشته لبخل سيمون سلمونزون والنبرة العدائية التى تحدث بها نوتسى عن العمال اليهود وجيرانه فى المنزل . وادهشه كذلك جو الحسد الشائع هنا والتنافر والشجار . واسرع يطمئن نوتسى قائلا انه لن يستغل كرم ضيافته لا اليوم ولا بالاحرى فى الايام المقبلة عندما ينتقل مع زوجته الى الجناح .

وتنهد نوتسى بارتياح وغير مجرى الحديث الى موضوعات اخرى ، وقال :

– كل شيء هنا فى البداية يا عزيزى حاييم ! العمل لا اول له ولا آخر . . . اينما تلفت فستجد كل شيء مطلوبا : التصليح ، والبناء ، واعداد الاساس لمكافحة الاعداء ايضا مطلوب ! تصور انه مطلوب ايضا استيراد المواد الغذائية . فالارض لدينا ، بصراحة ، سيئة .

فقال حاييم بسخرية :

– ارض الميعاد ! لقد كنت اظن ان ارض الاجداد حقا من عسل . . . .

فقال نوتسى مغضبا :

– من عسل . . . اننى احدثك بصراحة وانت تسخر . . . ان اصلاحها يتطلب جهودا جهيدة ! . . وعندما تنظر الى مستوطناتنا يعتريك الفزع ! هذه ليست اوروبا . . فهناك تغرس عصا ، واذا بها تنبت شجرة . . هنا لا بد ان يسيل عرقك سبع مرات حتى تربى شجيرة حقيرة . وعلاوة على ذلك ينبغى ان تراقب كل شيء ! والا سوف ينهبك العرب فى لمح البصر . . ورجالنا ايضا . . فهؤلاء المحليون كذلك لا يقلون عنهم . . لا ينبغى تركهم

بدون رقابة دقيقة . . .وعموما فهم يمقتوننا نحن الوافدين ، بالرغم من اننا نحن الذين نصنع لهم كل الخيرات . فكل ما يملكونه هنا هـــو بفضلنا نحن ! ولكنهم بدلا من العرفان يرددون اننا مرفهون ومنحلون ، ونفسد عليهم كل الامور . ولهذا فان الوافد يذوق المر احيانا . . ومع ذلك فالمكان هنا لا بأس به بالطبع . . .

فسأل حاييم :

– حقا ؟ ما هو الحسن هنا ، اذا كان لا بد من الحذر من العرب ، وبين رجالنا عداء ، والمشاكل والصعوبات لا حصر لها ؟

فقال نوتسى مضطربا :

– ما هو الحسن ؟ على الاقل ليس هنا من يهينـــك . . . وبالطبع لن يمسك ! اما عن الباقى ؟ . . الباقى كما تعرف . . فلن ترقص «الفريلحس» * اذا كانت الموسيقى تعزف لحـــن الجناز . . . عملية حسابية بسيطة . بيد انه ينبغى ان اصارحك بانه عليك ان تتوقع من العرب طعنة خنجر فى الظهر . والعمليـة الحسابية هنا بسيطة ايضا . فليس من الصعب ان تستنتج اننا نزيحهم شيئا فشيئا . . . وان تدرك ايضا ان الانجليز عمومـــا يستفيدون من ذلك . فلكى يخفوا اعمالهم الدنيئة يبذلون ما فى وسعهم لصب الزيت فى النار وتسعير العداء . . . هؤلاء المتآمرون القدامى ! ولكنى اكرر : نحن قادرون على التغلب على العرب . والقوة هنا هى التى ستحسم كل شيء ! ونحن لدينا بعض القوة بالفعل ، وهى تنمو . . بل وتنمو بصورة لا يمكن ان تتخيلها ! وبالمناسبة ، «فالصابرا» من هذه الناحية يكشفون عن افضل ما لديهم . انهم لا يدعون احدا يمسهم . . فلتجرؤ اذن ! على الفور يبرق النصل امام عينيك ! واصارحك القول : ان بعض رجالنـــا يعانون منهم بشدة احيانا .

فسأل حاييم بدهشة :

– ما معنى هذا فى النهاية ؟ تقول علينا ان نتوقع مـــن العرب خنجرا فى الظهر ، ومن ذوينا خنجرا فى الصدر !

---

* «المرحة» – رقصة شعبية يهودية .

–كلا ، ليس هكذا تماما بالطبع . . ولكن الامر معقد مع ذلك . . معقد جدا . . – اجاب نوتسى مراوغا وهو ينعطف عن الرصيف جانبا .

كانا ينزلان الطريق فى اتجاه ما . وحجبت الاشجار آخر مصباح كهربائى تبقى خلفهما . وكان المكان يشبه بستانا مهجورا او غيضة . وظن حاييم ان نوتسى قد نسى على ما يبدو من تاثير «العرق» الى اين يقصدان ولماذا .

وقال نوتسى بفخر :

– مع الوقت ستكون هنا حديقة . اتدرى من الذى تبرع لانشائها ؟ روتشيلد ! جاء بمليون كامل ! لكنك تعرف ان اورشليم لم تشيد فى لحظة واحدة . مع الزمن ستكون لدينا جنة . . سترى ! هناك خطط جبارة ! . . اما الآن فغير بعيد عن هنا مكان لقضاء الحاجة . . .

اصبحت الروائح الكريهة التى شعر بها حاييم من قبل اكثر حدة الآن .

وتابع نوتسى حديثه :

– ليس بعيدا كما ترى . . محطة اتوبيس واحدة ، اقسم بشرفى . . .

وامسك حاييم نفسه عن الضحك بصعوبة ، ثم قال بلهجة جدية متصنعة :

– اذا كنت «مزنوقا» فيمكنك ان تلحق نفسك اذا ركبت الاتوبيس طبعا .

ولكن نوتسى لم يلحظ السخرية فى لهجة حاييم فمضى يسدى له النصائح . وقال له ان الاتوبيس يسير من الخامسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء حسب مواعيده كل ربع ساعة تقريبا ، اما اجرة الركوب فتافهة .

واصغى حاييم الى صديقه فى صمت وفكر فى نفسه بمرارة : «هل كانت المسألة تستحق ان اجىء الى «ارض الميعاد» لكى انتقل الى التواليت بالاتوبيس ؟ ! حسنا ، فلنر ما الذى سيحمله المستقبل . . . على اى حال العسل هنا لا يجرى . . هذا واضح . .

يبدو ان توموف كان محقا حينما نصحنى بعدم السفر . . .»

فى طريق العودة بدأ يسقط مطر خفيف . فقال نوتسى وقد امسك بمرفق حاييم :

– هذا فال حسن ياحاييم ! بشير سعادة . . سترى ! اقسم بشرفى ! . .

فسأله حاييم بكآبة :

– ما الذى تقصده ؟ المطر ام التواليت المزعج ؟

– المطر طبعا ، يا لك من غريب !

فاجاب حاييم بلا اكتراث :

– محتمل . . من اين لى ان اعرف على اى اسس تقوم السعادة هنا . . . ربما كانت تقوم فعلا على البراز ؟ !

توقف نوتسى وحدق فى حاييم ببلاهة ، لكن «العرق» فيما يبدو لم يمكنه من فهم المعنى الحقيقى لما سمعه . واستدار بحدة ومضى بخطوات سريعة . واسرع حاييم للحاق به ، امسك بمرفق صديقه بدوره . وظل ممسكا به لحظة ثم اعترف له بصراحة :

– لا تغضب يا نوتسى . . هكذا افكر فعلا ، والله ! . . وانت . . ما رأيك ؟

٦

سكن حاييم واويًا فى المبنى الذى سماه آل يوناس وسيمون سلمونزون مالك المنزل لسبب ما بالجناح ، اما الجيران الصابرا فقد سموه عن حق بالكوخ . وكان فى هذا المبنى الصغير المربع ، القائم فى عمق الفناء من كتل حجرية بيضاء كبيرة منذ زمن غير معروف ، نافذة صغيرة وحيدة ، ضيقة كالكوة وارض مكسوة بالبلاط الحجرى ، وجدران كسيت بالطلاء فيما يبدو منذ ايام الملك سليمان ، وسطح قرميدى كان فى الوقت نفسه بمثابة سقف . وقد كان هذا المبنى فى الغالب

مطبخا صيفيا فى وقت ما ، ثم استخدم بعد ذلك لفترة طويلة ، كما يبدو من رائحته الكريهة ، مخزنا لجلود الماعز والغنم .

ومنذ مجيء آل يوناس كانت حماة نوتسى تستحم هنا فى الايام القائظة . وقالت العجوز لحاييم :

— تلك متعة عظيمة فى ايام الصيف . اتعرف كيف يكون القيظ هنا ؟ فظاعة ! خلال ساعتين او ثلاث يسخن الماء من تلقاء نفسه . . . والاهم من ذلك انك لا تحمل هم تصريف المياه . . . فقد رأيت بنفسك اية شقوق هناك فى الارضية ؟ ! ولكن هذا ليس فظيعا . . .

كان على الزوجين الشابين ان يكدحا جيدا حتى يجعلا من المبنى مكانا صالحا الى حد ما للسكنى . غسلا الارضية ونظفاها طويلا ، وغسلا ومسحا الجدران بالجير والرمل ، واخرجا من هناك اكواما من القاذورات وهدهما التعب ، ولكن لم يتذمرا . كانت اويَّا تتقبل كل شيء بشكل طبيعى ، اما حاييم فكان يدرك جيدا ان هناك الكثير من الاسر ذات الاطفال ، بخلاف المهاجرين طبعا ، التى كان يسرها لو حصلت على مسكن كهذا ، وقد حدد سلمونزون بالمناسبة ايجاره .

وقال نوتسى مبررا هذه العجلة :

— الصداقة صداقة والعمل عمل . واذا كنت تظن اننى واتيليا لم ندفع مقابل جحرنا مبلغا اكثر مما يساويه هذا البيت كله فانت مخطئ جدا يا حاييم !

وشيئا فشيئا هيأ الزوجان الشابان «قصرهما» هذا . وظهرت فيه ادراج ومشاجب بدائية صنعها حاييم بنفسه بدقة مدهشة ، واستخدمها الزوجان كطاولة وصوان وبوفيه . وبدلا من الحصران التى وعد بها نوتسى يوناس ولكن لم يجلبها ، غطيا الارضية بكارتون علب التغليف ذات الماركة الساطعة لجمعية "جوينت" الخيرية ، هذه العلب التى اتضح ان منها فى الجناح اكثر بكثير مما لدى يوناس فى الردهة الصغيرة فى شقته .

وسرعان ما استدعى حاييم الى سلمونزون . ولم يكن هناك تضييف فى هذه المرة . وامر سيمون حاييم بنبرة لا تقبل

المعارضة بان يبدأ العمل فى مكتب التصدير والاستيراد . وقال له :

— خمسة وعشرون شلنا فى الاسبوع . وبعد ذلك سنرى . كل شيء متوقف عليك يا صديق فولديتير . اذا لم يعجبك الوضع قل لنا .

كان حاييم سعيدا . فمثل هذا الالتحاق بالعمل بسرعة كان شيئا غير عادى لدرجة ان الجيران عندما سمعوا بذلـــك راحوا يقولون ان المتطوع القادم من بيسارابيا قريب بعيـــد لشخص واسع النفوذ فى ارض اسرائيل . . . وتهمس الحساد قائلين : «لم يكـــد يصل حتى قدموا له كل شيء وهو راقد فى فراشـــه تقريبا» .

وقالت حماة نوتسى ترد على الجارات الفضوليات :

— ولم الدهشة ؟ ان من فعل ذلك هو سيمون سلمونزون نفسه ولا احد غيره ! الافضل ان تسألوا : ما الذى لا يستطيع ان يفعله هذا الرجل ؟ ! يكفيه فقط ان يشاء . . . اتعرفون من ابوه ؟ وما بالكم اذن بخاله ! . . ولكن ليتهم كانوا بصحة طيبة ، فنصف ثرواتهم يذهب الى الاطباء . . . يالهم من اناس طيبين ! .

لم يغمض لحاييم جفن ليلة ذهابـــه الى العمل . فقد كان بانتظاره عمل لا يعرف عنه الا صورة غامضة للغاية . الا ان قلقه كان عبثا . فقد اتضح ان واجباته فى البداية تنحصر فى اداء بعض المهام البسيطة المتعلقة بتسجيل استقبال وارسال الشحنات . صحيح ان هذه المهام كانت من الكثرة حتى انه كان يجرى طوال النهار كمكوك حاملا تارة حزمة من عقود استئجار السفن من الوزان الى الصراف ، وتارة اخرى رزمة ايصالات من المخزن الى رصيف الشحن لكى يراقب الشحن او التفريغ — ولم تكن لحاييم علاقـــة بعمليات السلع فى الميناء ، فالعمل هناك كان اعقد بكثير . كان ميناء تل ابيب قد انشئ منذ ثلاث سنوات ، ولذلك كان معظـــم الشحنات يأتى عن طريق مينائى حيفا ويافا . وفى هذا القطاع كان يعمل اشخاص اكثر خبرة ويتمتعون بثقة خاصة من سلمونزون

ومعاونيه المباشرين ، الامر الذى لم يفطن اليه حاييم بعد . وكان ساعده الايمن هناك بصفة خاصة نوتسى يوناس .

وكان حاييم يعمل دون تذمر ويتعود .

قبل حلول الظلام بوقت طويل كانت اويًا تقف على محطة الاتوبيس فى انتظار عودة حاييم . ولم يكن لسعادتها حدود عندما هبط من الاتوبيس وسلمها الشلنات والقروش التى صرفت له مقدما كأجر اسبوع . وانطلقا على الفور الى البقال وابتاعا كعكتين كبيرتين من الخبز الابيض المجدول ، وعلبة سكر ، ولفة كاملة تقريبا من المرتديللا الملفوفة بورق مفضض التى كانا يتطلعان اليها بشوق فى واجهات المتاجر من قبل .

ولم تتمالك حماة نوتسى نفسها من القول عندما رأت قطعة المرتديللا فى يدى اويًا :

– انظروا اى اغنياء ظهروا ! باية نقود ستعيشين بعد ذلك ؟ هذه لا يأكلها لدينا سوى نوتسى ، اتعرفين ذلك ؟ !

ومضت حياة العمل يوما اثر يوم . كان حاييم يعود مرهقا تماما ، وربما لذلك نادرا ما كان الزوجان الشابان يخرجان من كوخهما . كانا يعيشان عيشة متواضعة ، ويحاولان الا يكونا ظاهرين . وكانت اويًا تركز كل جهدها فى هدف واحد : ان تهتم بزوجها الحبيب بكل نكران للذات وكان يسعدها سعادة بالغة ان ترافقه كل صباح الى محطة الاتوبيس على مرأى من الجيران وهى تحمل لفة افطاره ولا تسلمها له الا عند قدوم الاتوبيس . وفى احوال قليلة كان حاييم يذهب مع نوتسى فى السيارة ، وعندها كانت اويًا تقف عند البوابة حتى تختفى السيارة عن عينيها .

ولكن ذلك لم يكن يحدث كثيرا . فقد كان نوتسى يوناس يرحل عادة بعد حاييم بوقت طويل ، وكثيرا ما يعود الى المنزل قرب الفجر . ولم يكن يطلع حاييم على اعماله ، وان كان احيانا يلمح الى انه مشغول بأداء بعض المهام «البالغة الاهمية» . فكان حاييم يقول لنفسه : «ربما لا ينبغى ان يعلم بها كل من كان !» ولا يغضب من نوتسى .

وكان يوناس يزور سيمون سلمونزون فى بيته كل مساء ، وكثيرا ما يبقى لمدة طويلة ، وعندئذ كان يعود الى البيت فى سيارة سيده .

ولم يكـــن يشذ عن ذلك الا يوم الجمعة . فكان يعـود الى البيت مبكرا عن حاييم ، واحيانا معه . وفى كل مرة كانت تستقبلهما اويا المنتظرة عند باب السور .

وذات مرة ، عندما عاد نوتسى الى البيت فى ساعة متاخرة ، دق باب الجناح .

– من هناك ؟ – سأل حاييم .

فقال نوتسى :

– اسمع يا حاييم ! هل تعرف انهم يستدعون زوجتك الى «المشتورا» * ؟

فاجاب حاييم بهدوء رغم ان قلبه غاص من الخوف :

– ليس عندى اى خبر ! ولماذا يستدعونها فى اعتقادك ؟

– لا ادرى شيئا ! لقد اخبرتنى ماما توا . قالت انهـــا نادت عليك عندما كنت مارا بجوار نوافذنا ، ولكنك لم تكلف نفسك عناء التوقف . . .

فقاطعه حاييم :

– هذا لم يحدث ابدا يا نوتسى !

– ليس هذا هو المهم الآن . . . لقد جاء فى النهار شخص من هناك وحاول التفاهم مع اويًا . وبالطبع لم يتمكن . ثم سأل بعد ذلك ماما من اين جاءت زوجك ، ومن هـــــى ، ولاى غرض ولماذا . . . ترى ما سبب ذلك ؟

وهز حاييم كتفيه قائلا انه لا يتصور ابدا لماذا ولاى غرض يهتمون بها . . . ولكنه لم يكن يقول الحقيقة . فمنذ هبوطهمـا «ارض الميعاد» ظل حاييم طوال الوقت نهبا لاحساس داخلى بمتاعب قادمة . وكان لديه الاسس لذلك ، فقد كان يعرف جيـــدا «ولى نعمته» بن صهيون هاجرا ، وكان واثقا من ان الحاخام سيسعى

---

* قسم الشرطة .

لمعرفة الشخص الذى هربت معه الفتاة اليونانية والى اين هربت ، وعندئذ لن ينجوا من السوء ، فقد كان الحاخام لا يغفر الاهانات .

وفى الصباح المبكر فى اليوم التالى عندما كـــان الجيران لا يزالون نياما خرج حاييم واويـًا مـــن المنزل . واستقلا اتوبيسا صغيرا تفوح منه رائحة السجائر ، ومكتظا بالفلاحين وحدهـــم تقريبا ، المتوجهين من قرية بتاح تكوا الى تل ابيب .

لم تكن اويـًا على علم بما حدث . ولما كانت قـــد تعودت منذ الصغر على المصائب المفاجئة فقد تنبه الحذر فيها ولكنها لم تكشف عن قلقها المتصاعد . جلست بجوار حاييم وراحت تنظـــر شاردة عبر الزجاج الذى لم يغسل من زمن طويل الى هياكل المبانى الكئيبة التى كانت تمر امام ناظريها غير واضحة ، والى المـــارة القلائل فى هذه الساعة المبكرة .

كان الجو غائما ، ومال الى البرودة بشكل واضح ، بينمـــا هبت رياح شديدة . وعلى جانبى الطريق امتدت مناظر الطبيعـــة الفلسطينية الجهمة بتلالها الصخرية الصفراء الرمادية والمحاجـــر المهجورة التى تشبه اطلال المعابد القديمة . واحيانا كانت خمائل الزيتون والنخيل الخضراء تقترب حتى تلاصق الطريق .

وقبل الوصول الى تل ابيب مباشرة انهالت قطرات مطر كبيرة على سقف الاتوبيس ونوافذه . انهمل المطر دفعة واحدة ، كانما قد فتح فى الاعلى هويس ضخم .

وكف الفلاحون عن التدخين فورا ، ودمدمـــوا بصلوات ما فى خشوع . وراح احدهم ، وكان ذا وجه خددته تجاعيد عميقة ، ويضع على رأسه عقالا ضيقا على كوفية سوداء تتدلى مـــن ثلاث جهات ، ، يتحدث واعظا بنى قومه الذين خلدوا الى الصمت ، ولما انهى كلامه ضجوا جميعا بصوت واحد .

تظاهر حاييم انه يصغى بانتباه الى احاديث العرب ويفهم ما يقولونـــه ، واخذ باهتمام متكلـــف يتفحص سراويلهـم السوداء الغريبة ، واكياسهم الطويلة الضيقة كالاوعيـــة الفخاريـــة ، والمصنوعة من قماش سميك منسوج يدويا ، والمملوءة حتـى الحافة بسلع زراعية يبدو انهم يحملونها الى المدينة ليبيعوها ،

وكانت تنبعث منها رائحة بعر الجمال والماعز المنفرة لابناء المدينة .

ولكن هدوء حاييم المصطنع لم يخدع اويّا . كانت تتطلع فى عينيه بانتباه وهى تحاول ان تفهم لماذا اخذها هكذا بغتة الى المدينة .

وركضا تحت المطر الغزير من محطة الاتوبيس الى مبنى المشتورا الكئيب . ولم يعد بوسعهما ان يكتما عن بعضهما القلق ، وولجا الردهة المظلمة لمبنى ذى سقف عال كالمعبد وجدران رمادية كئيبة وهما مطأطأى الرأسين ومتقطعى الانفاس .

وانتظر حاييم واويّا اكثر من اربع ساعات قبل ان يستدعيا . وخلال هذه الفترة تجمع فى الردهة خلق كثير . كان بعضهم قد جاء فى حالة هياج ولم يبخل باللعنات المنتقاة التى صبها على السلطات المحلية ، بينما كان البعض الآخر ، مثل حاييم مهموما ، اما ينظر فى صمت بعدم اكتراث الى من حوله ، واما ينفس عن نفسه بالحديث عن مصائبه .

وجاء اوان راحة الغداء ومضى . وبدأ الاستقبال من جديد ، ولكنهم لم يستدعوا اويّا . فظن حاييم بامل ان هناك خطأ فى الامر ، فربما لم تفهم حماة نوتسى جيدا . وهدأت نفسه . وسرعان ما انتقل سكونه الى اويّا فابتسمت له بعينيها السوداوين الحزينتين دائما .

ولم ينتبه حاييم الى دخول الشرطى الردهة ، الا ان الصيحة المنذرة : «من هنا فولديتير ؟ . .» عصرت قلبه .

وزأر الشرطى مشيرا الى احد الابواب :

— ادخلوا هنا . . . وبسرعة !

دخل حاييم واويّا بوجل غرفة واسعة مقسمة بحاجز شبكى من السلك المجدول . وعلى الفور اقترب منهما شرطيان وقاما بتفتيشهما من الخارج بخشونة دون ان ينبسا بحرف وقد باعدا بينهما ووضعا كلا منهما بظهره الى الحائط .

وانذرهما احد الشرطيين بصوت ابح من الصراخ وبالعبرية :

— لا تلمسا الحائط ! ممنوع الكلام !

ذهل حاييم واويَّا لهذا الاستقبال القاسى غير المتوقع فوقفا شاحبين كالموتى وهما يفكران بقلق فيما ينتظرهما .

وظهر خلف الحاجز رجل طويل فى حلة رسمية مكوية بصورة فائقة . كان مستقيما كالعصى ، واقترب بخطوة متأنية منتظمة من الطاولة الموضوعة بجوار النافذة المربعة الصغيرة المفتوحة فى الحاجز ، وجلس ببطء على الكرسى . كان وجهه الممطوط ، بعينيه الصغيرتين الباردتين الغائرتين ، وخصلات شعره الاشيب الخفيفة الملتصقة بجمجمته المستطيلة ، يعبر عن اللامبالاة التامة لكل ما يدور حوله . كان هذا الرجل موظفا فى مكتب المندوب السامى البريطانى الذى يقوم بوظائف ادارة الانتداب فى فلسطين فى الادارة الانجليزية العربية اليهودية المشتركة . ووجه سؤالا ما بالانجليزية دون ان ينظر لاحد ودون ان يحدد من المقصود بالسؤال .

لكز اويَّا الشرطى الواقف بجوارها فى جنبها بقبضته وترجم السؤال الى العبرية :

– يسألونك ! هل تتحدثين الانجليزية ؟ ردى ! – ولكن حاييم هو الذى رد بدلا من اويَّا ، فاوضح ان هذه المرأة هى زوجته ، وانها صماء بكماء . كانت اول مرة يجبر فيها نفسه التفوه بهاتين الكلمتين . ثم اضاف بحزن : منذ ولادتها . . تماما . . .

فدمدم الانجليزى وقد فهم ما قاله حاييم :

– هذه المسألة لا تهمنى فى شىء . فلكى تستوطن الاراضى الخاضعة لقوانين الامبراطورية البريطانية لا بد ان تكون لديك الوثائق التى تعطيك الحق فى ذلك . . . – قال عبارة محفوظة بلهجة رتيبة – من ليس فى حوزته هذه الوثيقة يُرحَّل من هنا الى الجهة التى جاء منها . وبالاضافة الى ذلك فان الاستيطان فى هذه الاراضى دون الاذن المطلوب يعرض صاحبه لعقوبته السجن حسب قوانين امبراطورية صاحب الجلالة التى تنطبق على اراضى فلسطين الخاضعة للانتداب .

وشحب وجه حاييم ، وراح يفسر للانجليزى باضطراب وقلق

ان زوجته جاءت معه على السفينة المعروفـــة «ترانس اطلانطيك» وانها فقدت كل وثائقها اثناء الاضطراب الذى وقع فى السفينة . . .

طاف الانجليزى بنظرة شريرة على زائريه ، وظهرت على وجهه الاخضر ابتسامة ازدراء وادرك حاييم بوضوح ان مثل هذه الحكايات ليست بجديدة على الانجليزى .

وسأل الانجليزى وهو ينظر الى حاييم نظرة ثاقبة :

— متطوع ؟

— نعم ! — قال حاييم بفرح ، ولكنه ادرك عندمـــا لاحظ ابتسامة الازدراء على وجه الانجليزى ، ان اعترافه هذا جاء بنتيجة عكسية ، فاسرع يقول — ولكننى مرضت طويلا . . وتخلفت عن المتطوعين . كنت مصابا بالتيفوس . . . ولو لا زوجتى لهلكت فى قبرص منذ زمن طويل . . . هذا حق ، اقســـم لك ! هذا هو كل ما تبقى لدينا — قال حاييم بوجل وهو يمد فى النافذة المربعة فى الحاجز بطاقة السفر والشهادة — انظر من فضلك !

وطاف الموظف بنظرة باردة على الاسطر الاولى ثم القـــى بالورقة فى وجه حاييم باستهتار ، وقال بسخرية :

— اسمع يا فتى ! لا تظن اننى اغبى منك ، اذا كنت لا تريد ان نرحّل صماءك او بكماءك على اول سفينة الى قبرص . . . لقد قلت لك : مطلوب وثيقة باسمها لا باسمك انت ! انت على ما آمل لست اصم ؟ من المدهش انك لم تفطن بعد الى التظاهـــر بانك اصم او ابكم .

وعاد حاييم يدس بطاقته فى النافذة باصابع مرتعشة ويشير الى المكان الذى كان يحوى الخاتم البيضاوى الكبير ، وقـــال متوسلا :

— هنا من فضلك ، انظر هنا يا سيدى ! هنا حيث الخاتم ذو التاج . . . لقد وضعوه فى قنصليتكم فى قبرص . . . بوسعك ان تتأكد ! هل ترى يا سيدى ؟ هنا !

لم يحرك فى الانجليزى شيئا كـــون هذا الشاب الاحمر ذى الوجه الملىء بالنمش يحاول ان يثبت شيئا ما بعذاب وهو يكاد يبكى . فلم يكن الانجليزى شخصا عاطفيا . وعلاوة على ذلـــك

فقد شهد حالات الهستيريا ونوبات الصرع والاغماء ، وكان معظم ذلك فى النهاية ادعاء لبلوغ غرض معين . لقد مل كل ذلك وخاصة المتطوعين ، هؤلاء القوميين المتعصبين . كان الانجليزى واثقا من انهم خطر على التاج البريطانى ، ولذلك اصغى الى حاييم شاردا . واخرج من جيبه ساعة وفتح غطاءها : لم يبق على انتهاء العمل سوى نصف ساعة . وتطلع الى حاييم ببرود ثم مر بعينيه على بطاقة السفر التى كان حاييم لا يزال يدسها فى النافذة ، وفجأة شد الوثيقة نحوه بحدة ، وقطب حاجبيه ، واخذ يتفحص شيئا ما فيها ، ثم طلب الشهادة ، ثم خرج بهيئة مهمومة دون ان يقول شيئا .

وامتدت دقائق انتظار معذبة . وتطلع حاييم مقهورا تعيسا الى حراس النظام الذين كانوا يتأملون مأساته بلا اكتراث ، وعندما رأى النجمة السداسية على صدر احد الشرطيين غلبه اليأس ، فقد داهمه خاطر بان هؤلاء المجانين يمكن ان يفرقوا بينه وبين حبيبته ! وامتقع لونه من هذه الفكرة . وكانت اويَّا لا تحول عنه عينيها ، فاندفعت نحوه راكضة . ولكن الشرطيين ابعداها الى الحائط .

وخيل لحاييم انه يرى زوجته آخر مرة . وكان واثقا من انه لن يتحمل الفراق . كيف يمكن ان يعيش وحده ، فى بلد غريب ، وبدون الشخص الحبيب ! . . من بحاجة اليه ؟ نوتسى ؟ سلمونزون ؟ ومن الذى سيدافع عنه ؟ عن اويَّا ؟ لا يوجد فى فلسطين شخص كهذا ، فى «ارض الميعاد» . انه وحيد بين غرباء ، بين اناس لا يفهمهم . هناك فى وطنه كان الامر مختلفا . . . كان هناك اصدقاؤه ! هل كان ايليا توموف مثلا يتخلى عنهما ، عن حاييم واويَّا ؟ ابدا ، مستحيل ! ولم يلاحظ حاييم ، عودة الانجليزى الى الحاجز دون صوت ، ولا كيف جلس الى الطاولة وراح ينقل اشياء ما من بطاقة السفر . ودفع الشرطى حاييم فى جنبه فرأى الاخير وثائقه فى يد الانجليزى الممدودة والتى يكسوها شعر غزير احمر ، وسمع كلمات غير متوقعة قيلت بعدم اكتراث :

— يمكنكما ان تنصرفا . . انتما احرار . . .

وبعد دقيقة كان حاييم واويًا يـــركضان الى محطة الاتوبيس تحت المطر الغزير متهللين من الفرحة قبل ان يفكرا بعد فى اسباب كل ما حدث . وراحا يسيران فى الوحل وبرك المياه العميقـــة والريح تدفعهما . كانا يرغبان فى الابتعاد باسرع ما يمكن عـــن المشتورا ، عن اولئك الاشخاص المرعبين بلامبالاتهم ، والذيـــن كانوا جالسين هناك خلف الجدران .

كم مرة شعرا بعطف العمة الطيبة بيتيا الحكيم الذى لا يقدر بثمن عليهما خلال هذه الفترة القصيرة نسبيا . فهــــذه المراة الكادحة التى علمتها خبرة الحياة ، هى التى تمكنت من اضافـــة اسم اويًا الى بطاقة حاييم . لقد احست هــذه الحكيمــــة العجوز بقلبها انه ليس من السهل ترتيب الامور فى هذه الدنيا كمـــا يخيل احيانا للشبـــاب ، حتـــى لو كانوا ذاهبيــــن الى «ارض الميعاد» . . .

وتذكر حاييم انه كاد يشك فى الحاخام بن صهيون هاجـــرا ويعزو ذلك الى رغبته فى الانتقام . وها هو الآن سعيد من كـــل قلبه لعدم صدق ظنونه وقال فى نفسه : «ان لديه ايضا بنات ، كما انه حاخام مع ذلك . . .» .

عادا الى كوخهما البارد مبللين تماما وجوعانين ومقرورين ، ولكنهما سعيدان . وشرعت اويًا فورا فى اشعال موقد الكيروسين ، اما حاييم فقرر التوجه الى آل يوناس ليخبرهم بنتيجة زيارتـــه للمشتورا . لم يكن يريد ان تنتابهم الظنون بشأنهما . . .

وهمست حماة نوتسى وهى تفتح له الباب :

— حاسب ! الا تسمع . . اتيليا تعطى درسا . .

واعتذر حاييم وروى لها باختصار قصة زيارته للمشتورا . الا ان النبأ السعيد لم يسعد العجوز ، بل وبدا له انه احزنهـــا . واذهل ذلك حاييم ، فاعتذر ثانية وهو مضطرب على ازعاجهـــا وعاد ادراجه الى الباب . ولكن العجوز استوقفته وقالت بنبـــرة غير راضية :

— موليا جاءتكم مرتين . . . . مرتين فى مثل هذا المطر !

وهز حاييم كتفيه . لم يكن يعلم عمن تتحدث .

فهمست العجوز بعصبية .

- موليا ! موليا . . الا تعرف موليا ؟ يا للفظاعة ! قل لى من لا يعرفها ؟ من المجر ! ممثلة . . .

تذكر حاييم ان نوتسى قال له ذات مرة ان هناك عائلة من المجر تعيش فى الفناء المجاور . وكانت موليا فى وقت ما ممثلة ، امـــا زوجها - الذى اشتدت عليه وطأة المرض الآن - فكان موسيقارا . وقد رأى حاييم ابنهما الجميل ، الصبى ابن العاشرة . واذا كان احد قد جاء فى هذا المطر فهو بحاجة الى مساعدة ، ومن ثم ذهب حاييم الى موليا . واتضح ان المرأة جاءت لغرض آخر تماما .

قالت موليا بعطف :

- لقد خلا مكان عاملة لف الخيط فى المصنع الذى اعمـــل فيه . وقد فكرت بانه ربما ارادت زوجتك ان تعمل . بالطبع ليس هذا عملا رائعا ، ولكنك لن تجد ما هو افضل منه فى هذا المكان . اننا نعيش هنا منذ اربع سنوات . . .

لم يجب حاييم بشىء محدد . كان لا يصدق ان اويـّا الضعيفة ستتمكن من القيام بهذا العمل ، وهل هى ستوافق اصلا ؟ لـــم يفكرا من قبل فيما اذا كان من الضرورى ان تعمل اويـّا ام لا .

ولدهشة حاييم وافقت اويـّا بسرور على عرض موليا . فقد كانت الحياة صعبة بمرتب حاييم فقط ، اذ كان يكفـــى بالكاد للطعام واجرة المسكن . وكانا قد ابتاعا منذ فترة قريبة موقـــد كيروسين ، فبدونه لا يمكن تدبير امور البيت ، واضطرا لمدة ايام الى شراء الخبز بالدين وشرب القهوة بدون سكر . والاستغناء عن اللبن . . . بالطبع كانت اويـّـــا تريد ان تشتـــرى بعض الملابس لحاييم ولها ايضا ، ولكن مهما قلبت الامر كانت تجد انه عليها ان تقضى عدة سنوات فى توفير المبلغ المطلوب .

بعد عدة ايام بدأت اويـّا العمل فى المصنع المملوك لشركة «دلفينر» . واستقبلتها العاملات القدامى هنا بحرارة . وحاولـــن مساعدتها وارشادها وقد ظنن انه سيكون من الصعب عليها ان تتعلم حرفة جديدة وهى بعد شابة وفوق ذلك صماء بكماء . ولكن اويـّا استوعبت بسرعة هذه الحرفة غير الصعبة وقامت بالعمـــل

بصورة سليمة وبدقة وبدون عيوب . واحبت النســـاء العاملات اويـًا ، وقدرن فيها حبها للعمل وسرعة بديهتها وهمتها الفائقة .
وذات مرة شعرت بدوار . ولم يعرف احد ما السبب . فقد اخفت اويـًا عن الجميع ، بمن فيهم حاييم انها حامل ، خشية الا يسمح لها بالعمل فى المصنع . لكن نوبات الدوار اخذت تتكرر ، وعندئذ راحت العاملات يبحثن حتى عرفن انها حامل فى الشهـــر الخامس . . . . واصبح من الصعب عليها الآن ان تدير الآلـــة يدويا ، ولم يوافق صاحب المصنع على نقلها الى عمل اسهل . قال بصراحة للنساء اللائى رجونه من اجل اويـًا انه بحاجة الى عاملة لف الخيط فى المصنع . واذا كان هذا العمل صعبا عليها فلتذهب . ولكن موليا والعاملات الأخريات دافعن عن اويـًا بصمود واعلنّ لرب العمل انه اذا لم يستجب لرجائهن ، فسيذهبن ليعملـــن لدى زاكس ، صاحب المصنع الآخر المنافس لـ«دلفينر» .
وكان رب العمل يعرف ان زاكس يحاول منذ زمن طويل ان يجذب اليه افضل العاملات ، لذلك تنازل لهن وحصلت اويـًا على عمل اسهل .
اصبحت الآن تقضى النهار فى جمع البكر الفارغ ونقله الى المكان المحدد فى الورشة ، وفى الكنس والتنظيف . وبالطبع صار اجرها اقل بكثير ، لكن ذلك لم يقعدها عـــن القيام بواجباتهـا الجديدة بنفس الحمية التى عرفت عنها .
ومنذ ان علم حاييم بانه سيكون لهما طفل وهو يلـــح على اويـًا ان تترك العمل ، لكنها كانت تهز رأسها نفيا بعناد وتتجهم وتنظر لحاييم شزرا . ونزل حاييم عند رغبة حبيبته وهو متألم ، مؤملا انها ستدرك ان عاجلا ام آجلا ضرورة ترك المصنع . امـــا هى ، وقد ابهجها انتصارها الصغير ، فقد عانقت حاييم وهـــى تزر عينيها المشعتين ببريق السعادة .
وعندما علمت حماة نوتسى ان اويـًا تنتظر طفلا ، أخذت تروح وتجىء فى الغرفة طويلا وتردد متذمرة :
– هذه الصعلوكة سيكون لها قريبا كرش كبيـــر ، الا فلينفجر ! . . وعلى ابنتى المسكينة اتيليا ان تتعذب . . . اى

تعليم علمناها ، وكم تتقن الموسيقى ، ثم هى جميلة ايضا ! وكم هى مهذبة السلوك ! وكيف تناقش الامور ! ما اشد ما يعجب الانجليز بها عندما يسمعونها وهى تعلم ابنتهم العزف على البيانو . . ولكنها لا توفق فى ان يكون لها طفل مهما فعلت . . . رغم ان نوتسى لا بأس به . . شاب قوى ، بشرة طافحة بالدم كما يقال . . يأكل احسن الطعام والذه وانفعه . . . على الاقل ليس مثل هذا الاحمر المسلول ! يا له من حكيم كبير ! يختار زوجة وينوى ان يعيش معها العمر كله دون ان يتبادلا كلمة واحدة . . . هذا الأبله ! ولكن من المحتمل ان يأتى ابنها طبيعيا ، مع انه . . . بوسع الله ان يهب اتيليا طفلا حلوا كالعسل ، ويعطى البكماء مولودا اعوذ بالله . . .

واطمأنت العجوز الى اعتمادها على العدالة الالهية واقتربت من النافذة المفتوحة ، وحدقت خلال غلالة الغسق المتكاثف وهى تراقب حياة سكان الكوخ ، ومضت فى تذمرها :

— سوف نعيش ونرى . . . . يقولون ليس هناك اله ، ولكن احدا لم يثبت ذلك . لا بد ان هناك شيئا ما رغم ذلك ؟ ! واذا كانت الامور قد مرت بسلام فى المشتورا بالنسبة لزوجة هذا المسلول الجميلة البكماء ، فان هذا ليس كل شىء بعد . . . ابدا ! . . .

٧

كانت حماة نوتسى التى تهوى اغتياب الجيران ونتف وبرتهم لا تملك الا ان تعترف بين الحين والحين وهى تراقب اويًا من النافذة :

— لو فتشت فى كل ركن فلن تجد كادحة مثلها ! فظاعة ! ! . . ليست انسانا بل ثور ! كلما نظرت وجدتها تغسل او تنظف او ترتب او تكوى . انها مجنونة ، فليهبنا الله انا واتيليا ونوتسى صحة كهذه ! . . — ثم تضيف على الفور بعصبية وكأنها تندم على ما بدر منها من كلمات طيبة فى حق الفتاة —

ولماذا هى هكذا فى اعتقادكم ؟ لان الصم كلهم من حديد . لا بد ان فيهم قوة شيطانية !

كانت حماة نوتسى تفخر بنظافة بيتهم ، ولكنها لم تكن تسهم فى اى عمل قذر ، اما ابنتها فقد منعتها عموما من مزاولة الاعمال المنزلية .

وعندما كانت ابنتها تحاول القيام بشىء ما من هذه الاعمال بدافع الملل فى الغالب ، كانت العجوز تزمجر :

– لا تفسدى يديك يا اتيليا ! سيكون بامكانك ان تقومى بذلك كله عندما يصبح لديك ، ان شاء الله ، طفل ! الم يعدك الطبيب بذلك ؟ ! ليتنا لا نعرف غير ذلك من المصائب . . . . وعموما فعما قريب ستأتى الصماء من العمل . فهل كثير عليها ان تغسل الارضية وبعض الثياب ؟ ! سأهبها شيئا ما . . كم مرة اعطيتها تارة شطيرة ، وتارة قرصة ، وحتى انت لم تعلمى بذلك . . .

وكانت اويًا تعتبر نوتسى يوناس وعائلته اصحاب فضل تدين لهم هى وحاييم بالكثير ، ولذلك كانت تقوم بكل ما تشير به عليها العجوز ، حتى لو كانت اشاراتها بعيدة عن معنى الرجاء . اما حاييم فكان بطبعه خدوما . كان بكل بساطة يتناول المكنسة ويكنس الفناء ، ويحمل دلو القاذورات الذى كانت حماة نوتسى تواظب على وضعه على عتبة الباب . وعندما كان يصادف أن يعود الى المنزل مع نوتسى ، كان يحمل عنه كيس المشتريات ، بل ويقول له مازحا :

– لا تمانع يا نوتسى ! فانت على اى حال اكبر منى سنا . . . باسبوعين !

فكان نوتسى يبتسم بتساهل ، ويترك له الحقيبة وكانما عن غير رغبة . وكان فى الواقع اكبر من حاييم بثلاث سنوات . وكان حاجباه الكثان السوداوان ، المعقودان قليلا عند اعلى انفه ، وعيناه السوداوان الماكرتان قليلا ، وانفه المستقيم ، وشاربه المقصوص على الطريقة الانجليزية ، كان ذلك كله يجعل الكثيرات ، وليس اتيليا وحدها ، يتطلعن اليه باعجاب . وكان عريض المنكبين ،

رشيق القوام . وكان حاييم يبدو بجسده النحيل وخصلاته الحمراء الى جواره مثل مراهق مضحك . وكان حاييم بشوشا وتلقائيا ، يثق فى الناس ويتعايش معهم بسهولة ، واحيانا يصبح ثرثارا اكثر مما ينبغى . اما الآن فيبدو وكأنما استبدلوا به شخصا آخر . لقد تبدى له الاخوة المتطوعون اثناء سفره على ظهـــــر «ترانس اطلانطيك» بصورة اسوأ ، على غير ما كان يتخيلهم من قبل . امـــا القلق النفسى الذى اثارته كارثة السفينة ، فقد حل محله تخمين غامض لكنه يعذبه باستمرار ، حول الاسباب الحقيقية والمتسببين الحقيقيين فى انفجار السفينة ومصرع مئات الاشخاص . اصبـــح حاييم صموتا وخجولا واقل ثقة فى الناس . . وعلى الرغم من انه لم يجل بفكره اطلاقا ان يستغل سابق معرفتـــه بنوتسى يوناس ، الا انه لاحظ ان نوتسى ، وخاصة فى الفترة الاخيرة ، يحاول ان يفهمه بانه لم يعد نوتسى السابق ، وان علاقتهما الآن ينبغى ان تقوم قبل كل شىء على اساس الاقدمية فى الخدمة .

وفى ايام السبت بصفة خاصة ، عندمـــا كان نوتسى يفرط قليلا فى احتساء «العرق» ، كان يدعى الاهمية ويحاول ان يصور نفسه بانه شخصية بارزة ، مثقلة بالاعباء الجسيمة . ومع ذلـــك فلم يحل هذا بين حماته وبين ان تفضحه حتى فى حضرة حاييم . فكانت تقول باستياء :

– خبرونى اين رأيتم يهوديا سكيرا . . هه ؟ هذا شىء لم نسمع به ، يا للفظاعة !

وكان نوتسى يلوذ بالصمت ، فلا حيلة له ، اذ كانـــــت العجوز تمتلك مبلغا كبيرا كان يدرئ بفضل مهارتها دخلا لا بأس به . وكثيرا ما كان يقول لحاييم :

– انت بالنقود انسان ، ومن غيرها لا شىء . . صفر ! لو اضطررت انا الى ترك مكتب التصدير والاستيراد فجاة فلن اضيع ! افتتح مشروعا صغيرا ونعيش . . ان حماتى تعرض على ذلـــك منذ وقت طويل . . .

وفى هذه المرة ايضا انتظر نوتسى بصبر حتى تهدأ ثائرة

حماته ، ثم المح بصورة مبهمة الى دوره الخاص فى بعض الشئون الخارجة عن مجال الاعمال الرسمية لمكتب التصدير والاستيراد .

وكان حاييم قد سمع منه مرارا مثل هذه التلميحات ، ولكن نوتسى صارحه ذات مرة بانه يعرف علاقة خال سيمون سلمونزون بموسولينى نفسه . وصمت حينذاك عن ذكر اية تفاصيل . اما اليوم ، وبعد غداء السبت الدسم الذى زاد الكحول من لذته ، فلم يطق نوتسى صبرا على كتمان انطباعاته وافكاره التى اثارها «حديث كبير» آخر جرى عند سيمون سلمونزون : فقد كان الرئيس الكبير يهوى الافصاح عن دستوره فى الحياة .

وقال نوتسى وهو يدلف الى مسكن حاييم :

– الاعمال العظيمة لا يمكن انجازها الا اذا وجدت النقود ! ولكن المال وحده لا يكفى ، لا بد من عقل ثاقب . ولكن العقل وحده ، مهما كان صائبا ، فهو لا يكفى ايضا ، تصور ! ففى ايامنا هذه لا بد ايضا من القوة ! القوة الكبيرة المعدة بدقة ! لا بد من قبضة حديدية ! فليس هناك طريق آخر لتحقيق برنامجنا ، ولا يمكن ان يكون . . .

كان نوتسى يوناس يعيد بحماس هذه الاقوال دون ان يدرى ان سيمون سلمونزون كان فقط يكرر ما كان خاله يحب قوله .

وغمز نوتسى بعينه غمزة ذات مغزى وقال باقتضاب فى النهاية :

– تلك هى احوالنا يا حاييم ! النقود ! والعقل الذكى ! والقوة القادرة على سحق الاعداء السافرين والمستترين لبعث وطننا ! هكذا !

وضحك حاييم بخبث . فيا لها من حكمة تضمنتها هذه الكلمات التى تفوه بها يوناس . من ذا الذى لا يعرف انه من الافضل ان يكون معك نقود ، وانه بدون النقود تسوء الاحوال ، وان العقل الذكى افضل بكثير من الغبى . . . ولم يتبادر الى ذهن حاييم ابدا ان هذه الثرثرة كلها لها علاقة ما بشخصه هو . بيد ان اليوم السابق بالذات ، والذى تحدث فيه اصدقاء سلمونزون

المقربون بحماس حول هذه المواضيع عندما كانوا مجتمعين لديه ، هو الذى رسم منعطفا حادا فى حياة حاييم فولديتير .

وحسبما ادرك حاييم فقد تحدث سيمون قبل كل شىء عن انشاء «قبضة حديدية» يمكن بها فى النهاية التحول من الكلام الى العمل .

وقال نوتسى مكررا كلمات سلمونزون بتلذذ :

– ان الاشتراكيين القوميين لم يتورعوا عن استخدام اية وسيلة لانشاء الرايخ . وعندما ضموا النمسا سلّم الجميع بانهم كانوا قد بصقوا من قبل بكل بساطة على القيود التى وضعتها معاهدة فرساى واسسوا الفيرماخت ثم احتلوا ثانية منطقة الراين . . . وفيما بعد علم العالم بدخول الالمان الى تشيكوسلوفاكيا ، ومرة اخرى كادت تهب عاصفة ، ولكنها اصبحت زوبعة فى فنجان ، ولذلك سرعان ما شرع هتلر فى احتلال بولندا . . . واذا كان هناك اليوم من يتذكر هذه الاجراءات فما ذلك الا لأن الخطر يتهدد اراضى فرنسا ، بل واذا شئت اراضى انجلترا ايضا ! ان عظمة استراتيجية ادولف هتلر وتكتيكه هى انه ، بالاعتماد على قوة حقيقية ، كان يضع العالم فى كل مرة امام الامر الواقع ، تاركا لخصومه فرصة التلويح بقبضاتهم بعد انتهاء العراك والتمرين على التعبير الكلامى عن السخط والاحتجاج والادانة وما اشبه ذلك . . .

وشرح نوتسى لحاييم سبب خوض سيمون فى هذا الحديث على الرغم من انه نادرا ما يتكلم ، ويفضل ان يبقى «خلف الستار» ، ويحب التقاط الجمرات باصابع الآخرين . فمنذ فترة قريبة ، بأمر من قيادة «اكسيونس كوميتى» انفصلت عن منظمة الهاجانا العسكرية الجماهيرية ، مجموعة صغيرة من اكثر العناصر عدوانية .

وقد رفضت هذه المجموعة «المنشقة» عن الهاجانا رفضا قاطعا سياسة التقارب مع العرب والانجليز . وبعبارة اخرى فقد عزم انصار هذه المجموعة على مواصلة اعمال التخريب والارهاب ضد الانجليز والعرب ، ولكن مسئولية ذلك لن تقع على عاتق الهاجانا . واصبح سيمون سلمونزون احد اقطاب هذه المجموعة السريين .

ومضى نوتسى يعيد حديث سلمونزون :

— لقد قال باننا سنتظاهر فقط باننا ساخطون على مواقف الهاجانا وتكتيكها ، ولكننا سنبقى فى السر بكل قلوبنا معها . وهم بدورهم سيتظاهرون ايضا بانهم يدينون موقفنا لتطرفه فى العدوانية ، ولكنهم معنا حتى النهاية . . . اننا نسير الى غاية واحدة بطرق مختلفة يكمل بعضها البعض ! واذا كنا نكتفى الآن بالمطالبة بجزء صغير من اراضى دولتنا القادمة ، فان ذلك لا يعنى اننا فى حال اقامة الدولة والاعتراف بها ، لن نواصل بكل الطرق والاساليب العمل على توسيع رقعتها الى اقصى حد . . . فالمطالبة بالكثير دفعة واحدة تنطوى على خطر فقدان القليل المضمون ! فليس الوقت الآن مناسبا «لاثارة غضب ذكور الاوز» ! بالعكس . . فنحن اذ نطالب بالقليل فانما نضعف يقظة الاعداء ، ونجمع القوى خفية استعدادا للخطوة التالية ، بل وربما للوثبة القادمة ! وعندئذ ، فسواء شاء اعداؤنا ان يعترفوا بحقنا فى ضم اراضى جديدة ام ابوا ، فسوف يكونون آنذاك امام الامر الواقع . . .

وتوقف نوتسى لحظة عن سرد حديث سيمون ، وابتسم برضى وقال :

— وعند ذلك قلت انا : «المنتصرون لا يحاكمون ، هذا هو قانون التاريخ !» فأكد سيمون على قولى : «هذا صحيح ، ولكن لكى نصبح منتصرين لا بد من اعداد القبضة الحديدية بكل السبل ، دون ان نضيع دقيقة واحدة ! هذا هو واجبنا المباشر ، وهذا ما كلفنا به ، ونحن جميعا مسئولون عن ذلك امام شعبنا المعذب !»

كان يوناس ، وهو ينهمك فى حديثه اكثر فاكثر ، يتخذ اوضاعا استعراضية ويلوح بيديه ، وكانه يخطب فى جمع غفير . وروى لحاييم باعجاب خاص كيف ان سيمون عندما اشار الى الاحداث الاخيرة فى اسبانيا ، اكد انه لا يوجد ولن يوجد اى قضاء يمكن ان يحاكم موسولينى وهتلر على مساعدتهما للجنرال فرنكو بالطائرات والدبابات ، او يحاكم فرنكو نفسه على استقدام القوات المغربية الشهيرة بقسوتها الى اسبانيا .

ومضى نوتسى يقول بانفعال :

– تصور يا حاييم ؟ لقد ظهر بين الحاضرين مع ذلك اشخاص خافوا من هذه الاجراءات الحاسمة التى رسمها سيمون فى برنامجه ! لدرجة ان واحدا منهم ، وهو رجل كبير السن وقدير ، حاول ان يثبطه . . . فأكد انه ليس من المستبعد ان يأتى اليوم الذى يقدم فيه كاوديليو اسبانيا وفوهرر المانيـــا ودوتشى ايطاليـــا الى «المحاسبة الكبيرة» ويقتص منهم على كل افعالهم . . . اتفهم الى اى شىء كان يلمح ؟ ! لقد كان من الممكن الا نهتم بمثل هـــذا الكلام لو لا ان هذا الشخص بالذات تدرب على ايدى مدربـــى موسولينى ، وقام هناك بعمل بطولى فقد فيه ذراعه ! انه لم يقف هذا الموقف عبثا . . .

فقال حاييم مصدّقا :

– اكيد ! اذا كنت تقول انه رجل قدير فما الذى يجعلـــه يلقى الكلمات عبثا ؟ . .

فوافق نوتسى :

– تلك هى المسألة ! اتدرى ماذا قال ايضا ؟

– ذلك الاكتع ؟

– نعم . قال ان مأساوية هذا المستقبل ليست فى ان هتلر وموسولينى وفرنكو وامثالهم من الشخصيات سوف يعاقبـــون بشدة ، بل ان المأساة هى ان الشعوب التى سمحت بجر نفسها الى هذه المغامرة سوف تدفع الثمن هى ايضا ! . . واستند فى كلامه الى قول حكيم لاحد الانبياء بان الانسان يعرف فى الظهر كيف بدأ يومه ، ولكنه لن يعرف ابدا كيف سينتهى . . . اما نحن فحسب ادعائه ، ما زلنا فى فجر تحقيق حلم القرون للشعب اليهودى ولم نعش بعد حتى الظهر ، اما الى نهاية اليوم فما زال الطريق بعيدا .

وسأل حاييم :

– من هو هذا الرجل ؟ ام هو سر ؟

– انه محام . شخصية كبيرة ، ومع ذلك اعتقد ان قيادتنا لن تطيق وجود شخص كهذا بينها . . . فموقفه فى الواقع هـــو خيانة ! صحيح انه لم ينكر ضرورة العمل على انشاء وطن قومـــى

مستقل فعلا ، ولكنــــه تحفظ فورا فقال : «دون ان نتســـاق الى التطرف ابدا . . .» . وقال ايضا ان الاشياء المبالغ فيها لا داعى لها . وادعى ان خطط «اكسيونس كوميتى» تنطوى على اجراءات متطرفة مبالغ فيها ، وليس من الصعب ان نرى فيها استهتارا بما حذر منه نبينا العظيم موسى ابناء شعبه منذ اثنين وثلاثيـــن قرنا . . .

غطى الزبد اللزج شفتى يوناس الجافتين ، وكان بحاجة الى جرعة ماء ، ولكنه لم يأبه بذلك ، اذ كان يتحرق الى ان يـــروى لحاييم المشهد الذى كان هو بطله.

– ربما ظل هذا الاكتع يجعجع طويلا ، داعيا الى الحـــذر والتأنى وغير ذلك ، لكن صبرى نفد عند هذا الحد . فصحت به اول الجميع – قال نوتسى مؤكدا – «لا تخوفنا ! لسنا مـــــن الجبناء ، وحذرك هـــــذا سيجعلنا ننتظر اثنين وثلاثيـــــن قرنا اخرى !» .

وروى نوتسى متباهيا كيف ايده جميع انصـــــار سيمـون سلمونزون ، وكيف غطوا على صوت المحامى بالدق الرهيب على الارض وبالصياح ، واجبروه – حسب قول نوتسى – على الجلوس مكانه دون ان يكمل حديثه ، وكيف ان الاشخاص الذين يسمون انفسهم عن جدارة المراجعين البيتاريين قد تبنوا فى خاتمة المطاف خطا ثابتا لتأييد «الاكسيونس كوميتى» تأييدا تاما ومطلقا تحت شعار : «ما دام السلاح موجودا فليستخدم !» .

وقال نوتسى عرضا انه قضى مع سيمون سلمونزون وبعض الرفاق الليل كله فى اتخاذ «اجراءات صارمة» كان من نتيجتها تنحية بعض المتذبذبين من مناصبهم ، كما سيفصل البعض مـن مكتب التصدير والاستيراد . ولكن يوناس لم يذكر شيئا عن انه قد بحث آنذاك امر شغل المناصب الشاغرة ، وان الحديـــث دار بهذه المناسبة عن حاييم فولديتير ، هذا المتطوع الذى قضى فترة التدريب ضمن فوج يوسف ترومبلدور . كذلك لم يذكر شيئا عن انه قد كلف «بجس نبض» فولديتيـر و«تهيئتـــــه» واعداده

للمشاركة الفعالة فى الاعمال السرية لـ«ارجون تسفاى ليومى» * .

وفهم حاييم من اعترافات نوتسى التالية ان مـــن يقف خلف ظهر سلمونزون الجبار ليس والده بقدر ما هو خاله الذى سمـــع به من قبل . اما سيمون فليس الا شخصا موثوقا به ، واحـــد الاقطاب السريين لمجموعة «ارجون تسفاى ليومى» المتخفية بعناية ، والمنفذة للخطط الخاصة «للاكسيونس كوميتى» والى حد ما لهذا الخال الغامض .

كان من الواضح ان نوتسى يتحاشى الحديث عما سينبغى ان تقوم به مجموعة «ارجون تسفاى ليومى» بشكل محدد ، ولكنه اراد ان «يجس نبض» حاييم فبدأ يتحدث عن الحدث الذى اثار ضجة ، الا وهو غرق «ترانس اطلانطيك» . وربما بسبب عدم الحذر ، او تحت تأثير ابخرة الخمر فقد افرط فى الثرثرة وباح باكثر ممـــا كان يريد . وادرك حاييم ان الانفجـــار الـــــذى وقع فى «ترانس اطلانطيك» كان من تدبير اشخاص من «ارجون تسفاى ليومـــى» وان هذا العمل الوحشى قد تم بموافقـــة قيـــادة «الاكسيونس كوميتى» .

وقال نوتسى :

— اتظن انه لم يكن بوسع رفاقنا ان يجدوا لغة مشتركة مع الانجليز لو ان المسألة كانت تتعلق بالمهاجرين فقط ؟ هراء ! بالطبع ليس الامر بهذه السهولة . فهؤلاء الاوغاد ، مهمـــا كان الامر ، يعاقبون بقسوة على مخالفة القيـــود الموضوعـــة على الهجرة . . . ومع ذلك كان الامر سيمر اننى واثق من ذلك !

— وكان من الممكن تدبير الامر ايضا بالنسبة «للاسمنت» ؟ — سأل حاييم وهـــو يقصد الاسلحة التى اكتشفها الانجليـــز فى براميل الاسمنت .

فاجاب نوتسى بغضب اذ لم يفهم على الفور عم يتحـــدث حاييم :

— اى اسمنت ؟ الاسمنت كان من الممكن نقله على سفينة

---

* منظمة عسكرية ارهابية صهيونية .

شحن عادية . . . وعموما فانت محق . . . لقد رأيت ما كان فى تلك البراميل . كانت العنابر مملوءة ! وكم نحن بحاجة اليـــه الآن ! ولكن ما العمل ؟ ! اضطررنا الى اغراقه . . . اتدرى لماذا ؟

فاجاب حاييم بتردد :

– ربما لكى لا تسلموه للانجليز .

– مضبوط يا حاييم ! الانجليز اعداؤنا ، وليس هناك اى داع لمدهم بالاسلحة ! ولكن ليس هذا كل ما فى الامر . . . المهم هو : من اين جاء هذا السلاح ، وماركة اى بلد يحمل ، ومـن يسيطر على هذا البلد الآن !

وتذكر حاييم ان السلاح الذى اخرجه الانجليز من عنبر «ترانس اطلانطيك» كان يحمل ماركة مصنع «شكودا» التشيكوسلوفاكـــى للاسلحة ، وان بعض الركاب ابدوا دهشتهم آنذاك ، اذ كيف وجـد هذا السلاح فى سفينة مخصصة لنقل المتطوعين الى فلسطين . وتذكر حاييم ايضا ان الركاب اعربوا ساعتها عن شتى الظنون فى هـــذا الصدد ، الا ان احدا لم يدر بخلده ان هذا السلاح قد جاء مـــن الالمان مباشرة . . . فهذا غير معقول ابدا ! صحيح ان بعض الركاب ابتسم بسخرية ، ولا شىء اكثر . ولكن احدا سواء مـن المرافقين لبراميل «الاسمنت» ام نوتسى يوناس نفسه الذى كان يستعـــد لاستلامها ، لم يكن يعلم ان هذا السلاح مرسل من «الابفر» ، اى من ادارة المخابرات التابعة للاركان العامة الالمانية . فقد كانت هذه المسألة من اختصاص الدوائر العليا للمتطوعين ، وخاصة بعض الاشخـــاص العاملين فى مكتب الرفيق سلمونزون للتصديـــر والاستيراد . . .

الا ان نوتسى كان يشعر بمتعة حقيقية فى ان يتباهى امـــام صديقه باطلاعه ، فباح له فى ثقة ببعض الظروف والاعتبارات التى حتمت اغراق «ترانس اطلانطيك» . اخبره بصفة خاصة ان الانجليز صادروا السفينة والاسلحة المكتشفة فى عنابرها ، وانهم كانـــوا عازمين عند وصول السفينة الى حيفا لا على مصادرة السلاح فحسب بل واثارة ضجة عالمية حول ورود هذه الاسلحة من المانيا الهتلرية

والبلدان التى تحتلها ، وان ذلك قد تم بالطبع بعلم الزعماء النازيين ومخصص طبعا لا لمكافحة النازيين بل لمكافحة الانجليز والعرب .

وقال نوتسى :

– كانوا حتما سيعقدون مختلف المؤتمرات الصحفية ويعرضون فيها نماذج هذه الاسلحة باعتبارهـا ادلة مادية على صلاتنا بالنازيين ! . . فهل تتصور فى اى وضع احمق كان رفاقنا من «اكسيونس كوميتى» سيجدون انفسهم ؟ ! «فالوكالة اليهودية» نفسها موجودة فى واشنطن بالذات – صاح نوتسى – ولكننا افسدنا كل خططهم ، فقد اغرقنا الادلة المادية وانتهى الامر ! وعلاوة على ذلك ظلت الهاجانا بعيدة عن الموضوع ، ولن يستطيع احد الآن ان يثبت علاقتها بهذه القضية ، كما بقى رفاقنا «وراء الستار» . . . هل فهمت يا حاييم ؟ اما الانجليز فقد لزموا الصمت ! بالطبع كان بوسعهم ان يثيروا ضجة كبيرة حتى بدون الادلة المادية ، ولكن . . . كل شىء يمضى وكل شىء يتغير ، وليس من صالحهم الآن ان يفعلوا ذلك .

واوضح نوتسى ان الالمان قد ضيقوا على الانجليز بشدة فى الآونة الاخيرة ، ولذلك فليس من صالحهم الآن ان يؤزموا موقفهم فى فلسطين ، خاصة وان قيادة «الوكالة اليهودية» فى امريكا تؤيد فلسطين .

وقال نوتسى مؤكدا .

– لم يعد من صالح بريطانيا الآن ان تؤزم علاقاتنا مع العرب ، كما كانت تفعل من قبل ، فهذه العلاقات متأزمة حتى اقصى درجة . . . ومفتى القدس ، عميل برلين ، لا ينام هو الآخر ، ويا حبذا لو سنحت له فرصة كهذه .

وهذا هو السبب فى صمت الانجليز وتظاهرهم بانهم قد صدقوا بان الانفجار وقع على ظهر «ترانس اطلانطيك» بالصدفة البحتة . . .

اربكت اعترافات نوتسى الثمل حاييم تماما . واذهلـه ان نوتسى ، وهو يتحدث عن هذه المأساة ، لم يشر بكلمة واحدة الى مصرع مئات الابرياء . وافزعه ادراكه بانه هو واويّا كان من الممكن ان يلقيا حتفهما كمخلوقين صامتين بائسين لا حاجة لاحد بهما .

ولم يعد يلقى بالا الى معنى العبارات التى ظل يتشدق بها نوتسى ، ودون ان يتوقع ذلك من نفسه قاطعه بسؤال بدا كانمـا فى غير محله :

— والناس ؟ كان هناك كثير من الاطفال والنساء ! ام انهم ايضا كانوا يحملون ماركة اجنبية ؟ !

نظر نوتسى مستغربا الى حاييم . ثم قطب حاجبيه وظل يفكر بجهد عدة لحظات ، ترى عن اية نساء واطفال يتحدث صاحبه ، وما دخل الماركة الاجنبية هنا . وعندما ادرك اخيرا تنفس الصعداء وقال بنبرة لامبالية :

— تقصد الركاب ؟ . . الانسان لا يستطيع ان يهرب من قدره يا حاييم ! لقد كانت المراهنة على اشياء اكبر بكثير من حيـــاة افراد . . . وعموما ففى الحياة يكتب على البعض ان يغوصــوا الى القاع ، وعلى البعض الآخر ان يطفوا على السطـــح ، وعلى البعض الثالث ان يقود ويبقى «وراء الستار» . . . ولو لا هذا الفريـــق الثالث لظللنا جالسين فى الاماكن التى جئنا منها وننتظر من الله ان يبعث الينا بالخلاص . . . وعندئذ ما كنت انا او انت لنكون هنا ، ولما التقيت انت باويًا ، ولما حصلت على عمل فى مكتب التصدير والاستيراد ، بل ان المكتب نفسه ما كان ليوجد قط ! . . اتسألنى لماذا اتحدث هكذا ؟ حسنا ، ساجيبك . انا انسان غير متكبر ، ولكنى اريدك يا حاييم ان تفهم كل شيء كما ينبغى !

اخيرا شرب نوتسى فنجان القهوة الذى قدمته له اويًا بعد ان برد ، وتنفس الصعداء ، ولكن يبدو ان نشوة السكر لم تفارقــه ولم تشبع حاجته الى الكلام ، لذلك فقد توقف امام حاييم بعد ان تمشى قليلا فى الغرفة ، وقال وهو يحدق فيه مباشرة :

— تصور مثلا لو ان نشاط شخص مثل تبليتس لم يكن مخفيا «وراء الستار» ؟ ياله من شخصية ! لن تجد فى العالم كله عملاقـا مثله سوى واحد او اثنين . . وحسب ! وانت ، هل سمعت هذا الاسم من قبل ؟ هل تعرف من هذا الرجل ؟

فقال حاييم بسخرية :

— ومن اين لى ان اعرفه وهو «خلف الستار» ؟ !

– انت شخص ريفى يا حاييم ! ولكن لا بأس . . ساجعل منك انسانا ! اسمع اذن . . ان تبليتس عملاق ، عملاق اسطورى ! ينبغى ان تعرف ذلك . . .

لم يبالغ يوناس تقريبا . فقد كان تبليتس بالفعل شخصية فذة وذا سطوة كبيرة حتى بين عمالقة اصحاب المال القلائل . فقد استطاع فى حينه ، وخلال فترة زمنية قصيرة جدا ان يغطى سلسلة جبال الالب ، بانهارها وبحيراتها العديدة بشبكة كثيفة ومعقدة من محطات توليد الكهرباء المائية بتوربينات الجهد العالى . ونتيجة لذلك اصبحت ايطاليا ، التى كانت تعانى فى السابق من نقص شديد فى الطاقة الكهربائية ، مستعدة لتصديرها الى الدول المجاورة . وتحررت الصناعة الايطالية من ارتباطها المرهق باستيراد الفحم الحجرى من الخارج . واصبح جوزيبى تبليتس وابنه لودوفيكو المالكين الحقيقيين لاهم ميادين اقتصاد البلاد . وبالطبع فقد ازداد نفوذهما السياسى بما يتناسب وسيطرتهما الاقتصادية . . . وقبل ان يزحف زعيم القمصان السود المقبل برجاله من «فاشيو دى كومباتيمنتو» * من ميلانو الى روما بوقت طويل ، كان البنكير جوزيبى تبليتس يمول له جريدته «بوبلو ديتاليا» ثم اصبح فيما بعد الخبير المالى الاول «للامبراطورية الرومانية الشرقية» .

ومضى يوناس يسرد باعجاب مزيدا من المعلومات التى تؤكد جبروت اسرة تبليتس ، وارتباط بنيتو موسولينى نفسه بها ، وصداقته الشخصية مع جوزيبى ولودوفيكو تبليتس .

وفجأة انفجر حاييم وقد نفد صبره :

– فليذهب الى الشيطان آل تبليتس هؤلاء ! الاغنياء فى العالم ليسوا قليلين . واذا كانوا اشخاصا اذكياء كما تقول فلن يفيدنا هذا او يضرنا . اليس كذلك يا نوتسى ؟

حملق نوتسى يوناس فى حاييم ببلادة ، وصمت طويلا ، ثم قال اخيرا بصوت خافت وهو يتنهد ، وكأنه يحدث نفسه :

---

* «مقاتلو الحزب الفاشى» .

– اخشى الا يكون هذا المتطوع ريفيا حتى النخاع فحسب ، بل واسوأ من ذلك بكثير . . .

انزعج حاييم . لقد احس فى هذه العبارة التى قالها نـوتسى عفوا بنبرة جفاء ، بل وعداء نحوه من شخص كان يعتبره صديقـه المخلص .

فقال حاييم متوسلا :

– لا تغضب يا نوتسى ! لقد قلت ذلك دون قصد والله ! ان كل ما رويته شيق جدا ، ولكن ما يهمنى اكثر هو مصيرى انا ، والاهتمام بلقمة الخبز . لذلك قلت انه لا شـــأن لى بآل تبليتس هؤلاء . .

فقاطعه نوتسى بغضب :

– تصور اذن ان لك شأنا مباشرا «بآل تبليتس هؤلاء» ! شأن مباشر جدا !

– اعذرنى ولكنى لا استطيع ان افهم ، والله !

– اعتقد انك ولدت فى قطار بضاعة . . . كل شىء يصل الى فهمك متأخرا ! .

– لم تقول ذلك ؟

فقال نوتسى غاضبا :

– اقول ذلك لانه لو لا جوزيبى ولودوفيكو تبليتس هؤلاء ، لظللت انت واويا جالسين فى «نقطة التجمع» نصف جائعين تنتظران متى يأخذونكما اخيرا الى احد الكيبوتسات (المستوطنات) على الحدود مع سوريا ، حيث يعملون نهارا فى الحقل دون ان يرفعوا قاماتهم ، وليلا يقفون بالبنادق للحراسة وهم يرتعدون رعبا خشية هجـوم مباغت من البدو !

فقال حاييم بصوت خافت :

– اننى مدين لك بالشكر غير المحدود على احضارك لنا الى هنا . وانت تعلم ذلك . ولكنك لا تفصح دائما عن اشياء ما . فاننى لا افهم حقا يا نوتسى لماذا ينبغى ان اكون مدينا لمن يدعى تبليتس على معروف فعلته انت لى ؟ ! والله ، هو كذلك فعلا يا نوتسى !

فهتف نوتسى :

– ذلك لان جوزيبى تبليتس هو جد سيمون وابنه لودوفيكو خاله ! آمل ان تكون قد فهمت الآن .

حك حاييم قفاه ، وقطب جبينه ، وهز كتفيه ، ثم قال :

– ربما كنت قرويا فعلا يا نوتسى ، ولكنى اعترف لــك بصراحة اننى حتى الآن لا افهم كيف يمكن ان يكون اشخاص مثــل جوزيبى ولودوفيكو اقــارب مقربين لسيمون سلمونــزون ؟ ! لا افهم ابدا ! . .

وجن جنون نوتسى من الغيظ ، وراح يروى لحاييم بضيق صدر كيف ان تبليتس الشاب الذى لم يكن حينذاك جوزيبى هاجر بعد احدى المذابح من جاليسيا وتشرد طويلا حتى جمع رأس مال وتحول الى جوزيبى تبليتس .

وقال حاييم بدهشة لا تخلو من اسى :

– وما الذى يحدث الآن ؟ اعداء السامية يضربونه واذا به الآن شريك الفاشست ؟

فتنهد نوتسى وقال :

– كيف ستعمل فى منصبك الجديد ، لست ادرى . . . احيانا تناقش بصورة عاقلة ، وتفكر كشخص طبيعى تماما ، واحيانــا تتفوه بأشياء بليدة ! . . هلا اخبرتنى ما اهمية ان يكون شخص ما فاشستى والاخر يهودى اذا كان كلاهما يستفيدان اكبر فائدة مــن صفقة متبادلة ؟ ام تراك تظن ان الاسلحة تسقط علينا من السماء ، واننا نجمع الجنيهات والدولارات كما يجمع نبات الفطر فى الغابــة ؟ ينبغى ان تحرك ذهنك قليلا ايها المتطوع حاييم بن اسرائيــل فولديتير !

احس حاييم وكأنه تلميذ ادخلوه خطأ اكاديميــة التجارة . فأخذ يصغى باذعان ولم يدهش عندما راح نوتسى ، على سبيــل المثال ، يذكر اسماء بعض مديرى البنوك الضخمة فى اوربا ، وفى ايطاليا بصفة خاصة ، مثل البرتو ادلر وتشيزارى جولدمان .

وقال نوتسى متسائلا بتهكم :

– ربما ظننت انهما رومانيان خالصان ؟ كلا البتة ! انهما من رجالنا . ومن هو فى رأيك رجل الاعمال المالى المعروف كاستليونى ؟

انه ابن حاخام تريييست . . . نعم ، تخيل ذلك وبالمناسبة فان ايساى ليفى يراس ادارة اشهر المصانع الحربيـــــة الايطاليـــة «انسالدو» . . . ولكنه للحقيقة لم يغير «ماركته» ! وعلى فكرة ، فلا بأس ان تعرف ان سيموننا لم يصبح سلمونزون الا منا ، اما والده الذى يعيش الآن فى رومانيا فقد اتخذ اسم سالومسن منذ ان كان فى فيينا مفوض رجال الصناعة فى الروهر ومدير «دويتشه بنك» هناك ، وهو الآن فى احسن حال !

لم يعد حاييم يدهش لشىء ولم يسأل عن شىء خشية ان يفصح عن سذاجته مرة اخرى ويكشف عن «قرويته» . اما نوتسى فقد ظن انه تمكن اخيرا من اقناع حاييم فانهى حديثه بنبرة انتصار :

— والآن هل تتخيل اية ادمغة تفكر من اجلى واجلك ؟ لا تحمل هما يا حاييم ، فكل شىء يتم هنا على اساس محترم ! وليس صدفة ان يقول سيموننا منذ ايام انه ليس ببعيد ذلك اليوم الذى سيسيطر فيه ذوو القمصان الزرق من رجال «ارجون تسفاى ليومى» على اراضى فلسطين من الفرات الى النيل ! . . هل فهمت الآن ايها القـــروى البيسارابى ؟ !

فهم حاييم . فهم ان ذوى القمصان الزرق الذين يرأسهـــم سيمون سلمونزون فى فلسطين ، مثلهم مثل ذوى القمصان الســود بزعامة الدوتشى الايطالى ، وذوى القمصان البنية بزعامة الفوهرر الالمانى ، وعصابات زعيم الفرق الرومانية الفاشية خوريا سيما ، التى كان افرادها يخطرون فى قمصانهم الخضراء ، يعربدون دون ان يرحموا احدا مستخدمين المفرقعات والرصاص والخناجر . . . وفهم ايضا انهم جميعا اقرباء وان وراء ظهورهم تقف بالفعل «ادمغة» مثل صاحب الملايين تبليتس . . فهم حاييم ذلك ووروع . . .

٨

كان حاييم فولديتير حتى فترة قريبة جدا يشك فيما يقولـه نوتسى يوناس حول خطط اقامة دولة يهودية تضم عدة ملايين . وكان يقول لنفسه : «عن اية دولة ذات انهار من حليب وشطآن من مهلبية

يمكن ان يدور حديث جدى اذا كان لا يوجد هنا حتى مرحاض عادى ؟» ولكنه يراجع نفسه فورا فيقول : «بالطبع ان امثـــال سلمونزون يعيشون فى هناء ! منزل كالقصر ، وسجـــاد وخدم وتليفونـــات وسائقون . . . ترف ! بالنسبة لهم فهذه جنة على الارض حقا . . . وبوسعهم ان يعيشوا ، لم لا ؟ !» .

ولم يكن حاييم يعلم شيئا عن النشـــاط السرى للقيـــادة الصهيونية التى انشأت شتى المنظمات السرية . ولم يكن يعلم ان هذه المنظمات تملك شبكة واسعة من العملاء فى الاوساط الحاكمـة والدوائر الحكومية فى كثير من بلدان العالم . ولم يكن يعلم الغرض الحقيقى لمكتب التصدير والاستيراد الذى اصبح موظفا فيه منـــذ الايام الاولى لوصوله الى فلسطين .

واثناء ذلك كانت المنظمات الصهيونية السرية توسع بفعالية يوما بعد يوم نطاق نشاطها الرامى الى اقامة «وطن قومى» يهودى فى فلسطين . وخصص مكان خاص فى نظام هذه المنظمات لقســم العمليات الخاصة التابع لاركان الهاجانا ، والذى كان يقوم بدور الادارة السياسية السرية ويعمل على تجميع المعلومات . وقد حصل هذا القسم منذ سنتين عن طريق اشخاصه الموثوق بهم على وثيقة تحمل عبارة «Strictly confidential» * مـن الموظفين البريطانيين فى «المفوضية السامية لشئون الانتداب فى فلسطين» .

واشارت الوثيقة الى قرب وصول مراسلين اثنين لجريـــدة «برلينر تاجبلات» الالمانية الى فلسطين .

ولم يعيروا فى لندن اهمية خاصة لهذه الزيارة القصيرة التى سيقوم بها الالمانيان . ولكن رجال قسم العمليات الخاصة التابـع للهاجانا والاركان الخاصة «للماساد» ** الخاضعة مباشرة للادارة السياسية «للوكالة اليهودية» اهتموا بهذا الخبر .

لقد اعيد مؤخرا تنظيم قسم الهاجانا هذا الذى اصبح يعرف الآن باسم «شيروت لى اسرائيل» ، وسمى للتمويه اختصارا «شائى» .

* سرى جدا .

** جهاز المخابرات السياسية الصهيونى المسئول عن تهريب المهاجرين والاسلحة الى فلسطين .

وبناء على طلب من مديره روفيم شلواح ، الذى كان الى فترة قريبة ضابطا فى «الانتلجنس سرفيس» حصل الانجليز العاملون فى «المفوضية السامية لشئون الانتداب فى فلسطين» من زملائهم فى لندن ، الذين كانوا بدورهم يستقون معلوماتهم من اشخاص يعملون فى المخابرات الالمانية حصلوا على معلومات بان كلا المراسلين المتوجهين الى فلسطين ليس لهما اية صلة بصحيفة «برلينر تاجبلات» . وقد وردت برقية شفرية اضافية من لندن وعليها عبارة «Top secret» * تضمنت معلومات مفصلة للغاية عن المراسلين .

واستعدوا فى فلسطين بكل عناية وبمشاركة مباشرة من قادة «الماساد» و«شائى» لاستقبال الضيفين الاجنبيين . ومنذ ان هبط الالمانيان الى «ارض الميعاد» صاحبهما مندوبو هاتين المنظمتين سواء عند تفقدهما حيفا ام فى زيارتهما لتل ابيب ام اثناء تجولهما فى حارات يافا الملتوية القذرة . وهنا تشعب طريق «الصحفيين» الالمانيين : فقد اتجه احدهما الى القدس لكى يصور المعابد القديمة والاديرة ، وخاصة الحجاج الوافدين من شتى انحاء الكرة الارضية لتحية «تابوت الرب» . وكان «الصحفى» يتحدث عن ذلك بسرور لدى كل فرصة سانحة ، ويتكتم بالطبع هدفه الرئيسى الا وهو الالتقاء برجال امين الحسينى مفتى القدس ، الذى كانت برلين تعلق عليه امالا كبارا بمناسبة قرب تنشيط «الطابور الخامس» فى هذه المنطقة .

اما «الصحفى» الالمانى الثانى ، وهو رجل نحيل شاب ، اشقر فقد استقل اتوبيس خطوط الى شاروا ، وهى مستعمرة المانية صغيرة غنية . وكان المستوطنون الذين استقروا هنا منذ امد طويل يعتزون بالدير القديم وباقتصادياتهم المنظمة جيدا ، وبتمسكهم بالعادات والطقوس القومية القديمة . الا ان الضيف الشاب لم يتوقف هنا طويلا ، وفى اخر النهار رحل الى القدس حيث كان عليه ان يلتقى بزميله . وبات ليلته فى الطريق فى بلدة صغيرة هادئة استوطنها مهاجرون يهود جاءوا من اوربا منذ فترة قريبة .

---

* سرى للغاية .

ارتدى «الصحفى» الشاب سترته وتمدد باستمتاع على السرير العريض المريح . ولكنه لم يتمكن من النوم ، فقد دق الباب ، ودلف على الفور ثلاثة اشخاص . كان هؤلاء عملاء قسم العمليات الخاصة للهاجانا . وكان مندوب «شيروت لى اسرائيل» طويلا وشاب الملامح ، وخلف زجاج نظارته السميك اختفت عينان خضراوان . وابرزت سوالفه البيضاء بجمال لون وجهه الداكن . واعلن بلهجة برلينية خالصة ان ضيف فلسطين المحترم ليس هو الشخصية التى يحاول ان يتقمصها ، وان الهدف الحقيقى من مجيئه الى فلسطين لا علاقة له البتة بالصحافة . . .

— هذا استفزاز حقير ! — صاح «ضيف فلسطين المحترم» بغضب — اننى احذركم من ان مثل هذه الدسائس تجاه رعايا الرايخ الالمانى العظيم لا تمر دون عقاب ! . .

ابتسم رجال الهاجانا بوقاحة وهم يتفحصون «الصحفى» الاشقر . وبقى احدهم عند الباب ، وبرز جيب سترته الايمن بشكل واضح الدلالة .

وقال مندوب «شائى» :

— سواء اردت ام لم ترد فسيكون عليك ان تسمعنا . وهكذا فنحن نعرف كل شىء عنك . . . مثلا نعرف انك ولدت فى زولينجن فى التاسع عشر من مارس عام الف وتسعمائة وستة . واسمك هو ادولف ، واسم عائلتك ليس ايكمان كما هو مكتوب فى جواز سفرك ، بل ايخمان . اليس كذلك ؟

لزم الالمانى الصمت وهو يصغى بقلق الى نبرة رجل الهاجانا المتسللة .

— ليس من صالحك بالطبع ان تأتى الى فلسطين باسمك الحقيقى يا هر هاوبتشار فوهرر اس . اس ايخمان . وعلاوة على ذلك فما دخل الصحافة هنا اذا كنت تعمل فى احد اقسام ادارة الامن ، او (الاس . د .) وتنشط بنجاح فى الكشف عن الماسونيين ، اليس كذلك ؟

كان الالمانى يبدو فى الظاهر بارد الاعصاب ، اما فى الحقيقة فكان يشعر بقلق متزايد بعد كل كلمة وكل جملة يقولها محدثه

الوقح ، باستثناء العبارة الاخيرة التى تلقاها فجأة بزفرة ارتياح خفية . فقد كانت المعلومات عن عمله فى قسم مكافحة الماسونيين قديمة رغم انها كانت مطابقة للحقيقة . فهو منذ عامين تقريبا يراس الادارة المكلفة «بوضع حل للمشكلة اليهودية» .

لم يكن فى البرقية الشفرية التى تضمنت بيانات عن رجل الاس ـ اس ادولف ايخمان حتى مجرد اشارة الى هذه النقطة البالغة الاهمية . وقد اغفلها الانجليز الذين كتبوا البرقية عن قصد . فقد كانوا يعلمون مسبقا ان المعلومات عن الصحفى المزعوم من جريدة «برلينر تاجبلات» مخصصة لـ«شيروت لى اسرائيل» ، وانها قد تصبح فى متناول العناصر المتطرفة فى الهاجانا . . . فكيف سيفسر الانجليز فيما بعد ، لو وقع تجاوز ما ، منحهم ايخمان تأشيرة دخول الى فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطانى ؟ وبالاضافة الى ذلك فقد كانت الظروف انذاك لا تجعل من صالح لندن ان تؤزم علاقاتها بالمانيا .

وعندما ادرك ايخمان ان مقتحمى غرفته لا يعرفون عنه أهم نقطة هدأ قليلا ، ومع ذلك لم يكن يعرف كيف يتصرف مستقبلا ، وأخذ يخمن كيف ستكون نهاية هذا كله . كان فى الواحدة والثلاثين من عمره فقط ، ولم يعمل فى الاس . د . الا منذ اقل من ثلاث سنوات ، وخلال هذه السنوات لم يغادر حدود الرايخ .

وخلافا عن الالمانى كان محدثوه اللحوحون اساتذة فى مثل هذه الاعمال . . . تطلع مندوب «شيروت لى اسرائيل» بسخرية الى وجه ايخمان الذى كان يبدو هادئا فى الظاهر ، ومضى ، كما فى السابق ، بنبرة متسللة وبفواصل قصيرة ، يمارس الضغط عليه بجرعات متزايدة . فذكّر ايخمان بان اباه جاء به صغيرا من زولينجن الى لينس وانه انهى هنا المدرسة الابتدائية بصعوبة ، ودرس اربع سنوات فى المدرسة الثانوية التكنيكية ، ولم يتردد الا عامين فقط على المعهد الصناعى الاتحادى الذى كان يعد مساعدى المهندسين الكهربائيين . وقام ايخمان الاب ، وكان آنذاك مدير «شركة الترام الكهربائى» فى مدينة لينس بتعيين ابنه ، وكان فى التاسعة عشرة ،

بائعا بشركة للمعدات الكهربائية . وبعد عامين استقال ادولـــف ايخمان من العمل ورحل الى فيينا .

وذهل ايخمان من القائمة الطويلة والدقيقة التى ذكرها محدثه المجهول للاشخاص الذين اما صادقهم او كان يختلط بهم احيانا . وكان من بينهم يهود يذكرونه بالخير – كما اكد هذا الضيـــف الثقيل – وخاصة اباه الذى كان مشهـــورا فى لينس بـ«اليكترو – ايخمان» ، وما زال يعيش فى المنزل رقم ٣٢ بشارع لاندشتراسى .

اصغى ايخمان فى صبر وهو يشعر بتزايد القلق مع كل لحظة . وعصر الخوف الجنونى قلبه ، وراودته الرغبة فى ان يغمض عينيه ويدس رأسه تحت الوسادة فلا يسمع هذا الصوت الرقيق الـــذى يدفع بالقشعريرة فى بدنه . ولم يخنه حدسه : فقد دسـوا اولا تحت انفه بصفحة مصفرة من القدم من جريدة مدينة لينس ، وبها صور لوالده وهو يحضر كضيف شرف فى الهيكل الرئيسى بالمدينة . ثم اجبره معاونا مندوب «شائى» الاشيب الصامتان على قراءة التحقيق الصحفى المنشور عن منح السلطات النمساوية جائزة كبيرة لرئيس الطائفة اليهودية المحلية بنيديكت شفاجر ، الشخصية المعروفة فى المنظمة الصهيونية بمدينة لينس . وقرأ ادولف : «وقد القى اوتـو ايخمان كلمة تحية فى الاحتفال نيابة عن البلديـــة والكنيســـة المشيخية» . نعم كان ذلك والده . . . وادرك ايخمان انه وقع فى فخ لا يرى منه مخرجا حتى الآن . اما ذلك الصوت المتسلل الرقيق فمضى يسرد لحظات مشهودة من حياة الآرى الاصيل ايخمـــان . واتضح انه كان ضالعا فى قضية «حساسة» للغاية تمتد جذورها الى ما وراء المحيط . ليس هذا فحسب . . . بل والى السجل الخاص «للوكالة اليهودية» . صحيح ان ذلك حدث عندما كان ايخمان شابا يعمل فى مكتب فرع شركة «فاكوم اويل كومبانى» الامريكيـــة فى النمسا . وقد حصل على عمله هنا بمساعدة مباشرة من بنيديكت شفاجر المذكور . وكانت هذه الرعاية تبدو فى الظاهر كأحد فروض الشكر لـ«اليكترو – ايخمان» على الحفاوة التى لقيهـا هو – شفاجر – اثناء الاحتفال الاخير ، ولكنها كانت تستهدف غرضا خفيا عن غير المطلعين على شئون الدوائر الصهيونية العليا .

كانت تلك ايام سارة بالنسبة لايخمان ، وفى الوقت نفسه محزنة . ففى كل انحاء النمسا ، وخاصة فى القسم الاعلى منها ، اخذت تتكاثر الجماعات القومية الاشتراكية كما ينمو الفطر بعد المطر .

وقال بنيديكت شفاجر المحترم آنذاك : «ينبغى ان يكون لنا رجالنا حتى فى بلاد الاعداء . وكلما كان عددهم اكبر توصلنا الى هدفنا اسرع واسهل . . .» .

واصبح ادولف ايخمان الشاب «احد رجالنـــــا» المندسين فى جماعة من هذه الجماعات .

وبعد ذلك بفترة طويلة ، عندما ادت بعض علاقات ادولــف ايخمان الخارجة عن اطار الصفقات التجارية لشركة «فاكوم اويـل» الى القاء ظلال الشك عليه ، اضطر القنصل الالمانى فى لينس ، السيد ديرك فون لانجن ، الى الدفاع عنه ، ولم يخل الامر ايضا من تدخل بنيديكت شفاجر المذكور . وبالطبع فقد كان لتأكيد القنصل بـان ايخمان يعتبر عضوا مثاليا فى الحركة القومية الاشتراكية السريـــة الدور الاكبر فى تبرئة ايخمان ! وظل سرا بالنسبة للجميع ان ادولف ايخمان نفسه ، وبايعاز من الاشخاص الموثوق بهم فى اوساط رئيس «الطائفة اليهودية» بمدينة لينس ، كان فى الوقت نفسه عضــوا فى المنظمة النمساوية الالمانية المعادية للماركسية .

وفى اول ابريل عام الف وتسعمائة واثنين وثلاثين ، التحـق ايخمان ، ظاهريا حسب رغبته الخاصة ، وعمليا بايعاز من رعاته فى «فاكــــوم اويل كومبانـــــــى» بالحزب القومى الاشتراكـــــى وبـ «Schutzstaffeln» * واخذ يخطر اسياده الحقيقيين سرا بالاوضاع فى «اس . اس . شتاندارت ٨٩» ** الذى الحق به ، ويمدهـــم بالمعلومات عن افراده وروحهم المعنوية وتسليحهم والاعمال التى يزمعون القيام بها . وقدر اسيـــــاده السابقون هذه الخدمـة حق قدرها . . .

وعندما روى مندوب «شيروت لى اسرائيل» كل هذا ، لم يشر

---

* فصائل الحراسة التابعة للحزب النازى ، والمسمـــاة اختصارا : اس . اس .

** لواء الاس . اس .

بالطبع الى ان بنيديكت شفاجر ، الذى دبر هذه العملية قد كوفىء هو ايضا مكافأة سخية من زملائه الامريكيين فى «فاكوم اويــــل كومبانى» . . . فقد كان من الضرورى ان يظل هذا الجانب من علاقات رئيس «الطائفة اليهوديـــة» . بمدينـــة لينس «وراء الستار» . . .

وقال رجل الهاجانا :

– لقد استمر نشاطك هذا عمليا حتى اول اغسطس عام ثلاثة وثلاثين ، ثم صدر امر من جاوليتر النمسا العليـــا البارتـــاى جينوسى * بولليك بالــرحيل الى معسكر ليشفيلد للتدريـــب العسكرى . . . اليس كذلك ؟ والآن الكلمة لك يا هر ايخمان . . . ولعلك تدرك انه على هذه الكلمــة يتوقف مستقبلك ، وفى الغالب ليس مستقبلك فقط !

كان رجال قسم العمليات الخاص التابع للهاجانا ، والمدربون جيدا على عمليات الابتزاز السياسى يبسطون بحساب المعلومـــات التى تفضح الالمانى . وكانت اكثر من كافية . . .

وفى هذه البلدة اليهودية الصغيرة بدأ فوهرر الاس . اس . الصغير يدرك ان كل هذه البيانات «الصغيرة» عن حياته يمكن ان تلعب دورا كبيرا جدا فى مستقبله اذا وصلت الى الدوائر المعنية فى الرايخ . . . عندئذ فليقل لحياته الوداع ! ولن تشفع لـــه الكلمات البليغة عن انه «ذو معارف هامة فى مجال تخصصه» والتى سجلت منذ عامين فقط فى بطاقته الخاصة المحفوظة فى خزانـة غير قابلة للحريق فى هيئة اركان الاس . د . فى برلين .

احس ايخمان فجأة بخوف طاغ هنا ، وهو بعيد عن المانيا التى كان فيها ، وسط اناس له السلطة المطلقة عليهم . وادرك انـه وقع فى فخ .

كانت فترة الصمت التى حلت شديدة الوطأة عليـه . وكان ادولف ايخمان يبحث عن مخرج من وضعه اليائس .

واخيرا لفظ :

– الامر كذلك يا سادة . . . كل هذا صحيح . ولكن ايخمان

---

* الرفيق فى الحرب .

السابق لم يعد موجودا . وهذا ايضا صحيح . . . ان من يقف امامكم هو ايخمان المثالى ! وانتم ايضا ، كما اعتقد ، مثاليون . وصدقونى ، هذا شىء سار جدا . لدينا اشياء كثيرة مشتركة . وليس هذا مجرد ذكر حقيقة ، بل هو امر مبهج ! فلو كنت يهوديا لاصبحت بلا ادنى شك صهيونيا من اشد المتحمسين . . .

كانت هذه الاجابة جديرة بالاهتمام ، فقد ادى رجل الاس . اس . ايخمان بعض الخدمات للصهيونية من قبل . ومما استمال زوار الليل ايضا تلك النبرة المسالمة التى قال بها ايخمان هذا الاعتراف . والتقط ايخمان هذه الثقة التى ظهرت نحوه فالقى بمهارة باوراقه الرابحة المجربة ، اذ نطق متباهيا ببضع كلمات باليديش ، ثم قال عبارتين او ثلاث بالعبرية من تلك التى حفظها عندما كان يختلط كثيرا باليهود العاملين فى «فاكوم اويل كومبانى» . ولم تكن تلك هى المرة الاولى التى يلجأ فيها ايخمان الى مثل هذه المناورة . فمنذ حوالى اربع سنوات وصل الى النمسا سرا الرايخ فوهرر اس . اس الجنرال هيملر لتفقد مدى الاستعداد القتالى لرجال الاس . اس . النمساويين من «الفرقة السوداء» . وعند ذاك اقسم له ايخمان يمين الولاء وادهشه واسره باستعراضه لمعارفه «الواسعة» بلغة ذلك الشعب الذى اعتبرته النازية العدو «رقم واحد» .

ومنذ ذلك الحين صعد نجم ادولف ايخمان عاليا . ولكن بمجيئه الى فلسطين ، حيث التقى لسوء حظه البالغ ، باناس يكادون يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة وكل ما حاول ان يخفيه ، احس بامكانية حقيقية لان يهوى من ذلك «الارتفاع» الى الهوة السحيقة . ولكى يكسب بعض الوقت للتفكير فى الخطوة التالية وجد من الصواب ان يلمح الى انه لو حدث له او لزميله سوء خارج حدود الرايخ الثالث ، فان ذلك سيؤدى حتما الى اتخاذ اجراءات خطيرة ضد اليهود . فهل مثل هذا الامر لا يثير قلق اخوانهم فى العقيدة ؟

فاجاب رجل الهاجانا ببرود وصفاقة : اذا توفى الهر ايخمان فجأة بالذبحة الصدرية او بضربة شمس فى بلدة غير معروفة فى فلسطين ، واعدم لهذا السبب الرهائن اليهود الابرياء ، فلا أظن ان ذلك سيخفف عن ايخمان فى شىء .

١١٠

وسأل ممثل «شائى» بينما عبرت عيناه عن التعاطف المخلص مع محدثه بل وعن الحزن :

– اليس كذلك يا هر ايخمان ؟ ولذلك الا تظن ان الوقت قد حان اخيرا للانتقال الى الحديث العملى ؟

فسأل ايخمان :

– وماذا تريدون منى يا سادة ؟

– شيء تافه . . وعلى قدر فهمى فان عرضنا سيكـــون ذا فائدة لك ولألمانيا . . .

– كلى انتباه يا سادة ! ولكننى اريد ان اقول لكم مسبقا انه اذا كان الامر الذى تريدون اشراكى فيه سيعود بالفائدة عـــلى الرايخ الالمانى العظيم ، فسوف ابذل بالطبع ما فى وسعى . . .

فجاءه الرد الهادئ على وعده الملتهب :

– لا ضرورة يا هر ايخمان للتأكيدات والعهود . فكما تدرك الآن لدينا ضمانات اقوى من ذلك بكثير . وانا على ثقة مـــن اننا سنتفق . . . لقد وعد القيصر غليوم فى زمانه الدكتور هرتزل بتأييد انشاء «الوطن القومى اليهودى» ، اذا ما اصبحت اراضى فلسطين محمية المانية . وقد عارض الانجليز ذلك . اذ كانوا يخشون ان تصبح المانيا امبراطورية اقوى مما كان يريد لوردات داونـنــج ستريت . . . اما الآن فاننا واياكم نستطيع تحقيق الكثير ! ولكننا بحاجة الى السلاح من اجل هذا ! ونحن نريد ان تساعدنا فى الحصول عليه من المانيا . . . فبريطانيا هى العدو المحتمـــل للرايـــخ الالمانى .

وبعد ان سمع ايخمان ما قاله محدثوه ارتفعت معنوياته : فقد فشل الابتزاز ، لان هذه الصفقة كانت تتفق والمهمة التى كان يؤديها هنا فى فلسطين ، والتى يبدو من الدلائل ان محدثيه لا يعلمـــون بها . وكان الاداء الناجح للمهمة المكلف بها يبشر بمنافع كثيرة . واذن فمن المبكر ان ينعى نفسه ، فما زال امامه المجال للصعود الى القمة . . .

فى تلك البلدة اليهودية الصغيرة ، التى نشأت حديثا ، جرى بين فوهرر الاس . اس . ومندوب «شيروت لى اسرائيل» وبمشاركة

رجلين من قسم العمليات الخاصة بالهاجانا والاركان الخاصة «للماساد» وضع اساس اتفاقية ذات اهمية عالمية ضخمة . . . وقد تم التوصل الى الاتفاق المبدئى بسرعة ، اذ كان لكلا الطرفين مصلحة فيه : فقد انشأ النازيون «طابورا خامسا» فى فلسطين لمكافحة بريطانيا ، اما الصهاينة فكانوا يتحرقون لتقريب مجىء ذلك اليوم الذى يمكنهم فيه ان يتحدثوا مع الانجليز بلغة المدافع الرشاشة . وكان من المفروض تحديد تفاصيل الاتفاق بعد سفر ايخمان الى القاهرة التى كان يزمع التوجه اليها من القدس بمصاحبة رفيقه . وهناك كان من المقرر ان يلتقيا بالعميل الرئيسى المقيم لفوهرر الاس . اس . هيملر فى الشرق الاوسط . ومع هذا العميل بالذات كان ينبغى ان يدور الحديث حول تنشيط «الطابور الخامس» فى فلسطين .

فى الصباح الباكر غادر ادولف ايخمان البلدة دون عراقيل وفى مزاج رائع . لم يراوده الشك فى تأييد برلين لخطته . واخذ يفكر وهو راض عن نفسه : «لو ان كل رصاصة او قذيفة تطلقها ايادى الصهاينة من سلاح المانى تصيب انجليزيا ، فهذا وحده كاف ! . . اما اذا رد الانجليز على اليهود بالمثل – وذلك ما سيحدث فى الغالب – فهذا اكثر من كاف !» .

الا ان اشاعة تسربت الى لندن عن اتفاق سرى بين رجل الاس . اس . الزائر وقسم العمليات الخاصة فى الهاجانا . ولذلك رفضوا فجأة اعطاء تصريح دخول آخر الى فلسطين «لمراسل» صحيفة «برلينر تاجبلات» الموجود فى القاهرة السيد ايكمان .

وعلى الفور علم بذلك شخص من اركان «الماساد» . كان ذلك هو الضابط الشاب ابا ايبانس ، الذى كان يعمل فى «الانتلجنس سرفيس» ويقيم مع قسم العمليات الخاصة فى الهاجانا علاقات اوثق مما كان مسموحا به لموظفى هاتين الادارتين القريبتين . فقد ارسل برقية شفرية قصيرة بعبارة «Read and destroy» • ابلغ فيها قيادة «شائى» بالمنصب الذى يشغله ادولف ايخمان حاليا فى الاس . د . وبالامكانيات والصلاحيات الهائلة التى يتمتع بها فيما يخص اليهود المقيمين فى «الرايخ الثالث» .

• يعدم بعد القراءة .

وعلى الفور اسرع شخصان الى القاهرة للالتقاء بايخمـــان : احدهما موظف قيادى فى «الماساد» ، وهو الذى تعرف عليه ايخمان عندما اقتحم عليه غرفة الفندق ذات ليلة ، والثانى رجل بديـــن تجاوز الشباب ، كان يشغل منصب كبير وكلاء مكتب التصديـــر والاستيراد . وناقشا خلال لقائهما بايخمان عددا من القضايـــا الهامة ، وحددوا تفاصيل تنفيذ الاتفاقية الثنائية التى تم التوصل اليها من قبل .

وكان من نتائج مباحثات القاهرة والتقرير المفصل الذى رفعه ايخمان فيما بعد الى الاس . د . حول زيارته لفلسطين ، والذى عرض فيه بخطوط عامة خطة استخدام انصار مفتى القدس اميـن الحسينى وكذلك استخدام الصهاينة ضد الانجليز والانجليز ضـــد اليهود . .

كان من نتيجة ذلك ان قررت قيادة النازيين البدء باعداد هجرة جماعية لليهود من الرايخ وارسال الأسلحة الى فلسطين .

ثم اتفق مندوب اركان «الماساد» ومبعوثو قسم العمليـــات الخاصة الذين جاءوا فيما بعد الى المانيا على انشاء معسكرات عمـل هنا لتصنيف واعداد اليهود للسفر الى فلسطين . وقد وضعـــوا بصورة وقحة سافرة اساس اختيار الاشخاص لهذه المعسكرات : اذ لم يكونوا يختارون لها سوى الرجال والنساء القادرين على العمل والذين بوسعهم ان يعملوا ويؤدوا الخدمة العسكريـــة معـــا ، والاخصائيين فى عدد من الميادين ثم بالدرجة الاولى الاشخاص الذين ادوا خدمات للصهيونية (اى البرجوازيين ممـــولى الصهاينـــة) ، والاشخاص الاعضاء فى المنظمات الموالية للصهيونية مثل «هاردونيا» و«مكابيا» .

وهكذا كان اختيار المهاجرين يستهدف ثلاثة اغراض : الحصول على اكبر قدر من المقاتلين ، وعلى اقطاب المال ، وعلى الكـــوادر المخلصة للافكار الصهيونية .

وبالنسبة للفئة الاولى ، وهى الاكثر عددا ، فقـــد نظم فى المعسكرات تدريب عسكرى على غرار التدريب العملى (الاكشارا) .

وكان من المفروض ان يرحل كل هؤلاء بعد فترة الى فلسطين

بأيد ليست خاوية . ولهذا الغرض كان الفيرماخت الالمانى يرسل الى الصهاينة بالاسلحة الاجنبية التى يستولى عليها . وقد وافق النازيون على تسليمه كتعويض عن الاملاك التى تركها المهاجرون اليهود فى المانيا .

ومن جديد بلغت مسامع لندن شائعات عن احدى الصفقات ، ثم بلغت مسامع العرب عن طريق الانجليز . وتوتر الوضع . واندلعت الصدامات الدامية بين الصهاينة والعرب فى عدد من المدن والقرى الفلسطينية . وحينئذ اضطرت لندن الى اصدار «الكتاب الابيض» الذى وضع قيودا مشددة على الهجرة اليهودية الى فلسطين .

وردا على ذلك تظاهرت الهاجانا بانها تضع فصائلها فى حالة التأهب . . . وكلما ازداد العداء الظاهرى بين الانجليز و«الوكالة اليهودية» التى كانت الهاجانا وكذلك القسم السرى للمخابرات والتخريب فى «شيروت لى اسرائيل» يعملان بمعرفتها ، اصبح ادولف ايخمان ورؤساؤه من قادة الاس . اس . وادارة الاميرال كاناريس اكثر استعدادا للتفاهم مع الصهاينة ومساعدة مخططاتهم . وفى الوقت نفسه لم تكن «الوكالة اليهودية» بكل المنظمات السرية والعلنية التابعة لها عازمة على التخلص من الانجليز بقدر ما كانت تحرص على الابقاء على التحالف معهم لكى تطرد العرب من فلسطين .

تدفقت الشحنات المختلفة الى الموانى الفلسطينية بصورة مستمرة . كان هناك السيارات الواردة من امريكا ، والعلف واللحوم من اوستراليا ، والسلع الصناعية من كثير من البلدان الاوربية . وكانت السفن العائدة تملأ عنابرها عادة بالبرتقال والزيتون والمنتجات الحرفية لاهل البلد .

وكان الحمالون يهرولون كالنمل على الطرق الممهدة من السفن الى المخازن ومن المخازن الى السفن . وكان الحمالون يتدفقون باحمالهم الثقيلة ويهدئون سرعتهم عندما يمرون بجوار المراقبين الذين يفحصون بدقة ماركات الصناديق والشحنات . ووفقا لعلامات خاصة لا يعرفها غيرهم كانوا يوجهون الشحنات بحركة من ايديهم الى مختلف الاتجاهات ، رغم ان هذه الشحنات كانت تبدو من

الخارج متشابهة تماما ، وعند ذلك تنقطع فجاة سلسلة الحمالين لتحل محلها سلسلة اخرى .

وكان يشرف على هذا التصنيف الغامض للشحنات كبير وكلاء النقل بمكتب التصدير والاستيراد دافيد كنوخ البدين ونوتسى يوناس . ومنذ فترة قريبة عين حاييم فولديتير مساعدا لهما . وقد سببت له هذه الوظيفة الجديدة متاعب كثيرة . فقد اصبح مضطرا للسفر الى يافا ، والى البقاء فى الميناء كثيرا الى ساعة متاخرة . واثناء تفريغ او شحن السفن يصبح تماما تحت رحمة كبير الوكلاء ، وهو شخص فظ صارم . ولكن ما اغراه بالطبع هو زيادة المرتب ، فقد كان هو واويا ينتظران طفلا ، ومن ثم كانت زيادة المرتب فى وقتها تماما .

وكان نوتسى يوناس يردد له باصرار ان وظيفته الجديدة ذات مسئولية كبيرة جدا ، وان مرتبه قد زيد لهذا السبب بالذات .

كان يقول له :

– ان «دكاننا» هذا مفتوح فقط بفضل طبيعة الشحنات التى نتسلمها . والا لما كان هناك اى معنى لان يحتفظ بنا سلمونزون ، فضلا عن خاله تبليتس .

وكان حاييم يصغى بصبر الى ايحاءات نوتسى ولكنه لم يجرؤ على سؤاله عن «طبيعة» هذه الشحنات . فقد ادرك حاييم منذ اللحظة الاولى لظهوره فى الميناء ان الفضول هنا غير مستحب .

كان دافيد كنوخ كبير وكلاء مكتب التصدير والاستيراد من المحليين ، اى «الفاتيكيم» ، وكان لا يطيق «العولم خدش» اى الوافدين . كان يعتبرهم مرفهين ، غير صالحين للعمل فى الميناء .

وبعد مرور عدة ايام من تولى حاييم العمل ، وعندما رأى كنوخ انه عامل مجد خدوم ، استدعاه اليه ، وقال بصوت اجش غليظ :

– اذا كنت تنوى الاستمرار فى العمل فلتتذكر انه لا توجد بالنسبة لى كلمات مثل «لا اعرف» ، «لا استطيع» ، «لم ار» او «نسيت» . ينبغى ان تعرف ، وتستطيع وترى ، وتتذكر ، حتما كل شىء ! انا لا اعترف بالتبريرات . سوف تعمل معى وحسب تعليماتى انا فقط . اذا دعت الحاجة للسؤال فلتسأل . واذا سألتنى

سأجيبك ، لكنى لم اتعود تكرار الاجابة . فليفعل ذلك صديقك يوناس . . . اما انا فمشاغلى كثيرة بدون ذلك . اذا لم يعجبك العمل قل . وكلما كان ذلك مبكرا كان هذا افضل بالنسبة لك . . . ولا انصحك ان تخفى عنى شيئا او تكذب علىّ . . .

كان حاييم ، وهو يصغى الى كنوخ ، يهز راسه ويطرف برموشه الحمراء ، بينما خفق قلبه من الرعب .

كان كنوخ قليل الكلام ، يعتبر ما يقوله واضحا ابلغ الوضوح . وكان يعرف عمله بصورة ممتازة ويعمل بغيرة المهووسين . وقد اطلق عليه عمال الميناء لقب «القاطرة» نظرا لحركته واندفاعه — رغم وزنه البالغ مائة وعشرين كيلوجراما ! وبالفعل كان اللقب مناسبا تماما . فقد كان كنوخ يهرول زاما شفته الغليظة ويزفر بمنخاره بصوت عال ، وهو مندفع لا يلوى على شىء وكأنه يجرى فوق قضبان . وكان جسده البدين يلوح تارة على السقالات ، وتارة فى العنبر ، وتارة على سطح السفينة ، وتارة فى المخزن . ولم يكن يتوقف بل يلقى التعليمات العملية المقتضبة اثناء سيره ، اما اذا توقف ففقط لكى يصب سيل لعناته على رأس شخص ما ارتكب خطأ .

وكان «القاطرة» قاسيا لا يرحم بالنسبة للكسالى ، ويمقت المحتالين والمتأففين ويتخلص منهم بسرعة . وكان من العبث استعطافه لكى يرجع عن قراره ويرأف بحال اطفال العامل المطرود . كان كنوخ يرد دائما بنفس العبارة :

— العمل فى الميناء للاصحاء فقط ، كما ان المستشفى للمرضى فقط . . .

ولم يكن كنوخ يتساهل حتى مع احب الحمالين اليه اذا ما لاحظ اى تقصير من جانبه ، فكان ينحيه عن العمل فورا ويتخذ مكانه لكى يرى الاخرين كيف يجب ان يؤدى العمل .

وكان حاييم فولديتير يخشى كنوخ ، ويتحاشى اللقاء معه مثله مثل بقية موظفى وحمالى مكتب التصدير والاستيراد . لقد عرفوا عاداته ، وعندما يلمحون من بعيد قامته القصيرة ، كانوا يصمتون على الفور ، ويشدون قاماتهم ويطفئون اعقاب السجائر ،

ويخفونها بعناية . واذا حدث ان التقى به الحمالون فى ممر السفينة الضيق ، او لا قدر الله على سلم الباخرة ، كانوا يقفزون جانبا ، والا فان كنوخ يزيح من طريقه بكتلته الضخمة كل من يقابله ، ما لم يكن طبعا من الرؤساء .

وحتى نوتسى يوناس ، الشخص الموثوق به مــن سيمون سلمونزون ، كان يخاطب كنوخ بشىء من الرهبة . صحيح ان الاخير كان يتغاضى عن الاخطاء التى يرتكبها يوناس .

وفى المقابل كان سيمون سلمونزون معجبا كبير الوكلاء ، وكثيرا ما كان خال سيمون العجوز جوزيبى تبليتس شخصيا يسال عنه . ومن الغريب انهما كانا يعرفان بعضهما البعض جيدا . فعندما سافر دافيد كنوخ ذات مرة الى ايطاليا بتكليف من الشركة الملاحية «اللويد البحرى الاسرائيلى» لشراء سفينة قديمة كان الايطاليــون يعتزمون «تكهينها» ، اولى ابــن جوزيبى نفسه ، تبليتس الاصغر اهتماما لكنوخ . وبهذه المناسبة ترددت شائعة تقول ان كنوخ ، ما ان رأى زوجة المليارديرفى لفاع من الفراء حتى اشترى لزوجتــه معطفا ثقيلا من الفراء غالى الثمن ، فارتدته عندما ذهبت الى الهيكل فى يوم خريفى حار من ايام عيد «روش – جا – شانا» . وقيل ايضا ان كبير الوكلاء كان يؤمن ايمانا شديدا بما جاء فى التلمود : «كما يكون يومك فى «روش – جا – شانا» ، يكون عامك المقبل كله !» ولذلك كان كنوخ وكل اسرته يرتدون فى عيد رأس السنة ملابس كلها جديدة . . .

وكان من المعروف ان كبير الوكلاء ، هو الوحيد من بين جميع موظفى مكتب التصدير والاستيراد الذى كان يتقاضى ، بخــــلاف المرتب ، نسبة معينة لقاء اعمال «هامة» لكن احدا لا يعرف ما هى .

واكد الحمالون ان دافيد كنوخ كان غنيا جدا ، يملك منزلين او ثلاثة تدر دخلا طيبا . ولكن كان من الصعب تصديق ذلك ، لأنه كان يرتدى دائما حلة مجعدة متسخة وحذاء باليا ذا طرف ملوى ومشدود الى اقصى مدى . هكذا يبدو منذ عيد الفصح الربيعى حتى الخريف ، عندما يحل عيد «روش – جا – شانا» فياتى دافيد كنوخ فى حلة جديدة . ولكن بعد عدة ايام يعود كبير الوكلاء الى مظهره

الرث السابق . ولم يكن ثمة حدود لاهماله لثيابه مثلما لم تكن حدود لفظاظته . وعلاوة على ذلك كان أكولا شرهـا بصورة غير معقولة ، وكان يلتهم الطعام بعجل وكأن احدا يطارده . . .

وكان كنوخ لا يكترث بالنقود . وقد لاحظ حاييم غير مرة ان كبير الوكلاء كان يستخرج من جيوبه العميقة الاوراق المالية المجعدة المتسخة مع ايصالات الشحن المتكورة وقصاصات ورق التغليف المشحمة .

واذا ما حلت فترة هدوء فى الميناء كان دافيد كنوخ يسمح لنفسه ان يمزح بطريقته الخاصة مع احد العاملين القدامى ، ويتفكه به ، او يطلق لقبا ما مهينا على احد العاملين الجدد . وكان دافيد يحب تدبير المصارعات ، فقد كان فى صباه مصارعا جيدا . وقيل انه بضربة واحدة اودى بحياة العثمانى الغنى الذى كان يعمل عنده ، وهرب من بيته بصندوق مجوهرات . وقد جرب كثير من العمال وقع قوة كنوخ الدببية على اجسادهم فاقسموا مرات عديدة ان يجهزوا على «القاطرة» ، الا ان احدا لم يجرؤ بعد على تنفيذ وعيده .

وقيل ايضا ان كنوخ يتصرف بهذه الوقاحة والثقة بالنفس لان من ورائه عصابة ينفق هو عليها وتعمل وفق اوامره ، وتنتقم بقسوة من كل من يجرؤ على الوقوف فى وجهه .

وذات مرة قال احد الحمالين :

— ان من يدفع هو الذى يطلب الموسيقى !

فايده آخر قائلا :

— نعم ، وعليك ان ترقص على موسيقاه شئت ام ابيت . . . فلتحاول ان تفعل غير ذلك . . . سيعزفون لك حينئذ نشيد الوداع ، ولن ينبس احد بكلمة . وبعد ذلك يعتبرونك وغدا !

لم يكن كبير الوكلاء يلقى بالا الى حاييم فولديتير ، وكأنما لا وجود له . وحتى فى الصباح ، عندما كان حاييم يحييه لم يكن كنوخ يرى من الضرورى ان يرد عليه ، فهو لا شىء ، وانتهى الأمر ! ودهش حاييم : «هل هو حقا لا يسمع ؟» . وأصبح حاييم يحيى بصوت مرتفـع ، ولكن كنوخ ظل لا يرد . وذات مرة كان

حاييم يقف بين الحمالين المحيطين بكبير الوكلاء وبنوتسى يوناس الذى كان يتحدث عن قرب وصول سفينة من اوستراليا . وفجاة اندفع كنوخ من الحلقة وكاد يطرح حاييم ارضا ، ومضى لا يلوى على شىء ، وكأنما لم يكن لحاييم وجود فى المكان الذى مر منه لتوه .

واثار ذلك ضحك الحمالين وتعليقاتهم المواسية . وحاول نوتسى ان يجعل من تهور كبير الوكلاء مزحة ، لكن حاييم لم يعد الى نفسه بسرعة . وظل واقفا على جنب فترة طويلة وتعابير الرعب على وجهه ، وهو يتلفت حوله فى ارتباك ويحاول السيطرة على ارتعاش ساقيه .

وفى نهاية ذلك اليوم وصلت الى الميناء سفينة محملة بعلف الماشية ، قادمة من اوستراليا . واخبر نوتسى يونـــاس الحمالين بضرورة تفريغها بسرعة .

كان المساء قد حل عندما وقف حاييم بأمر من نوتسى عـــلى المرسى قرب الجزء الاسفل من سلم السفينة فى انتظار بدء التفريغ . واستعد الحمالون للانقضاض على عنابر السفينـــة وكأنهم جنـــود يحتشدون فى مواقع الانطلاق لشن هجوم مباغت .

لزم الجميع الصمت . وتناهى بوضوح صوت الامواج وصرير السلالم وصوت مكتوم من ارتطام جانب السفينة بالجذوع المهترئة فى جدار المرسى .

وظهر دافيد كنوخ كالعادة مندفعا ، واولى اهتماما بحاييم ، الامر الذى كان مفاجأة تامة له . اذ دمدم له دون ان يتوقف عـن سيره :

– راقب التفريغ وافتح عينيك . هل سمعت ؟

– نعم ، طبعـــا ! – اجاب حاييم وهو يهرول خلـــف كبير الوكلاء . – لقد شرح لى الرفيق يوناس كل شىء . ينبغى ان اراقب بحيث تكون البالات المربوطة بسلك نحاسى . . .

فقاطعه كنوخ وهو سائر :

– لا تركض ورائى كالجرو . افعل ما امرت به .

وسرعان ما بدأ التفريغ ، وانطلق السير البشرى المتحرك .

سار الحمالون بانتظام محافظين على الفواصل بينهم ، فوق السقالات الخشبية الضيقة ذات العوارض . ساروا صامتين على ضوء شاحب وكانهم يسيرون فى جنازة وكان كل منهم عندما يمر بحاييم حاملا على ظهره بالة ضخمة من القش المضغوط يقول :

— الرباط سلك نحاسى . . اتوجه الى الساحة .

— الرباط سلك عادى . . . اتوجه الى الطابق العلوى .

وكان على حاييم ان يتأكد من الرباط ، على الرغم من انه كان من العسير ان يميز السلك العادى من السلك النحاسى فى هـذا الضوء الضعيف . وغير مسموح بأى تأخير ، فخلف هذا الحمال يسير آخر وثان وثالث . . . اما الخطأ فكان ينطوى على عواقب وخيمة ، كما حذر نوتسى . وكان كل حمال يعرف ذلك ، ولكن احدا لم يجرؤ ان يسأل عن السبب فى كل هذه الدقة والتشدد فى تصنيف بالات عادية من القش المضغوط .

ولاحظ حاييم ان الميناء كان خاليا من الغرباء ، فقد كان كل العاملين فيه من السكان المحليين الاصليين ، وكلهم مـن ذوى الخبرة الكبيرة . وكانت هنا نظم خاصة . فقد كان ممنوعا على اى شخص من غير العاملين فى التفريغ ان يقترب من مكان التفريغ اثناء العمل حتى ولو كان من العاملين فى مكتب التصدير والاستيراد . وكان كل شخص من العاملين فى هذا القطاع مسئولا عن تنفيذ هذه القاعدة بكل دقة .

وكان دافيد كنوخ ينقض كالاعصار بين الحين والحين ، ومن سطح السفينة ، حيث كانت السقالات تمتد الى المرسى فى الاسفل ، يحدد بنظرة واحدة مدى نجاح العمل .

وسمع حاييم صوت كنوخ الابح وهو يقترب :

— اسرع يا آشير . مالك تسحب ساقيك ؟ الم تأكل منذ وقت طويل ام ان «السفاردا» * لم تجعلك تنام ؟

كان آشير من «الفاتيكيم» ولكنه تزوج يهودية من طرابلس .

---

* المراة اليهودية المنحدرة من جنوب غرب اوربا وتتحدث ما يسمى باللغة الاسبانيولى .

ولم يكن كبير الوكلاء يطيق هذا النوع من بنى قومه ويعتبرهم كسالى ، ووقحين للغاية وثرثارين . ولم يرد عليه الحمال بشيء فقد كان يعرف انه من المفروض ان تسكت فى مثل هذه الاحوال . ولم يرد الا ان اسرع الخطى .

وصاح كنوخ فى حمال آخر :

– وانت الى اين تجرى ؟ هل انت مسرع الى حفل عرس ام تريد ان تسبب اختناقا فى المرور ؟

وعلى الفور ابطأ الحمال خطواته ، ولم يرد هو الآخر بشيء .

– لا تستعجل يا شايا . دعه يختبر الرباط جيدا . . .

وفجأة سمع حاييم من خلفه صوت كبير الوكلاء الأبح :

– وانت ايها الأشكنازى * ، هل انت نائم ؟ لا تدع الحمال يمر قبل ان تتأكد من السلك ، والا قطعت رأسيكما معا !

وقال الحمال باعتذار وهو يعود الى حاييم :

– لقد اختبره يا رفيق دافيد كنوخ . وانا قد قلت ان السلك عادى واذهب الى الطابق العلوى . . .

فصاح به كنوخ :

– لا احد يسألك يا أورل ** . انتبه الى عملك .

خيل لحاييم من الانفعال ان غلالة غشيت عينيه ، وانه لم ير بالفعل هذا السلك الملعون .

ومن جديد دوى صوت كنوخ :

– الآن فقدت عقلك تماما . اين عيناك ، فى قفاك ؟

واسرع حاييم يربت على كتف الحمال علامة الاذن بالسير . بالطبع كان السلك عاديا ، ولكن لا حاييم ولا الحمال لم يقولا كلمة واحدة لكنوخ .

واصدر كنوخ تعليماته وهو يمر بجوار حاييم :

– ستكثر الآن البالات ذات السلك النحاسى . انتبه ! سجل كل بالة ، احسبها بالعشرات ، واحذر ان يقع اى خطأ !

لم يكن على حاييم ان يسجل فقط ، بل وان يتابع حتما الحمال

* اليهودى المنحدر من وسط اوربا .

** الأغلف ، الذى لم يختتن (كلمة سباب مهينة) .

بحيث ينعطف يسارا ويتجه الى الساحة حيث يلقى بالحمل هناك قرب الميزان . ولم يكن مسموحا لهم بالسير الى ابعد من الساحة . ومن هناك يقوم رجال آخرون غير معروفين للحمالين مطلقا بوضع البالات على عربات بعجلتين وينقلونها الى المخزن الذى كان تحت سيطرة نوتسى يوناس المطلقة . فقد كان يتابع بنفسه فتح كل بالة .

كثرت البالات ذات السلك النحاسى ، ولم يكن حاييم يلاحق تسجيلها فى الدفتر وحسابها بالعشرات الا بالكاد . . .

ولم يسمحوا بفترة راحة الا بعد بدأ التفريغ بثلاث ساعات ، وحتى هذه الاستراحة لم تمتد الى اكثر من خمس عشرة دقيقة . وتهالك الحمالون على الارض حيثما ادركتهم لحظة الاستراحة وكانما حصدتهم دفعة من مدفع رشاش . وكانت كلمات كبير الوكلاء اقوى من سلطة القانون . قال لهم :

— لا بأس ، ستر تاحون عندما تنتهون من تفريغ البالات ذات السلك النحاسى ، أتسمعون ؟ ينبغى ان تفرغوا قبل الفجر .

لم يعارض احد .

واحيانا كان كنوخ يقول :

— من لا يعجبه الحال فليذهب ! لن ابقى احدا بالقوة . اننى امنحكم مطلق الحرية .

ولكن العامل الذى كان يقرر الذهاب لم يكن يذهب ، بل يختفى دون اثر . فبالفعل كان كنوخ يعتمد على عصابة من السفاحين تابعة لـ«أرجون تسفاى ليومى» .

واستؤنفت عملية التفريغ ، وتتابعت البالات ذات السلك النحاسى .

أخذ الحمالون يهرولون الى اعلى فوق السلالم وهم يتنفسون بصعوبة ثم يظهرون على السقالات بعد ثوان معدودة محملين بالبالات . وكانت صيحات كنوخ تحثهم وتبث فيهم الرعب . فقد كان غضب كبير الوكلاء يعنى اكثر من مجرد فقدان الاجر الجيد نسبيا . ولذلك كانوا يعملون ، ويلوذون بالصمت . وكان بعضهم يذكر كيف خالف كبير الوكلاء مبداه ذات مرة وقبل احد «المهاجرين»

للعمل لديه . كان ذاك رجلا مفتول العضلات ، معروقـا ، مـن المهاجرين المغاربة . وكان يعمل هناك فى الميناء ايضا . ويبدو ان ذلك هو ما اغرى كنوخ الذى اطلق على الحمال المغربى هذا لقب «فرنك-سكين» * . وكان الحمال يحمل فى حزامه دائما سكينا حادة يستلها فورا عند نشوب اقل خلاف مع احد الحمالين . ولكن ما ان مر اسبوعان حتى بدا لكبير الوكلاء ان «فرنك-سكين» ليس سلس القياد وثرثار اكثر مما ينبغى ، وعندما نهره كشر المغربى عـن انيابه . كان ذاك حادثا لا مثيل له ! وعلاوة على ذلك فقد وقـع على مرأى من الحمالين . وامر دافيد كنوخ المغربى بان يغادر المرفأ فورا . ولكنه رفض واستمر فى عمله . وعندما اندفع كبير الوكلاء نحوه كالقاطرة لمعت شفرة السكين امام عينيه . وافلـح كنـوخ بالكاد فى تجنب الطعنة ، وبعد فترة من الزمن مضت زوجتا الحمال وحشد من اطفاله يبحثون عنه . . .

ودون اى وازع من ضمير قال دافيد كنوخ :

– الميت لا يبحثون عنه فى الميناء ، بل فى البحر الميت . . .

ومنذ ذلك الحين لم يخرج كبير وكـلاء مكتب التصديـر والاستيراد عن مبدئه : الا يقبل للعمل فى الميناء الا ذويـه «الفاتيكيم» .

وبحلول الفجر كان قد تم تفريـغ الجزء الاكبر مـن العنبر المشحون بالبالات المربوطة بسلك نحاسى . ومع ذلك لم يأمـر كنوخ بالاستراحة التى وعد بها على الرغم من انخفاض وتيرة التفريغ بشدة . كان الناس يعملون بآخر ما تبقى لديهم من قوة . وحتى حاييم كان لا يكاد يقوى على الوقوف وهو يغالب بصعوبة النعاس الذى داهمه .

وصاح كبير الوكلاء وهو يندفع مارا بجواره بأنه لم تعد هناك بالات بسلك نحاسى . ولكن حاييم لم يجرؤ على ترك مكانه بدون اذن دافيد كنوخ .

وكان الوقوف بلا عمل اشد وطأة على حاييم . وغلبه النعاس

---

* لقب اليهود «السود» ؛ وسكين هى السكين .

عدة مرات فكان يترنح ثم يستيقظ . ومن خلال النعاس سمع احدا يناديه . واتضح ان نـــوتسى يوناس كان يدعوه للذهـــاب الى المخزن .

لم يتوقع حاييم ان يرى فى المخزن هذه الكثرة من الناس . كان شبان وشابات ما يهرولون من طرف المبنى الضخم كالسوق المسقوفة الى طرفه الآخر . وبجوار الطاولة الطويلة الموضوعة فى وسط المبنى وقف عدة اشخاص مزودين بالكماشات . وكانـــوا يتلقون البالات باستمرار ، فينزعون عنها فورا السلك النحاسى ، ثم يشقون «بطن» البالـة بسكاكين حادة كمبضـــع الجراح . ثم يستخرجون بعض الأشياء الملفوفة فى ورق اسود مزيت . وعلى الفور كانوا يحملونها من على المائدة بعيدا . وتفحص حاييم جيـدا فرأى بعد فترة مواد حادة مصقولة وسوداء اللون مرتبة بعنايـــة وقد نزعت عنها اوراق التغليف . ونقل بصره الى الطرف الآخـــر من المخزن واذهلته الدهشة والخوف . فهناك ، وبحذاء الجدار رصت المدافع الرشاشة والبنادق والمسدسات فى صفوف ملتصقة واكوام اقراص الذخائر والخزانات ، وغير بعيد عنها تكدست صناديـق الطلقات وفيما يبدو قطع الغيار .

والقى حاييم نظرة سريعة ، ولكنها فاحصة ، على ما يقوم به هؤلاء الاشخاص فى المخزن ، والى اين ولماذا ينقلون هذه المواد ، فادرك ان انطباعه الاول عن الفوضى والازدحام السائدين هناك كان خاطئا . اما فى الواقع فكان يجرى تجميع السلاح من الاجزاء والقطع المستخرجة من البالات ذات السلك النحاسى التى كان حاييـــم يسجلها فى دفتره . وكانت عملية التجميع تجرى بدقة كما فى خطوط الانتاج .

الآن فقط ادرك حاييم ما كان نوتسى يوناس يعنيه عندما راح يؤكد له المسئولية الخاصة الملقاة على عاتق جميـع العاملين فى الميناء . الآن فقط اتضحت له تماما اسباب النظم والقواعد الصارمة فى الميناء التى وضعها كبير الوكلاء ، والاختيـار الخاص للحمالين ومعدلات العمل المنهكة والعمل بدون توقف لتفريغ السفينة .

احس حاييم بالخوف عندما ادرك انه قد اصبح منذ الآن شريكا

فى اعمال سرية ضد القانون . ومرقت فى ذهنه صور الماضى القريب الواحدة تلو الاخرى : شراء السلاح فى كونستانسا ؛ الحاخام بن صهيون هاجرا بمسدسه الضخم تحت ذيل قفطانه ، هجوم المدمرتين الانجليزيتين على «ترانس اطلانطيك» ، اطلاق النار ومصرع البحارة الانجليز وطفل المهاجرة النمساوية المأساوى ، اكتشاف الانجليز للأسلحة فى براميل الاسمنت ، واخيرا الظروف المريبة لغرق «ترانس اطلانطيك» بمئات الركاب وبالسلاح الموجود فى العنابر . .
وعاد بذهنه الى وقوفه امام الموظف الانجليزى الذى هدده هو واويا منذ فترة قريبة بالسجن والطرد بسبب مخالفة القوانين المعمول بها فى اراضى فلسطين الخاضعة لانتداب بريطانيا العظمى . . .

استولت هذه الافكار على حاييم تماما ، لدرجة انه نسى لماذا جاء الى هنا ، فظل واقفا فى مكانه دون حراك حتى رآه نوتسى يوناس فصاح فيه بلهجة آمرة :

– حاييم ! فولديتير ! الىّ بسرعة ! – وعندما اقترب حاييم منه وهو يناور بخوف بين صفوف الاسلحة امره :

– اجمع اوراق التغليف ، واربطها بالسلك بشدة . . . وباسرع ما يمكن ! هل فهمت ؟ ليس امامنا الا وقت قصير جدا . . . تحرك !

واطاعه حاييم دون تردد وبدأ يعمل . كان يريد ان ينتهى من ذلك بأسرع ما يمكن ويغادر ارض الميناء ، وكأنما هذا سيحرره من مسئولية المشاركة فى كل ما حدث هنا .

وعندما اوشك العمل ان ينتهى وكان معظم الفتيان والفتيات قد رحلوا سأل نوتسى حاييم وهو يبتسم :

– هل يعجبك «علف المواشى» هذا ؟ قل يا حاييم !

فسأله حاييم بدوره متهربا من الاجابة :

– العلف الاوسترالى ؟

فاشار نوتسى برأسه الى الاسلحة :

– بل هذا ؟

– آه ، نعم . . .

فقال نوتسى وهو يضحك :

– يا لك من مضحك ! العلم فقط أوسترالى . . . اما الباقى فهذا هو ، انظر . . .

ورفع نوتسى مسدسا من كوم الاسلحة واشار الى علامة المصنع .

فقال حاييم مندهشا :

– ايستر رايخ . . . نمساوى اذن ؟ ! ولكن النمسا . . .

فقاطعه نوتسى ساخرا :

– هكذا بالضبط يا حاييم . النمسا لم تعد هى النمسا منذ وقت طويل . لم يبق منها شىء . . . اللهم الا العلامة . . .

– انا لا افهم شيئا . أيمكن ان تكون كل هذه البضائع من المانيا ؟

فابتسم نوتسى قائلا :

– ولم لا ؟ تذكر انه عندما يتعلق الامر بالسياسة العليا والتجارة ذات المنفعة لا توجد اية قوانين او قيود ، ولا اية قواعد او مبادئ . . .

اومأ حاييم موافقا دون رغبة ، واغتصب ابتسامة متأخرة ، اذ لم يكن يريد ان يفصح عن افكاره حول هذا كله ليوناس .

ولكن لم يدر بخلد نوتسى ان المتطوع فولديتير كان غير معجب بما رآه ، فربت على كتفه وقال بحماس :

– ليكن فى علمك ان هذه ليست سوى البداية ! نعم ، نعم . فبواسطة هذا «العلف» – واشار الى اكوام الاسلحة وصفوف صناديق الذخيرة – سنبدأ قريبا فى ارسال بعض «المواشى» الى المذبح ! صبرا يا حاييم وسوف نرى العالم مَنْ نحن . سوف ترى !

وعند الظهر ، وبعد ان اعلن دافيد كنوخ استراحة لمدة ساعتين فى موقع التفريغ ، رأى حاييم من بعيد السيارة المعروفة تقترب من المخزن . وتعرف فى راكبها على سيمون سلمونزون .

وقفز حاييم من فوق البالة التى اتخذ منها مجلسا مريحا فى الظل لكى يغفو قليلا . ولكن سيمون لم يلق عليه مجرد نظرة ومضى الى المخزن . وقال حاييم فى نفسه : «ليس صدفة ان نوتسى

وكنوخ بقيا هناك عندما انصرف الجميع للغداء . يظهر انهما كانـــا يعرفان ان السيد سيأتى . . .» .

وعاد حاييم يستلقى على البالة . كان هذا اول يوم حار حقا . وداهمه النعاس ، ولكن الافكار المزعجة طردت النوم . كان قد تلقى بالامس رسالة من بولجراد وقد قراها عدة مرات والآن راح يقراها من جديد . قال ابوه واخته انهما بصحة طيبة ، ولا يشكوان من حياتهما ، وينتظران «ضيوفا» ، وادرك حاييم ان الالمان سينقضون بين لحظة واخرى على رومانيا . وكتب ابوه يقول :

«بخصوص المواد الغذائية فلدينا الخضروات الطازجة متوفرة بكثرة . وهناك تشكيلة كبيرة منها عند العجوز بوبا . وهو وابنه بصحة جيدة . . .»

وفهم حاييم جيدا ما معنى «الخضروات» ، فهم ذوو القمصان الخضر وزعيماهم فى بولجراد ، المسئولون عن هلاك كثير مـــن الاشخاص ، بمن فيهم والدة حاييم . . .

وختم الأب رسالته بالتمنيات لابنه وزوجته بموفور الصحة والتوفيق التام ، وذكّر الاب حاييم فى ملحوظة بان يهتم بارســـال «الدعوة» التى وعد بها اذا ما تمكن من ترتيب اموره بنجاح وبدأ يتقاضى اجرا طيبا . . .

وارتاح حاييم قليلا عندما اعاد قراءة رسالة اخته القصيرة . لقد كتبت تقول : «زميلك فى المدرسة الذى كان مريضا بشـــدة عاد اخيرا من المصحة . وقد استقبله اخوة السيد ستاتسكو بحفاوة خاصة ومروا به عبر البوليفار . ولكن اطباء ذلك المستشفى الذى نزلت به انت ذات مرة يعتبرونه معديا ويستدعونـــه مرتين فى الاسبوع للعلاج . وبسبب مرضه لم يشأ احد فى المدينة ان يقبله للعمل . فعمل حمالا فى محطة ترايانفال للبضائع . . .» .

لم يساور حاييم شك فى ان المقصود بذلك هو ايليا توموف . اما «المصحة» فهى بالطبع السجن . اذن فقد ظل صديقه امينا مـــع نفسه . وقال حاييم فى سره : «نعم ، فى زمننا هذا لا يجلس الناس فى السجون الفاشية عقابا على سرقة ، بل على النشاط الثورى السرى . اما الآن فان ايليا موضوع تحت رقابـــة الشرطـــة والمخبر

ستاتسكو . . .» . لقد حاول ايليا ان يقنعه ، هــو حاييم ، فى كونستانسا آنذاك بالا يسافر الى فلسطين ، ووعده بالبحث له عن عمل مناسب فى بوخارست . وقال له : «لن تعيش حياة رغدة ، ولكن ستكسب ما يكفى لخبزك . . .» واعتمد فى ذلك على صديق له ، ميكانيكى يدعى فيما يبدو ايلييسكــو . . . نعم ، نعـم ايلييسكو . . . كان على وشك ان يصل ، فاصر ايليا ان ينتظـر حاييم لعرفه به . وقال توموف آنذاك : «هذا الـرجل يمكنك ان تعتمد عليه فى كل شىء !» .

شعر حاييم الآن بالاسف لانه لم يتمكن من انتظار هــذا الميكانيكى ويتعرف به . فقد فهم حاييم من كلام ايليا ان ايلييسكو ليس مجرد زميل طيب لصديقه بل هو معلمه وموجهه ، وان مـا يجمعهما هو شىء اكبر من مجرد العمل معا فى الجراج . . .

وفكر حاييم بانه لو انصاع آنذاك لكلام ايليا توموف وبقـى فى بوخارست لكان على الارجح قد سار معه فى طريق واحد . . . ومع القلق اخذ الشك يتسرب الى قلبه اكثر فاكثر ، ترى هـل اصاب عندما تصرف بهذا الشكل فى كونستانسا وقرر الرحيل عن دياره ؟ ولكن لم يكن لديه مخرج آخر . كان قد خلّف تدريبـا شاقا فى «الاكشارا» وراء ظهره ، واخشوشنت يداه من العمـل ، وكانت فى جيبه تأشيرة القنصل البريطانى بالدخــول الى ارض الانتداب ، وكذلك بطاقة سفر حصل عليها بعد جهد . . . ثم انـه لو عدل عن السفر الى فلسطين ، لاضطر ابوه واخته الى الهرب من بولجراد دون تردد . ولكانت الطائفة اليهودية قضت عليهمـا بالهلاك . علاوة على ما كان سيصيبه هو . . .

لم يلاحظ على الفور ، وهو مستغرق فى افكاره ، كيف خرج سيمون سلمونزون من المخزن فى صحبة كنوخ . وقفز حاييم وسوى قميصه وياقته بسرعة وكأنه جندى يقابل ضابطـا ، واراد ان يخف لمقابلتهما ، ولكنه لم يجرؤ ، فانتظر واقفا فى مكانه . ولحسن حظه انعطف كنوخ الى سلم السفينة ، اما سيمون فقد رأى حاييم فاقترب منه وسأله بنبرة حماية ودون ان يحييه :

— كيف الحال ؟ تتعود ؟

12—690

انحنى حاييم واحمر . هنـــاك فى كونستانســـا ، بعد اداء «الاكشارا» كان يعتبر سيمون ندا له ، اما هنا – وقد ادرك ذلك بوضوح – فالوضع تغير : كان امامه سيد يتوقف مصيره هـو ، حاييم ، على مزاجه وارادته . ولهذا فقد اجاب باحترام :

– نعم يا رفيق سيمون سلمونزون . . . اتعود شيئـــا فشيئا . . . اشكركم .

فسأل سلمونزون بغضب مصطنع :

– ولماذا «شيئا فشيئا» ؟ – واضاف على الفور وهو يربت على كتف حاييم – ينبغى ان تتعـــود بسرعـــة يا فولديتير ، وعندئذ يكون هناك جدوى ، اما اهم شىء – وهنا تلفت سلمونزون حوله ثم رفع سبابته وقال معقبا بجدية غير مصطنعة هذه المرة – ان يكون كل شىء فى مكانه وفى الوقت المناسب . او كما يقال يجب ان يكون كل شىء على ما يرام .

فاومأ حاييم . وهتف سيمون برضى :

– ممتاز يا فولديتير . بالمناسبة ، هل اخبرك نوتسى بزيادة مرتبك ؟

– نعم يا رفيق سيمون ، اشكركم .

– انا لا اذكر كم ، ولكنك ستكســـب جيدا على ما اظن . وفى المستقبل سيكون كل شىء متوقفا عليك . . .

– اشكركم . . .

– لا بأس ، لا بأس . . . اننى اعرفك وأثق فيك . . . وهذا هو المهم الآن . بالطبع لا بد من العمل دون حساب لشىء ، واحذر ان تتفوه بشىء . اسمع كلام الرفيق كنوخ وتعلم منه ، فلديه مـا يمكن ان تتعلمه . . . نعم .

تطلع حاييم الى سيمون بعينين محمرتين من السهاد . وفكر : ترى ماذا كان يقول سلمونزون المرفه عن «القاطرة» ، لو لم يكن ابوه وخاله من اصحاب الملايين واضطر للعمل عند هـذا «الرفيق» كنوخ ؟ ترى اى لقب كان سيمنحه كنوخ «للأشكنازى» سلمونزون ؟

وتطلع سلمونزون بنظرة حرص الى صفوف بـــالات القش

المضغوط التي كان الحمالون ينامون عليها كالموتى ، وقال وهو يتوجه الى السيارة :

— ستكون امامنا يافولديتير اعمال هائلة . لقد قدّر لنـا ان نؤدي رسالة البرهان بقوة السلاح على اننا شعب واحد ، وامة واحدة ذات دولة واحدة : اسرائيل ! تذكر مبدأنا المقدس هذا ! وتذكر ايضا انك ، وانت متطوع في «ارجون تسفاى ليومى» ، ينبغى ان تعرف ذلك كما تعرف «وصايا الفصح الاربع» الرئيسية !

وسرعان ما انطلقت السيارة بصاحب مكتب التصدير والاستيراد ، مخلفة وراءها سحابة من الغبار والدخان الكريه الرائحة . وهـدا الغبار تدريجيا ، وانقشع الدخان ، بينما ظل حاييم واقفا يفكر وهو يردد فى ذهنه الكلمات التى قالها سلمونزون لتوه : شعب واحد ، امة واحدة ، دولة واحدة : اسرائيل ! فى مكان ما سمع حاييم هـذه الكلمات او شيئا مثلها ، ولكن اين سمعها ، وممن ؟ «واحـد . . واحدة . . . اسرائيل !» نعم قطعا لم يسمع ذلك لاول مرة ! ومضى حاييم الى التواليت ليغتسل وينعش ذهنـه المتعب بعد ليلـة مسهدة . ولكن ذلك لم يفده شيئا ، فراح يردد فى ذهنـه من جديد : «شعب واحد ، امة واحدة ذات دولة واحدة : اسرائيل» .

ولم يتمالك حاييم نفسه فبصق وهو يسب بغيظ :

— اللعنة ! يا للوباء !

وخرج احد الحمالين من المرحاض . ولم يكن فى التواليت احد غير حاييم ، فنظر اليه الحمال متفهما وقال :

— هذا حق . الاوبئة هنا والروائح الفظيعة .

وبصق الحمال ايضا بصقة كبيرة .

٩

ظل المبدأ الذى قاله سيمون سلمونزون : «شعب واحد ، امة واحدة ، دولة واحدة» يلح على ذهن حاييم . وكلما شحـذ ذاكرته محاولا ان يتذكر اين سمع هذه العبارة ذات مرة ، ازداد تكراره لها بالحاح مثل اسطوانة مشروخة .

ولم «تتركه» هذه الكلمات التى اثارت مللـه الا عندما دوت صيحة كنوخ المبحوحة ، عندما اعلن «القاطرة» عن استئناف تفريغ العلف المضغوط من السفينة الاسترالية . ودبت الحركة من جديد فى كل شىء على المرسى ، ولكن لم يعد هناك ذلك الاستعجال الخاص ، ولا النظام الدقيق ، ولا الهدوء والغموض اللذان احاطا بالتفريـغ ليلا . فبين الحين والحين كانت تدوى زمارات الشاحنات الحـادة الآتية لاستلام العلف وسباب وصيحات السائقين ، وهدير محركات السيارات الراحلة ، وكان الحمالون يثرثرون ويتسابون اثنـاء سيرهم .

وقال كنوخ وهو يمر بجوار حاييم :

– اسمع يا انت ! رفيقك هناك يكاد يتمزق قطعا . . .

ومرة اخرى لم يكن حاييم واثقا من انه فهم كبير الوكلاء الفهم الصحيح وما اذا كان يريد منه ان يذهب الى يوناس ، ام انه قال ذلك لمجرد حثه على العمل .

فجرى حاييم حتى لحق به وقال :

– عفوا يا رفيق دافيد كنوخ ، لم اسمع ما قلته بسبـب ضوضاء السيارات .

فأجاب كنوخ بغضب :

– ماذا بك ، هل شاركت زوجتك فى صممها ؟ لقد سمعت انها فيما يبدو صماء بكماء .

توقف حاييم مذهولا . واندفع الدم الى وجهه . وفى تلـك اللحظة فقد سيطرته على نفسه ، وكان على استعداد لكى يـرد الصاع صاعين على وقاحة كنوخ الفظة ، ولكن الاخير انعطف بحدة نحو السلم ، وصعد بسرعة كعادته ، بينما بقى حاييم فى الاسفل ، وهو يبتسم بمرارة ، اذ كان يفكر كيف ان كنوخ كان سيفتك به لو انه رد على خشونته بالخشونة .

وصاح به كبير الوكلاء من السطح العلوى :

– انت ايها الاحمق ! هل تحتاج الى دعوة خاصة ؟

لم يجب حاييم بشىء ، واندفع الى المخزن ركضا وكأن احدا لسعه بسوط .

استقبله نوتسى باللوم ، فلم يحاول حاييم ان يلتمس لنفسه الاعذار . كان يعطف على صديقه مخلصا ، اذ اتضح انه فى المخزن ايضا كانت تجرى عملية شحن «علف الماشية» .

ودس نوتسى فى يد حاييم قميصا مبللا وقال :

– انشره بسرعة على تلك الشجرة – واشار الى تل احمر تنمو عليه شجرة وحيدة كان الحمالون عادة يعلقون عليها قمصانهم المبللة بالعرق – واذا رأيت اشخاصا مريبين انزعه ! فهمت ؟

وصعد حاييم تلا شديد الانحدار ، الهبته الشمس ، وعلق القميص على الشجرة وتلفت حوله . من هذا المكان كان من الممكن بوضوح رؤية الطريق الى المخزن وكل المساحة المحيطة بمنطقة الشحن والتفريغ ، وكذلك جزء من الرصيف . ولم يكن هناك اى شىء مريب فى المنطقة .

ولم يمر نصف ساعة الا وغادرت المخزن ثلاث شاحنات محملة حتى النهاية ، ولم تظهر من تحت اغطيتها المشمعة الا بالات قش رخوة ، وحلت محلها ثلاث شاحنات فارغة وقفت لصق باب المخزن العالى مباشرة .

اوشكت الشمس على المغيب عندما عاد حاييم الى المخزن بالقميص الذى كان قد جف منذ فترة طويلة . لم يبق هنا اثر للأسلحة ، الا ان يوناس ظل لسبب ما منفعلا ، متعجلا يروح ويجىء . واغتسل على عجل وسوى شعره على الماشى وسأل :

– هل تعبت ؟ – واستطرد دون انتظار للرد – انا ايضا . جدا ! لم اتمكن من اغماض عينى حتى اثناء الراحة . لقد جاء سيمون ، وتفقد كل ركن وطاف هنا . . وعموما فقد رأيته انت ! لم اتمكن حتى من ازدراد لقمة . بالطبع كل هذا ليس مهما ، رغم انهم يقولون ان الجوع كافر . . .

فقال حاييم باعتذار :

– لم يبق لدى شىء يا نوتسى مع الاسف . اكلت كل ما كان معى مساء امس ، والله !

– لا ، لا ! . . . على اى حال ليس لدينا وقت . انظر كم الساعة الآن ؟

وانقبض قلب حاييم ، وومضت فى رأسه : «امن المعقول انهم يدبرون شيئا آخر ليوم كامل ؟» .

ومضى نوتسى يقول :

— علينا اليوم ان نزور مكانا آخر . على الارجح ان السيارة تنتظرنا عند رصيف التفريغ . وكنوخ ايضا سيذهب . سترى كم سيكون ذلك ممتعا . . هيا بنا !

وبصعوبة شدا الباب الثقيل الذى كان ينزلق بصرير على بكر صدئ . وشبك نوتسى قفلا ضخما فى حلقتى الباب واوصده ، وحث حاييم على الاسراع بينما انطلق وهو يكاد يركض الى رصيف التفريغ ، اذ كان من المحتمل ان يسافر كنوخ وحده : ذلك لانه تحل عشية السبت . . .

ولم يجرؤ حاييم على ان يقول ليوناس انه متعب وجائع وقلق جدا على اويا .

تبادل نوتسى عدة كلمات مع سائق فى السيارة . وكالعادة رد السائق عليه باقتضاب شديد ، وكأنما هو عازف عن الحديث ، وبنبرة لا تدل ابدا على وضعه كمرؤوس . وفى هذه المرة ايضا فكر حاييم بان هذا السائق الصامت لا يقوم فقط بوظيفة السائق فى مكتب التصدير والاستيراد .

لم ينبس حاييم طوال الطريق بكلمة . كان يفكر فى اويا فيساوره القلق : «لعلها الآن تبكى ثانية . تخاف من البقاء بمفردها . . انها فى الشهر السادس . . . اما انا فربما اضطررت للعمل عدة ايام وليال فى استلام «علف الماشية» . لقد تحدث نوتسى عن ذلك بالامس . . .» .

توقفت السيارة بجوار بيت عتيق ، غير بعيد عن وسط تل ابيب .

وقال نوتسى وهو يجتاز العتبة :

— خازاك ! *

— فاجابه الشاب الفارع الواقف عند الباب بحيوية :

— خازاك !

* شد حيلك ! (تحية بالعبرية) .

وسار حاييم فى اثر يوناس وهو يجرجر ساقيه من التعب والجوع ، وردد وراءه آليا :

— خازاك !

ونظر الشاب الواقف فى الباب باحتقار ودهشة الى هذا الرجل الاحمر الشعر المحدودب من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وكاد ان يشده من كمه ، ولكن يوناس السائر فى المقدمة توقع ذلك فيما يبدو فالتفت وصاح بنبرة آمرة :

— انه معى ! رفيقنا .

عندئذ تعطف الشاب بالرد على حاييم :

— خازاك !

وانحشر حاييم فى طرقة ضيقة مظلمة ، وخرج منها الى غرفة كانت باثاثها اشبه بالمطاعم ذات الاطباق الشهية المنتشرة فى تل ابيب على نطاق واسع .

كان الزحام شديدا هنا ، ولذا فقد استند الى الجدار مرهقا ، وتفحص هؤلاء الاشخاص الغرباء بنظرة لامبالية . واستنتج حاييم من متابعته لنوتسى انه من المترددين على هذا المكان وان الجميع يحترمونه ، اذ كان ينحنى بعظمة للبعض ، ويربت بود على اكتاف الآخرين ، ويصافح بوقار البعض الثالث . . . وها هو قد وصل الى طاولة مجاورة للحائط المقابل للمدخل ، وبحث بعينيه عن حاييم حتى وجده ، فلوح له بيده مناديا . وعندما جاء حاييم ، قدمه نوتسى لرجل يجلس الى الطاولة بجوار امرأة شابة فى بلوزة شبه عسكرية .

— تعرفوا . . هذا رفيقنا . . حاييم فولديتير .

فقال الرجل :

— أهو مستجد ؟

فأكد نوتسى مبتسما :

— نعم ، بالطبع ، ولكن هذا «المستجد» قد تدرب فى «الاكشرا» — ثم استطرد وهو يميل على اذن الرجل كأنما يفضى بسر ولكن بصوت عال — وبالمناسبة فهو لم يؤذ «الاكشارا» عن نفسه فحسب ، بل عن رفيقنا سيمون سلمونزون ايضا . . . نعم ، نعم ! هذا «بالمناسبة» . . .

فأبدى الرجل دهشة حقيقية ونهض مصافحا حاييم :
– هكذا ! تشرفنا يا رفيق ! امثال هؤلاء الشبان مطلوبون هنا ، نعم ، نعم !
وتضرج حاييم بالحمرة .
وسألت المرأة :
– هل من الممكن تسجيله ؟ ام انه سيحضر اجتماع اليـوم فقط ؟
فهتف نوتسى وربت على كتف حاييم بحماية :
– ماذا تقولين ؟ سجليه طبعا . انه يعمل عندى فى الميناء !
وفجأة احس حاييم الجائع المتعب بانه نجم الحفل . اخذ الناس الذين لا يعرفهم يصافحونه ويبتسمون ، ولسبب ما يتطلعون اليه بحسد . وعموما كان اليوم الماضى بالنسبة له بالفعل اشبـــه «بالتعميد» . . فقد اطلعوه على كثير من الاشياء التى كانت سرا حتى لكثير من المتطوعين القديرين .
ودون ان يدرى اصبح حاييم فولديتير عند «منابع الاحداث» كما قال له نوتسى يوناس عشية انتقاله الى العمل فى الميــنـــاء . صحيح ان حاييم اجابه انذاك مازحا بانه «ما زال على ان اتبين اى حادث هذا الذى تورطنى فيه !» .
ولكن نوتسى يوناس ، لحسن الحظ ، لم يدرك معنى التهكم فى هذه المزحة . وعموما فقد كان يغفر الكثير لمرؤوسه معتبرا انه شخص «قصير النظر» وغير عملى ولكنه شاب مخلص ونزيه الى ابعد الحدود . وعندما علم انه تزوج بفتاة صماء بكماء ازداد يقينا بان حاييم رجل «من عالم آخر» ، فسماه دون حرج غبيا شريفا حكم على نفسه بالاشغال الشاقة مدى الحياة . ولكن هذه الخصال بالذات هى التى كانت تناسب نوتسى . ولذا فقد اخذه للعمل فى مكتب التصدير والاستيراد . اما حاييم فلم يفطن بعد الى ان نوتسى لم يلحقـــه بالعمل بدافع الرغبة البسيطة والطبيعية ، كما هــو مفروض ، فى مساعدة رفيق . بل كان يظن بسذاجة انه اصبح فى وضع متميز عن المتطوعين الآخرين فقط لانه ادى «الاكشارا» نيابة عن سلمونزون الذى لم يره آنذاك ، وان هذا عندما التقى به فى فلسطين عامله

بمودة ودبر له المسكن والعمل كرد للجميل ، وعندما تأكد فيما بعد ان حاييم فولديتير دؤوب ونزيه ومطيع ، لم يرفع راتبه فحسب ، بل اولاه ثقة كبيرة بنقله الى ميناء يافا فى عمل يتصل باستلام شحنات خاصة لم يكن يعرف بها الا القليلون جدا .

ولما كان حاييم يفكر بهذه الصورة ، فقد اعتبر نفسه محظوظا ، ولكن شيئا ما فى اعماقه كان يقلقه ، ويعذبه ، بل واحيانا يرعبه . وهمس نوتسى يوناس فى اذنه وكأنما استشف حالته :

— لقد نلت ورقة رابحة نادرة يا حاييم ! اتدرى اى اناس سيكونون هنا اليوم ؟ ان الاعمال العظيمة التى سيجرى عنها الحديث لم تراودك حتى فى الاحلام !

هز حاييم كتفيه الهزيلتين فى صمت . وطافت بشفتيه الشاحبتين ابتسامة خجلى ، ولمعت عيناه الرمايتان بدهشة قلقة .

تذكر الآن فقط ان سائق سلمونزون انزل فى البداية دافيد كنوخ ، ثم انزله هو ونوتسى بعد بضعة احياء وانهما دارا طويلا عبر الازقة قبل ان يبلغا البيت المطلوب من الجهة الخلفية . واصبح من الواضح له ان هذا الاجتماع يعقد سرا ، وانه صار فجأة ودون ان يتوقع فى عداد مجموعة من المتآمرين .

استند حاييم الى الجدار كيتيم وتطلع الى الناس المهرولين من حوله وهم منفعلون ، ولكن افكاره كانت بعيدة عما يدور هنا . كان يفكر فى انه من المستبعد ان يكون الرجل والمرأة اللذين قدمه اليهما يوناس منذ قليل مخلصين فى اعرابهما له عن الاحترام الخاص عندما علما انه ادى «الاكشارا» نيابة عن صاحب مكتب التصدير والاستيراد . فهما يعرفان جيدا انه لم يكدح بدل اثنين الا مضطرا بدافع العوز . كما لم تكن المشاعر الوطنية السامية هى الدافع الى ذلك ولكنهما كانا يعرفان ان مبعوثى مختلف الجمعيات الصهيونية كانوا يسلطون دعايتهم على هؤلاء المتطوعين امثاله من ابناء الاسر الفقيرة ، فيوحون اليهم بان «الواجب الوطنى السامى لكل يهودى هو ان يشارك فى خلق وطنه القومى» ، وان هذا وحده هو ما يستحق ان يعيش المرء من اجله ويموت . ولم يبخل المبعوثون بالوعود لاستمالة الشباب ، وكانوا يجبرونه على اداء التدريب العملى الزراعى

والذى لم يكن يسمح لاحد بدون ادائه بالحصول على «شهادة السفر» و«التأشيرة» التى تخوله حق التوطن فى «ارض الاجداد» .

وقد شمل مثل هذا «الاجراء» حاييم ايضا . فقد تشكل فى حينه «الفوج» الدورى بمساعدة المبشر السمسار فى «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» . وتشكل «الفوج» من بعض اعضاء جمعية «هاردونيا» ، واطلق عليه اسم «يوسف ترومبلدور» . والحق حاييم متطوعا بهذا «الفوج» . وعقد المبشر السمسار ، الذى كان يعمل باسم «الفوج» ، اتفاقا مع مدير مزرعة كبيرة قرب مدينة تيرجو-جيو الرومانية . وبموجب هذا العقد تعهد «فوج يوسف ترومبلدور» بان يقوم خلال موسم واحد باداء جميع الاعمال الزراعية ، ابتداء بالبذار وانتهاء بجمع محاصيل الحبوب والعلف والخضروات والكروم والفواكه . ولم يكن صدفة ان يخلو العقد من النص على عدد المتطوعين المكلفين بهذه الاعمال ، فقد كان عددهم فى القائمة اكبر بكثير من عددهم الفعلى . وكان افراد فصائل العمل هذه من ابناء الاسر الغنية لا يؤدون التدريب العملى بل يكتفون بدفع بدلات نقدية لصندوق «الفوج» . وكثيرا ما كانت الفصائل التى نظمتها الفروع الصهيونية فى كثير من بلدان العالم تضم الى عضويتها متطوعين متنكرين ، فقد كان ممثلو «اكسيونس كوميتى» السريون الذين يعملون اما بارسال ابناء قومهم الى فلسطين (بالتحايل على القوانين بالطبع) او كانوا يؤدون مهام سرية لقسم العمليات الخاصة التابع للهاجانا ، بل وحتى لاركان «الماساد» نفسه مباشرة ، كانوا يؤدون التدريب باسماء مستعارة . وكثيرا ما كانت هذه المؤسسات ، عندما تتلقى من رجالها هذه المعلومات او تلك ، ذات القيمة بالنسبة للمخابرات البريطانية او الامريكية ، تتنازل عنها لها فى اطار تبادل المعلومات من هذا النوع . وبالطبع ظل هؤلاء المندوبون السريون «للاكسيونس كوميتى» مجهولين الى الابد بالنسبة للمتطوعين العاديين . وكان البدل النقدى يدفعه عنهم بالتضامن اصحاب الحوانيت والتجار احيانا ، واحيانا اخرى يدفعه حتى الحرفيون والموظفون الذين فرضته عليهم الطوائف اليهودية المحلية .

وكان المتطوعون الفقراء ، الكادحون امثال حاييم ، يؤدون

التدريب العملى (الاكشارا) عوضا عن الاشخاص «الخفيين» ، ابناء الاسر الغنية . ولم يكن حاييم يحب تذكر تلك الايام . واثـــارت الاشارة اليوم الى تدريبه العملى الالم والاهانة فى قلبه . وقال فى نفسه : «فليذهبوا الى الشيطان ! انهم يحابوننى لا لاننى حصلت بالعمل الشاق الشريف على حق المجىء الى هنا ، بل لاننى تحملـت هذه الاشغال الشاقة بدلا من سلمونزون الثرى !» .

وتذكر حاييم بابتسامة مرة ذلك الشعار المعلق على مدخـــل العنبر الذى استقر فيه المتطوعـــون اثناء اداء «الاكشارا» . كان مكتوبا على الشعار «ارابيت ماخت جليكدخ» * . ولكن العمل لم يجلب اية سعادة منذ ذلك الحين وحتى الآن . . . ومن المستبعد ان يحصل عليها فى المستقبل المنظور . وقال حاييم لنفسه : «نوتسى يعتبر اننى ما دمت شريفا ، فلا بد ان اكون غبيا . . .» . وتذكر كيـف عرضوا ذات مرة اثناء التدريب العملى فلما تسجيليا . ولفت انتباهه شعار معلق على مدخل معسكر اعتقـــال هتلرى لليهود . وكانت كلمات الشعار تقول «ارابيت ماخت فراى !» ** . وذهل حاييم انذاك من هذا التماثل الغريب .

واجاب نوتسى على ملاحظته بلا رغبة : «الدنيا مليئة بالتماثل . هذا تطابق بالصدفة لا اكثر» .

فبسط حاييم ذراعيه قائلا : «يا له من «تطابق» . . ان تكون شعاراتنا وشعارات الفاشيين واحدة !»

فقاطعه نوتسى انذاك بغضب : «هلا سكت ! وعموما عليك ان تفكر قبل ان تقول شيئا . . .» .

ومنذ ذاك الحين لم يعد حاييم يسأل احدا عن شىء ولا يدهش لشىء . ادرك انه عليه ان يتحمل فهو لم يقسم فقط امام اللجنة التى قبلته على الطاعة التامة فحسب ، بل ووقع كذلك عقدا يلتزم فيه بالعمل بدقة والمحافظة على قواعد السلوك والنظم المتبعة فى «الفوج» حتى لا يسبب حرجا للذين زكوه من قيادة جمعية «هاردونيا»

---

* «العمل يجلب السعادة !» (باللغة اليديش) .

** «العمل يجلب التحرر !» (بالالمانية) .

والطائفة اليهودية المحلية . وقد جرى ذلك كله فى حضور والـــد حاييم . وكان الامتناع عن اداء التدريب فى «الاكشارا» مستبعدا ، اذ كان ذلك يجر متاعب كبيرة على حاييم واسرته .

وقبل سفره الى فلسطين ، عندما كانت عظامه تؤلمه مـــن المجهود الشاق التقى فى كونستانسا بايليا توموف وافضى له بما يعتمل فى نفسه .

«انظر الى يدى وستدرك كم كلفنى هذا التدريب . . . لقد كان الاقطاعى فى العادة يستأجر مائة شخص ، اما نحن فكنا ثلاثين متطوعا فقط . ارأيت الفرق ! وكان الاقطاعى مستفيدا من ذلك ، لان عملنا كلفه اقل بكثير من عمل الفلاحين . ولكن لو رأيت يا ايليا كيف كرهنا فلاحو القرى المحلية ! من هنا ينشأ العداء للسامية ! اليس كذلك ؟ يمكنك ان تقول اننا نهبنا هـــؤلاء الفلاحين ، اى والله ! فهم لا يعيشون الا على الاعمال الموسمية . . هل تصدقنى لقد كان قلبى يتمزق ! . . وفكرت اكثر من مرة ان اهرب من هناك ، ولكنى كنت اواجه بالسؤال : «وما فائدة ذلك ؟ لا شيء . لا لى ولا للفلاحين . سيرحل المتطوعون الى فلسطين وابقى انا . ويأتى هتلر فيقتلنى . انت نفسك ترى ماذا يجرى هنا . . . واضطررت للتسليم والاستمرار فى هذا التدريب الشاق بصعوبة لكى احصل على الحق بالرحيل الى فلسطين ! وها انذا مسافر ! ان رجالنا الكبار يؤكدون ان العسل يجرى هناك انهارا ! سوف نرى . ولكنى اخشى يا ايليا ان اجد ذلك العسل حنظلا . . .»

تطلع حاييم الى الصورة المعلقة فى مواجهته لرجل ذى لحية سوداء ، وقد عقد ذراعيه على صدره . وتحت الصورة علق شعار ابيض فى طرفيه نجمتان زرقاوان كبيرتان سداسيتان «لدرع داوود». وفى وسط الشعار كتب :

«لقد اقمت الدولة اليهودية فى بال . وربما تثير هذه الكلمات الضحك اليوم ، ولكنها بعد خمسين عاما ستصبح بالتأكيد امـرا واقعا .

هرتزل»

قرأ حاييم هذه العبارة عدة مرات . وحول نظره ثانيــة الى الصورة ليدرك كنه العبارة . وبعد ان حدق حاييم فى هذا الرجل مليا ادرك اخيرا بمن يذكره هذا الميل القليل للرأس ، والنظـــرة الصارمة ، واليدين المعقودتين على الصدر . . انه يشبه بالضبط نابليون فى صوره . وقال حاييم لنفسه : «هل كان يقلده ؟ ايريد ان يصبح بونابرت ؟» ، وتذكر ان هتلر فى الملصقات يبدو فى هذا الوضع ، ويعقد يديه على صدره عاليا هكذا بالضبط ! وحتى العبارة المكتوبة هناك تحت الصورة تشبه هذه . لقد كان حاييم وتوموف يقومان ليلا بنزع هذه الملصقات ، ولذلك تذكر جيدا تلك العبارة الرنانة :

«لقد اسست فى ميونيخ نواة الحزب . . . وقد قدر لى ان اقوم بالمهمة المقدسة ، مهمة اقامة دولة بمائة مليون المانى يعيشون فى اراضيها عيشة راسخة . . . وربمـا اثار هذا ضحـــك البعض اليوم . . ولكن امهلونى اربعة اعوام واقسم لكم . . .»

ومسح حاييم على جبينه وهو يقول لنفســـه : «ما هذا ؟ توافق آخر ؟»

فى تلك الاثناء تفرق الاشخاص الواقفون تحت الصورة ، فرأى حاييم الطاولة التى يجلس اليها بضعة اشخاص . وفى وسطهم كان سيمون سلمونزون . وراح رجل فى حوالى الخامسة والاربعين يرتدى قميصا حائل اللون ، يتحدث دون مقدمات عن الوضــع الراهن فى فلسطين .

وكان ما اثار اهتمام السامعين بصفة خاصة ما ذكره عن ان الانجليز اكتشفوا وصادروا مخزنا للاسلحة والذخائر فى قرية بن شمش تابع «لارجون تسفاى ليومى» .

وقال الرجل ذو القميص الحائل اللون بنبرة ايقاعية مبرزا كل كلمة :

— انها لحقيقة مؤسفة ان هذا الفشـــل ليس الاول من نوعه . . .

واعاد الى الاذهان انه منذ عدة اشهر ، وعلى وجه الدقة فى اواسط اكتوبر ، احتجز الانجليز خمسة واربعين متطوعا كانوا

يؤدون التدريب العسكرى ، وصادروا جميع اسلحتهم وعتادهم .

واشار الى حادث آخر وقع بعد ستة اسابيع عندما القى القبض على ثمانية وثلاثين شخصا من البيتاريين المراجعين كانوا يؤدون التدريب العسكرى قرب احد الكيبوتسات وصـــودرت اسلحتهم وذخيرتهم .

وقال المتحدث بهدوء وايقاع ، دون ان يرفع صوتـــه او يخفضه ان السبب فى كل هذه المصائب هو الثقة المفرطة وعدم الحرص لدى الاشخاص الذين عهدت اليهم «اكسيونس كوميتى» عمليا بتنفيذ المهمة التاريخية . وادانهم لانهم سعيا وراء الربح يهملون واجباتهم المقدسة وكثيرا ما يعهدون بهـــا الى اشخاص عابرين لم يتميزوا باى شىء فى حركة «التحرير» ولم يؤدوا ايـــة خدمات للصهيونية عامة .

– ان هؤلاء الاوغاد الذين تمكنوا من كسب ثقة رجالنـــا فاطلعوا على خفايا الاسرار ، يبلغونها لاعدائنا اللدودين مقابـــل مكافآت تافهة . . .

وغابت كلمات المتحدث الاخيرة فى هدير الاصوات الغاضبة ، ولكن الرجل ذو القميص رفع يديه فصمت الجميع .

– وعلاوة على ذلك فان المعلومات التى يزود بها هؤلاء الاوغاد اعداءنا لا تقتصر على تحديد اماكن هذا المخزن او ذاك للاسلحة التى خبأناها ، بل وتحتوى ايضا على بيانات بمصـــــادر هذه الاسلحة ! ونحن جميعا نعرف من اين تأتى الاسلحــــة . ولهذا السبب يديننا الكثيرون . بيد اننا لن نستطيع ان نحصل من اى طرف آخر على اسلحة بهذه الشروط المجزية وبهذه الكميـــــة الكبيرة ! ولهذا ، ولهذا السبب وحده ، فاننا لا نتورع عن عقد صفقة مع البلد الذى تعرفونه ومع الحكام الذين تعرفونهم . اننا نقدم على هذه التضحية الاخلاقية من اجل تحقيق هدفنا النهائى . اما اولئك الذين يخونوننا فيقدمون مادة دسمة لاعدائنا الذين يدعون ان الصهيونية لا تتفق ومصالح الشعب اليهودى فى الشتات .

واشار المتحدث الى ان الانجليز ربما ما كانوا ليلجأوا الى اقصى الاجراءات لولا اضطرارهم الى مغازلة العرب وتقديم تنازلات

طفيفة لهم . واعلن استنادا الى «مصدر موثوق به للغاية» ان هناك شائعة تدور فى اوساط قيادة القوات البريطانيــــة بان السلاح والذخيرة والمفرقعات تتسرب من المخازن الحربيــــة ومن مختلف المنظمات العسكرية المنتشرة على اراضى الشرق الاوسط .

ومضى المتحدث يقول :

– منذ ايام القى الانجليز القبض على اثنين من رجالهـــم العسكريين وهما هاريسون وستونر . ولقد ذكرت اسميهما لان على بعض الجالسين هنا ان يتخذ ما يناسب من الاجراءات . . . لقد بدأ التحقيق ، وليس من المستبعد ان يمثل امام القضـــاء اشخاص آخرون . فمثلا هناك مختار احدى القرى العربية متورط فى هذه القضية . وبالطبع فقد علم العرب بكل ذلك ، فتوجهوا باحتجاج جديد الى المفوض السامى البريطانى . وقد تنــــاول الاحتجاج نشاط «ارجون تسفاى ليومى» والهاجانا . ويؤكد العرب ان الخلاف بينهما مجرد خدعة ، وان الاتصالات بينهما مستمرة . واكد الاحتجاج ان عصابة «شتيرن جانج» الارهابية التى تساندها «الوكالة اليهودية» ما زالت تعربد . . . وخصص العــــرب فى احتجاجهم قسما كبيرا للحديث عن شبكتنا التى تعمل على تهريب الاسلحة والذخيرة الى فلسطين . وبالمناسبة ورد هنـــاك ذكر قاعدتنا فى قبرص كما انهالت اللعنات على الحاخـــام بن صهيون هاجرا المحترم الذى يستحق كل ثناء ! . .

وعندما سمع حاييم هذا الاسم تململ ، ونظر الى نوتسى يوناس الواقف بجواره فهمس هذا له :

– انه لم يتكلم ابدا بمثل هذه الصراحة . . .

– ومن هو ؟

– صه ! اسمع . . . هذا مهم للغاية !

ادرك حاييم ان نوتسى تهرب من الاجابة . ولكن الامر كان سيان بالنسبة له ، فقد كانت جفونه تنطبق ورأسه يطن ومعدته تعوى .

ولكن ما سماه يوناس «مهما للغاية» انتهى . فقد ختـــم المتحدث كلمته بعدة عبارات عامة حول ضرورة التمسك الشديد

13*

بالسرية ، وبالدقة والحكمة فى اختيار الاشخـــاص الذين سيزداد عددهم باستمرار باتساع مجال نشاط المنظمات العسكريـــة السرية . . .

وهمس نوتسى فى اذن حاييم :

– ستسمع الآن . . . سيتحدث ممثل قيـــادة «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» . لقد وصل توا من واشنطن . . . ها هو !

ونهض من خلف الطاولة رجل ربعة ممتلئ ، بشعر اشيب متموج . وعلى غير المتوقع تحدث بصوت شاب رخيم وراح يشرح للسامعين المهمة الملحة لقادة منظمتى الهاجانا و«ارجون تسفاى ليومى» ، وكذلك منظمة «شتيرن» التى اعيد تشكيلها مؤخرا ، الا وهى استغلال الظرف المواتى نتيجة دخول بريطانيا الحرب ضد المانيا . واشار المتحدث الى جانبين من جوانب نشـــاط هذه المنظمات : ضرورة القيام بمبادرات واسعة للتوصل بسرعة الى تفوق عددى لليهود بين سكان فلسطين ، وتدعيم الدفاع الذاتى عن اراضيها بكل الطرق .

وقال المتحدث :

– ان الهجرة الجماعية ستظل هى اساس كل شىء ، لانه بهذه الوسيلة فقط سنستطيع فى المستقبل القريب ان ننشئ وطنا قوميا لليهود يعترف بـــه القانون الدولى ، ثم بعـــد ذلك نوسع مساحتـــه كمـــا اوصانا الاجداد من نهر مصر * الى نهر الفرات .

لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يسمع فيها الحاضرون هذه الجمل الرنانة ، بل كان الكثيرون قد ملوا سماعها . وربما لذلك لم تثر فيهم للوهلة الاولى اى حماس . وحلت فترة صمت محرجة ، قطعها شخص نحيل اسود الشعر يجلس فى الصف الاول . فقد بدأ يصفق متأخرا ولكن بعنف وعناد حتى تحول التصفيق المنفرد لبعض من ايدوه الى تصفيق جماعى من كل الحاضرين .

---

* نهر النيل (حسب التوراة) .

ومضى المبعوث القادم من وراء المحيط يقول :
– ينبغى زيادة حجم الهجرة يوما بعد يوم باى ثمن وباية وسيلة ، دون التفات الى اية كتب «بيضاء» او اية كتب من لون آخر !

فصاح الرجل النحيل الاسود الشعر ، الجالس فى الصف الاول :
– مضبوط !

وقفز من مقعده واستدار ليواجه القاعة ومضى يصيح :
– بالضبط ، باى ثمن وباية وسيلة ! علينا ان نجبر الانجليز بقوة السلاح على ان يكفوا الى الابد عن اعادة المهاجرين من حيث جاؤوا ! كفى اهانات ! كفى تنازلات ! كفانا هذا التردد الاحمق وعدم الثقة !

وهمس نوتسى وهو يلكز حاييم بكوعه :
– انه شتيرن ! . . فتى ممتاز . . بارود !

تطلع حاييم بفضول الى ذلك الرجل المعروق ذى السحنة المقلوبة من الحقد . لقد سمع من قبل عن هذا الصهيونى المتعصب . وتناقلت الالسن الاساطير عن قسوة «رجال شتيرن» وشهوتهم الى الانتقام والمذابح التى كانوا يرتكبونها ضد المسلمين والمسيحيين . وكان البوليس البريطانى يبحث عن شتيرن والعرب يهددون بشنقه ، وكان هناك كثيرون من بنى قومه يتوقون الى التخلص منه ، الا انه ظل حيا يرزق وازداد شراسة .

وقال مبعوث واشنطن بنعومة مخاطبا شتيرن :
– ان صحة مطالبنا لا شك فيها ، ولكنك ستوافقنى على اننا محتاجون لا لمئات الشبان بل لآلاف كثيرة من امثالك الغيورين والمتفانين فى النضال من اجل قضيتنا المقدسة . والا فلن نوفق فى مهمة استعمار الاراضى الجديدة التى ستنتقل منذ الآن وباستمرار الى ملكية وطننا . وانت وانا ندرك ضرورة ذلك ومدى اهميته . . .

كان يتحدث بهدوء وتؤدة ، وكانت حركات يديه المنعمتين رشيقة وانسيابية .

وعندما تأكد العجوز ان شتيرن راض عن اجابته ، انتقل الى الحديث عن وسائل واساليب التأثير على الاقـــارب القاطنين فى الشتات بهدف التوصل الى هجرتهم الجماعية الى فلسطين .

– لا ينبغى ان نخجل من تصوير الحياة على ارض الاجداد لاخوتنا فى العقيدة بانها نعيم . صحيح انه لا توجد هنا انهار من لبن او شطآن من مهلبية ، والحياة ابعد ما تكون بعد عن النعيم ، ولكن كل ذلك سيتحقق بمجرد ان يدرك رجالنا انهم امة واحدة ، فيقفون تحت راية الصهيونيـــة ، وينتقلون الى ارض الاجداد ، وينشئون الدولة الموحدة لشعب الله المختار !

توقف العجوز قليلا وطاف ببصره على الحاضرين . وخفض صوته قليلا ومضى يقول :

– ولكن الطريق الى تحقيق هذا الهدف ليس مفروشـــا بالورود . . . وانتم تعرفون ذلك ، وتعرفونـــه جيدا ! ولكن المصاعب والتضحيات الضرورية فى هذا الطريق لا تقاس فى صغرها بما يعانيه ابناء عقيدتنا فى الشتات من عذاب ابدى . ونحن نعرف ذلك ايضا معرفة جيدة . . . ولهذا يكون من الحماقة التى لا تغتفر ان نكفّ عن اقناع اخوتنا فى الدم الموزعين فى شتى انحاء العالم بالهجرة الى ارض اسرائيل ، وان نثنيهـــم عن ذلك بتخويفهـــم بالمصاعب والحرمان . . .

وقدم المتحدث درسا فى «الدبلوماسية» الصفيقـــة التى تستهدف بعد ظهور الدولة اليهودية فى المستقبل – تصوير مستوى التطور الاقتصادى والثقافى الراهن فى المنطقة على انه ثمرة الهجرة الجماعية والعمل المتفانى للمهاجرين ، ثمرة الحضارة الحديثة التى حملوها معهم الى «ارض الميعاد» . .

وترددت صيحات استحسان ، ولكن المتحدث رفع يده آمرا ، واخذ يتحدث عن وسائل «غسل مخ» ابناء العقيدة الذين يمتنعون عن العودة الى ارض الاباء ويرفضون افكار الصهيونية .

ومضى المتحدث يقول بحماس :

– علينا ان نشوه سمعة هؤلاء فى اعين المحيطين بهم من ابناء قومنا ومن غير ابناء قومنا ! علينا ان نخيرهم بين امرين : اما ان يتركوا اعشاشهم المألوفة وينتقلوا الى ارض الاجداد بغض النظر عن موقفهم المتشائم او حتى المعادى للحركة القومية ولافكار الصهيونية ، واما ان يذووا هناك فى اماكنهم وسط اعداء سافرين او محتملين ، ويبقوا فى حالة من العزلة المعنوية والمهانة ! . . ولكن اذا قلتم ان هؤلاء الناس لا يذوون هناك فى اماكنهم ، وانه ليس هناك ظل للعداء ، كما ان العزلة المعنوية والمهانة لا وجود لهما ، فاننى اقول لكم : علينا واياكم ان نوجد كل هذا ! . . .

ودون ادنى حرج اوصى العجوز باستخدام كل الوسائل لبلوغ هذه الاهداف ، بما فيها الوسائل الثقافية وصلات القرابة والعلاقات الدينية والابتزاز والاستفزاز .

– اننا ننطلق قبل كل شىء من مصالح الشعب اليهودى كشعب واحد لا يتجزأ ، ولا يمكننا ان نفرط فيها لصالح بعض المنشقين المعادين للحركة القومية . بالعكس ! علينا بكل الوسائل ان نجعل منهم ادوات طيعة لتنفيذ ارادة «الوكالة اليهودية» وبالتالى الافكار العظيمة للصهيونية .

وتناهت بعض عبارات مترددة :

– ولكن ذلك قد يثير الشقاق بين الاقليات اليهودية !

– وقد يعرضهم لمزيد من الاضطهاد من جانب الآخرين !

فمسح المندوب الامريكى بيده على شعره الاشيب الكثيف وابتسم بسرور وقال :

– وهل هذا سيئ ؟ كلما ازداد الماضى سوءا يصبح الحاضر احسن ! وهذه هى مهمتنا بالضبط . فلتصبح ظروف معيشة اخوتنا فى الشتات غير محتملة . وهذا بالضبط ما سيجعلهم يحولون انظارهم الى فلسطين .

ومن جديد صاح شتيرن :

– مضبوط ! اقترح ان يتعرض اليهود الذين يرفضون اقامة علاقة مع وكالتنا ويعارضون الهجرة الى ارض اسرائيل لاقسى انواع الاضطهاد الدينى وللمقاطعة المدنية الشاملة والمطاردة

القاسية ! . . بل وحتى للتصفية الجسدية ! – وتوقف قليلا وطاف على الحاضرين فى الغرفة الخانقة بنظرة قاسية ، ثم رفع صوته الى درجة الزعيق قائلا :

– فليكن هذا تحذيرا صارما لكل اليهود الحقراء المصابين بمرض الاندماج . .

وايده نوتسى يوناس :

– صحيح ! برافو يا شتيرن ! انهم على اى حال لم يعودوا يهودا بل من ملة اخرى ! لا يأتى منهم الا الضرر . . .

ومن زاوية الغرفة البعيدة جاء سؤال :

– الا يعتقد الرفيق شتيرن ان مثل هذه الاجراءات الصارمة قد تنفر منا المترددين ؟

وقال صوت شاب رنان مؤيدا :

– ان هذا التطرف عموما لا يعود فى رأيى بالفائدة الا على اعدائنا . . .

لم ترق هذه الملاحظات لشتيرن فهب واقفا وكانما صبوا عليه ماء يغلى . وراح يشيح بيديه وينثر رذاذ لعابه وهو ينهال بالسباب على اولئك الذين «يدعون الى الحذر لا لشىء الا خوفا على جلودهم» على حد تعبيره .

حاولوا تهدئته مؤكدين له انه ليست هناك خلافات جوهرية ، ولكن الجدال الناشب تحول الى سباب جماعى متبادل . ونهض الحاضرون من مقاعدهم وهم يشيحون بايديهم بعنف ويحاول كل منهم ان يطغى بصوته على الآخرين . وبدا وكأن عراكا وشيكا سينشب .

وضاعت هباء دعوات رئيس الجلسة بالالتزام بالنظام رغم منصبه الكبير الذى يشغله فى «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين». وكان شتيرن يندفع من ناحية الى اخرى وقد شوه الغضب سحنته، فيهدد البعض بقبضته ، وينعت البعض الآخر بارذل الشتائم . . .

راقب سيمون سلمونزون باضطراب هذه المعمعة وهو يحاول ان يضفى على وجهه تعبيرا بالازدراء واللامبالاة . وقرر ان يستغل الاضطراب الناشئ ليظهر للجميع ، وخاصة مبعوث واشنطن ، مدى

هيبته العظيمة . لقد كان يقيس تأثيره على المتجادلين المتعصبين ، ومن ضمنهم شتيرن ، بمعيار واحد يفهمه الجميع ، الا وهو تبعيتهم المالية لمكتب التصدير والاستيراد .

فنهض سلمونزون بحزم ، وشرع يده عاليا ، وظل على هذا الوضع عدة ثوان الا ان الضجة لم تهدأ . وذهل سلمونزون من هذا التجاهل له . فانزل يده ببطء وتردد ، وراح ينزع النظارة دونما حاجة ويضعها من جديد على انفه المشتعل بحمرة الغضب . وكان يود لو جلس ، ولكنه ادرك ان الحاضرين قد يرون فى ذلك هزيمة نهائية له . ولم يكن سيمون يريد ان يحدث ذلك ، ولذا فقد استمر واقفا فى انتظار السكون . وكان وجهه المتغطرس اشد بياضا من الورق .

راقب حاييم رب العمل وفهم حالته ، ولكنه اكتشف فجأة ان الوضع المزرى الذى وجد فيه نفسه سيمون سلمونزون رب نعمته ، لا يثير فيه عطفا عليه . احس حاييم بالشماتة ، ومضى هذا الاحساس يزداد ويتحول الى كراهية واضحة لكل ما يدور حوله .

وادرك نوتسى يوناس ايضا مدى حرج موقف سيمون ، فاصبح لا يألو جهدا لكى يثبت له ولاءه . وراح يتململ على الاريكة وهو لا يدرى ما العمل ، واخيرا قفز من مكانه ورفع الى اعلى قبضتيه المشدودتين بقوة وصاح بلوعة :

— صمتا ! اتسمعون ؟ صمتا والا اطلقت النار !

تلفت الواقفون بالقرب وتطلعوا الى نوتسى المتقد بحمرة الانفعال ، واستداروا عنه بلا اكتراث وواصلوا صخبهم .

وكاد حاييم ان يقفز فرحا . وقال فى نفسه : «ها هو قد اراد ان يتزلف فلم يفلح ! شرب المقلب ! هذه الجماعة لا يمكن تفريقها بالصياح . . . كلا . . ينبغى بالفعل اطلاق النار عليها ! . . انهم فى وقاحة افراد العصابات الفاشية الحقيقية !» .

وتصور حاييم ما الذى يمكن ان يحدث لو ان هؤلاء المتهورين استولوا بالفعل على السلطة . . . وتنهد بعمق ، وفتح زر ياقة قميصه المبللة بالعرق .

وعندما هدأت حدة المشاعر قليلا بدأ سيمون سلمونزون يتحدث بعد ان فقد الامل فى الانتباه العام والصمت التام ، ومضى يشرح وجهة نظره حول مبادئ ووسائل تنظيم الهجرة الشاملة لليهود .

وبعد ان اعرب عن اتفاقه مع المبعوث الامريكى ، واكد بصفة خاصة ان مقترحات شتيرن صحيحة للغاية وفى وقتها تماما ، عارض بشدة ان تشمل المطالبة بالهجرة الالزامية الى ارض الاجداد جميع اليهود بلا استثناء .

– لماذا يهاجر الى ارض اسرائيل شخص مثل مورجنتاو ؟ فمن ذا الذى لا يدرك انه وهو يشغل منصب وزير المالية فى حكومة روزفلت اكثر فائدة لنا من وجوده هنا مهما كانت صفته ؟ والبارون روتشيلد ؟ اليس من الواضح انه لو هاجر الى هنا لما كان فى وسعه ان يستخدم لصالح قضيتنا عشر ما يملكه من نفوذ ضخم وهو موجود هناك فى اوربا ؟

ظهر على وجه حاييم ظل ابتسامة ازدراء . فلم يساوره الشك بان سلمونزون ، وهو يحاول ان يثبت ضرورة اجراء بعض الاستثناءات من القاعدة العامة ويذكر على سبيل المثال اسماء مورجنتاو وروتشيلد ، انما يعنى فى المقام الاول والديه ، وخاصة خاله ، الذى لا يفكر ابدا فى الهجرة الى فلسطين كما قال نوتسى .

واستطرد سيمون قائلا :

– بل اقول لكم ما هو اكثر ! فمن بين رجال العلوم والفنون المعروفين فى العالم يوجد يهود يرفضون للاسف افكارنا واهدافنا القريبة المحددة . ولكن من الخطأ ان نحاول اقناعهم جميعا بالتخلى عن افكارهم وان نشتمهم ونبتزهم ونشوه سمعتهم ، وباختصار ان نضطرهم للهجرة الى هنا . بالذوق او بالعافية كما يقال . فعندما سئل عالم الفيزياء المشهور اينشتين مثلا عن السبب الذى جعله يهاجر من المانيا الفاشية الى الولايات المتحدة وليس الى فلسطين حيث كان سيصبح فى الغالب رئيس الدولة اليهودية التى ستتأسس قريبا ، فان هذا العالم لم يبد اسفه لهجرته الى الولايات المتحدة .. ليس هذا فحسب ، بل وسخر من فكرة اقامة الدولة اليهودية

وكذلك من افتراض ان يشغل فيها اعلى منصب . وانا اسألكم هل هناك فائدة من بذل الجهود لارشاد هذا اليهودى المرتد ؟ كلا ، والف كلا !

وقال سيمون مدعما وجهة نظره انه بالنسبة لاشخاص مثل اينشتين لا ينبغى لاعتبارات تكتيكية دفعهم الى القـــاء الاحاديث العامة لان الناس تسمع اراءهم . ان هذه الآراء ، ولتكن خاطئة بوضوح ، تبدو ذات ثقل وهيبة ، ولذلك فبوسعها ان تحول بسطاء الناس عن طريق الصواب . اما فيما يخص ثمار عمل عمالقة العلم هؤلاء ، فقد اكد سلمونزون بصفاقة انها سوف تسلم فى اللحظة المناسبة لرجال «الوكالة اليهودية» بواسطة اشخاص يعملون الى جانب اينشتين وامثاله ويؤمنون باهداف الصهيونية وتكتيكها .

واعلن سلمونزون بمهابة وتلذذ :

— سيقدمونها لنا جاهزة ، «على طبق» كما يقال ! وبدون اية نفقات !

ومضى سيمون سلمونزون يصور نفســـــه على انه وطنى نزيه بينما كان فى الواقع خلفا جديرا بخاله الذى كان يسعى دائما وفى كل الاحوال الى المنفعة الشخصية . وكذلك كان سلمونزون الآن متظاهرا اكثر منه مخلصا امام الرجل الجالس بجواره الاحمر الشعر الانيق وذى الاربعين عاما ، والقادم ايضا من الولايـــات المتحدة ، ولكنه توقف فى الطريق لفترة قصيرة فى المانيـــا . . وبالطبع كان سلمونزون يعلم ذلك هو وعدد محـــدود جدا من الاشخاص . . .

واستطرد سلمونزون قائلا :

— من المعروف ان اشخاصـــا مثل روتشيلد فى اوربـــا ومورجنتاو فى امريكا ليسوا افرادا ولا حتى عشرات ، بل هم فى العالم مئات والوف . وهم يملكون قسما كبيرا من احتياطى الذهب فى العالم وهم يملكون ايضا اضخم البنوك والمصـــانع والشركات التجارية وليس هذا بجديد ولا هو بسر . . . كما انه ليس جديدا او سرا ان الكثيرين منهم ، بسيطرتهم على حصة كبيرة من الاسهم، يعتبرون الملاك الحقيقيين للشركات المساهمة المسيطرة فى العالم،

سواء الشركات التجارية والصناعية ام شركات السكك الحديدية والملاحة والطيران والشركات الائتمانية وشركات التامين وغيرها ! ومن خلالهم ، وفقط من خلالهم نملك الامكانية الفعلية للتاثير من هنا بشكل حاسم على سياسة حكومات البلدان المختلفة ، ولتوجيهها الوجهة التى نريدها ، وتشكيل الراى العام العالمى لصالحنا . . . ولهذا فعندما نتحدث مستقبلا عن الهجرة ينبغى ان ندرك ان هذه المسالة ليست بتلك البساطة التى قد تبدو لنا للوهلة الاولى . . .

وقطع سيمون كلامه بحدة ، وجلس ، وشرع على الفور فى كتابة شىء ما فى النوتة الموضوعة امامه ، وكانما يظهر عدم اكتراثه باولئك الذين اضطروه منذ قليل الى الوقوف انتظارا لفرصة الكلام .

ومن جديد نهض الضيف الامريكى الاشيب الشعر الذى توطعت كلمته فى البداية بملاحظات من الصالة ثم بمدير وصاحب مكتب التصدير والاستيراد سيمون سلمونزون الذى اقتحم الحديث دون لباقة ليقدم توضيحاته .

— انا لا اعتزم الدخول فى جدال مع المتحدث السابق — قال المبحوث الامريكى بهدوء وهو يومئ برأسه بسخرية ناحية سلمونزون — ساقول فقط انه ليس هناك داع لاقتحام باب مفتوح فمن الواضح كالشمس للجميع ومنذ زمن بعيد ان امثال روتشيلد وتبليتس ومورجنتاو وغيرهم ليسوا مطلوبين هنا . ليس لديهم هنا ما يفعلونه . ان هؤلاء الاشخاص هم ابناء جديرون بشعب الله المختار ، واذا كانوا باعمالهم واجسادهم يعيشون فى الشتات ، فان قلوبهم وخواطرهم ملك خالص لصهيون !

وترددت فى القاعة اصوات استحسان .

واستطرد المبعوث الاشيب الشعر :

— ولكن الحديث الآن لا يدور عنهم . . ان ما يقلقنا هو تلك الفئة الكثيرة العدد التى تعيش فى الشتات ولا تنتمى الى امثال روتشيلد واينشتين . . هؤلاء اليهود ، اذا جاز ان نسميهم كذلك، الذين يتبرأون من اصلهم ولا يؤمنون بتفوق امتهم على الشعوب

الاخرى التى تعيش فى العالم ، يديرون لنا ظهورهم ويرفضون الهجرة الى ارض الميعاد . هؤلاء هم الذين سنتحدث عنهم ! وهؤلاء الاشخاص بالذات هم الذين يشكلون الجماهير الاساسية المدعوة لاستيطان وتعمير ارض الاجداد ، ثم توسيع حدودها وحمايتها من الاعداء . . . ولهذا فنحن مطالبون بالبحث عن الطرق الكفيلة بوضع كل فرد من ابناء قومنا تحت سيطرتنا المستمرة وتأثيرنا ، سواء اراد هو ذلك ام لم يرد ! . . صحيح ان جزءا منهم لا بد ان يستثنى . انهم اولئك الذين اضلتهم اوهام الشيوعية فلوثوا بذلك نقاء العقيدة اليهودية وفقدوا تماما انتماءهم الى شعب الله المختار . ومهما كان الواقع مؤلما فعلينا ان نعترف بان هذه القرحة النازفة فى جسد شعبنا الصحيح ترجع فى بدايتها الى رجل تربطه بنا قرابة الدم ، وان كان عموما سليل عائلة ليست يهودية بحتة . . . اننى اقصد ماركس . . .

ترددت الهمسات من جديد وبدا كأن صرصارا طن فى الصالة . وصمت المتحدث فلفت صمته الانتباه وساد السكون على الفور .

فمضى العجوز يقول :

– اما المصيبة الاخرى التى لا تقل ضخامة فهى ان افكاره قد انبتت براعم فى الدنيا كلها ، وقبل كل شىء فى أبلد ضخم لا نهاية لاراضيه تقريبا ، الا وهو روسيا ! . . ان مكافحة هذا الداء امر عسير للغاية ولكنه ضرورى للغاية . ويبدو انه سيتوجب علينا فى اقرب وقت ان نعود الى هذه المسألة بصفة خاصة لتحديد مدى هذا العائق الذى يعترض طريقنا . . .

احس حاييم ان قلبه يدق بسرعة . وتذكر سنوات المدرسة ، وصديقه الوفى ايليا توموف ، وقبو الشرطة الذى القوا به ، اى حاييم ، فيه لتوزيعه المنشورات . ما ابعد ذلك الزمن رغم انه لم يمر عليه سوى ثلاث سنوات فقط ! هناك فى عالم الناس البسطاء كان كل شىء واضحا : من هو الصديق ، ومن العدو . فماذا الآن ؟ مع من انت يا حاييم فولديتير ؟ والى اين القى بك مصيرك ؟ الا ترى حقا انك لست بانسان بالنسبة لهؤلاء السادة المنعمين الذين يملكون الملايين بل بهيمة للعمل ؟ فلماذا تقف هنا ، وتصغى

لهذه الخطب الكاذبة ؟ تسمع سلمونزون وهذا المعتوه شتيرن . ما الذى يربطك بهما ؟ وطاف حاييم بنظره على الصالة فى دهشة : ولا وجه واحد يعرفه . انه غريب بين قطيع الذئاب هذا .

قرب منتصف الليل ، عندما انتهت الخطب الرسميـــة غادر القاعة سلمونزون وشتيرن والرجل الطويل الاحمر الشعر ذو الحلة الرمادية الفاتحة البالغة الاناقة . واختفى ايضا نوتسى .

كان الجو خانقا بصورة لا تطاق . ونهض حاييم وبحث بعينيه عن نوتسى يوناس فوقع بصره لاارادیا على صـــورة كبيـــرة لجابوتينسكى معلقة على الحائط ، كان حاييم يوليها ظهره طوال المساء . وتحتها ايضا ، مثلما تحت صـــورة هرتزل على الحائط المقابل ، مد شعار ابيض طويل بنجمتين زرقاوين ساطعتين فى طرفيه وخط عليه بحبر اسود ثقيل :

«شعب واحد ، امة واحدة ، دولة واحدة : اسرائيل !»

كانت تلك هى العبارة التى الحت على حاييم طوال النهار . وفجأة تذكر حاييم بتداع غير ملموس اين سمعها اول مرة . كان ذلك فى كونستانسا ، فى يوم رحيله الى فلسطين . فقد ذهب الى السينما مع المتطوعين الآخرين . وعرضت عليهم هنـــاك جريدة سينمائية ظهر فيها ميدان ضخم يغص برجال «الاس . اس .» ، ووقف ادولف هتلر امام الميكروفون على المنصة المزينة بالاعلام ذات الصليب المعقوف . وراح جمع رجال «الاس . اس .» يهتف : «آين فولك ، آين رايخ ، آين فوهرر – دويتشلاند !» * .

١٠

عندما خرج حاييم الى الشارع كانت الساعة جاوزت منتصف الليل .

وفجأة ناداه من الظلام نوتسى يوناس :

حاييم ! الى اين ؟ لا تذهب ، أتسمع ؟

---

* «شعب واحد ، دولة واحدة ، زعيم واحد ــ المانيا !» (بالالمانية) .

ورأى حاييم غير بعيد عن يوناس ، بجوار السور ، دافيد كنوخ وسائق سلمونزون . وفكر حاييم : «حسنا ، ترى لماذا يتسكع السائق هنا ؟ لقد حل السبت منذ المساء . . . هنـــاك شيء ما يدبر» .

وقال نوتسى بلهجة آمرة وهو يمضى مع كنوخ فى المقدمة :

— اتبعنا ! لا تتخلف يا حاييم !

ولم يعد السائق معهما .

ومضى حاييم باذعان اثر نوتسى وكنوخ عبر حارات مظلمة وازقة ملتوية مجهولة . وحاول ان يرتب خليط الافكار والمشاعر المزعجة التى جاشت بها نفسه فى هذا المساء . فكل ما سمعه ورآه فى الاجتماع السرى الذى عقد بمناسبة وصول مندوب «الوكالـــة اليهودية من اجل فلسطين» وضيف آخر من امريكا ايضا ، اخرجه بشدة من حالة الاتزان الروحى النسبى التى كان فيها فى الفترة الاخيرة . كان حاييم قبلا ، اثناء تأدية «الاكشارا» ينظر بشك الى ادعاءات الدعاة الصهاينة بان اليهود المتناثرين فى العالم موحدون وتجمعهم اخوة الدم بغض النظر عن المستوى المادى والثقافى لكل منهم ومكانته فى المجتمع . ولم يكن يمنى النفس من قبل ابـدا بوعود جامعى الانصار الصهاينة بالحصول على حياة النعيم فى «ارض الميعاد» . ولم تلهمه من قبل دعواتهم الى الكفاح من اجل اعادة تأسيس «الدولة اليهودية الكبرى» . ولكن ، اذا كان قبلا يصغى الى ذلك كله بعدم اكتراث ودون انفعال داخلى ولا يفكر الا فى ان هجرته الى ديار الغربة التى تصورها بلابل الصهيونية على انهـــا جنة الله فى ارضه ، ستجنبه خطر معسكر الاعتقال الفاشى الذى كان يتهدده ، فانه الآن بدا وكأن شيئا ما تبدل فيه . لقد احس باقوى من ذى قبل بانه لم ولا ولن تربطه صلة اخوة بسلمونزون وشتيرن وامثالهما . وبات اوضح له وهم الامل الكاذب بالحصول لا على حياة «النعيم» هنا فى فلسطين بل على مجرد حياة كد هادئة . وادرك اخيرا ، انه كعشرات الآلاف من اليهود الفقـــراء ، اصبح ضحية لخداع حقير ، وان الخداع والاستفزاز ، وباختصـــار كل الوسائل والاساليب المقززة ، بما فى ذلك الاغتيال غدرا ، والتى

رفعها الايديولوجيون الفاشيون الى مصاف امجاد وفضائل الآريين الانقياء ، هى ايضا مميزة لزعماء الصهيونية الذين يبررونهـــا ويروجون لها باجتهاد عظيم .

لم يلاحظ حاييم انهم انعطفوا الى الشارع الذى تضم احدى فيلاته مكتب التصدير والاستيراد . كانت جميع نوافذ الفيلا مغلقة باحكام ومسدلة الستائر بحيث لم يتسرب شعاع ضوء واحد الى الشارع .

وعندما دخلوا البيت همس يوناس بشىء ما لكنوخ ثم اقترح على حاييم ان يبقى فى ردهة الطابق الاول والا يغادر مكانه .

ونصح يوناس حاييم هامسا فى عجلة وهو يمضى على اطراف اصابعه اثر كنوخ فى طرقة ضيقة :

– اياك ان تفتح نافذة او ترفع شيش الشباك . . . وعموما لا تلمس شيئا هنا .

وظل حاييم واقفا بعض الوقت فى وسط الردهة المضاءة بنور خافت وهو يتلفت حواليه . ولم يتناه الى هنا اى صوت من الشارع او من الطابق العلوى . فتسلل الى قلبه خوف غير مفهوم ، وعذبه احساس بقرب وقوع احداث شريرة سيكون شريكا فيها رغما عن مشيئته وضد ارادته . وكان مستعدا للتخلى عن العمل فى مكتب التصدير والاستيراد والتنازل عن جميع الامتيازات التى حصل عليها مقابل ان يتخلص من الاحساس المتصاعد بالخوف الذى هرب من رومانيا بسببه .

وانتفض حاييم عندما وجد نفسه يفكر فى ذلك . وتراءى له انه ليس وحده فى هذه الردهة الواسعة الخاوية ، وان هناك مـــن يراقبه . وعلى الفور اضفى على وجهه تعبير الهدوء التام . ووضع يديه فى جيبيه ومضى يسير ببطء فى الردهة حتى وصل الى كنبة طويلة ضيقة من خشب فاتح اللون مطعمة على ايدى صناع مهرة . وتوقف هنا متظاهرا بانه يتفحص باهتمام هذه التحفة الفنية ، وتلفت حوله . . لم يكن هناك احد غيره فى الردهة .

لم يتمكن حاييم من الجلوس والاستراحة ، فقد ظهر يوناس

فى باب الطرقة المفتوح . ودعا حاييم اليه وهو يضع سبابته على فمه محذرا ، واشار اليه بيده ان يتبعه .

وعبرا الطرقة على اطراف اصابعهما وهما يخطوان بحـــذر وصعدا الى الطابق الثانى على سلم حلزونى حاد ، وبعد ان مـرا بباب واسع فى جدار زجاجى مخشن دخلا غرفة مستطيلة هى غرفة الاستقبال .

وضع نوتسى اصبعه على شفته من جديد وجلس على كرسى بجوار الباب المفضى الى مكتب سلمونزون ، واشار برأسه لحاييم الى كرسى اخر على الجانب المقابل . وكان مسموعا هنا بوضوح الصوت النشيط المألوف قادما من وراء الباب . وعرف حاييم على الفور صاحب الصوت . كان هو مندوب «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» الاشيب .

وتناهى بوضوح وكان المتحدث كان على مقربة :

— انتم الصهاينة تعتبرون ان الشعب اليهودى شعب اللـه المختار . ونحن الاشتراكيين القوميين ، نؤكد ان الشعب الالمانى وحده هو الاكمل بين جميع الشعوب الاخرى التى تعيش على الكرة الارضية .

وحملق حاييم بذعر ، وكأن احدا ايقظه من نومه بركلة . ومط عنقه وحبس انفاسه وهو لا يصدق اذنيه . . .

— انتم الصهاينة تتحدثون عن تفوق شعبكم على جميع الشعوب الاخرى . ونحن الاشتراكيين القوميين نؤكد نفس الشيء بالنسبة للالمان . وانتم الصهاينة تعتمدون فى كل افكاركم واعمالكم على مفهوم تفوق شعبكم . ونحن الاشتراكيين القوميين نعتمـــد على مفهوم مشابه حول تفوق الشعب الالمانى باعتباره منتميـــا الى اسمى الاجناس . . .

— وانطلاقا من هذا كله تؤكدون ، انتم الصهاينة ، ان ما يحل لليهود ازاء الشعوب والامم الاخرى حرام على هذه الشعوب والامم ازاء اليهود . ونحن الاشتراكيين القوميين انطلاقا من مواقـــع مماثلة نؤكد ايضا ان ما هو مسموح به للالمان تجاه جميـــع الشعوب الاخرى ، غير مسموح به لهذه الشعوب تجاه الالمان .

وعلى هذا فانتم الصهاينة تعتبرون ان الشعوب الاخرى اقل كمالا ، ونحن الاشتراكيين القوميين نؤكد نفس الشىء ، ولكننا نعتبر العرق النوردى كله من العروق الكاملة والشعب الالمانى اكملها ! اما بخصوص اليهود ، فهم كما اثبت العلم ، يحتلون المركز الثالث فى ذيل القائمة ضمن الشعوب الاخرى غير الكاملة .

مسح حاييم بشدة جبينه المتغضن وارهف السمع . وخيل اليه انه جن او انه يرى حلما غير معقول . ومضى الصوت الرخيم يقول بتلذذ وكأن صاحبه يقرأ من ورقة :

– وانتم الصهاينة ، مثلنا نحن الاشتراكيين القوميين ، تعارضون اندماج شعبكم فى الشعوب الاخرى .

– انتم الصهاينة تدافعون عن نقاء دماء شعبكم ، ولا تعتبرون من اليهود اولئك الذين يولدون من زيجات مختلطة . اما نحن الاشتراكيين القوميين فقد سرنا ابعد من ذلك فى هذا الاتجاه فشرعنا قانونا باعتبار زواج الالمانى او الالمانية بيهودية او يهودى خيانة وطنية ، علاوة على ان هذا القانون يسرى ايضا على ذريتهم كلها .

– وانتم الصهاينة تضعون فكرة الشعب اليهودى الواحد المؤلف من اخوة فى الدم ، فى مواجهة تعاليم الشيوعيين الانحلالية عن الطبقات المتعادية ، ونحن الاشتراكيين القوميين نضع الفكرة السامية بوحدة الامة الالمانية المؤلفة من ابناء اسمى جنس فى وجه تلك النظرية المفرقة والمفسدة للشعب .

– وانتم الصهاينة تريدون انشاء دولتكم الخاصة بشعبكم وحده . اما نحن الاشتراكيين القوميين فقد انشأنا هذه الدولة التى يعتبر فيها الالمان وحدهم رعايا كاملى الحقوق ، ولهم وحدهم الحق فى العمل فى اجهزة الدولة .

– وانتم الصهاينة تعتبرون انه بالاستيلاء على القدس عام سبعين حلت نهاية الدولة اليهودية ، ومنذ ذلك الحين تمتد مرحلة «دولتكم الثانية» ، دولة الشعب اليهودى الذى فقد استقلاله وتشتت فى العالم كله . وتعتبرون انه بعودته الى فلسطين ستنشأ «الدولة اليهودية الثالثة» ، الدولة التى سيعود اليها شعبها ...

ونحن الاشتراكيين القوميين ، كما هو معروف ، قد انشأنا «دولتنا الثالثة» التى بدأ يعود اليها الالمان المشتتون فى العالم كله . . .

— وانتم الصهاينة تعتبرون ان اليهودى وحده هو الذى يستطيع ان يكون مواطنا فى دولتكم القادمة ، وتفضلون من بين جميع اليهود من هم من سلالة كوهين وليفيت ، باعتبارهم انقى ابناء شعبكم دما واكثرهم كمالا من الناحية البيولوجية . ونحن الاشتراكيين القوميين نؤكد ان الذى يحق له ان يكون مواطنا فى الدولة الالمانية هو فقط من ينتمى الى الشعب الالمانى ، وتجرى فى عروقه الدماء الالمانية ، وفى المقام الاول نفضل الآريين من بينهم فهم ممثلو الشعب الالمانى الانقى دما والاكثر كمالا من الناحية البيولوجية .

— وانتم الصهاينة تعتبرون انه لا ينبغى ان يعيش على اراضى دولتكم القادمة اشخاص من اصل غير يهودى ، وتعتبرون اقرب هدف لكم هو التخلص من العرب . ونحن الاشتراكيين القوميين نعارض كذلك فى هجرة الاشخاص ذوى الاصل غير الالمانى الى المانيا ونطالب مثل هؤلاء الاشخاص الذين استوطنوها بعد الثانى من اغسطس عام الف وتسعمائة واربعة عشر ان يغادروا اراضيها .

— وانتم الصهاينة تحلمون باقامة دولة يهودية كبرى عن طريق اغتصاب اراضى الشعوب الاخرى ، ونحن الاشتراكيين القوميين نسعى كذلك الى اقامة الرايخ الالمانى الكبير ولا نخفى نوايانا بتوسيع المجال الحيوى امام السكان الالمان الزائدين وذلك على حساب اراضى الشعوب غير الكاملة .

— وانتم الصهاينة تعملون على تهجير جميع اليهود القاطنين الآن فى العالم كله الى فلسطين ، ونحن الاشتراكيين القوميين نتبع سياسة مماثلة لتوحيد جميع الالمان والمهاجرين الالمان فى ارض الاجداد ، ونخصص لهؤلاء العائدين دورا ثانويا مثلكم ايضا ايها الصهاينة عندما لا تساوون بين اليهود الاشكنازى والسفارديم .

— وانتم الصهاينة تربون متطوعيكم والصابرا على اساس ان يصبحوا «سوبرمان» ، ونحن الاشتراكيين القوميين نربى «هتلر يوجند» (شبيبة هتلر) والاس . اس . لكى يصبحوا كذلك «سوبرمان» .

١٤*

— ان كل ما سبق ذكره يعطينا الاساس للقول بانكم ، انتم الصهاينة ، ونحن الاشتراكيين القوميين ، نتمسك فى جوهر الامر بنفس المبادىء وننطلق من مواقع قومية وسياسية متشابهة ، ونعتمد على مفاهيم متقاربة ، الا اننا نقف على طرفى نقيض ،كقطبين متضادين ، ويرى كل منا فى الآخر اخطر منافس له ، ولذلك يعادى بعضنا البعض . ولكن فى الواقع فاننا واياكم نعتبر «سدا» يقاوم ضغط شعوب الامم الاخرى . . . وهكذا فان مصالحنا متفقة بهذا المفهوم العام وفى المرحلة الحالية . . .

اصغى حاييم بانتباه وتوتر وهو لا يستطيع ابدا ان يفهم ما الذى يجرى وراء الباب . من هو فى آخر الامر هذا الخطيب الاشيب : أهو مبعوث «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» ام عميل للنازيين ؟ وهل المجتمعون هناك فى غرفة المكتب يهود ام خونة ؟ الا يكون الفاشست قد تستروا بلافتة «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» ؟

وعاد حاييم يتذكر من جديد «ترانس اطلانطيك» والانفجار ومصرع مئات الاشخاص . وتذكر قبرص ، والحاخام التقى بن صهيون هاجرا بمسدسه الاتوماتيكى تحت ذيل معطفه . ولم يستطع حاييم ان يركز افكاره ويتوصل الى استنتاج محدد . كانت كل عبارة تتناهى من خلف الباب تستحوذ على انتباهه كله وتولد فى الوقت نفسه افكارا وظنونا مشوشة متلاحقة ، كل واحدة افظع من الاخرى . ووراء الباب مضى الصوت المألوف يقول بتؤدة وايحاء :

— وبعد ان استمعت الى الدكتور جوبلز اكدت له ان كل ما قاله سانقله الى «مركزنا» . وبدورى اثرت امامه باسم «المركز» ثلاث مسائل جئت الى برلين من اجل حلها .

وكاد حاييم ان يصرخ من شدة الدهشة : «جوبلز ؟ ! هذا اذن من وضع الفاشية والصهيونية على قدم المساواة ! هذا هو اذن من كان مندوب «المركز» المحترم يتحدث معه !» .

واستطرد مبعوث «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» يقول :

— كانت المسألة الاولى تمس امكانية توسيع علاقاتنا المتبادلة مع برلين . وفهمت من الرد ان قادة الاشتراكيين القوميين

عازمون على اقامة اتصالات بنا وان توسيعها مرتبط بمدى اسراعنا بالقيام بالاعمال المناهضة للانجليز والتى وعدنا بها .

وتناهى صوت حاد عرف فيه حاييم على الفور صوت شتيرن :

– كان ينبغى ان تقول للدكتور جوبلز اننا قد الغينا كل ارتباطاتنا السابقة مع الانجليز منـــذ أن وضعوا القيـــود على الهجرة الى فلسطين ! ونحن مستعدون للسير مع الاشتراكييـــن القوميين ، ولكن عليهم ان يقولوا كلمتهم ! . .

– لقد تحدثت عن ذلك كله يا رفيق شتيرن ، كما تحدثت عن مخططاتنا لطرد الانجليز من الشرق الاوسط ولكنهم فى برلين ينتظرون اجراءات فعالة . . .

فصاح شتيرن :

– اذن فليعطونا السلاح !

– هذا ما تطرقت اليه فى المسألة الثانية . كنت مهتمـــا بمعرفة مدى امكانية الاسراع بارسال الاسلحة التى وعدوا بهـــا والتى استولت عليها القوات المسلحة الالمانية فى البلدان التـــى اصبحت الآن فى دائرة النفوذ الالمانى . وقد رد الدكتور جوبلـــز على ذلك بان مسألة توريد الاسلحة تلقى تأييدا من الدوائـــــر القيادية للاشتراكيين القوميين وانه حسب المعلومات التى لديـه قد ارسلت منذ عدة ايام سفينة تحت علم اوسترالى تحمل كمية كبيرة من الاسلحة والذخائر .

وعند سماع هذه الكلمات نظر نوتسى يوناس الى حاييـــم وابتسم بفخر ، اما حاييم فقد ادرك لاول مرة بصورة كاملة انـه بعمله فى الميناء ومشاركته فى تفريغ سفينة ارسلها الى هنـــا زعماء الفاشية الالمانية قد اصبح ضالعا مع سيمـون سلمونزون ومندوبى «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» المتآمرين مع النازيين ومع شتيرن المستعد لارتكاب اى عمل فظيع . . .

ومضى المبعوث يقول :

– اما السؤال الثالث الذى طرحته على جوبلز فكان بخصوص هجرة رجالنا من المانيا والبلدان الخاضعة لها . وكان علىّ ، كما لعلكم تخمنون ، ان استوضح الامكانيات العمليـــة لارسال هؤلاء

الناس الى شواطئ فلسطين . وقد اخبرنى الدكتور جوبلز بالنسبة لهذه المسألة ان امكانية نقل اليهود بسفن المانية هى للاسف امكانية محدودة جدا بسبب العمليات الحربية ، الا ان الارسال سيجرى فى اطار الاتفاقية الثنائية التى تم التوصل اليها .

وفى اليوم التالى التقيت بايخمان ، رئيس القسم اليهودى فى الجستابو . وخلافا من الدكتور جوبلز ، الرجل الواسع الاطلاع والمهذب ، قال لى هذا الغر ان اعداد الاشخاص للهجرة ينبغى ان يقوم به «مكتب فلسطين» فى برلين ، وانه هو ايخمان شخصيا ليس لديه وقت لتصنيف المهاجرين ، وان ذلك من اختصاص رجالنا المعتمدين فى المراكز . . . والادهى من ذلك ان ايخمان هذا اعلن ان شحن السفن بالمهاجرين سوف يتم من الآن فصاعدا حسب القوائم الاسرية . . . وقد عارضت ذلك بشدة واستندت الى الحديث الذى دار بالامس مع الدكتور جوبلز ، والى الاتفاقية المعقودة سابقا بشأن اولوية تهجير الشباب الذين ادوا التدريب العملى من المانيا ، وكذلك الاشخاص القادرين بمجرد وصولهم الى فلسطين على الانخراط فى الكفاح المسلح ضد الانجليز ! ولزم ايخمان الصمت ، وكدت اميل الى الاعتقاد بانه سيتوصل الى الاستنتاجات المناسبة مما قلته له وذكرته ، الا انه اثناء الحديث التالى سألنى فجأة بحدة : «ومن الذى سيتولى امر شيوخكم اذا هاجر الشباب كله ؟ ام انكم تريدون ان نطعمهم نحن الالمان بالملعقة ونعنى بهم ونهدهدهم ؟ ليس لدينا وقت لذلك ، اننا نحارب !» . فقاطعته وافهمته ان الشيوخ هم تلك الغصون التى ينبغى ان تترك مكانها للنبت الجديد . . . وعلاوة على ذلك فقد قلت له بصورة قاطعة للغاية انه «بالثقل» الذى شحن به السفن السابقة فلن نحقق النتيجة المرجوة لألمانيا . ولن يشتعل الشرق الاوسط بالنار تحت اقدام الانجليز كما يريد فوهرركم ! فامتقع ايخمان وأخذ يبرر موقفه مدعيا ان مندوبنا فى «المكتب» كان مهتما شخصيا بارسال بعض الاشخاص المتقدمى السن من اقربائه وبعض كبار الاغنياء المرتبط معهم بالتزامات معينة . كان ايخمان يلمح الى اشياء غير شريفة . . . وانا لا اميل الى تصديق هذه الخرافات .

الاحتمال الاقرب هو ان ايخمان نفسه يود ان يتخلص بسرعة من كبار السن . . . على اى حال ، فلدينا الآن اتفاق محدد وهو هجرة الشباب فقط وكذلك اولئك الذين نضعهم فى قائمة خاصة . والا فسوف نعيد السفن من حيث جاءت . . .

باعد يوناس بين يديه وكأنما يسلم بضرورة القاء المسنين الى التهلكة ، اما حاييم فقد فكر وقلبه يخفق فى الآلام التى سيتعرض لها والده الذى ينتظر عبثا الالتحاق بابنه . . .

ومضى الضيف من واشنطن يقول :

– لقد اكد لى ايخمان ان سفينة المانية كبيرة قد نقلت منذ وقت قريب الى كورفو مجموعة كبيرة من المهاجرين الذين سيستقلون هناك سفينة اخرى تحمل علما محايدا . وخلال الشهر القادم ستقوم سفينتان أخريان بنفس الطريقة بنقل المتطوعين وعدد قليل من الاشخاص المسجلين فى القائمة الخاصة .

وتناهى صوت سيمون سلمونزون قائلا :

– ايخمان شخصية صغيرة . وفوق ذلك فهو ينتمى الى «الاس . اس .» ولا يستطيع حل مسائل ذات ابعاد اكبر . والا لكان قد فعل الكثير . . . انه فى قبضتنا تماما ! الا يجب علينا ان نقيم صلة بشخصية اكبر فى الرايخ الثالث ؟

فسارع شتيرن الى تبنى الفكرة :

– لو شئتم الصراحة فمنذ وقت طويل تراودنى فكرة ارسال شخص الى المانيا يستطيع ان يقيم اتصالا بشخصية اكبر ، ربما مع هتلر نفسه ! عندئذ سنتوصل الى نتائج ايجابية محققة !

وتناهى صوت شخص ما يتحدث بلكنة اجنبية واضحة ذكرت حاييم بالانجليزى الذى حقق معه ومع أويا فى قسم الشرطة :

– اشك بأن يتمكن احد ما فى هذا الوقت العصيب من السفر من هنا الى المانيا . هذا امر بالغ التعقيد .

فاجابه شيترن متحديا :

– لا تخوفنا ، هذا الامر ، كما تقول ، بالغ التعقيد بالنسبة لك ، اما بالنسبة لنا فسهل جدا . سارسل الشخص الى ليبيا ، ولدى هناك اشخاص يمكنهم ان يتوصلوا الى القائد العام للجيش

الايطالى . . . فسال بدهشة نفس الصوت ، والذى كان فيما يبدو صوت الامريكى ذى الحلة الرمادية الفاتحة :

– الى الماريشال بالبو نفسه ؟

فاجاب شتيرن بنبرة لا مبالاة متصنعة :

– نعم ، هو نفسه . اما هو فبوسعه ان يوصل رجلى الى برلين سليما ! ولن يوصله بأى طريقة كانت بل باقصر الطرق ! يمكنكم الا تشكوا فى ذلك . . .

– ربما ، ولكنى لا انصح بذلك . ليس هذا وقتا مناسبا .

فتناهى صوت شتيرن يقول بدهشة وسخرية :

– ماذا تقول ؟! يا سلام !

فاجاب الامريكى بكبرياء : – كما تشاء . ان الوضع الآن لا يتجه لصالحنا الى درجة تفرض علينا الحذر فى تعاملنا مع النازيين ، وبالطبع لا ينبغى ابدا ان نسير على سياسة تأزيم العلاقات مع الانجليز ، بل وربما مع العرب ايضا .

فصرخ شتيرن وكأنما لدغ :

– ماذا ؟ ماذا ؟! هل نحنى رؤوسنا للانجليز ونستسلم للعرب ؟! هذا ما لم نسمع به !

فسأل بتحفظ مندوب «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» الأشيب الذى كانت دهشته فيما يبدو لا تقل عن دهشة شتيرن لنصيحة زميله :

– ولكن لماذا تعتقد ذلك يا مايكل ؟ بودنا ان نعرف . . .

فتحدث مايكل عن الوضع غير الملائم الذى نشأ نتيجة للعمليات الهجومية الاخيرة التى قامت بها القوات الالمانية فى فرنسا .

فقاطعه شتيرن من جديد بصفاقة :

– وهل هذا سيئ ؟ يبدو انه ينبغى ان يكون المرء احمق تماما لكى لا يدرك انه اذا ساءت احوال فرنسا فان احوال انجلترا تصبح اسوأ . واذا تردى وضع انجلترا تماما سهل علينا ان نزيل القيود المفروضة على الهجرة ، وتلك هى مهمتنا الرئيسية !

فقال مايكل معارضا :

— ولكنك تنسى انه اذا بدأ الحلفاء الانجليز والفرنسيون فى تلقى الهزائم فان الايطاليين هنـــا ، فى الشرق الاوسط ، سيتحركون فورا ! وانت تعلم فى الغالب ان هتلر قد اقترح اكثر من مرة ارسال لواء او لوائين «لمساعدة» الايطاليين بمجرد ان يبدأوا الهجوم ! . . وموسولينى يرفض بالطبع هذه الخدمـــة ، فهو يدرك جيدا انه ما ان يسمح للالمان بأن يضعوا قدما واحدة فى هذه المنطقة ، حتى يضعوا هم انفسهم القدم الاخرى . . . بيد انه ينبغى ان نضع فى حسابنا ان هتلر لم يتخل عن فكرته . . . واعتقد انه لا حاجة الى ايضاح معنى وجود القوات الالمانية بالقرب من فلسطين . اما بخصوص الاسلحة التى يبعث بها الالمان لكم فينبغى بالطبع تسلمها وتخزينها .

فصاح شتيرن :

— لكى يصادرها الانجليز عاجلا ام آجلا ؟ هذا ما تريده ؟

— ليس امامى الا ان اهز كتفى ، او ارد عليكم بكلماتكم نفسها : ينبغى على المرء ان يكون احمق تماما لكى يفكر بهــذه الصورة من عدم الجدية ، ويخزن الاسلحة بهذا الشكل السيئ . . .

— قال مايكل بهدوء — ابحثوا عن وسيلـــة تخزين اكثر أمانا ! فسيكون السلاح مطلوبا . ان الوضع الناشئ فى فرنسا يجعلنا نفكر فى اشياء كثيرة . . .

فصرخ شتيرن :

— وما دخل فرنسا ؟ اننا لا نتلقى الرجال والاسلحة منها بل من عدوها ! . . مع من ينبغى ان نكون ؟

فقال مايكل موافقا :

— هذا صحيح . ان مربى المواشى الجيد يعلف حيواناته المعدة للذبح بسخاء . . .

فانفجر شتيرن :

— اذن فنحن حيوانات ؟

فاجاب مايكل بتحفظ :

— هذا لا شك فيه من وجهة نظر حكام المانيا . ففى اول فرصة مناسبة سيرسلون بنا بكل سرور الى المذبح . . .

فصرخ شتيرن بهستيرية :

– كذاب ! يمكنك ان تروى هذه الخرافات كما تشاء فى امريكا ! لقد سمعت هنا حوالى ساعة تأكيدات الدكتور جوبلز ، فماذا بك ؟ هل تتظاهر بالصمم ؟

فقاطعه مايكل :

– كل هذه التأكيدات خداع !

فصرخ شتيرن وقد فقد اعصابه :

– والمدافع الرشاشة ؟ والبنادق ؟ والمسدسات ؟ والالغام والطلقات والمتفجرات ؟ ما هذا ؟ اهو ايضا خداع ؟ وماذا عن ارسال سفينة بعد سفينة تحمل المتطوعين الى كورفو ؟ ألم يصل الكثيرون من الموجودين هنا بفضل المانيا ؟!

فقال مايكل وقد رفع صوته قليلا :

– من الافضل ان تنظر ما الذى يحدث لاخوتنا واخواتنا فى بولندا بفضل المانيا !

فقاطعه شتيرن :

– وما الذى يحدث فى بولندا ؟ ماذا هناك ؟!

– تراق دماء رجالنا . . . لقد وضع السكان اليهود كلهم ، بغض النظر عن الجنس والسن واللقب والوضع الاجتماعى فى الجيتو !

– وماذا يعنى «الجيتو» ؟

– كيف «ماذا يعنى الجيتو» ؟ هنـــاك معلومات بأن هتلر يزمع حل «المشكلة اليهودية» بقسوة متناهية . واذا كان حتى الآن لا يقوم على تنفيذ ذلك فانما فقط لانه يخشى رد فعل الولايات المتحدة غير الملائم له !

فسأل المندوب الاشيب القادم من واشنطن بشك :

– أتظن ذلك ؟

– لست وحدى الذى اعتقد ذلك ، بل اشخاص اكثر معرفة بالامور منى ومنكم . . . ولهذا ينوى رئيسنـــا اثارة قضيـــة قبول نصف مليون او مليون مهاجر يهودى . . .

فسأل الاشيب بحذر :

– وقد ذهبت انت الى المانيا لهذا الغرض بصفتك مساعدا للرئيس لشئون اغاثة ضحايا النازية ؟ هل فهمتك بشكل صحيح يا مايكل ؟

– مضبوط .

فصاح المبعوث بحسرة :

– هذا ما كنت اظنه . الرئيس يريد ان يكسب رصيدا سياسيا اضافيا . انه يتحرق الى الحصول على اصوات يهودنا فى الانتخابات وما الى ذلك . . . مفهوم !

فرد مايكل بحماسة : – قبل كل شيء نحن نرغب فى انقاذ الناس ! أمن الأفضل فى اعتقادكم ان نعرض للخطر مليونا من الابرياء من ان ننقلهم الى امريكا ؟

فصرخ شتيرن :

– نعم ! افضل ، تصور ؟ لقد هاجر من المانيا اربعمائة الف من الخمسمائة الف يهودى المانى ! فكم عدد الذين وصلوا الى هنا ! لا يكاد يبلغ الخمسين الفا ! . . اى عشرة فى المائة فقط . . . قطرة فى بحر ! فالى اين ذهب الباقون ؟ لقد ابتلعتهم امريكتكم ، فلتأكلها النيران هى وأنتم !

– انت يا مايكل لا تريد ان تتفهم جوهر المأساة – قال زميله الاشيب بلهجة مسالمة – ان اليهودى الاوربى لن يقدم مرتين فى حياته القاسية على عبور المحيط ليستقر فى ارض اجداده حتى لو افترضنا ان حياته ستكون عسيرة فى امريكا التى ستنقلونه اليها . انا وانت نفهم جيدا الوضع الحقيقى فى امريكا ، فهذا المهاجر البائس سوف يسوح ويتشرد من ولاية الى اخرى ويعمل فى الحرف او التجارة ، ويقبل هذا العمل مرة وذاك مرة اخرى وكل يوم يلعنكم ويلعن نفسه ولكنه لن يقدم على القيام برحلة ثانية . سيظل يأمل فقط فى ان يدعوه وشأنه ! اما نحن الصهاينة فعلينا ان نعيد تأسيس دولتنا لتبقى الى الأبد ، ولن نستطيع اعادة تأسيسها الى ان يتحقق فى فلسطين تفوق اليهود العددى على العرب !

فاجاب مايكل بحسرة :

– ان ما يدهشنى انكم جميعا هنا كما ارى لا تدركون مدى

ضرورة الاسراع بانقاذ رجالنـــا دون ابطاء من خطر الهلاك الذى يتهددهم ، وبعد ذلك نفكر فى النسبة العددية لليهود والعـــرب وتاسيس الدولة !

فهتف سيمون سلمونزون :

– انك تخون المثل العليا للامة يا مايكل ! هذا لا يغتفر ! . .

– انقاذ الناس من الهلاك فى نظرك خيانة ، اما انا فاعتبره ابسط مبادئ الانسانية ، ودعك من القول بان المقصود هنـــا ابناء قوميتنا !

فصرخ شتيرن :

– انت لست المدافع عن الشعب اليهودى ، بل آخر خونته ومكانك على المشنقة !

فاجاب مايكل ببرود اعصاب :

– لا تخوفنى . . . من الافضل ان تحافظ على رأسك المتهور قبل ان يضيعك تماما . . .

ودوت صرخة وحشية من شتيرن :

– أتهددنى ايها الخائن ؟!

وتبع ذلك صوت ارتطام كرسى بالأرض ودبيب اقدام ، ثم تناهت صيحات :

– شتيرن !

– مايكل ! . .

– يا رفيق شتيرن امنعه . . .

ودوت طلقة ، ثم أخرى . . .

كان نوتسى قد قفز من مكانه وفتح الباب بعنف . ومن وراء كتفه رأى حاييم دافيد كنوخ ممسكا بمسدس فى يده وبجواره تمدد الرجل ذو الحلة الرمادية على الارض منطويا على نفسه . وعرف فيه حاييم على الفور ذلك الرجل الانيق الاحمر الشعر الذى عانقه وقبله فى اجتماع الامس مبعوث «الوكالة اليهودية من اجل فلسطين» وسيمون سلمونزون وشتيرن . ولاحظ حاييم ان الدم كان يسيل من ذقن شتيرن .

ولعدة ثوان ساد صمت مطبق فى جو الغرفة ، وعندئذ سمع الجميع مايكل يئن على الأرض ويهمس :

– يا فاشيست . . . يا قتلة . . .

ودوت طلقة . ورأى حاييم بوضوح مسدسا فى يد شتيرن .

واستدار نوتسى الى حاييم الممتقع من الرعب وأمره ان يهبط فورا الى اسفل وينتظره فى الردهة .

هبط حاييم كالثمل على الدرج الحلزونى الحاد وركض عبر الطرقة المظلمة وهو لا يدرى ما الذى يحدث فى غرفـــة مكتب سلمونزون . وقبل ان يسترد انفاسه جاء نوتسى راكضا .

– هناك صيدلية خلف الناحية . أتسمع يا حاييم ؟ بجوار مدرسة بلفور . . . أتعرف اين ؟

– أعرف ، أعرف .

– اركض الى هناك . سيارتنا وسائقنا هناك . قل له ان يأتى على الفور . فاهم ؟ احذر ان يتوجه الى المكان الذى اتفقنا عليه بالامس ! فاهم ؟ اياك ان يفعل ! أرسله الى هنا ! لا تقل له شيئا اكثر من ذلك . . . اما انت فاذهب الى البيت . . . لا تخف ستتصل . . . لا تتفوه بكلمـــة ! انك عائد بعد العمل من الميناء . . . وهذا كل ما فى الأمر ! عندمـــا نلتقى فى البيت سنتحدث . فاهم ؟ اركض .

وركض حاييم بكل قواه . ورأى وهو لا يزال بعيدا سيارة سلمونزون واقفة بجوار الصيدلية . حدق السائق مليا فى حاييم الممتقع المذعور ، وأعاد الاستفسار عما اذا كان لا حاجة لذهابه الى فندق جات ريمون كما كان متفقا عليه مع يوناس من قبل . وعندما تأكد اخيرا ان المتطوع لم يختلط الأمر عليـــه انطلق بالسيارة على الفور .

بقى حاييم وحده وسط الشارع المظلم . وعلى الفور أحس بالانهاك الشديد بعد عناء النهار . خارت ساقاه وارتعش بدنـــه بشدة وكأن التيفوس داهمه ثانية . . .

وفكر فى نفسه وهو يغالب الرعشة بصعوبة : «شعب واحد ، أمة واحدة ، دولة واحدة : اسرائيل» .

لم يهدأ لحاييم فولديتير بال بعد ان ادرك انه اصبح متورطا فى الاعمال المشبوهة لرؤساء مكتب التصدير والاستيراد وعذبته ظنون رهيبة حول العواقب المحتملة للخروج على القانون والجرائم التى شارك فيها على غير ارادته . وفكر حاييم برعب : «اننا قطاع طرق حقيقيون ، اى والله ! كنت أظن اننى اتابع عملية تفريغ قش مضغوط ، بينما فى الواقع كنت أتسلم أسلحة مهربة . . . يا لها من أمور ! ثم ذهبت ، كما كان يبدو ، الى اجتماع شيق واذا بى أصبح شاهدا بل وشريكا فى جريمة قتل انسان ! ان ذلك ينذر بالسجن ! بل بأكثر من السجن . . . فلماذا جرت الأمور هكذا ؟ هل هذا صدفة ؟ لا يبدو كذلك . . . فى البداية أثاروا شجارا ، ثم راحوا يطلقون النار . . . وبجوار الصيدلية تقف سيارة سلمونزون فى ليلة السبت . واضح كالشمس أن هذا كله بتدبير . . .» .

لم يخطىء حاييم عندما اعتقد ان القادة قد ازاحوا الضيف الامريكى من طريقهم عمدا . فقد أفضى له نوتسى يوناس بذلك فى اليوم التالى بثقة ، باعتباره أحد الشركاء ، وكان ذلك عندما انتحيا ركنا وراء جناح حاييم . كان الوقت بعد الغداء يوم السبت والجميع قد آووا للراحة . ورغم الشمس اللاهبة فقد كان يوناس فى حالة رائعة . فبعد أحداث الامس غط فى نوم عميق حتى الغداء ، ودهش عندما علم ان حاييم لم يذق طعم النوم من جراء ما عاناه بالأمس .

وقال نوتسى :

— عبثا تنفعل هكذا يا حاييم . يجب ان تفهم وتتعود على أننا، من أجل تحقيق هدفنا العظيم ، ملزمون بأن نزيل من طريقنا دون رحمة كل من يعرقلنا . لقد بلغتنا من قبل بعض الاقاويل عن تذبذب مايكل ، ولكن لم يخطر ببال أحد اطلاقا انه يمكن ان ينحدر الى الخيانة !

وباح نوتسى لحاييم بان سيمون سلمونزون وكل قيـــادة «اكسيونس كوميتى» كانوا واثقين قبلا من مايكل ، وأثبت هـــو

اكثر من مرة انه جدير بثقتهم . ولم يشـــك احد ان مايكل ، صنيعتهم فى واشنطن ، لا يشاركهم معتقداتهم فحســب ، بل ويساعدهم بنشاط .

واكد نوتسى وهو يحاول بشتى الطرق ان يبرر بأكثر ما يمكن من الاقناع ضرورة تنحية مايكل :

— لقد كان الرفاق الكبار واثقين تماما بأن هذا الامريكى الحقير يشاركنا كلية استعدادنا للتعــاون لا مع الاشتراكيين القوميين الألمان فحسب ، بل ومع الشيطان نفسه من أجل تحقيق المهمة الموضوعة ، الا وهى اقامة «الدولة اليهوديـــة الثالثة» ! وعندما وصلت الى هنا أقاويل بأنه يتردد فى حل بعض القضايـــا المبدئية ، ويقول احيانا شيئا ويصنع شيئا آخر ، قرر الرفاق فى «اكسيونس كوميتى» التأكد من ذلك بأنفسهم .

وسأل حاييم بصورة مفاجئة لم يتوقعها هو نفسه :

— واذا تأكدت الاقاويل يقتلونه ؟

— وهل هناك حل آخر ؟! ان هذا الوغد كان يقوم بالمهام الشخصية لرئيس الولايات المتحدة . فتصور ما الذى يمكن ان يحدث لو انه قدم لواشنطن معلومات غير مرغوب فيها من جانبنا عن وضع اليهود فى المانيا والاراضى التى تحتلها ؟! اذن لاتخذ الرئيس فى الغالب اكثر التدابير فعالية لتهجير مليون يهودى من اوربا وربما اكثر ! انه محتاج بالدرجة الاولى الى رصيد سياسى ... ويكون ذلك معناه : انظروا ايها السادة الناخبون ، كم انا انسانى، أنقذ مليون شخص من الطاعون البنى وما الى ذلك . . . وبالطبع لن يقول كلمة عن ان هؤلاء المهاجرين أيد عاملة مجانية لرجال الاعمال الامريكيين . ومقابل هذا «الاحسان» يظل يهودنا طوال حياتهم يدفعون مقابل عيشتهم البائسة عملا قاسيا وشتى انواع الذل . . . بصراحة نحن لا نبالى بالمصير الذى كان سيواجهـه أبناء قومنا وراء المحيط ! الشىء الاسوأ هو ان آفاق هجرة اليهود الجماعية من اوربا الى امريكا تجعل من كل مخططات قادتنا فقاعات صابونية . . . ولن توافق «اكسيونس كوميتى» أبدا على مثــل

هذه الخطوة مهما كان الثمن الذى سيدفعه اخواننا فى العقيدة مقابل ذلك !

ولم يذكر نوتسى يوناس شيئا عن الأمر الاهم وهو يبوح لحاييم بمكنون أفكاره . لم يقل ان شتيرن ، الذى يعتبر زعيم جماعة «شتيرن جانج» احدى الجماعات الشديـــدة التطرف بين البيتاريين ، كان فى الوقت نفسه رئيسا لما يسمى بالمركـــز القيادى الذى كان يضم ايليك فريشمان المسئول عن القضايـــا التنظيمية ، والياس نيسكى ، المسئول عن الاتصالات الخارجية ، والمدعو الدكتور شوبر موجه النشاط الايديولوجى . وكان هذا الثالوث ، وخاصة رئيسه شتيرن ، يبقى فى الظل مهمـــا كانت الظروف ويقود العمل من وراء «الستار شبه المسدل» . ولكـــن نوتسى لم يجد من الضرورى ان يخطر حاييم بذلك كله .

وقال نوتسى بلهجة غامضة :

— ان رأسك لا يستطيع ان يستوعب على الفور كل ما يمكن أن اقوله لك يا حاييم . فليكن واضحا لك شىء واحد حتى الآن : لا يمكن ان نتصرف بشكل آخر مع المرتدين والخونة أمثال مايكل .

كان يوناس يعلم تمام العلم ان مايكل الذى كان عائدا من المانيا الى امريكا قد سحبوه الى «ارض الميعاد» بحجـــة ضرورة «دراسة الموقف» فى فلسطين لان معلوماته مخصصـــة للرئيس الامريكى . وكان نوتسى يعرف ايضـــا ما الذى ينتظر مايكل فى فلسطين فى حالة ما اذا ثبتت صحة الاقاويل حول «ازدواجيته» ، وقد عين نيسكى ، الذى كان من الاسهل عليه اقامة العلاقات مع العملاء فى الخارج نظرا لطبيعة عمله الرسمى ، مسئولا عن «اختبار» مايكل وتنفيذ ما يترتب على ذلك من «اجراء خاص» . وكان نيسكى مثل شتيرن ، يعتبر الارهاب اقصر الطرق لبلوغ الهدف . ومع ذلك اقصى نيسكى عن المشاركة فى الحديث فى اليوم الذى تعين فيه اجراء لقاء حاسم مع مايكل ، وأخذ شتيرن نفسه على عاتقه فجأة مهمة «اختبار» مايكل . وقد ظلت الظروف التى ادت الى هذا التغيير سرا حتى على يوناس . اما جوهر هذه الظروف فهو ان نيسكى

بالذات هو الذى سعى من خلال رجاله فى الولايات المتحـــدة الى تعيين مايكل فى هذا المنصب الكبير رغم علمه بتذبذبه .

وكان هذا كافيا لشتيرن لكى لا يطمئن الى الياس نيسكى فى تقرير مصير مايكل . وهذا ما يفسر ان شتيرن الذى اختفى عن الانظار تقريبا قبل مجئ المبعوث الامريكى الى فلسطين ، فجاة جاء فى ذلك المساء المنكود بنفسه ليحضر اجتماعا موسعا كهذا . ولهذا فقد ذهل نوتسى يوناس آنذاك لحضوره .

ولما لم يكن نوتسى متأكدا بعد من ان حاييم قد ادرك ضرورة وحكمة مثل هذه العقوبة القاسية ضد المخالفين فى الرأى ، فقد وجد ان أفضل شيء هو ان يستشهد بماكيافيلى الذى كان يبرر أية وسيلة فى الصراع على السلطة . وسأل حاييم :

— على الاقل هل سمعت بهذا الاسم ؟

فدمدم حاييم بسخط :

— سمعت .

وفجأة راودته رغبة بأن يضيق الخناق على صاحبه الذى يكاد يظن انه المتصرف فى مصائر الامة اليهودية فقال :

— ماكيافيلى نيكولو دى برناردو . . . بالمناسبة ، ان فون ريبنتروب يذكره دائما بالاعجاب ! ورجال الحرس الحديدى الفاشى فى رومانيا ايضا . . .

فقاطعه نوتسى بعصبية :

— أنا لا أعرف من الذى يعجب به ! الذى أعرفه انه كان على حق ، ونحن ايضا تصرفنا بطريقة صحيحة عندما ازحنـــا من الطريق مايكل المرتد . . .

وحلت فترة صمت محرجة . وابتسم حاييم بمرارة ، وتذكر كيف استقبل سيمون سلمونزون وشتيرن وغيرهما من زعمـــاء «اكسيونس كوميتى» بالحفاوة وبالقبلات ذلك الشخص الذى كانوا قد حكموا عليه سرا بالموت . وقال حاييم لنفسه : «انه دهـــاء ونفاق ماكيافيلى حقا . . .»

ويبدو ان نوتسى قد ندم على احتداده ، فصمت قليلا ثم قال بصوت خافت وتفكير :

- من المؤسف بالطبع ان الخطة المعدة بدقة للتخلص من الضيف الامريكي قد فشلت . . . ولكن كما يقال ، الخيرة فيما اختاره الله . . .

وروى نوتسى انه بمجرد وصول السيارة نقلت جثة مايكل الى ضواحي يافا .

- في البداية كان من المفروض ان نلقى بها في مكان ما بين السجن ومستشفى الحميات . . . أنسب مكان للمرتد ! ولكن كنوخ الذى كان يشرف على هذه العملية غير رأيه . فاجتزنا حيين آخرين . هناك ، حيث تنتهى جبانـــة المسلمين وتبدأ جبانـــة اليونانيين من ناحية والجبانة اللاتينية من الناحية الاخرى . . . وعدنا من طريق بات بام . القينا بالجثة فى خندق الطريق بعد ان نزعنا عنها السترة ونظفنا جيوب السروال . . . والآن يتضح لكل شخص ان مايكل قد قتل فى عملية سطو .

وانقطعت رواية نوتسى بصرخات النساء مولولة تناهت من الفناء المجاور . وركض نوتسى وحاييم الى هناك فشاهدا طفلا أسود الشعر متمددا على درج المنزل . وكانت موليا منحنية عليه وهى تصرخ بيأس ، بينما يداها الضعيفتان تحاولان بعصبية فك الحبل من رقبته النحيلة .

نحى حاييم موليا بحذر ، وفك الحبل ، ورفع جسد الصبى الذى فارقته الحياة . وأخذ نوتسى أبريق ماء كان مع امرأة واقفة بالقرب منهم ورش وجه الصبى البائس الذى شوهته ارتعاشـــة الاحتضار . وخيل لحاييم فجأة ان الدموع طفرت من تحت جفنى الطفل الزرقاوين المطبقين بشدة .

- يا بنى الحبيب . . . يا ولدى الغالى . . . - راحت موليا تندب وتمسد رأس الطفل ووجهه المبللين وتقبلهما ، وتضم الى صدرها جسده النحيل .

وتجمعت الجارات ونزعتها بصعوبة عن ابنها وهن يحاولن عبثا ان يهدئنها . وحمل الرجال جسد الصغير الى البيت ومددوه على الأرض .

وظهرت فى الفناء حماة نوتسى وقـــد علمت فيمـــا يبدو

بالمأساة . واندست فى الحشد الصغير الذى أسكته الخوف وأعلنت قطعا :

– ومن الذى دفع الصبى الى هذا ؟ هى ! هل هذه أم ، اننى أسألكم ! فظاعة ! . . ليس عجيبا ان يقدم على هذا التصرف . فليغفر لى الله . . . لم أظن ابدا ان الصبى الصغير يفهم شيئا ! كم كان عمره ؟ لقد كان يذهب الى المدرسة الابتدائية ! اذن فقد كان يرى ويفهم كل شيء . . .

وصاح الناس فى العجوز محاولين تهدئتها وتوبيخها . ولكن حدث العكس . فقد صاحت حماة يوناس كالملدوغة :

– لماذا تمنعوننى من الكلام ؟ ثم خبرونى من فضلكم ما الذى يجعلكم تدافعون عنها فجأة ؟ من ذا الذى لا يعرف هذه العاهرة ! اوصلت زوجها الى درجة انه لا يغادر المستشفى ، اما هى فلا تبقى ليلة فى البيت ! هل أنا اكذب ؟ هل وجدتموها مرة فى البيت مساء ؟ واذن فما معنى هذا ؟ ولكنى متأكدة من أنه كان يخرج من عندها كل صباح اكثر من رجل ! فهل هذه زوجة فى نظركم ؟ هل هذه أم ؟

وتدخلت امرأة بمنديل رمادى ، بعينين باكيتين حزينتين :

– لماذا تدعين عليها ؟ انها تتردد على المستشفى مرتين فى اليوم ، وهذا يعرفه كل من يعمل معها فى «دلفينر» . تذهب فى الصباح مع مطلع النهار ، وفى ساعة الغداء ، رغم انها لا تكون قد ذاقت شيئا بعد . وتعود مع صفارة المصنع . . لا تستطيع كل امرأة ان تتصرف هكذا ، وأنت تتقولين عليها . . . اشياء فظيعة . . عيب عليك !

فصرخت العجوز :

– لا تجعلى منى حمقاء من فضلك ! اننى لم أفقد عقلى بعد والحمد لله ! وبالمناسبة فلا أنوى ان افقده . . نعم ، ليكن فى علمك . على اى حال انا اعرفها احسن منك : فى النهار تجرى الى زوجها فى المستشفى ، وفى الليل تنام مع الرجال . . .

– وحتى لو فعلت ذلك ؟ فهل هذا بسبب حياة النعيم ؟

فمن أين لهذه المسكينة بالنقود لتنفق على المستشفى والأطباء والأدوية ؟ من أين لها اذا كانت تتقاضى قروشا ؟ هه ؟

فتساءلت العجوز بخبث ووضعت يديها على خاصرتها بصورة عدوانية :

– من أين ؟ فظاعة ! انظروا اليهن ! انهن لا يعرفن من أين يحصل الناس على النقود . . . كأنهن نزلن من السماء ! . . . فليهبنى الله العافية . . . ينبغى العمل ! الكد ! لا ببيع الجسد والاستمتاع باللذة ؟ فماذا كانت تفعل مولياكم ؟ تظن انها طالما كانت ممثلة فى المجر فى وقت ما ، فلا يليق بها ان تعمل كما يعمل الناس جميعا . كانت تتوقع ان تأتى الى فلسطين فيقدمون لها كل ما تريد على طبق وهى فى الفراش ؟ نعم ؟ ألا تريد شيئـــا آخر ؟ الناس هنا يكدحون من الفجر للفجر ! فماذا ، هل كانت تجف يداها لو أنها بعد المصنع مثلا غسلت الأوعية او الملابس عند احد ما ، او زاولت اى عمل آخر كما يفعل الناس الشرفاء ؟

واقتربت امرأة فارعة تبدو فى شبابها من العجوز وقالت :

– الافضل الا تتكلمى عن الشرف ايتها النمامة العجوز ! ماذا تفعلين أنت ؟ تقرضين النقود بفائدة ، واذا تأخر أحد فى السداد يوما واحدا تسلخينه ثلاث مرات ! انا أعرفك حق المعرفة ايتها المرابية الملعونة ! من غيرك الذى استولى على دبلة خطوبة موليا التعيسة التى ترمينها الآن بأقذع الكلمات ؟ تسكتين أيها الجنية ؟ والحلق الماسى لأرملة صاحب الصيدلية الاعرج فى شارع رابى أكيف . . ألست انت التى ابتززته ؟ ومن الذى يحمل هذا الحلق الآن ؟ ابنتك العاقر !

والقت حماة نوتسى نظرة احتقار على النســـاء المتجمهرات حولها وصاحت :

– فظاعة ! ما دخل ابنتى هنا ؟ وماذا ، ربما تظنين اننى اقرض نقود الآخرين لا نقودى ؟ من لا يعجبه دفع الفوائد فليمتنع عن الاقتراض . لا أحد يجبركن على ذلك يا صعاليك . لست أنا التى اذهب اليكن بل انتن اللائى تهرولن الى وتبكين وتقسمن انكن ستردونها فى الموعد ، وتستجدين الى درجة القرف ! وبعد كل هذا

فأنا مرابية ؟ فماذا تردن اذن ؟ بدون فائدة وبدون رهـــان ، اعتباطا . . – وهزت العجوز قبضتها وصاحت : – خذن !

وجاء صوت خجول لرجل من الحشد :

– يا ناس . . . يا ناس . . . عيب عليكم ! هنا مصيبة وأنتم تصفون حساباتكم !

وجذب نوتسى حاييم من كوعه قائلا :

– هيا بنا ! دعهن يثرثرن . . . لا شـــأن لنا بذلك . سيصرخن ثم يهدأن . هذا شأن النساء ، ماذا ترجو منهن ؟ يثرن ضجة كبيرة والمسألة فى الحقيقة لا تساوى فلسا .

ولكن فى فناء منزل نوتسى ايضـــا تجمهر الجيران وراحوا يناقشون الحادث الأليم . وعلم حاييم من هذه الاحاديث ان زوج موليا ، وهو عازف نفير فى الاوركسترا السيمفونـــى الشهير فى فلسطين كان يعزف ثلاثة او أربعـــة ، بل وحتى خمس حفلات فى الاسبوع . وهذا ما قوض صحته . فالحر هنـــا غير مألوف للشخص الأوربى ! وكان العازف اثناء فترات الاستراحة يعب الماء المثلج وقد جف حلقه . وبدا ان كل شىء على ما يرام . ولكنه مرض قليلا فجأة ، فلم يعر ذلك انتباها ، وقد ظن انها نزلة برد عادية وستمر . وربما لو استراح قليلا ورعى نفســـه لمرت بالفعل . ولكن من أين له بالراحة ! لا بد من كســـب النقود . وهكذا سقط . . . والآن كم شهرا مر عليه وهو فى المستشفى ! ربما أصيب بالسل او بمرض آخر أسوأ . . . باختصار سيضع الموت نهاية لعذابه ربما اليوم او غدا .

هكذا كان يردد الناس المتجمعون فى الفناء . وكان حاييم يفكر وهو يصغى اليهم : «مايكل . . . ابن موليا . . . العازف المسكين . . . أليست كثيرة كل هذه الوفيات ؟ وما سبب هذا كله ؟»

وأحس حاييم ان هناك سببا ما مشتركا ادى الى هذه المآسى المختلفة الظروف ، ان هناك علاقة ما . ولكن كيف يدركها ؟

بينما كان الناس يتحدثون بهدوء ويعربون عن تعاطفهـــم

ويتنهدون . وصفقت حماة نوتسى باب السور ودلفت الى الفناء وعلى الفور قالت بصوت رفيع :

ـ حسنا ! اننى أسالكم من كان على حق : انا ام هم ؟ لقد شنق نفسه من العار الذى جلبته عليه أمه . . .

واتضح أن العجوز تمكنت وهى عائدة الى البيت من سؤال صبى الصابرا الأسود الشعر ، زعيم الصبية المحليين ، الذى التقت به فى الطريق .

كان يستعد للالتحاق بمدرسة التلمود الدينية ولذلك كان يؤنب الجيران على أقل خروج على قواعد السلوك الدينى . وهو الذى تجسس على موليا حتى عرف الى أين تذهب فى المساء ، وأخبر جميع الصبيان بأنها تقضى الليل فى بيت دعارة ، وعذب ابن موليا ناعتـا امه بأقذع الكلمات . وأقسـم هذا الصبى أنـه يقول الحق .

وقال بسرعة وهو ينثر رذاذ لعابـه : «انا نفسى تصنت فسمعت أخى – وهو سائق تاكسى – يحكى لزميله انه دخل ذات مرة بيت دعارة . . . وهناك رأى أمك . فى تل ابيب ، قـرب الميناء . . . فى آخر شارع لاسال شفيس . . . على مقربة من ياردن هوتيل ، عند الهيكل القديم ! . . . أتريد ان اقول لك كيف يدعو الرجال أمك ؟ «سيلفا» ! وأعرف ايضا انهم يدفعون لها فى الليلة عشرة جنيهات . . . أقسم بحياتى أننى لا أكذب ! لقد ذهبت الى هناك لأتفرج . هناك كثير من هؤلاء النساء . أتعرف كيف يمشين ؟ كما على البلاج ! اذا كنت لا تصدقنى فأنا مستعد ان اذهب معك عندما تخرج أمك من البيت فى المساء ! وستتأكد بنفسك . أقسم بحياتى !»

وهتفت حماة نوتسى مهللة :

– وقد اقتنع ! . . . اقتنع لدرجة انه لعن أمه العزيزة وشنق نفسه . . .

وقاطعتها جارتها التى دخلت الى الفناء فى اثرها :

– أوى ، أوى ، أوى ! ماذا تقولين ؟ انك تعرفين ان الصبى ترك رسالة لأمه ! ويالها من رسالة طيبة ! لقد كتب انه لا يتهم

امه بشيء ، ويدرك كم من النقود كان يتطلب علاج ابيه ، وانها من اجل انقاذه فقط ضحت بشرفها وصحتها . . . وطلب منها ان تغفر له فعلته ، لأنه لم يستطع ان يتحمل هذه المصيبة . . . وانت تدعين أنه لعن أمه ! هذا غير صحيح !

وحاولت حماة نوتسى أن تفسر هذه الرسالة ايضا بطريقتها الخاصة . ونشب الجدال ثانية ، ولكن حاييم لم يرغب فى الاصغاء فانتحى جانبا . أحس بخجل شديد من سلوك حمـــاة نوتسى ، وبالمرارة والمهانة من أجل موليا ، وبالأسى الأليم للطفل المنتحر . وعندما رأى أويا المنزعجة عند باب الجناح هرع الى نوتسى يوناس وقال برهبة :

– لا أدرى كيف أشرح لاويا ذلك . . انها الآن لا يجب ان تنفعل بأى حال من الاحوال . . .

ونظر نوتسى الى حاييم بدهشة وقال :

– يا لها من مسألة هامة ! هدىْ روعها بأى طريقة . . ليس صدفة ان قد جاء فى التوراة «وهذا ايضا سيزول !» سيزول ولا يبقى مجرد أثر . كلام فارغ . الألمان يقتربون من باريس ، وحتى هذا ليس مخيفا . لا ينبغى علينا ان نفكر فى اشياء كهذه اذا كنا نريد اعادة تأسيس دولتنا ! . . . المصلحة العامـة فوق المصلحة الشخصية يا حاييم ! لا تنس ذلك . . .

١٢

«. . . لم تعد الطلقات فى الظهر ، ولا الاعدام المباشر عن قرب يدهشان احدا . وايا كانت صبغة البلطجة ، سواء تمت بقصد السلب ام بدافع الانتقام ، فلن تحطم ارادة اليهود ! ان أمر العلى القدير «مضرجا بدمائك ستعيش» قد علم شعبنا التسليم والصبر ، اما خطيئة قابيل فتلازمه منذ أقدم العصور . . . واذا كانت دماء رجالنا تسيل فى شوارع المدن أم على رمال الصحراء ، فهذا ايضا ليس بجديد كما هو ليس بجديد صبرنا . ولكن ، كما

ان كل خير وشر ليسا دائمين ، كذلك ينبغى لتسليم شعبنا ان ينتهى . وسيأتى اليوم المنتظر الذى يهب فيه العلى القدير شعبه المختار القوة والشجاعة . ولقد اصبحنا جميعا نرى ونلمس بوادر هذه الساعة العظيمة كما تلوح اشعة الشمس المشرقة من خلف الجبال ! وعندها سينتقم شعبنا انتقاما مضاعفا لكل ما ناله من عذاب وآلام . فاذا كان أمر العلى القدير يقول : «مضرجا بدمائك ستعيش» فيمكننا ان نستنتج من ذلك بكل ثقة ان اعداءنا سيغرقون ايضا فى هذه الدماء ! فليقرب عمل العنف الجديد الذى راح ضحيته هذه المرة ابن مخلص لاسرائيل جاء من وراء المحيط ، فليقرب ساعة الانتقام ! فلتصرخ مطالبة بالثأر دماء اخينا فى العقيدة الذى غاب عنا فى أوج قوته وفى زهرة شباب روحه . . .»

قرأ حاييم هذه الاسطر بعد مرور يوم من شهوده مقتل مايكل فى الاجتماع السرى الليلى بمكتب سيمون سلمونزون . قرأها وهو لا يصدق عينيه . فقد كان التوقيع باسم الحاخام بن صهيون هاجرا . بن صهيون هاجرا الذى كيل له المديح فى الاجتماع السرى فى حضور مايكل الذى كان لا يزال على قيد الحياة . وها هو اليوم رئيسا لجوقة الكذابين الذين يؤكدون فى الصحافة بشتى الطرق ان الجريمة قد ارتكبها أعداء شعب اسرائيل ، ويلمحون بوضوح الى ابناء الديانات الأخرى القاطنين معهم جنبا الى جنب .

استولى القلق على حاييم عندما فكر بان الحاخام ربما يكون قد انتقل من قبرص الى «أرض الميعاد» . وكلما ازداد تفكيرا فيه تصاعد رعبه : «أمن المعقول حقا ان كل شىء هنا يقوم على الكذب والدماء ؟» وحاول ان يصرف ذهنه ، فقلب الورقة . ولفت انتباهه خبر مطبوع بأحرف ثقيلة ومحاطة باطار أسود . كان ذلك بلاغ رسمى قصير يخبر القراء المحليين بما حدث ويؤكد للامريكيين ان الادارة قد اتخذت كل الاجراءات للكشف عن القتلة وتسليمهم الى ايدى العدالة .

وادرك حاييم أن هناك لعبة سوداء معقدة تدبر حول هذا الحادث . ولكنه لم يكن يعرف ان الجميع فى ذلك اليوم كانوا لا يكفون عن الصراخ «حول المأساة التى وقعت فى شارع مقفر فى تل

أبيب» . وصدرت جريدة «مزراح» متأخرة بصورة لم يسبق لها مثيل . فبدلا من الصباح لم توزع الا فى المساء ، وكانت خالية من الملحق . . . اما فى الواقع فقد وزع بطريقة سرية ، ولم يتطرق الى الحادث الا ببضعة أسطر .

وطرح كاتب هذه الأسطر المجهول التى دوت كالرعد فى سماء فلسطين الصافية سؤالا غير متوقع : «نود ان نعرف لماذا تلتزم الشرطة الصمت حول واقع ان الضيف الامريكى الذى اغتيل بوحشية قد وصل الى ارض الاجداد قادما لا من وراء المحيط ، كما كان الجميع يظنون ، بل بعد توقف طويل فى عاصمة «الرايخ الثالث» ؟ ونود كذلك ان نعرف لماذا لم تذكر سلطات التحقيق كلمة واحدة عن الغرض الذى سافر هذا الشخص من اجله الى المانيا . ولا يقل عن ذلك أهمية ان نعرف ما هى المباحثات التى أجراها هناك مع كبار المسئولين فى الاوساط المقربة من المستشار الالمانى . . وأخيرا من هو الطرف الذى لم يرق له : هل هم الرؤساء الامريكيون الذين أرسلوه الى المانيا ، ام القادة النازيون الذين تباحث معهم ، ام عملاؤهم فى فلسطين برئاسة مفتى القدس أمين الحسينى . . ينبغى ان نسمى الاشياء بأسمائها ، بالرغم من ان واقعة اكتشاف الجثة بين الجبانة اليونانية ، والجبانة اللاتينية والجبانة الاسلامية فى يافا القديمة يدل أبلغ دلالة على اصحاب تلك الايدى الملطخة بالدم ! . . .»

وعلى الفور أحدثت هذه المقالة الأثر المطلوب ، فقد خمدت فجأة وبذعر الضجة التى أثارها مقتل المواطن الامريكى والتى هزت مشاعر الافراد . كان الكثيرون يعرفون ان الجريدة التى نشرت المقالة الغامضة رغم انها تدعى الاستقلالية الا أنها كانت فى الواقع لسان حال جماعة شتيرن .

وقال حاييم :

– انظر يا نوتسى ، لم يعد أحد ينبس ببنت شفة عن مايكل ، وكأن شيئا لم يكن .

فأجاب نوتسى بلا اكتراث وكأن الحديث يجرى عن امر تافه :

– وماذا فى ذلك . . . أنا نفسى نسيت كل شىء . . . وعموما

كلما تذكرنا ذلك أقل كان أفضل . . . لدينا اعمال اهم . اليوم ، بالمناسبة ، سنتسلم كمية كبيرة من اللوز لشحنها الى اوربا . ثم هناك سفينة مستأجرة لحساب «هيكال ليمتـــد ان سيتروس» لشحنها بقرون الخروب . صحيح انها ستشحن فى حيفا ، وسأذهب الى هناك بنفسى . وعلاوة على ذلك فمن المنتظر ان تصل بين لحظة واخرى سفينة تحمل شحنة قيمة جدا . . . وهكذا فالعمل كما ترى يا حاييم كثير بما فيه الكفاية ! أما بخصوص المرتد مايكل فقد قال رفيقنا شتيرن بحق : «جثة العدو لا تفوح منها رائحة العفن !» ، هل فهمت ؟ وبالمناسبة يا حاييم لا يضيرك ان تتذكر ذلك . . . لاحظ من الذى قاله !

دار هذا الحديث فى مخزن الميناء فى الصباح الباكر . ثم سرعان ما رحل نوتسى يوناس الى حيفا . وبقى حاييم فى منطقة الشحن التابعة لمكتب التصدير والاستيراد «فى محل الرئيس» اذ لم يكن دافيد كنوخ قد وصل بعد . حالة نادرة ! فقد كان كبير الوكلاء يأتى فى العادة قبل الجميع وينصرف آخرهم ، اذ كانت لديه دائما أشغال ما فى الادارة او جمارك الميناء . وكالعادة كان يتسكع هناك قبل بداية العمل وبعد انتهائه . وكان دافيد كنوخ يستغل هذا الظرف للتفاخر فى نطاق ضيق من الاشخاص الموثوق بهم . كان يقول : «انا لست كالاشكنازى المرفه يوناس . فهو يأتى الى الميناء كما يأتى الطبيب لعيادة مريض ، ما ان يتجاوز العتبة حتى ينتظر منك ان تدس فى يده ورقة بخمسة جنيهات وعينه تتطلع الى باب الخروج . . . فهل يمكن بهؤلاء الكسالى ان نعيد تأسيس دولتنا ؟ لو كان الأمر بيدى لفرمتهم جميعا أقسم بشرفى ! على الأقل قد يصلحون لتسميد صحراء النقب ! وهذه فائدة على أية حال» .

كلف نوتسى قبل سفره حاييم فولديتير بان يحصل من خزنة البضائع فى الميناء على استمارات تأجير لانجاز الشحن . ولم تكن هذه الاستمارات تصرف الا فى النصف الاول من النهار . ولكن لسوء حظه بدأت افواج السيارات المحملة باكياس اللوز تصل الى رصيف الشحن . فاضطر حاييم ان يبقى هناك ، اذ لا بد من متابعة رص صفوف الطابق الاول .

لم تكن السفينة قد وصلت بعد ، لذلك اسرع حاييـم الى الميناء . وعند المستودع سبقـه كنوخ فحياه حاييـم بشيء من التزلف :

– شالوم يا رفيق دافيد كنوخ !

وكالعادة لم يسمع ردا . ولم تكن فظاظة كنوخ جديدة على حاييم ، ومع ذلك أحس بالمهانة . فبعد ان اصبح حاييم يشارك فى تنفيذ بعض العمليات الحساسة بدأ كبير الوكلاء يعامله بصـورة انسانية الى حد ما . وبدا انه اقتنع بقدرة هذا «المعتوه» كما سماه كنوخ ، على الاداء وبأنه يجيد الحفاظ على الاسرار . وكانت تلك اولى «وصايا» كبير الوكلاء . ولكن يبدو انها الآن أصبحت أقل أهمية . فقد كان ذهنه مشغولا بشيء هام . وفى مثل هذه الاحوال يتغير تماما بالنسبة لمن حوله . كان العمل يستغرقه حتى ان تبليتس نفسه ، خال سيمون سلمونزون ، كان يقول بطريقة لا تخلو من الفخر : «ان كبير وكلائنا يستغرقه العمل وينهمك هو فيه حتى انه لا يرى شيئا غيره ، ولا يسمع شيئا يعترف بأحد . حتى بى أحيانا !»

ورغم ذلك كان الجميع يدركون جيدا انه ليس العمل فى حد ذاته هو الذى يستغرق دافيد كنوخ بقدر ما هو الدخل الذى ينتظر ان يعود عليه منه . ولكنهم كانوا يغضون الطرف متظاهرين أنهم لا يلاحظون شيئا . . .

وما ان ظهر كنوخ على المرسى حتى انطلق كالسهم الى رصيف الشحن ، واجتازه كالاعصار من أقصاه الى أقصاه وهـو يفتش فى جميع الزوايا ، ثم القى نظرة على طابق اكياس اللوز المتزايد ، وعندما تأكد ان العمل يسير على ما يرام وليس هناك ما يمكن ان يتمحك به ، أسرع الى المخزن .

وقال لحاييم على الماشى :

– اننى مسافر . اذا سألوا عنى فى الميناء قل لهم اننى ذهبت الى الطبيب فى المدينة ، واذا سأل عنى آخرون قـل لهم اننى فى الجمارك . . . لا تقل للعمال اننى سافرت ! افتح عينيك جيدا ! ستدفع من جيبك الخاص ثمن كل كيس يسرق !

فاجاب حاييم بعجلة :

ـ لقد فهمتك يا رفيق دافيد كنوخ . سافعل كل شيء كما قلت . . .

فدمدم كبير الوكلاء دون ان يسمع بقية كلام حاييم :

ـ سأعود غدا .

وانصرف .

وكان حاييم يعرف انه اذا قال كنوخ انه سيعود فى الصباح التالى فاعتبر انه سيعود فى مساء اليوم . واذا قال انه سيأتى بعد ساعة ، فيمكنك ان تعتبر انه سيرحل لمدة طويلة . كان كنوخ واثقا من انه ينبغى جعل المرؤوسين فى حالة توتر مستمر .

وتنفس حاييم الصعداء وهو يرى كبير الوكلاء يبتعد بسرعة . ولكن مساعد الوزان ظهر على رصيف الشحن ، واقترب من حاييم وسلمه رسالة تنبىء بقرب قدوم سفينة اوسترالية مؤجرة لشركة «أتيد» ومحملة بالعلف لحساب مكتب التصدير والاستيراد .

ارتبك حاييم لحظة ثم أدرك ان تفريغ شحنة العلف لا يمكن ان يقوم بها سوى كبير الوكلاء فانطلق فى اثره . ورأى كنوخ من بعيد وهو يستعد لركوب السيارة التى كانت فى انتظاره عند مفترق الطرق . وكان الطريق المؤدى الى المدينة يسير بحذاء رصيف الشحن تقريبا ، فانطلق حاييم على الرصيف ليلحق بالسيارة وهو يلوح بيديه ليلفت الانتباه .

ـ ماذا هناك بعد ؟ ـ صاح كنوخ بعصبية عندما توقفت السيارة ـ ما الذى جرى هناك ؟ ـ وخرج من السيارة وترك الباب مفتوحا .

فقال حاييم وهو يلتقط انفاسه بصعوبة :

ـ رسالة مستعجلة يا رفيق دافيد كنوخ ! سفينة . . . بشحنة علف . . . من اوستراليا ! مؤجرة لـ«أتيد» .

اخرج كنوخ نظارته وقرأ الرسالة وتجهم وجهه . وتهدلت شفته السفلى .

ـ من الذى جاء بها ؟

— مساعد الوزان . . . وقال ان السفينة ستصل الميناء عند منتصف الليل .

ومر كنوخ بعينيه على الرسالة مرة اخرى ، وطاف ظل ابتسامة استحسان لا تكاد تلحظ على وجهه المحمر العرقان الملئ بالبثور . ودمدم :

— حسنا فعلت اذ لحقت بى ، اذهب الى المخزن وقل اننى سمحت لك بان تتصل بمكتبنا . وسيكون الرفيق سيمون فى المكتب اليوم حتى الغداء ، ابلغه اننا تسلمنا اخطارا بوصول سفينة علف . . . هل فهمت ؟ لا تقل شيئا عن انها مؤجرة لـ«اتيد» او انها تسير تحت علم اوسترالى . . . — وهم كنوخ بان يمضى الى السيارة ، ولكنه توقف واضاف دون ان ينظر الى حاييم — فليتلفن الرفيق سيمون الى حيفا ليحضر يوناس الى هنا فى المساء ! يمكنهم هناك ان يعملوا بدونه ، فيا لها من مهمة هذا الخروب النخر ! وقل لمساعد الوزان اننى سأفرغ السفينة دون تأخير . دعه لا يصرخ ، فلن يحدث تعطيل للسفينة ! هكذا بلغه ، مفهوم ؟

واستدار كنوخ الى السيارة ليجلس . ونظر حاييم الى داخل السيارة فصعق : فبجوار شتيرن على المقعد الخلفى كان يجلس ذلك الشاب المجعد الشعر ذو النظارة ذات الزجاج السميك ، الذى حرض ركاب «ترانس أطلانطيك» على تمزيق وثائقهم ، والذى كان يهيب بالمسافرين اليائسين ان يتعقلوا ، امـــا هو نفسه فقد تسلل من السفينة كاللص واخذ معه بالطبع وثائق سليمة . ولكن الذى اقلق حاييم اكثر هو وجود شخص آخر فى السيارة ، بلحية كثة ، راح يحدق فيه بنظرة ثاقبة شريرة من تحت حاجبيه المقطبين . كان ذاك الحاخام بن صهيون هاجرا ! . . .

قبيل المساء ظهر دافيد كنوخ فى الميناء فجأة كعادته وانتشر نبأ وصوله فورا . وفى الحال صمتت اصوات الحمالين الذين كانوا يشجعون بعضهـــم البعض بالنكات ، وشد الناس المتعبون بعد عناء النهار قاماتهم ، وازدادت يقظتهم ، وسار العمل بوتيرة شديدة ولكنها فى الوقت نفسه دقيقة كعدة ساعة مضبوطة جيدا .

واسرع حاييم لمقابلة كبير الوكلاء بمجرد اقتراب الاخير من الطابق وقال له :

— كل شيء على ما يرام هنا يا رفيق دافيد كنـــوخ ! نرص الطابق السادس ! أبلغت الرفيق سيمون كل ما أمرتنى به . . .

صمت كنوخ كأن هذه الكلمات لم تكن موجهة اليه . ولم يتكرم على حاييم بنظرة بل اتجــه الى السلم المؤدى الى المرسى ، وعندما بلغه قال باقتضاب :

— لم يعد لديك هنا ما تفعله . . . انس الطريق الى الميناء الى الأبد !

لم يدرك حاييم لأول وهلة ان هذه الكلمات موجهة اليــه ، ولذلك مضى آليا خلف كنوخ . وعندما أدرك ذهنه المعنى الرهيب لهذه الكلمات التى سمعها توا ، أحس بقواه تخور . وبدأ يتخلف عن كنوخ ثم توقف أخيرا . وجاءه الحمالون يسألون عن أشياء مـــا ولكنه لم يسمع ما يقولون . وعندما رأى كبير الوكلاء منطلقا الى الطابق من جديد تغلب حاييم على خوفه وتردده واندفع ليلحق به .

— اعذرنى من فضلك يا رفيق دافيد كنوخ — قال حاييم وقد تقدمه قليلا — أنا لم أفهم ما قلت . . .

فزمجر كنوخ اثناء سيره :

— قلت اغرب من هنا ! هل سمعت الآن ؟ أم تريد أن القى بك من الرصيف ؟

كان الندم يعذب دافيد كنوخ . وقد اعترف بذلك بصراحـــة لسيمون سلمونزون عندما جاء هذا فى المساء الى الميناء بمناسبة قرب تفريغ السفينة الاوستراليـــــة وسأل لماذا لا يرى المتطوع فولديتير .

ومسح كنوخ على صدره المشعر ، وانقلبت شفته المتهدلة بغضب :

— لا أستطيع ان اغفر هذا لنفسى ! لا ينبغى ان نضيع الوقت مع هؤلاء الاوغاد ، بل يجب ان نمسك بهم من أرجلهم ببساطة ونلقى بهم طعاما للاسماك . . . لست أدرى لماذا لم يقترن القول بالعمل

عندى بالنسبة لهذا المافون ! لقد انقذه بالطبع انه لحق بى فى الصباح عندما وصل خبر قدوم السفينة . وحسنا فعل ، لان المناوب فى الميناء كان ذلك المصرى ذو الشوارب . . . كان من الممكن ان تحدث تعقيدات . . .

وعندما عاد نوتسى يوناس مساء من حيفا وسمع رواية حاييم القلقة ربت على كتفه مهدئا ، فقد كان نوتسى ثملا ويبدو له كل شىء هينا ويسيرا .

— لا تقلق يا حاييم ، ستمر على خير . . سوف ترى . . خاصة وانك لم تفعل شيئا سيئا . بل ان «القاطرة» امتدحك ، لم يحدث ابدا أن امتدح احدا ! بل ستمر على خير . . فى آخر الأمر سيحسب حسابا لرأيى يا حاييم ! لا تقلق . . . سنسوى الأمر !

راى حاييم ان نوتسى قد شرب فتشجع دون أن يخمن بالطبع سبب طرد حاييم . ولم يقرر حاييم ان يبوح له بمخاوفه . وقال فى نفسه : «ربما تمر على خير هذه المرة ايضا . فى المرة السابقة ، فى قسم الشرطة ، كنت اظن ان المتاعب بسبب بن صهيون هاجرا ، ثم اتضح ان الحاخام لا دخل له بالموضوع . . .»

ومع ذلك لم يذهب حاييم الى العمل فى اليوم التالى . كما ان نوتسى بعد ان افاق ، نصح حاييم بالانتظار قليلا حتى يعرف بنفسه حقيقة المسألة . وقال له قبل سفرة الى الميناء :

— ينبغى ان نتشمم السبب فى اقدامه على ذلك . مهلا . وسنوفق فى تسوية الأمر . فانت تعرف ان «القاطرة» اذا حرن فمن الصعب زحزحته من مكانه ! لكن دعنا لا نخمن . سأبذل جهدى ، اعتمد علىّ . . .

ولم يعد نوتسى الى المنزل الا بعد اربعة أيام . وظل حاييم طوال هذه الايام قلقا ، وبصعوبة اخفى عن أويّا حقيقة الامر . افهمها كما لو ان حركة النشاط قد خفت فى الميناء فسمحوا له بالراحة بضعة أيام . وكانت أويّا سعيدة تتألق بالفرحة وهى تسرع بالعودة من العمل فى المصنع .

ولم تكن المرة الاولى التى يقول فيها حاييم لنفسه : «ينبغى

ان تترك العمل ، فهى الآن فى الشهر السابع ، ولكن الآية انعكست ، فانا الذى جنحت على الرمال . . .»

كان الوقت مبكرا جدا عندما وصل يوناس . ولم يكن حاييم نائما ، وعندما سمع صوت السيارة خرج الى الفناء فرأى نوتسى يوناس ولكنه لم يجرؤ على ان يناديه . كان يعلم ان يوناس وكنوخ ظلا طوال هذه الايام يتسلمان ويصنفان ويوزعان الاسلحة عـــلى عناوين سرية وهى مختبئة فى بالات القش المضغوط ، او ربما الآن فى «عبوة» أخرى . . .

وأوى حاييم الى الفراش من جديد واغمض عينيه ، وعلى الفور راى ، وكأن ذلك امامه ، رصيف التفريغ ، ومجىء الحمالين ببالات القش المربوطة بسلك نحاسى تارة وسلك عادى تارة اخرى . . . والمخزن ، والاغطية المشمعة الكبيرة وعليها اكوام الاسلحة المزيتة وصفوف الصناديق المعدنية المستطيلة التى تحتوى على قطع الغيار ، والصناديق الخشبية المربعة المعبأة بالذخيرة ، والشبان والشابات الصامتين الذين جىء بهم من أحدى المستوطنات وقد انحنوا فوق الطاولات التى يجرى عليها تجميع الاسلحة . ومن جديـــد تسرب الخوف الى قلبه ، ومر على ظهره كثعبان بارد مقزز وضغط على زوره كاتما أنفاسه .

ود لو يهرب توا ، يهرب الآن ، يهرب على غير هدى ، المهـم الا يرى هؤلاء الاشخاص القساة ، والا يشارك فى أعمالهم السوداء . ولكن الى أين المفر . . من ذا الذى ينتظرك يا حاييم . . انـــت وزوجتك المسكينة أويًا . . وظل بصيص من الأمـــل يومض فى قلبه : ربما يساعده نوتسى . . ألم يساعده ذات مرة . . .

ظل حاييم طول النهار قلقا لا يهدأ له مستقر وينتظر بفارغ الصبر مجىء نوتسى وهو يضرب اخماسا فى أسداس .

ولم يأت اليه يوناس الا فى المساء ، والقى نظرة متلصصة على أويًا المنهمكة فى اشغال البيت ، ودعا حاييم الى الخروج كأنما على كره منه . وجلسا على الأحجار الضخمة الملقاة وراء كوخ حاييم .

وبدأ نوتسى الحديث بكسل وهو يتثاءب ، فسأل عن صحـــة أويًا ، وعما اذا كان يراسل والده ، وهل اخته بصحة طيبة . وتطرق

فى حديثه الى شئون الايام الخوالى ، ولكنه لم يتفوه بكلمة عن سبب غيابه الطويل .

لاحظ حاييم كل ذلك بينه وبين نفسه وقد ادرك ان نوتسى لم يفلح ، فيما يبدو ، فى اقناع كبير الوكلاء باعادته الى العمل فى الميناء .

وفجاة ودون اى ارتباط بالحديث السابق سأل نوتسى دون ان ينظر الى حاييم :

– واذن فاويّا هذه ليست من اهلنا . . ولكنك أخفيت ذلك . .

ففهم حاييم على الفور : «اذن فقد عرفنى الحاخام ! انه هو بن صهيون هاجرا السبب فى فصلى من العمل . . .» فقال معترفا :

– نعم يا نوتسى ، انها يونانية . . . ولكنى لا أفهم على الاطلاق ما أهمية ذلك ! هى التى انقذت حياتى ! هل تفهم ما يعنى هذا . . على اية حال ثمة قيم اخلاقية معينة !

شمل يوناس حاييم بنظرة احتقار ، ولكن حاييم لم يلاحظ ذلك فمضى يقول :

– وعلاوة على ذلك فانا احبها ! انها زوجتى ! زوجتى التى ستصبح قريبا اما لطفلى ! هل تفهم هذا يا نوتسى . .

فأسرع نوتسى بالرد :

– نعم ، نعم يا حاييم ، طبعا افهم . . . وهى ايضا تحبك . الجميع يعرفون ذلك . وهى كادحة ممتازة ، وفى المصنع راضون عنها جدا ، وفى المنزل تعمل كالنملة . اننا ندهش دائما من قدرتها على العمل ودأبها ، اى والله ! كل هذا مضبوط . . . ولكن الا توافقنى على أنك ، باعتبارك متطوعا فى فوج يحمل اسم رفيقنا يوسف ترومبلدور ، قد خالفت قواعد السلوك المتبعة ! والأكثر من ذلك . . .

ولكن حاييم قاطع صديقه وهو يهز كتفيه باندهاش :

– مهلا يا نوتسى ! كيف خالفتها ، خبرنى . . هل نهبت احدا أو قتلته . .

– لا ، لا ، ما دخل النهب وخلافه هنا . . على الرغم من ان المصالح العليا ، بالمناسبة ، تضطرنا احيانا الى الاقدام على هذا

وذاك . . . ولا تتظاهر بأنك لا تفهم ، لا تتعب دماغى ارجـوك ! فانت لست محدثا فى هذه الامور والحمد لله . اما المخالفـة التى أتحدث عنها فهى أولا : ان زواجك بأويتا غير شرعى ! . . هل تفهم ما معنى هذا . .

– وماذا فى ذلك . .

فاستطرد نوتسى بعصبية :

– ربما لا يعنى هذا شيئا بالنسبة لك . ولكن لا يمكن لأى يهودى شريف ان يسمح لنفسه بذلك . . . نعم ، نعم ! وثانيا هى يونانية ! ونحن واياهم متباعدون كالسماء والارض ، كالليـــل والنهار ! هل تستطيع ان تفهم هذا . .

– مهلا ، مهلا يا نوتسى . . انك تؤكد ان زواجى بأويتا غير شرعى ، وانها من قومية اخرى ، وفى ذلك جريمتى . . فليكن . ولكن احدا لم يسألنى عن ذلك من قبل ! ما الذى حدث حتى جعلكم جميعا تفزعون . .

– لم نسألك لأنك متطوع ، ويهودى مؤمن كشىء بديهى ! هكذا على الأقل كنا نعتقد انا وسيمون وكنوخ والآخرون . ولم يخطر ببالى أبدا ، انا المغفل السريع التصديق ، ان المتطوع يمكن ان يرتكب شيئا كهذا !

– ولكنى انا ايضا لم يخطر ببالى هذا أبدا ، لاننى لم أر ، وما زلت لا أرى ، اية جريمة فى كون زوجتى يونانية ، أى والله !

اغتاظ نوتسى من عناد حاييم فقال :

– لا تلف علىّ . انت كنت تعرف جيدا من قبل ان عاداتنـا تحرم الزيجات المختلطة ! وهى هنا ليست محرمة فقط ، بل ويعاقبون عليها بمنتهى الشدة ! لا تحاول اذن أن تدعى الجهل ! وعموما فان وقاحتك تدهشنى ! صحيح ! فلا يمكن لأحد غير الغوغائيين الحمر ان يتحدث هكذا ، والاسوأ مليون مرة ، ان يفكر هكذا ! . . ان هذا ببساطة شىء مخيف ! . . فانت مع ذلك متطوع ادى «الأكشارا» ومنح ثقة كبيرة وقبل فى أنظف وأشرف وأفضل منظمة من بين أحسن منظماتنا ! فأنت تعرف ان الاختيار لعضويتها يتم بكل دقة فما هذا الذى ارتكبته انت ؟!

— ولكنك تبالغ وتعقد الامور يا نوتسى ، أقسم لك . ما الذى ارتكبته . . لست أفهم .

فقفز نوتسى واقفا :

— وبعد كل هذا ما زلت تسأل . . لو كنا نعرف أنك متزوج من يونانية هل كنا نوليك كل هذه الثقة . . هل كنا نطلعك على قدس الاقداس وسر الأسرار . . ابدا ! فاهم . . لقد خدعت كل رفاقنا . . . ولوثت بأخس صورة كل المثل النبيلة «لارجون تسفاى ليومى» . هل تعرف ما معنى ذلك ؟ هذا يكاد يبلغ مستوى الخيانة ! وعندنا لا يمسحون على الرأس على هذه الأفعال ! هل تفهم هذا على الأقل ؟

وتذكر حاييم كيف صرخ شتيرن فى مايكل فى مكتب سلمونزون فى تلك الليلة المشهودة : «أنت خائن ومكانك على حبل المشنقة !» وانتفض حاييم عندما راودته فكرة انهم من الممكن ببساطة ان يرموه بالخيانة ويقتلوه كالكلب ، رغم انه لم يحس بأى ذنب ارتكبه عملا أو قولا . وبدت له الاتهامات القاسية التى رماه بها نوتسى سوء فهم رهيب .

فبدأ حاييم بلهجة مسالمة وهو يحاول ان يتحدث بهدوء :

— مهلا يا نوتسى ! اهدأ . تعال نبحث الأمر كله كما ينبغى . ها أنت تقول : ان الزيجات المختلطة تحرمها عاداتنا . حسنا ، ليكن . ولكنك انت وزوجتك وحماتك لستم من الصابرا . . كما انكم لا تقدسون كل هذه العادات القديمة البالية . . . ولست أنت وعائلتك فحسب ، بل الكثيرون ! ولا بأس ، فلا أحد يوبخهم على ذلك او يعدمهم . ولكن هل أجرمت أويًّا لانها ولدت من أبوين يونانيين . ان ذنبها فى ذلك مثل ذنبى وذنبك اذ ولدنا من أبوين يهوديين ! لقد كانت عصابات الحرس الحديدى الفاشى تلاحقنا فى رومانيا لهذا السبب ، وماتت والدتى فى المذبحة التى دبرها الفاشست . ثم تهددنى انت الآن ، وتلمح الى شىء رهيب فقط لأن زوجتى يونانية . . . ان هذا صورة طبق الأصل مما فعله ويفعله الفاشست . اعذرنى ولكن الأمر كذلك فعلا !

بدأ حاييم كلامه باتزان ، ولكن الانفعال الذى كان يتأجج فى

كلماته فضح مشاعر الاحتجاج والغضب المتزايد التى نمـت فى داخله . وفى مثل هذه المواقف بالذات كان لين طبعه وسلاسته بل وحتى ضعف ارادته ، كانت تتحول الى عناد تجعله قادرا عـلى تحمل المحن الشديدة ولا يستسلم . وهذا ما حدث فى بولجراد عندما ضربه رجال الشرطة مطالبينه بان يذكر أسماء رفاقه الذين ساعدوه فى توزيع منشور «تسقط الفاشية !» آنذاك لم يرشد عن رفيقيه فى العقيدة ايليا توموف وفالتر آدامى . وهذا ما حدث فى قبرص . فلم يذعن لارادة الحاخام الشريرة ولم يتزوج ابنته المدللة وذاد عن حبه رغم ان المرض قد هدَّه وكان بلا حول .

صحيح انه فى بولجراد لم يشعر انه وحيد : كان معه والده واخته واصدقاؤه الذين كان يثق فى تعاطفهم ومساعدتهـم . وفى قبرص كانت العمة بيتيا الطيبة بقربه . أما هنا فى فلسطين فكان وحيدا وسط اناس غرباء قساة من المتعصبين الدينيين والجشعين والوصوليين وأساتذة التهريب والابتزاز والاغتيالات . وكان مصيره وسعادته مع حبيبة قلبه يتوقفان على هؤلاء الاشخاص . وكان حاييم يعرف انه لا يمكن ان يتوقع رحمة من أمثال الحاخام بن صهيون هاجرا . ومجرد التفكير فى ذلك جعل الخوف يتسلل الى قلبه ، ولكنه لم يعد قادرا ولا حتى راغبا فى كتم الغضب والاحتجاج اللذين فاضت بهما نفسه .

ولم يكن نوتسى يوناس قلقا الا على مستقبله الشخصى الذى أصبح نجاحه موضع شك . فأيا كان الأمر فيوناس هو الذى ضمن حاييم فى وقت ما ، ولذلك مضى الآن يخوفه فقال :

— سأقول لك شيئا واحدا يا حاييم : لا تمزح ! أنت هنـا لست فى رومانيا ، وعلى الأخص لست فى بيسارابيا . لقد اجتمع هنا الرفاق المطلوبون ، النخبة فى العالم كله ! ولا وقت لديهـم للمزاح عندما يوضع كل شيء فى كفة الميزان من أجل الهدف العظيم ! ولن يسمح اى منهم بتضليله ، كما قد يتراءى لك . . .

باعد حاييم بين يديه وقد أراد ان يقول شيئا ولكن نوتسى لم يمهله . كان منفعلا ، يشيح بيديه ويمسح بمنديل بين الحين

والحين جبهته وعنقه المبللين بالعرق ، ويبصق . وأخيرا قرر ان يفصح عن الفكرة التى جاء من أجلها الى حاييم :

– ليس امامك سوى مخرج واحد من الوضع الحالى . دعها ترحل من حيث جاءت . . . هذا أفضل . صدقنى . وسينزاح عن كاهلك هذا العبء ! انك تريد أن تعيش معها هنا فى ارض الاجداد الذين أوصونا بالمحافظة على نقاء العقيدة ! لا فى مكان ما فى أوربا . فهل هذا يصعب فهمه حقا ؟ !

استمع حاييم الى يوناس صامتا مطأطأ الرأس . ولم يغير من وقفته ، ولم ينبس ببنت شفة حتى عندما أنهى يوناس خطابه العاصف واصفا حاييم «بالأحمق الشريف حقا» .

واعتبر يوناس صمت حاييم علامة طيبة ، ولكى يحطم تردده تماما قال بغضب وحدة مشددا على كلماته :

– ضع فى اعتبارك ان احدا لن يترفق بك ! لن يساعدك سلمونزون بملايينه ولا حتى أنا . . . وبالمناسبة فان فعلتك هذه قد جلبت لى قدرا كبيرا من المتاعب . ألست أنا الذى ضمنتك ! ولهذا أولوك الثقة ، وأية ثقة ! مجرد التفكير فى ذلك فظيع ! وبدلا من أن تشكرنى تخوننى بأحط صورة !

فقال حاييم بهدوء :

– بوسعك ان تتعجب وترمينى بأقذع الكلمات ، وبوسعك أن تهددنى بالموت ، ولكنى لن أتركها أبدا . . . أقسم لك ! اذا قلت لك انى احبها فليست تلك هى الكلمة المناسبة . اننى لا اتصور حياتى بدونها . . .

فقد يوناس السيطرة على نفسه فأمسك بتلابيب حاييم وشده اليه بعنف وهمس ورذاذ لعابه يتطاير :

– إما انك ايها المتطوع فولديتير ضعيف الارادة وغبى ، أو انك ببساطة خائن ! ان جونلة فتاة يونانية حقيرة أغلى عليك من قضيتنا العظيمة ! فلتعلم ان هذه الافعال تنتهى نهاية مفجعة هنا ! وستندم ولكن بعد فوات الأوان . أقول لك لآخر مرة : اترك هذه المرأة وينتهى الأمر !

– ابدا !

16—690

ونظر يوناس بعينين مليئتين بالازدراء والغضب الى هيئة حاييم البائسة المحدودبة ، والى حاييم الحزين والصامد فى قراره .

ودمدم يوناس من بين اسنانه :

– لقد كان الرفيق دافيد كنوخ محقا عندما قال انك دبرت هذا كله عن عمد لتسىء الى سمعتنا . حسنا ! ستدفع ثمن ذلك . . وثمنا باهظا !

وادار ظهره لحاييم بحدة ومضى مبتعدا .

كان نوتسى يوناس يكذب . صحيح ان دافيد كنوخ قال شيئا مقاربا لا عن حاييم بل عن نوتسى يوناس الذى ربما اخفى عنهم عمدا وقائع مشينة فى حياة المتطوع المكلف به . واتهمه كنوخ بسوء استغلاله لمركزه كشخص موثوق به من سلمونزون . فقد كلف نوتسى بالذات بمراقبة حاييم مراقبة يومية ودراسة طباعه ومزاجه ومتابعة تصرفاته ومعرفة جميع علاقاته واعداده بانتظام وبصورة خفية للقيام بأخطر المهام السرية للغاية . ولذلك اسكنوا حاييم فى بيت واحد مع يوناس .

ورغم ان حاييم كان منزعجا من الحديث مع يوناس ، الا انه تنفس الصعداء لادراكه بأنه لم يتردد لحظة فى رفضه الافتراق عن اويتا ، وأنه لم يعد منذ الآن مرتبطا بعصابة من القتلة والمهربين المتنكرين الذين يخفون أعمالهم السوداء بالثرثرة عن «المثل العليا السامية وآمال الشعب المشرد» .

استقبلت أويتا حاييم بنظرة حذر ولكنها لم تر على وجهه علامات القلق ، فمضت تعد الطعام .

واستلقى حاييم كما كان يفعل عادة بعد عودته من العمل ، فى انتظار ان تفرغ اويتا من اعداد العشاء ، واغمض عينيه . ودارت فى رأسه أفكار قاتمة تزاحم وتلاحق بعضها بعضا . وأحيانا كان اليأس يتملكه ولكنه يحاول على الفور أن يهدىء نفسه قائلا : «سينصلح الحال ! الدنيا فيها اناس غير يوناس وسلمونزون . ومن يدرى كيف كان يمكن ان تكون نهاية عملى عندهم . ربما كان «القاطرة» قد ألقى بى طعاما للاسماك ، كما فعل مع الآخرين الذين كانوا لا يروقون له . فلم يكن صعبا على هذه الجماعة ان ترسل

الى العالم الآخر برجل مثل مايكل ، اما انا فمن اكــون ؟ ذرة . . . كلا ، لقد فعلت خيرا اذ قطعت صلتى بهذه الجماعة . ومهما ساءت أحوالى أنا وأويتا فلن نموت جوعا . سأعمل فى اية مهنة ! العمل لم يرهبنى أبدا . وسأجد عملا ، حتما سأجد . . . ولو حفــرت واستخرجته من باطن الأرض . . .»

١٣

غادر حاييم البيت فى الصباح قبل ان تذهب اويتا الى العمل بوقت طويل . ولم يخبرها عن تسريحه من مكتــــب التصديـــر والاستيراد وانطلق الى يافا . كانت هذه المدينة اقرب الى قلبه من تل أبيب الصاخبة اللامبالية المتعجرفة ، حيث تسير الحياة وكأنها حلبة سباق الخيل ، فيندفع الجميع نحو خط النهاية ، يزاحمـــون بعضهم بعضا من اجل الفوز بالجائزة الكبرى .

اما يافا الواقعة على بعد حوالى ميل ونصف فقط من تل أبيب ، فكانت مدينة عريقة ذات ازقة ضيقة ملتوية ومنازل فى معظمهـــا بائسة . وقد جذبت هذه المدينة حاييم قبل كل شىء لان سكانها ، كما خيل اليه ، كانوا بسطاء ومتعاطفين . وقد ادرك ذلك حينما كان يعمل لبعض الوقت فى محطة السكة الحديدية المحليـــة ويختلط بالحمالين الذين كان بينهم كثير من العرب واليهود الذين كانـــوا يزاولون هذه المهنة البسيطة بالصدفة ، فقد دفعتهم الحاجة جميعا الى هنا .

وكثيرا ما كان حاييم يتعامل مع موظفى خزنة السلع والعاملين فى المحطة وخاصة الوزانين وعمال التحويلة وذلك عندما كان يقوم ببعض اعمال مكتب التصدير والاستيراد . وها هو الآن يؤمل فى نصائحهم ومساعدتهم . وقال فى نفسه : «انها محطة صغيرة ، ولكن يبدو ان الناس هناك ليسوا سيئين ، وسيجدون لى عملا ما . وهل انا بحاجة الى الشىء الكثير ؟ ابدا ، حاجة بسيطة . . . ان اكسب ما يكفى للقمة الخبز والا يزعجنى او يهددنى احد ، والا اسير وانا

اتلفت كأنما ارتكبت جريمة . وسأقول لهم شكرا على ذلك ، اى والله ! انا لم آت الى هنا من اجل تحقيق سعادة كبيرة . . . وها انذا ارى اى «سعادة» يمكن ان يحصل عليها البسطاء . . . لقد اكلت منها حتى غص حلقى ! . .»

فى اليوم الذى وصل فيه حاييم الى يافا وتوجه مباشرة الى محطة السكة الحديدية لم يكن هناك عمل حتى للحمالين المحترفين . وكان هؤلاء يسبون :

- كل هذا بسبب الحرب ، فلتأكلها النار هى ومن اخترعها !

كانوا جالسين على الارض فى الظل ، يتحدثون بسلام ، وينتظرون بصبر ان يحضر احد لاستلام شحنة من المخزن . فاذا سنحت مثل هذه الفرصة ينقطع الحديث الودى على الفور . ويندفع الجميع الى الزبون ويطوقونه حلقة محكمة ، ويحاول كل منهم ان يستولى لنفسه على العمل من الآخرين عارضا اجرا اقل مقابل عمله . وكان الجدال ينشب ، واحيانا يستعر شجار عنيف .

وسرعان ما ادرك حاييم انه لا عمل له هنا . فعندما كان يأتى الى المحطة كموظف فى مكتب التصدير والاستيراد ، كان الحمالون يتملقونه ويتوددون اليه على امل الفوز بعمل ، اما الآن وقد عرفوا انه مثلهم يبحث عن عمل ، فقد اداروا له ظهورهم بلا اكتراث ، بل وألمحوا له بوضوح انه لا مكان له هنا .

وذهب حاييم الى الوزان ، وتحدث مع موظفى الخزنة ، فاصغوا اليه وعندما طلب منهم مساعدته فى الالتحاق بالعمل اشاحوا بايديهم معربين عن عجزهم .

وبعد ان طاف حاييم بكل من يعرفهم ، جر ساقيه عائدا الى المدينة مهموما ومتعبا . وكل ما بدا له بالامس سهل المنال اصبح يراه الآن فى ضوء آخر تماما . ومن جديد عصر الخوف قلبه كعادته فى المواقف الصعبة ، فكان يقف مترددا مدة طويلة امام باب المكتب الذى يعرفه قبل ان يقرر الدخول . وبحث عن عمل فى مستشفى القديس لويس الفرنسى ، وذهب الى حى المستوطنين الالمان ، وعرج فى الطريق على سمسار يعرفه كان يقطن مقابل مسجد حسن بك . ثم اخبره شخص ما انه يبدو انهم يحتاجون الى رسول فى شارع تارشيش ،

فمضى الى هناك ، ولكن بلا جدوى ! كان كل من يتوجـــه اليهم يستمعون اليه بتعاطف ، ويشاركونه الحديث عن مشاكلهم ، وفى النهاية اما يعربون عن املهم بتحسن الاحوال تحسنـــا كبيرا فى المستقبل القريب وعندئذ يصبح فى الامكان التفكير فى تدبير وظيفة مناسبة له ، واما لا يبخلون بالارشاد الى الاماكن التى سيجـد فيها وظيفة بالتأكيد كما يدعون .

ونصحه بواب سينما «اوديون» :

— اسمع كلامى ، ستجد هناك حتما ما يلزمك ! لا تسأل احدا ولا تذهب الى اى مكان آخر ولا تضيع وقتك عبثا ، بل اذهب مباشرة الى هناك !

و«هناك» كان يتكرر كل شيء . وارهق البحث فى شوارع يافا المتربة التى الهبتها الشمس حاييم تماما ، وفى نهاية النهـار كان راسه يطن من النصائح والوعود والقيظ غير المحتمل .

واشتكى حاييم الى احد معارفه الحمالين :

— كل من حولى «محامون» . يبدو مـــن هيأتهم انهم اناس جادون ، يؤكدون لك بل ويقسمون ان شخصا مطلوبا فى هذا المكان او ذاك ، وعندما تذهب تقابل بنظرات استنكار وكأنك شخص هبط فجأة من السماء او انك مجرد نصّاب . . .

ومع ذلك طمأن حاييم نفسه : حسنا ، اذا لم اوفق اليــوم فسأوفق غدا ، وعلى اى حال فقد اصبحت اعرف الاوضاع الآن .

وعاد الى البيت بهذه الافكار . ولاحظ وهو بعد فى الفناء ان اويّا قد عادت من العمل . وسرته مفاجأة رجوعها قبل الموعد .

فتح حاييم باب كوخه بحذر ، واطل برأسه ، والبسمة تملأ وجهه ، ولكنه لاحظ على الفور ان اويّا منزعجة ، وقد استقر الرعب فى عينيها .

وافهمته بالاشارات ان الاسطى طردها من المصنع . . . فما السبب ؟ انها لا تعرف . ولكن حاييم خمن ما حدث .

وحاول ان يهدئها قائلا ان الخير فيما اختاره الله ، وانهـا كان ينبغى ان تترك العمل منذ فترة طويلة ، فها هو بطنها اصبح

كبيرا ! وان الاسطى فيما يبدو اشفق عليها . . . وهذا كل ما هناك !

ولكن ذلك لم يجد شيئا . قطبت اويّا حاجبيها وراحت تصور بحركات يائسة كيف صاح فيها الاسطى السمين وهددها بقبضته ، ثم امسك بكتفيها وجرها الى بوابة المصنع ودفعها الى الخارج . . . ولم تدافع عنها اية امرأة من العاملات ، بمن فى ذلك جارتهم التى انتحر طفلها . وقفن جميعا جانبا ينظرن فى صمت الى ما يحدث .

ومضى حاييم يقنع اويّا مدعيا ان ذلك مجرد سوء تفاهم لا ينبغى ابدا ان تقلق بسببه ، وبصق بقوة ليؤكد لها تفاهة الامر ، اما المهم فهو انه يحبها اكثر من اى شىء فى الدنيا ، ولذلك فليس هناك ما يمكن ان يخيفهما وهما معا ! وضمها اليه برقة وهى ترتجف من الانفعال ، وقبلها بحذر وكأنه يلمس زهرة يخشى ان تتساقط وريقاتها . وفى تلك اللحظة دق الباب شخص ما بخشونة ، ودون ان ينتظر ردا فتحه على مصراعيه . والتفت حاييم واويّا فشاهدا على العتبة عجوزا طويلا نحيفا ، فى قفطان اسود طويل ، وبلحية بيضاء ، وسالفين زيتيين مصفرين طويلين اما من النيكوتين او من شىء آخر يتدليان من تحت جانبى قبعته السوداء الرثة العريضة الحواف .

واتجه العجوز الى المقعد دون ان يستأذن ، وكأنه فى بيته ، والقى نظرة عابرة على حاييم واويّا المتسمرين من الدهشة ، واخرج من تحت قفطانه قطعة اوراق مجعدة وفرشها على مهل فوق المقعد وجلس بحذر . وتفحص المكان بنظرة كراهية ، وهو لا يزال صامتا بعد ، ونظر شزرا الى الاحجار التى كانت موضوعة تحت السرير بدلا من الارجل ، وحك رقبته تحت ذقنه . وكانت هيأة القادم كلها تفصح عن سخطه الشديد .

وسأل العجوز بنبرة لا تعبر عن شىء وكأنه يواصل حديثا انقطع ودون ان يقول من هو ولماذا جاء :

– من اين تفضلت بالمجىء ايها الشاب وهل تعيش من مدة طويلة فى ارض الاجداد ؟

وما كاد حاييم يجيب على هذا السؤال حتى انهالت عليه اسئلة اخرى : اين تعلم الشاب اللغة العبرية ، وهل يعرف

اليديش ؟ وما اسم ابيه وامه ؟ ومن منهما على قيد الحياة ؟ وهل لديه اخوة واخوات ؟ وهل لديه اقارب فى ارض اسرائيل ؟ وهل كان فى اسرته احد من اصل غير يهودى ، وما مدى ايمان والديه ؟ . .

حاول حاييم ان يرد بهدوء ، ولكن الى جانب الاحساس بالقلق تنامى فى نفسه شعور بالسخط على الوقاحة التى كان يتصرف بها هذا الغريب . ولذلك اخذ حاييم يرد ردودا مقتضبة جدا وبحدة متزايدة .

وادرك العجوز هذا التحول فاخذ يطالبه بنبرة ابعد ما تكون عن اللامبالاة بالاجابة عن اسئلته بالتفصيل ، اذ انه لم يأت الى هنا للهو ، بل ارسلته الحاخامية التى يعمل فيها مساعد ديّان ، الى جانب كونه «خاسيدا» اصيلا .

ادرك حاييم ان قلقـــه لم يكن بلا مبرر . كان يعرف ان شخصية مساعد الديان شخصية هامة للغاية فى سلم المناصب الدينية . وكان من صلاحياته المحافظة بدقة وبلا كلل على نقاء دين الاجداد ، والاهتمام باستمرار بان يتقيد اليهود بكل دقة بتعاليم التوراة وبالتقاليد العريقة . وكان حاييم يذكر ، منذ ان كان يدرس فى مدرسة التلمود قبل التحاقه بالمدرسة الثانوية ، ان مدرس الديانة اليهودية قال ذات مرة ان «الخاسيد الغبى ، مثله مثـــل المارق الخبيث ، يدفع العالم الى الهلاك . . . فعندما يرى الخاسيد امرأة تغرق فسيمتنع عن انقاذها لمجرد ان يقى نفســه من شر النظرة الحرام الى جسدها العارى . . .» .

وسأل العجوز بتقزز وهو يومئ نحو اويّا المرتجفة رعبا :

– ومن هذه المرأة الواقفة هنا ؟ من اين هى ؟

اربكت وقاحة العجوز حاييم . وقبل ان يجمع شتات افكاره ليقاطع مساعد الديان كان الاخير قد حدج اويّا بنظرة احتقار وسأل من جديد :

– وهل حقا يعيش معها المتطوع كزوج وزوجة ؟

– نعم ، طبعا . . .

وانهال على حاييم سيل من السباب : اتهمه العجوز بارتكاب اكبر معصية وهى الزواج بامرأة من دين آخر . ورغم ان مساعد

الديان كان يرى الى مدى يضيق به حاييم وينزعج منه ، الا انه تجاهل ذلك واستمر يسأله باصرار عن التفاصيل الحميمة فى حياتهما الزوجية . ومضى بلا حياء وبالحاح يستقصى كل جوانب حياة حاييم ووالديه . كان يريد ان يعرف بلا جدال هل يتردد والد حاييم يوميا على الهيكل ام ايام السبت فقط ، وهل يذهب لاداء صلاة الصبح ، ام يشهد فقط صلاة العشاء . وبنفس الاصرار راح يستفسر عما اذا كانت والدة حاييم امرأة متدينة ، وهل كانت تحلق شعرها تماما وتحمل «باروكة» كما تقضى الطقوس التقليدية بالنسبة للمرأة المتدينة حقا ، ام انها ابقت على شعرها الاصلى ، وهل كانوا يراعون التقاليد والطقوس فى المنزل ، وهل كان ابوه يدخن يوم السبت ، وهل كانت امه تطبخ فى هذا اليوم ، وهل لاحظ حاييم ان اباه اختلط بنساء اخريات ، وخاصة من قوميات اخرى ؟

وبعد ان تلقى راعى الحاخامية اجوبة شافية الى هذا الحد او ذاك على كل هذه الاسئلة راح يستفسر عما اذا كان حاييم قد تعرض عند مولده للختان ، وهو الطقس الذى يرمز الى «الاتحاد بين الرب واسرائيل» ؟

ورغم القلق الذى كان يعذب حاييم فقد جعله سؤال العجوز هذا يبتسم بتحفظ . فاجاب مازحا بحزن :

– انا شخصيا لا اذكر بالطبع هذا الحادث فى حياتى ، ولكنى اخمن اننى لم استثن منه . . . لقد قلت لكم ان والدىّ يهوديين طبيعيين !

لم ترض هذه الاجابة مساعد الديان ، فزر عينيه بشك وسأل بتهكم حاقد بعد فترة صمت :

– الم يتحدث ابوك عن ذلك ابدا ؟ غريبة ! الا يقول لابنه الغالى ان الامة كلها خلال القرون الطويلة تفخر بهذه العملية الطقوسية التى تجرى للمولود الذكر فى اليوم الثامن لولادته ؟ هل هذا يجوز ؟ أتدرى انه حتى ملوك الانجليز اخذوا عنا هذه العادة الطقوسية ! وانه حتى عندما اقترح بابا روما نفسه فى سورة غضبه على نجاشى الحبشة ان يكف عن ختان الرجال فى بلده ، اجابه الامبراطور بانه «لن ترضى امرأة حبشية واحدة بالزواج من رجل

غير مختون» . . اما انت ايها المتطوع فلا تعرف شيئا عن ذلك ، والادهى من هذا انك تتحدث بهذه اللامبالاة عن هذا !

لم يرد حاييم بشيء على العجوز ، بل هز كتفيه . ولكن العجوز اعتبر انه طالما ان رد المتطوع غير واضح فسيتحتم اجراء كشف فى الايام القليلة القادمة .

– سيتمكن رجالنا الاتقياء بصورة ما من ان يعرفوا هل اجريت لك هذه العملية ام لا ! . .

لم يرق لحاييم هذا الكشف القادم عليه ، خاصة وانه يجيء فى وقت غير مناسب بالمرة ، فهو بحاجة الى كل ساعة فعلا وهو يبحث عن مورد رزق . وتذكر لاارادياً ان النازيين ورجال الحرس الحديدى الفاشى عندما كانوا يمسكون بشخص يرتابون فى انه يهودى ، كانوا يحددون بمثل هذا الكشف انتماءه الى الديانة اليهودية .

ومضى العجوز يسأل بلا هوادة :

– حسنا ، وكيف الحال بالنسبة للطعام عندكم ؟ بالنسبة للاوعية مثلا ؟ اروني سكاكينكم !

فاخذ حاييم من على الرف سكينا صغيرا واعطاه للعجوز .

– اذن فانتم تستخدمون سكينا واحدا لمنتجات الالبان واللحوم ؟ ايها المارقون ! آى – ياى . . . وانا ارى انه ليس لديكم اوانى خاصة للالبان واخرى للحوم ؟ ! وتشترون اللحم طبعا من عند الاردنيين ؟ لانه ارخص ، هه ؟

كان العجوز ذو اللحية يتحدث وهو يتمايل فوق المقعد وكأنه مصاب بمغص حاد فى معدته . وكان يندب بين الحين والحين :

– آى – ياى – ياى . . . ما هذا الذى يجرى فى هذه الدنيا الحقيرة ! . . آى – ياى – ياى . . ما الذى يجرى !

واكد حاييم لراعى الحاخامية انهم لا يشترون شيئا من العرب ، اما بخصوص الاوعية فهم لم يتمكنوا بعد من اقتناء كل ما يلزمهم لانهم وصلوا من مدة قريبة نسبيا ودون اية امتعة .

كان الديان عازفا عن السماع ، ومضى يتمايل بحسرة ويدمدم ببعض التعويذات . وامال رأسه جانبا وزر عينيه بخبث وسأل فجأة بلهجة غامضة :

– حسنا ، وهل كنت اول رجل لديها . . . لدى هـــذه الغريبة ؟ ام انك ايضا لا تدرى ؟

وهز حاييم كتفيه من جديد باستغراب وقال :

– انا لا افهم ابدا لماذا يهمك هذا الامر ؟ وعموما كيـف يمكن القاء هذه الاسئلة ؟

واتضح ان من وظائف الحاخامية الاشراف على هذه الناحيـــة من نواحى الحياة الزوجية للمقيمين فى ارض الاجداد .

وقال العجوز فى ختام شرحه :

– وبالمناسبة ، هل يعرف المتطوع الشاب ما هو الشيء الذى يمكن ان يؤكد عذرية الزوجة ؟

تضرج حاييم خجلا ولم يستطع ان يتفوه بكلمة . بيـد ان العجوز استمر فى الاستفسار بعناد دون ان يتحرج فى استخدام الكلمات وهو يحدق فى أويتا المرتجفة بنظرة فاحصة .

وادرك حاييم انه ارتكب خطأ عندما لم يخبره على الفور بما حدث . فربما تركه العجوز الوقح عندها فى حاله . اما الآن فكان على حاييم ان يدفع ثمن خجله مجيبا على كل سؤال من اسئلـــة ممثل الحاخامية .

وعندما رأى العجوز ارتباك حاييم وجد من الخير ان يشرح له سبب ارهاقه بهذه الاسئلة :

– ان والدك هو كوهين ، وانت تعرف هذا طبعا ؟ الحمد لله . . اذن فابنه ينتمى أيضا الى هذه الذرية المميزة من أبناء شعبنا . واذا كان الابن قد ضل سواء السبيل بسبب صغر سنه ، فهذا لا يعنى أنه لم يعد من ذرية كوهين . . . فهذه الذرية حسب التوراة تتمتع الى الآن بمميزات : مثلا هى تدعى قبل الجميـــع لقراءة التوراة . . . وليس هذا فحسب !

وشرح العجوز بصوته المبحوح الممل انه بالاضافـــة الى المميزات فان التلمود يضع قيودا معينـــة على هذه الفئـــة الارستقراطية من اليهود . واوضح العجوز انه من المحرم على آل كوهين ان يمسوا الموتى وأن يدخلوا بيتا فيه ميت اذا لم يكن الميت من اقرب الاقارب . ومن المحرم قطعيا على آل كوهين ان

يتزوجوا من المطلقات او الارامل العاقرات وكذلك من النساء والفتيات اللاتى ينتمين الى دين آخر . . .

ومضى العجوز يقول :

— وبالاضافة الى ذلك لعلمك يحرم التلمود تحريما باتا الزواج من المعتوهين والبلهاء . . . وينتمى الصم والبكم الى هذه الفئة ! الم تكن تعرف ؟ كلا ؟ لا أصدق . . . كلام فارغ . . . ولكن ربما لم يكن لدى والدك وقت لشرح كل هذا لابنه . او ربما لم يسمع الابن وصايا ابيه ؟ هذا يحدث احيانا ، اننى اعرف ذلك . ولهذا لا ندهش عندما نجد فجأة ان متطوعا شابا يتجاهل العادات والنظم المقدسة . . . وليس عبثا ان قال اجدادنا الحكماء : «استعجل فى شراء الارض ، وتمهل فى اختيار الزوجة ، بع آخر ما تملك على ان تتزوج ابنة عالم» ، وقالوا أيضا : «ارتفع درجة وانت تختار الزوجة ، وانخفض درجة وانت تختار الصديق» . فماذا فعلت انت ؟ من هذه التى اخترتها ؟ وابنة من هى ؟ هل فكرت قبل ان تختار زوجتك ؟ كلا بالطبع .

استمر هذا الحديث الشاق المعذب اكثر من اربع ساعات . واحس حاييم بالغثيان من الانفعال والتقزز اللذين عاناهما وهو يصغى لممثل الحاخامية . وعلاوة على ذلك كان دائم القلق على أويّا . بالطبع لاحظت المسكينة كيف كان يحمر تارة ويشحب تارة اخرى ، ويصمت منكس الرأس تارة ثالثة . لم يكن من الصعب أن تدرك أن مصيبة جديدة قد دهمتهما .

وعندما نهض ممثل الحاخامية أخيرا من على المقعد كان المساء قد حل . وتفحص الحجرة مرة ثانية على مهل ، وركز بصره على أويّا مجددا ، وامتعض مشمئزا وهز رأسه بلوم ومضى الى الباب . وتوقف الديان عند العتبة ، وراح كالأعمى يتحسس قائم الباب بيده . واذا به يصرخ فجأة بغضب :

— ايها المارق ! لا يوجد على باب هذا المنزل حجاب ! آى — يا — ياى ، ما الذى يجرى ، ما الذى يحدث ، اسمع يا اسرائيل : لقد نسى ان هذا الحجاب ضرورى لكل بيت مأهول ، اذا كان من يقطنه يهوديا بالطبع ! ولكن ما دامت الزوجة من الغرباء

فهو ايضـــا اصبـــح غريبـــا . . . آى - ياى - ياى !
آى - ياى - ياى . . .

وبعد ان اجتاز العجوز العتبة التفت ، وحدج حاييم بنظرة كلها احتقار ، أمره بصرامة :

- تعال صباح الغد الى الهيكل الرئيسى . انه يقع فى شارع اللنبى ، عند زاوية آحاد - حام . . . وخذ معك كتاب الصلوات ! هل هو لديك أم أنك لم تمسكه بين يديك ابدا ؟ وعموما ماذا لديك ؟

- عندى «محظور» .

- محظور-ويترى ؟

- نعم .

- حسنا ، خذه معك . ربما تراك لم تردد ابدا صلاة الغائب على أمك فى يوم الغفران ؟ وكذلك لا تعرف أيضا طقس صـلاة الغفران ؟ اعترف بصراحة أيها الكافر !

فدمدم حاييم متعبا :

- كل هذا اعرفه . لقد قلت لكم اننى تعلمت فى مدرسـة التلمود . . .

- ودرست اسفار موسى الخمســة ، أم أنك لا تعرف حتى ما هذا ؟

- درسناها ، درسناها . . ودرسنا ايضا الكتب الخمسة مع تفسير «راشى» . . . اطمئن !

نظر العجوز بريبة الى المتطوع ، ووقف لحظات مفكرا ، ثم خرج من الفناء دون ان يقول شيئا وعلى مهل كانما يعتزم العودة ثانية .

وبعد انصراف الديان صفق حاييم الباب بغضب واوصـده بالمزلاج الثقيل . وانفجرت اويّا بالنحيب فورا . وما كاد حاييم يتمكن من تهدئتها قليلا حتى دق الباب من جديد . وذعر حاييم وقد ظن ان العجوز عاد ، ولكن الطرق تكرر خافتا حذرا ، ففهم حاييم أنه اخطأ ، فالقادم شخص آخر .

كانت تلك موليا . لقد كان وجود هذه المراة الطيبـة فى

تلك اللحظة جد ضرورى لأويّا . فقد كانت تفرح فى وجودها وتهدأ دائما وتنسى بلواها .

وسألت موليا :

– ما الذى جاء بهذا البعبع اليكم ؟ لقد ظننت انه سيبقى عندكم للمبيت . . . ما أطول ما جلس !

وحدثها حاييم فى بضع كلمات عن سبب مجيء راعى الحاخامية وما الذى كان يهمه .

فهتفت موليا بعد سماع حاييم :

– هذا ما كنت أظنه ! كلهم من عصابة واحدة ! . .

وروت له كيف جاء شابان فى الصباح الى صاحب مصنع «دلفينر» وطلبا منه أن يفصل على الفور العاملة الصماء البكماء التى تدعى أنها يهودية ولكنها فى الواقع يونانية . وهددا صاحب المصنع اذا لم يفعل بأن يلحقا به اضرارا لا ينقذه منها حتى التأمين .

– كانا من الايشيبوت * . . انتما لا تعرفان بعد اية عصابة هذه ! انهم على صلة بالأرجونيين والشتيرنيين ** ، ويمكن ان تتوقع منهما كل شيء ، حتى الحرق والقتل ! . . كان هناك مبرر لخوف نسائنا العاملات . . . من ذا الذى لا يخشى البقاء دون عمل ، أو لا قدر الله ، ضياع حياته ! لذلك لم يجرؤ احد على الدفاع عن أويّا عندما راح الاسطى يدفعها خارج الورشة . . . ثم انه لا فائدة من ذلك ! فالاسطى يتملق صاحب المصنع ، وصاحب المصنع ايضا دعك منه . . . هل فهمت كيف حدث ذلك ؟ . .

وصمتت موليا وخفضت رأسها بشدة وغطت وجهها براحتيها كأنما أذنبت فى حق حاييم لأنها لم تساعد أويّا . ولكن حاييم الذى كان مهموما لادراكه انه هو نفسه كان منذ وقت قريب منتميا الى هذه العصابة التى تعذب الآن حبيبة قلبه ، لم يفهم حالة موليا . وظل يحدق فى نقطة معينة بتجهم وصمت .

---

* الايشيبوت مدرسة تلمود عليا .

** منظمتا «ارجون تسفاى ليومى» و«شتيرن» الارهابيتان .

وقالت موليا دون أن ترفع راسها :

– انت تدينني . . ولكن صدقني ، ما كان دفاعي عنهـــا ليجدي شيئا . . .

وكأنما افاق حاييم لتوه من اغماءة ، اذ لم يدرك الا الآن مغزى ما كانت موليا تتحدث عنه ، فهتف بحماسة :

– ماذا تقولين يا موليا ! لم يدر ببالي ان ادينك ، وعموما فكيف يمكن أن افكر في ذلك ؟ على اى شيء ؟ اى دفـــاع يمكن ان يكون ؟ لا يمكن ان يهدم المرء جدارا براسه ، اننى أعرف ذلك . وهل انا لا أرى من يقف ضدى ؟ . . وتلعثم حاييم ، فهل يجرؤ لسانه على القول بأنه كان عضوا في «ارجون تسفاى ليومى» ؟ وهل يمكن ان يبوح بذلك حتى لموليا هذه المراه الطيبة الرقيقة ؟

وقطعت موليا صمت حاييم الممض :

– لا داعى لليأس . فلديك مع ذلك معارف ذوو نفوذ ، وهذا هو المهم هنا ، رغم مرارة الاعتراف بذلك ! عليك ان ترجوهم بأن يتدخلوا ويسووا الأمر بطريقة ما ، والا فسيصبح وضعكما سيئا ، فأويّا ليست يهودية . . . هذه هى النظم هنا .

فأجاب حاييم وهو يبتسم بحزن :

– أعرف . اما بخصوص معارفى فقد فصلونى من العمل منذ اسبوع ، وبالذات لأن زوجتى يونانية .

ازعج هذا الخبر موليا . وادارت ظهرها لأويّا حتى لا تكشف لها عن اضطرابها ، واغمضت عينيها بارهاق . وقالت بعد صمت طويل مخاطبة حاييم بصوت خافت :

– لقد جئنا الى هنا بعد أن ملأوا آذاننا بالوعود وتوقعنا أن نعيش حياة صافية مشرقة . كنا نظن أننا سنكون بشرا بين بشر ، أن طفلنا سيكون بمنأى عن المذلة والاهانة . . . لم نكن نطمع في سعادة اكبر من ذلك . وكان زوجى يقول : «اننا في وطن اجدادنا ، على أرضنا !» . . . والآن لم يعد على قيد الحياة . مات في المستشفى . . وابنى أيضا ذهب . . .

وعصرت موليا راسها بذراعيها وراحت تمشى في الغرفة وهى تترنح .

وهتفت بصوت عال وكأنها لا تخاطب حاييم بل حشـــدا وهميا :

– أرض الميعاد ؟ ! أنهار الحليب وجبال العسل ؟ ! كل هذا كذب ! كذب رهيب ! أتسمعونني يا ناس ؟ ! خبروني اين هو الشعب الذى كان سعيدا هنا ومتى ؟ من هنا ، وقبل ظهور المسيح بوقت طويل ، تبدأ بلوى الشعب اليهودى كله !

وبكت موليا ، وغطت وجهها براحتيها ، وتهالكت خائرة القوى على المقعد ثانية .

ولما لم يجد حاييم من الكلمات ما يطيب به خاطرها ويخفف عنها بلواها راح يردد آليا :

– اشربى ماء ! اشربى مـــاء يا موليـــا ! ستشعرين بتحسن . . . لا تعذبى نفسك هكذا . . اشربى !

وفجأة نهضت موليا بنشاط ، وشدت قامتها ، ومسحـت دموعها بسرعة وسوت شعرها وشدت بلوزتها . وكانت حركاتها دقيقة منتظمة كأنها تستعد كالمعتاد للظهور على خشبة المسرح . كانت هذه موليا اخرى ، مسيطرة على نفسها ، مشدودة ، كأنما لم يكن هناك دموع أو يأس . وراحت تتحدث عن طيبة البقال الأعرج الذى كان يعطيها المواد الغذائية بالأجل عندما كان زوجها مريضا ، وعن الطبيب الذى رفض ان يأخذ اتعاب الكشف على زوجها المريض عندما علم أنها كانت ممثلة فى بودابست . ونهضت مودعـة ، فعانقت أويّا بقوة وقبلتها طويلا ثم قالت لحاييم :

– ومع ذلك عليك ان تسوى الأمر مع الحاخامية . لقد جئت قبلك الى هنا وأعرف أحسن منك هذه المؤسسة .

وفى اليوم التالى ، بدلا من ان يتوجه حاييم للبحث عـن عمل ، ذهب فى الصباح المبكر الى الحاخامية ولم يذهب الى الهيكل كما امره مساعد الديان . «ليس الجميع يذهبون الى هناك ؟ اما انا فلا احتاج اليه بتاتا» .

وعندما لم يجد هناك العجوز الذى جاءهما بالأمس خرج الى الشارع حيث تجمهر جمع غفير ، يبدو انه جاء ايضا بناء عـلى استدعاء .

١٨٠

وصاح رجل طويل نحيل بصوت مبحوح متوتر عابث :

ــ جماعة الديانين كلهم اغلقوا على انفسهم الهيكل الرئيسى ! حالة طوارئ ! انهم يؤدون صلاة «مى شى بيراح» طلبا لشفاء ابن احد الاثرياء الأمريكيين . . . يضربون صدورهم بقبضاتهم بحماس ، والافضل لو ضربوا رؤوسهم فى الجدار . . . على الأقل سيكون فى ذلك فائدة لهم !

أصغى الناس الذين كانوا ينتظرون فى سكينة عودة رعاة الحاخامية من الهيكل بانتباه الى هذا الشخص السليط اللسان العالم الواسع الاطلاع .

ــ لدى الأمريكى تل من النقود ! منذ بضع سنوات تبرع بمبلغ ضخم لشراء قطعة أرض هنا لاحدى المستوطنات ، والآن تبرع بمبلغ كبير لشراء النوط الفضى المذهب للتوراة ! . . يا له من حمار ! يبذر نقوده على اشياء تافهة . . . كان من الأفضل لو أقام ملجأ وأطعم الشيوخ الذين لا يزالون ينتظرون المنّ من السماء ويتضورون جوعا عند «حائط المبكى» . . . ومن أين جاءوا بهذه الكثرة ؟

تلفت الناس المحيطون به بخوف ، خشية ان يقترب منهم خفية أحد رعاة الحاخامية .

ومضى الرجل الطويل يقول .

ــ كان ابن الثرى الأمريكى هذا يندفع بسيارته كالمجنون ، وهو الآن ممزق بالطول وبالعرض . وبينما هو طريح الفراش فى أمريكا يصلون من أجله فى فلسطين . فلماذا هذا فى رأيكم ؟ انهم يريدون اعطاءه اسما ثانيا هو ليب * . وذلك لكى تضل الأرواح الشريرة التى كانت تعرفه باسم هارى فلا تتمكن من جره الى العالم الآخر ! . . هل تعجبكم هذه الكوميديا ؟ انا مثلا أحس من جراء ذلك بانقباض فى المثانة ! . . ولكن فى الغالب ستكلف هذه الكوميديا الأمريكى عشرات الآلاف من الدولارات ! والا ما ذهب هؤلاء المتظاهرون بالتقوى لاداء الصلاة بهذا الحماس ! لو

* الحياة .

مزقتهم اربا ما كانوا ليذهبون . انا اعرف هذه الاشكال ! ولكن اطمئنوا ، لن يصل الى ايديكم فلس واحد من هذه الدولارات بل ستختفى كلها فى الجيوب العميقة لحاخاماتنا وخاسيدينا وديانينا الأتقياء . . . وأستطيع ان اؤكد لكم انه لو وقعت هذه المصيبة ، لا قدر الله ، ليهودى فقير فلن تقيم هذه الزمرة التقية صلوات «مى شى بيراح» بمثل هذه العظمة ولن تثابر فى الدعاء للعلى القدير من اجل شفائه . . . انها النقود ! والنقود وحدها ! . .

علم حاييم من الرجل الواقف بجواره أن هذا الشخص كان سمسار تأجير شقق ومبان وبيع وشراء مساكن ، وكان ، كما اعترف هو نفسه بصراحة ، لاعب زهر مقامرا . وهذا الأمر الأخير هو الذى كان السبب فى استدعائه الى الحاخامية .

وقال :

— هؤلاء الرعاة النتنون يريدون فضحى أمام الناس كلهم . اما انا فأبصق عليهم من اعلى قمة جبل صهيون ! اننى ألعب بنقودى ، واذا حدث وصفرت الريح فى جيوبى الخاوية فأنا وحدى الذى أعض اصبع الندم ! فمن غير المعقول ان تطلب من هؤلاء هبة . انهم يبخلون عليك بكوب ماء حتى لو هلكت من العطش ! اننى اعرف هؤلاء الخاسيدين العظام . . . اتظنون انهم منزعجون من عيبى ويريدون ان يضمنوا لى الجنة فى العالم الآخر ؟ هذا أبعد ما يكون ! هم يريدون فقط ان يحصلوا على نسبة من ارباحى !

تفحص السمسار فى وجوه المحيطين به ، ولما لمح فيها التعاطف ، استطرد بحماس اكبر :

— فلتحاول ان تخفى عنهم قرشا ! لا تستطيع ، اللهم الا فى المنام . . . ولا يغامر صاحب قهوة او دار دعارة واحد بأن يخفى عنهم من الذى ملأ جيوبه فى داره . واذا تجاسر أحدهم واخفى عنهم فسوف يلتهمونه بأحشائه هو وبضاعته الحية . سيجدون ما يتمحكون به . انهم يجيدون ذلك . . نعم ! سيقولون مثلا ان فتياته لسن على ما يرام ! حدث ذلك غير مرة . . . اذا لم تسو أمورك معهم ستكره عيشك . . .

وارتفعت معنويات حاييم وهو يصغى الى السمسار . وفكر : «وما شأن الحاخامية بزوجتى ؟ اننى ابصق عليهم من قمة جبل صهيون ! ما الذى يمكن ان يفعلوه بى ؟!» .

كانت الشمس فى كبد السماء عندما ظهر رعاة الحاخامية على امتداد الشارع فى طابور مرتدين قفاطينهم السوداء الطويلة ومعاطفهم القصيرة .

وقال السمسار ساخرا :

– أوه الرعاة يبدون وكأنهم قادمون من عرس ! لا بد ان هؤلاء الملاعين شربوا اكثر من كأس فى صحة فاعل الخير الامريكى . ولم لا ؟ لو أعطيتهم غسالة لشربوها طالما هى بالمجان !

وضحك الناس بتحفظ ، وعندما رأوا الموكب القادم راحوا يبتعدون تدريجيا عن السمسار . وحتى هذا الثرثار نفسه صمت بحكمة عندما اقترب رعاة الحاخامية ..

ومر مساعد الديان بجوار حاييم والسمسار دون ان يعيرهما نظرة ، وقد نكس رأسه بشدة وحكت قدماه الأرض بعجل .

وهمس السمسار وهو يغمز بعينه لحاييم :

– ساحر طيب !

واومأ ناحية الشيخ الذى تجاوزهما ، وأطلق سبابا مقذعا .

ومن خلف العجوز مر الحاخام الاكبر بخطى متزنة وهيأة أبية ، وقد عقد يديه خلف ظهره . وانحنى له باحترام كل من كان واقفا عند مدخل الحاخامية فرد عليهم بايماءة لا تكاد تلحظ .

واستدعى حاييم فولديتير فى الدفعة الأولى . وفى غرفة صغيرة قذرة ، تكاد تخلو من الأثاث ، رأى حاييم الديان العجوز المعروف يقبع على أريكة غير بعيد عن الحاخام الاكبر الذى استقر بعظمة فى كرسى ذى مسند يرتفع عاليا فوق رأسه .

لم يسأله لا هذا ولا ذاك لماذا لم يأت الى الهيكل . والاكثر من ذلك ، ولدهشة حاييم ، ان الحاخام لم يبد أدنى اهتمام بأويّا ولا بعقيدتها . ألقى عليه عدة اسئلة شكلية بكسل ونبرة لامبالية وهو يفكر فى شىء آخر ويتثاءب كثيرا . وبصوت نعسان تماما قال فى الختام مخاطبا الديان :

— ان روح الشاب الطيبة قد أساء اليها تصرف مشين . . . فليطلع المتطوع على «الجيتين» * . ودعه يقرأ «الكيتبوت» ** . . ان المذنب يحتاج الى الوحى اكثر من اى شخص آخر ! والله لن يتركه . . .

وعلى الفور أخذ الديان العجوز حاييم الى راع آخر من رعاة الحاخامية أصغر درجة من الحاخام ولكن أعلى من الديان . كان هذا الراعى سمينا وأحمر كخنزير عيد الميلاد ، وبدون أية مقدمات انهال على ضيفه بالتهديد للجريمة الشنعاء التى ارتكبها فى حق التوراة والشعب ، ثم بدأ فى القاء المواعظ . ولم يترك الديان الذى كان حاضرا فرصة لالقاء الزيت على النار بتعليقاته . واصغى حاييم اليهما متجهما ، ولكى يتغلب على الخوف المألوف الذى راح يتسلل اليه أخذ يردد فى نفسه : «أبصق من قمة جبل صهيون . . .» .

وظل الراعيان اكثر من ساعة يقرآن ويعلقان بالتنـــاوب على مقتطفات من كتاب ميدراشى *** . عندما اعتبرا ان الشاب قد ارهق بما فيه الكفاية ، عرضا عليه بصورة قاطعة اما أن ينفصل عن اليونانية ، وعندئذ لن تثار مسألة مخالفته لوصايا الاجـــداد بهذه الحدة ، واما فعلى اليونانية أن تعتنق الديانة اليهودية .

ولكن الديان قال كأنما عن غير قصد :

— ومن الافضل بالطبع ، ولا شك من الأسهل اختيار طريق المذنب النادم . فهذا اصح وألطف وأسلم . . . فمهما كان الأمر فيونانيتك ليست شخصا سليما . . .

وعلى الفور التقط راعى الحاخامية السمين هذه الحجة وبدأ يتوسع فيها . وحذر حاييم من ان اعتناق اليهودية مرتبط بالعديد من الشكليات الطقوسية البالغة التعقيد . وذكر على سبيل المثـال انه اذا أرادت المرأة التى تعاشر حاييم اعتناق اليهودية فسيكون عليه هو أن يقدم ما يثبت ان دخولها الدين اليهـــودى قد تـم بمحض ارادتها وكامل ادراكها . ولما كان هو مــــن آل كوهين

* مبحث عن الطلاق فى التلمود .
** مبحث عن الزواج فى التلمود .
*** من الأدب التلمودى الذى يوصى المؤمنين بالصبر والتسليم .

فسيكون عليه أيضا ان يقدم ما يثبت ان الفتاة التى يتزوجها لم تتزوج قبله . . . وبالاضافة الى ذلك فسيكون عليه أن يضمن أن لدى اليونانية من الجلد والصبر ما يكفى لان تراعى بدقة القوانين والقواعد التى تمليها التقاليد اثناء تأدية طقوس الانتقال من دين الى آخر .

وكان راعى الحاخامية يثير المسألة تلو الأخرى فى وجه حاييم محاولا تخويفه وارباكه واجباره على الاستسلام . فهل يستطيع المتطوع ان يضمن عدم معارضة المرأة الغريبة فى الذهاب الى حمام التطهير لاداء طقس غسل الجسد ؟ وكيف يستطيع أن يضمن انها لن تكابر عندما يكون من الضرورى تغيير اسمها ؟ وكيف يظن انه سيقدم للحاخامية العليا ما يثبت ان اليونانية التى تعاشره صماء بكماء منذ مولدها ؟ وهل هو واثق من ان هذه المرأة لن تغير رأيها فى الساعة الحاسمة ؟ وألن تعارض ؟ ألن ترفض ؟ وخيل لحاييم انه لن تكون هناك نهاية لهذه ال«ألن» .

وأنهى راعى الحاخامية حديثه الطويل الممل بأن أعطى حاييم مهلة يومين للتفكير ، وسلمه كتابين ضخمين يحتويان على وصايا دينية للنساء لكى يطلع عليهما فى البيت بعد أن جعله يوقع على ايصال باستلامهما . والزموه ان يقرأ هنا بصوت مسموع فصلا من التلمود يتناول اللعنات . وحسبما قال الديان فان ذلك يحمى حاييم من ارتكاب أعمال غير حصيفة ويوقفه فى الوقت المناسب .

وانزعج حاييم من اصرار رعاة الحاخامية على دفعه الى الطلاق من أويا . ورغم انه كان بحالة سيئة ، ويشعر بدوار وقد خارت ساقاه المتعبتان فقد صمم على قراره : لن يفترق عن حبيبته .

وبعد أن غادر حاييم الحاخامية أخذ يهدئ روعه وعادت افكاره تدريجيا الى ما كان يشغله بالدرجة الأولى : أين يجد عملا . فقد كان عليه ان يكسب ثمن لقمة الخبز .

غير ان نبأ رهيبا كان فى انتظاره فى البيت . ففى الصباح قطعت موليا شرايينها . . . وعثروا عليها فاقدة الوعى . وفى الطريق الى المستشفى لفظت انفاسها فى عربة الاسعاف بسبب النزيف . . .

١٤

كان انتحار موليا صدمة عنيفة لأويًا فاصبح نومها قلقا متقطعا ، وبعد ان كانت قبلا لا تعرف الكلل وهى تعمل فى شئون البيت ، اصبحت الآن تجلس الساعات شاردة تحدق فى نقطة ثابتة ، او تتجول دون هدف فى الغرفة التى الهبتها الشمس ، وتبكى كثيرا .

وحاول حاييم تهدئتها بشتى الطرق وتظاهر انه غاضب منها لانها لا تبدى اهتماما بصحتها وصحة المولود المنتظر . وكانت أويًا تدرك انه من الصعب على حاييم الخروج الى العمل وتركها فى حالة حزن لا عزاء له ، بيد انها لم تستطع ان تتمالك نفسها . وعندما كانت تودعه كانت تحاول ان تبدو مرحة وتبتسم ، بينما تترقرق الدموع فى عينيها وترتعش شفتاها . وكان حاييم ايضا يبتسم عند الوداع ، ولكن قلبه كان منقبضا .

توقف حاييم مفكرا بعد ان عبر البوابة ، فالى اين يمضى ؟ هل يتبع نصيحة المرحومة موليا الملحة ويذهب الى الحاخامية ، ام يبصق عليها من قمة جبل صهيون ، كما كان يقول ذلك السمسار الذى سب الخاسيدين والديانين وغيرهم من رعاة الحاخامية . وقال حاييم فى نفسه : «حسنا ، وما الذى يمكن ان يفعلوه بى لو انى ذهبت اليهم بعد بضعة ايام ؟ اننى لا اخشاهم . . . فانا لم اسرق احدا ابدا ولم اقتل احدا . . . بالفعل !» .

ومضى حاييم ليبحث عن عمل . وتوجه من جديد الى محطة يافا . كان من الممكن ان يكسب جيدا فى ذلك اليوم ولكن الحمالين كانوا قد وزعوا العمل على انفسهم منذ الصباح الباكر . وانهالوا عليه بالتقريع فى غمرة فرحهم وانفعالهم :

– قريبا ساعة الغداء وحضرته يأتى الآن . . .
– طبعا طبعا ، ألم يتعود على ذلك عند سلمنزون !
– الوكلاء يأتون عندما يريدون ، الا تعرف ذلك ؟!
– كلا ، كلا ! بل كان يتقلب فى احضان سمرائه ! انها قبرصية . . . اتعرف اى نساء هنّ ، اووه !

ابتسم حاييم بخجل وهو يحمر ويصفر . لم يكن لديه ما يرد به . اما بينه وبين نفسه فقد فكر بحزن انه تأخر لانه كان يطيب خاطر أويًا . ومع ذلك لم يفلح كما انه وصل الى هنا متأخرا .

ووراء ساحة التفريغ جلس فى الظل الحمالون الذين جاؤوا متأخرين كحاييم وظلوا لذلك بلا عمل . كان بعضهم يلعب الزهر . والبعض الآخر يتحدث بحماس عن شىء ما . واقترب حاييم منهم وجلس بجوار حمال يعرفه وطلب منه ان يوضح له ما يقوله العربى النحيل ذو الوجه الذابل . لقد عمل فى المحطة منذ عدة سنوات ، ولكن عندما نشب القتال فى الخريف الماضى بين انجلترا والمانيا ونقص حجم العمل ، مضى يبحث عن حياة افضل . واراد ان يعمل فى مصفاة البترول فى حيفا . وقال العربى :

– المصفاة هناك كالمدينة وحياة النبى ! والعمال هنـــاك اكثر من السحالى فى الخرابة . . . والبترول يجرى ليل نهار فى الانابيب من العراق مباشرة ! . . وقلت لنفسى : اذا كان الامر هكذا فلى امل فى الحصول على عمل . . ولِمَ لا ؟ وظللت انتظر طويلا طويلا ، وبلا جدوى . ونصحنى فلاح فقير ان اذهب الى سدوم ، فذهبت . . هناك امتياز لشركة . . ووجدت الاردنيين فى سدوم كالرمل فى الصحراء . . – ومضى العربى يتحدث وهو يلوح بيديه بعنف . وكانت يداه معروقتين نحيلتين ومن ثم بدتا طويلتين جدا – وقبلونى فورا . ولكن العمل هناك يحتاج الى جمل لكى يقوم به ، وحياة النبى !

وصاح عربى فى عمامة بيضاء بدهشة :

– واه يا فايق ! الم تسمع يا اخى انهم يستخرجون املاح البوتاسيوم فى سدوم .

فقال المتحدث موافقا :

– هذا صحيح . سمعت بذلك ولكنى لم اصدق . ظننت انها السنة السوء تريد تضليل الناس . ولكنى جربت ذلك على عظامى فصدقت . كان هنـــاك انجليزى يقول : «اذا استخرجت يا فايق طنا من البوتاسيوم فستحصل على الجنيهات !» – ولكن عندما يحصل فايق على الجنيهات تكون عيونه اصبحت اكبر من

آذان البغل ، ويداه وساقاه نحيلـــة تتلوى كغصن الزيتون ، وركبتاه ومرفقاه منتفخة كسنام الجمل ، ويتحشرج فايق المسكين كالحمار المنهك . . وحياة النبى ! انها شركة «بالستاين بوتاس كومبانى» ! امتياز . . .

فقال شخص ما :

— كان من الافضل ان تذهب الى ناتانيا . . يقولون انه يمكن ان تكسب هناك بصورة لا بأس بها ، بل وتحصل على مهنة !

فاجاب العربى ذو العمامة ساخرا :

— عندما ينمو للحمار قرنان يا اخى ستحصل على مهنة فى ناتانيا . فهناك ورش الماس ، واصحابها يميلون الى تشغيل الاروبيين ، اما الفلسطينيون ، عربا كانوا ام يهودا ، فلا يقبلونهم الا فى اعمال ليست اسهل من استخراج الاملاح فى سدوم . . .

وهمس جار حاييم فى اذنه بان العربى ذا العمامة كان يعمل مدرسا فى السابق . واضاف الحمال بصوت خافت :

— انه رجل متعلم . ويقولون انه طرد من المدرسة لانه ذكى جدا ! . . انه يأتى الى هنا لفترة قصيرة فيعمل قليلا ، ثم يختفى ثانية . . . يعرف كل شىء !

لم يعر حاييم اهتماما لكلمات جاره هذه . فقد كان انتباهه كله منصبا على معرفة المزيد من المعلومات عن اماكن ونوعية الاعمال التى يمكن ان يجدها .

وقال العربى ذو الوجه الذابل :

— اشتغلت فى القدس ايضا . فى مصنع «نورا» للكبريت . كنت مستريح البال هناك ، وحياة النبى !

فقاطعه العربى ذو العمامة البيضاء ، الذى كانوا ينادونه هنا بالمعلم :

— وما السبب يا ترى ؟ هل لانهم لم يسلخوك ثلاثا بل مرتين ؟ ام انهم هناك لا يخدعون العمال ؟ ام ربما كانوا يدفعون لك وانت لا تعمل ؟ واه ، واه ! . .

ودوى ضحك عام .

فقال العربى ذو الوجه الذابل :

ـ كلا يا معلم ، وحياة النبى ! انت لم تعمل هنـــاك فلا تتحدث هكذا . انت رجل متعلم ، رجل ذكى ، رجل طيب ، الجميع يعرفـــون ذلك . لكن لا داعى للحديث بهذه الصورة ! الناس فى مصنع «نورا» ايضا اذكياء جدا . . . ففى عيد النبى موسى حدث ذلك . اراد صاحب المصنع ، ذلك الشيطـــان ، ان يطرد عاملا فلسطينيا ، فلم يمكنه العمال من ذلك ، العرب واليهود . الجميع وقفوا مع العامل كاخوة ! وعندئذ استدعــى الشيطان الانجليز ، فوصلوا فى سيارات كبيرة فما حققوا شيئا . وعندئذ بدأوا يطلقون النار ! فلم يحققوا شيئا كذلك . فقال الانجليز : العرب متمردون ! يريدون اثارة المذابح الطائفية . . . وهذا ليس صحيحا ! هكذا قال فلاحو عين كريم . . . وهم ايضا وقفوا مع العمال بقوة ! عندئذ اطلق الانجليز النار عليهم ايضـــــا . وهب عمال السكك الحديدية من حيفا لمساعدة العمـــال والفلاحين . . . وهنا اطلق الانجليز النار أيضا . . . كان القتلى كثيرون فى كـــل مكان . . . رأيت ذلك بعينى . . . فليعاقبنى الله اذا كنت اكذب . . .

فقال «المعلم» معتذرا :

ـ اعذرنى يا اخ فايق ، اعذرنى ! لم أتبين على الفور مـــا كنت تريد ان ترويه لنا . لقد سمعت بالطبع عن الحوادث الفظيعة التى وقعت فى عيد النبى موس . . . سمعت . . . نعم هذا صحيح يا جماعة ! الاخ فايق يقول الحقيقة الخالصة . الانجليز يؤيدون بقوة الاقطاعيين العرب والاغنياء اليهود ، ويقبضون ذهبا من هؤلاء واولئك . . . ذهبا كثيرا ! كثيرا جدا يا إخوة ! العميان وحدهم لا يرون ذلك . . . اما العمال فآن الاوان لكى يد ركوا ان الجوع يصيب معدة العربى ، كمـــا يصيب معدة اليهودى ! وآن الأوان ايضا ليدركوا انه من الافضل لهؤلاء واولئك ان يساندا بعضهمـا البعض ، وان يمنعا الشيطان معا من سرقة خبزنا ! . . ومن يحمل على كتفيه رأسا ، لا قرعة ، يفهم هذا . نعم ، يفهم !

بدأ حاييم يدرك لماذا اغلقوا ابواب المدرسة فى وجه المعلم السابق . . . وتأمله ، ثم تفحص الآخرين : كان الحمالون يصغون اليه بانتباه ويهزون رؤوسهم موافقين .

ثم انتقل الحديث من المتاعب المعيشية الى مواضيع دينية من التوراة . فقد تجادل فايق وجار حاييم حول من هم الذين كان يعنيهم الرب – اليهود ام العرب – عندما قال لابراهيم : «لنسلك اعطى هذه الارض من نهر مصر الى نهر الفرات الكبير» ؟

وفهم حاييم ان مثل هذه الموضوعات تعتبر موضوعات دائمة فى هذه الانحاء ، ومن الصعب ان تحدد مَنْ المحق . ويبدو ان المعلم العربى كان من نفس الرأى . فقد راح يهدئ حماس المتجادلين بطريقة لبقة حذرة ، حتى لا يغضب اى طرف . وراح يستميلهم الى الصلح بالمزاح تارة ، وبالكلمة الحكيمة تارة اخرى . وذكرهم بان التوراة والقرآن ذكرتا انه كان لابراهيم ولدان : اسماعيل ، الذى ولدته هاجر ، ومنه جاء نسل العرب الشماليين ، واسحق ، الذى ولدته سارا . ومنه جاء نسل بنى اسرائيل .

فانفعل جار حاييم ، الحمال دافيدكا وقال :

– اسمها هاجر عندكم بالعربية . اما فى التوراة والتلمود فاسمها آجر ! وهى مصرية ، وتعتبر زوجة طارئة لابراهيم . . . وذلك فقط لانه لم يكن له ولد من سارا . وكانت سارا زوجته ، وهى التى قالت لابراهيم ان يعاشر الجارية المصرية . . .

فصاح فايق بلوعة :

– لا ! لست محقا يا دافيدكا ، لست محقا ! هاجر هى الزوجة الاولى لأبينا ابراهيم . الاولى ! وليكن اسمها آجر ، وليكن انها كانت جارية . . . ولكنها الاولى ! زوجته الاولى ! . . واسحق ابنه الثانى ! الثانى ! كانت سارا فى التسعين من عمرها عندما ولد اسحق . . . فى التسعين ! وكان اسماعيل فى السادسة والثلاثين . . .

وتدخل المعلم فى الحديث من جديد :

– لماذا تتجادلان ؟ ما الداعى لهذا أيها الناس الطيبون ؟ نحن لسنا قوما متوحشين . . . والعقلاء يعتبرون ان الرب عندما قال : «لنسلك أعطى هذه الارض» فقد كان يقصد كل نسل ابراهيم . وأبونا ابراهيم كما نسميه نحن المسلمين هو نفسه ابرام كما تسمونه انتم اليهود ! ويبدو انه كان يهوى المزاح . . .

ولهذا ينشب الجدال الآن . لقد عاشر زوجته سارا كما يحلو له ، ثم عاشر اخرى ، هى هاجر ، ثم عاد من جديد الى سارا ، وربما لهذا اصبح ابا لشعوب كثيرة ؟ اما هم ، هؤلاء البلهاء فما زالوا ، ومنذ آلاف السنين ، لا يعرفون أيهم ولد من اية زوجة . وهذا الخلط قديم يا اخوتى فلم نتجادل الآن ؟ اليس لدينـــا مصائب اخرى ؟

ابتسم الحمالون بتحفظ وهم يترددون امام بعضهم فى تأييد المعلم بصراحة . لكن واحدا منهم سأل بنبرة سذاجة مصطنعة :

– كما تقول ايها المعلم الذكى ، اصبح ابراهيم أبا لشعوب كثيرة لانه كان مزواجا ولم يعد يعرف اى ابن من ابنائه ولد من اية زوجة ؟

فاجاب المعلم متخذا مظهر السذاجة :

– واه ! ألا تعرف ايها الرجل الطيب ماذا قال الحكيـــم ؟ واه ! لقد قال : كثرة الزوجات لا تجعل الزوج ذكيا ، ولكنها فى المقابل تعطيه حشدا من القبائل ! . .

وتوالت التعليقات اللاذعة على القديسين الكبار والصغار ، ثم انطلق الجميع فى ضحك عام . ولم يبق متجهما الا فايق . راح يصوب نظرات استياء تارة الى هذا وتارة الى ذلك ، وعندما سمع ما يقوله المعلم هز رأسه باستنكار وتمتم بشىء ما .

وتظاهر المعلم انه لم يلاحظ ذلك وقال :

– منذ الف سنة كتب اخونا الطيب ، الشاعر العربى ابو العلاء المعرى ، كلمات حكيمة تستحق الذكر . قال : «اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين ، وآخر ديِّنٌ لا عقل له» !

وعند ذاك استدار فايق بحزم متحولا عن الجمع وجلس على ركبتيه وتمتم بالصلاة وهو يتمايل الى الامام والى الخلف . وصمت المعلم ، وسكت الآخرون . . .

وجلس حاييم قليلا ، ثم نهض بحذر ، محاولا الا يعكــر السكون الذى ساد احتراما للعربى المصلى ، واتجه نحو حنفية الماء . وتناهت الى سمعه ضجة غريبة من ناحيـــة المحطة . وركض الى هناك مندفعا ، ولم يخطىء ظنه . لقد كان عدة اشخاص يشترون

شحنة عند خزنة المحطة . وخف حاييم لمساعدة واحد منهم جاء ليدفع اجر نقل اسمدة كيماوية .

وعندما شحن السماد فى عربة بعجلتين يجرهـا زوج من البغال العجفاء ، دفع المالك لحاييم اجره ، وربما لانه لاحظ مثابرته ، فقد عرض عليه ان يعمل فى مزرعته .

وقال له بود :

— اذا اعجبك الحال ابق ، واذا لم يعجبك نفترق ، ولن يخسر اى منا .

وافق حاييم دون تردد . وحمل الى أويتًا على الفور النقود التى كسبها . كان المالك الذى التحق حاييم بالعمل عنده من اصل بلغارى ويدعى شيمون زيسمان . ومنذ اكثر من عشرين عاما جاء مع اوائل المهاجرين واستقر هنا . استأجر قطعة ارض كانت عائلته كلها تعمل فيها : هو شيمون ، وزوجته تسيبورا وابنتـه التى تبلغ الرابعة عشرة . وكان لدى زيسمان عاملة ، امرأة وحيدة ، ما زالت فى شبابها ، جاءت من مصر ، وكانت سوداء كالقـار ، ممتلئة كالكعك المنتفخ . وكانوا قد اعتادوا ان ينادوها بـ«فرنكا» رغم انه كان لها بالطبع اسم ولقب . وكانت بمثابرتها فى العمل تذكر حاييم بكبير الوكلاء دافيد كنوخ ، لكنها خلافا عنـه كانت شريفة الى اقصى الحدود ، وثرثارة بصورة غير معقولة ، وطيبة القلب ومتطيرة .

وصاحت بالعاملة المياومة العربية :

— لماذا تحدقين فى ضرع البقرة ؟ ضعى فى عينك عودا ، هيا ، بسرعة ! والا حسدت البقرة لا قدر الله !

همت بالزواج عدة مرات وفى كل مرة كانت الزيجة تفشل : فتارة يتضح ان العريس صعب الاقناع ، وتارة اخرى ترفض هى قبول شروطه . وعندما تمت الخطبة اخيرا ، وحطمت بعض الاطباق تفاؤلا ، هرب العريس بعد ان اخذ جزءا من اموال العروسة المخصصة للبائنة «مقدما» ، بحجة افتتاح دكان بقالة . وانتظرته «فرنكا» طويلا وسكبت دموعا كثيرة ، وكانت ترد على النصائح الملحة بابلاغ الشرطة للبحث عنه او توكيل محام قائلة : «ما دام

ليس هناك سعادة ، فلماذا انفق فوق ذلك على المحامى ؟ واذا وجدوه فما حاجتى اليه ، كما انى لن استرد اموالى ! فهو ايضـــا سيوكل محاميا . . . تعب على الفاضى» .

ومنذ ذلك الحين اخذت توفر النقود للشيخوخة ، وهى تعمل دون كلل وكان مزرعة آل زيسمان هى مزرعتها الخاصة . كان من العسير ان تحدد متى يبدأ ومتى ينتهى يوم العمل هنا . فشيمون مثلا كان يستيقظ بعد منتصف الليل ، ويلتقط المصباح ويركض الى الحظيرة ليتفقدها ويطمئن الى ان البقر لم يترك دون علف ، ولم يصبه مكروه . وهكذا يبقى فى خارج البيت ، فليس من المعقول ان يعود لينام . خاصة وانه كان يجد دائما ما يفعله . وبعد فترة قصيرة تخرج تسيبورا المنزعجة فى اثره ، وتأخذ فى مساعدته .

وكان حاييم يستيقظ فى الفجر على قعقعـــــة الاوعية والدلاء وصرير طلمبة المياه والصيحات ، فيقفز من فراشه ويرتدى ثيابه بسرعة ويركض الى الفناء وهو يفكر بقلق انه لا يغتفر للعامل ان ينام بينما السيد مستيقظ .

ويلقاه شيمون هاتفا :

– الى اين تهرع ؟ هلا نمت . . . فالوقت مبكر . . . سيكون لديك ما يكفى من العمل طول النهار ، لا تقلق !

وفى تلك الاثناء يكون الماء قد غلى فى قدر كبير فوق موقد ضخم بينما تستحث «فرنكا» شخصا ما :

– ياللا ، بسرعة ، جاءتك داهية !

وتأكد حاييم ان رب العائلة بل والمزرعة ايضا ليس هو شيمون بقدر ما هى زوجته تسيبورا . كانت هذه المرأة النشيطة الحكيمة تسمى نفسها عن حق «رجلا فى جونلة» وزوجها «امرأة فى سروال» .

وكان شيمون بالفعل ضعيف الشخصية . كان يعمل بامانة ولا يفكر الا فى ان يؤدى فى الموعد المحدد اقساط سلفة «البنك الانجليزى الفلسطينى» ، ويدفع الايجار بانتظام ، ويقدم بضاعته فى احسن صورة ، والا . . .

كان يقول لحاييم :

— وإلا تسوء سمعتى وعندئذ يحل بى الخراب لا محالة ! ان هذا النير ، مهما فعلنا ، معلق فى رقابنا وسيظل معلقا . . .

ولم يكن يحلم بان يصبح مليونيرا ، فقد كان يعلم ان ذلك مستحيل مهما عمل ومهما تحايل ، ولكنه كان يعتبر انه كان ينبغى ان يصبح ميسورا منذ امد بعيد .

وخلافا عنه لم تكن تسيبـــورا تخشى المصاعب التى كانت تواجههم كثيرا فى العمل ، وكانت حتما تجد منها مخرجا فقط بفضل حصافتها ومثابرتها .

وكانت تقول لحاييم :

— يوجد اشخاص مفيدون وينبغى ان تكون علاقتك بهـــم طيبة ، رغم ان الكثيرين منهم لا يستحقون الا الاحتقار فقط بـــل واللعنة ايضا !

والى الاشخاص «المفيدين» كانت تسيبورا تنسب فى المقام الاول متسلمى المحصول الذين لا همّ لهم الا التمحك بان المحصول غير ناضج بعد او انه نضج منذ مدة طويلة . . .

وتقول تسيبورا بغضب :

— ولا يمكن ان تثبت لهم خطأهم . وعلاوة على ذلك فان هذه الاشكال تجهد ان تخدعك الكيل والميزان وتغالطك فى الحساب وتربكك . يسلخون جلدك ثلاث مرات ، ولكن لو حاولت ان تمس مصلحة الشركة فلن يعود عليك هذا الا بالشقـــاء . . . فهم يتقاضون عمولة من الشركة ! وكيف كنت تظن ؟

سئم حاييم سماع هذا كله . وعموما لم يكن صدفة ان تكره تسيبورا متسلمى المحصـــول . اذ اتضح ان آل زيسمان كانوا يبيعون محصولهم الشحيح من الحمضيات الى شركة «اوفير» . ولكن فى العام الماضى رفضت الشركة استلام المحصول كله باعتبـــاره فاسدا . وقالت تسيبورا ان ذلك بسبب التغليف السيئ . ولكن يبدو انه كانت هناك اسباب اخرى فضلت ألا تذكرها . ولذلك اضطر آل زيسمان الى تحويل قسم من المحصول الى معجـــون وعصارة خالصة وتحويل جزء آخر الى كحول .

وقالت تسيبورا :

- وعموما فالمسألـــة لا تستحق كل هذا التعب . . . .لم نتمكن الا من بيع جزء يسير لشركة «هيركولا» وهى ايضا شركة امريكية . ولكن زوجى شيمون لا يريد ان يتعامل معهم . انهــم بالطبع يدفعون اقل بكثير . فليكن . ولكنهم يتماحكون اقل ! وماذا ؟ هل اصنع من هذا المحصول مربى ؟ او اعلف به البهائم ؟ كلا . لن يرى متسلمو المحصول مثل هذا اليوم ابدا ! . .

وقال شيمون معترفا لحاييم :

- زوجتى كنز ثمين . لديها رأس وزير ، فليهبهـــا الله الصحة والعمر الطويل !

واجابت تسيبورا بتواضع : - ينبغى ان ندبر امورنا باى حال !

لم تكن تلوم زوجها ابدا على سلبيته وعدم قدرته على الخروج من المآزق . كانت تقدر فيه تلك الصفات التى لم تكن لديهــــا بالقدر الكافى لكى تزدهر المزرعة . لقد شغف شيمون بالزراعة بكل قلبه ، وعمل بتربية الاشجار والخضروات والمواشى عن عميق معرفة ، وكان مجدا وصبورا على العمل بصورة مدهشة .

وكانت «فرنكا» تناسب اصحاب العمل . لم تكن تجلس دقيقة واحدة بلا عمل ، فتغسل أوعية الحليب والقشدة ، وتجلو جيدا الاغطية المعدنية واجزاء الفرازة ، وتقوم بكل شىء بانتظام وبلا كلل كالآلة .

وكانت تتطلب نفس الشىء من العاملة المصرية المياومـــة وتصيح فى حاييم :

- ينبغى ان تحمل العلف للابقار ! وتضخ الماء . . . عما قريب يحين وقت الحلب !

وكان حاييم لا يرفض طلبا ، وينفذ كل ما يأمره به اسياده الجدد ، فيحمل العلف للابقار التى بدت له لا تشبع ، وكان يسقى البغال ويطعمها وينظفها بعناية خاصة وعطف اذ كان يشفق عليها لان احدا لا يوليها انتباها . وكان يضخ الماء عشرات المرات فى اليوم ، ويدير الفرازات حتى يكاد يغمى عليه ، ويعزق اشجـــار الليمون والبرتقال فى المزرعة الصغيرة . هكذا كل يوم حتى حلول

الظلام . وكان يحدث احيانا ان تأتى الناقلات فى الليل ، وعندئذ يضطر الجميع للعمل حتى نصف الليل تقريبا .

وكانت تسيبورا تقول :

— لا يصح اعادة السيارات فارغة ما دامت قد وصلت ! فلنشحنها باى شكل ، ولنستيقظ متأخرين قليلا غدا .

ولكن فى الغد كان كل شيء يتكرر من جديد . ومر اسبوعان ثم ادرك حاييم انه لا يستطيع ان يواصل العمل لدى آل زيسمان ، فلا حول له على ذلك . وفكر بأسى : «سينقطع حيلى ما فى ذلك شك ، وعندئذ ماذا افعل ؟ واويا ؟ ان لها طبعا يجعلها تكدح الى درجة انها لا تلاحظ كيف ستخور قواها . . . كما انه ليس معروفا كيف سينظر اليها اصحاب العمل عندما يعرفون انها خرســاء ، وعلاوة على ذلك يونانية ! . .» .

وفى الجمعة التالية ، قبيل المساء ، استعد حاييم للرحيل . وقد بدأ حديثه مع ارباب العمل بالشكر على معاملتهم الطيبة له وانهاه برجاء ان يخلوا سبيله .

وقال حاييم :

— ارجو الا تغضبوا ، ولكنى لن استطيع ان اتحمل هنا . . اعذرونى من فضلكم . . .

واسف شيمون وتسيبورا زيسمان بصدق لقرار حاييم لا لانهما كانا يريدانه كعامل مخلص فحسب ، ولكن لانهمــا كانا يعرفان كم سيكون صعبا عليه ان يجد عملا ويطعم زوجته وطفله القادم . وعند الوداع اصرت تسيبورا على حاييم ان ياخذ لزوجته قليلا من الزبد وعلبة قشدة وعلبة كبيرة من مربى العام الماضى المتجمدة . . . اما «فرنكا» البدينة والكثيرة الصياح ، والبخيلة ، كما خيل لحاييم ، فقد اقتربت منه وهى تتلفت بخجل حتى كادت تلتصق به ، وهمست بصوت غامض دون ان تتطلع اليه :

— سمعت ان زوجتك حامل . . . خذ هذا منى لطفلك عندما يولد ان شاء الله . . .

قالت ذلك ودست يدها بحركة سريعة فى جيب صدره بورقة جديدة من فئة العشرة جنيهات . وارتبك حاييم وحاول ان يعيد

18*

اليها الورقة ، ولكن بلا فائدة . فقد ركضت مبتعدة . ولكن حاييم اقنع ربة البيت ان تأخذ النقود وتعيدها «لفرنكا» مع جزيل شكره.

ولم يخرج حاييم من البيت يومين كاملين . كان يستيقظ ، ويطوف بنظراته على مسكنه ، ويبتسم لاويا ، ثم ينام من جديد . وتمكنت اويا بعد لأى من ايقاظه وانهاضه وجعله يتناول الطعام . فجلس الى الطاولة وهو يتأوه من الالم فى عظام مفاصله وظهره ، بينما فزعت اويا من منظر وجهه الضامر والظلال الزرقاء الثقيلة تحت عينيه .

ومع ذلك فقد مضى حاييم فى الصباح المبكر يوم الاثنين للبحث عن عمل . وتوجه من جديد الى يافا طبعا ، الى محطة البضائع . وفى هذه المرة كان من بين اول من حضر فتمكن من كسب بعض المال . وعند الظهر انتهى من العمل فذهب مع زميله الذى عمل معه فى الصباح الى الحى الاعلى فى يافا ، الى محطة الاتوبيسات . ولاحظ الحمالون المتجمهرون هنا من بعيد حاييم وزميله المسرعين ، فاسرعوا الى لقائهم بالسخرية البريئة :

– اسرعا يا اشكنازى اسرعا ، العمل هنا كثير !

– اسقف الاتوبيسات تتطبق من كثرة الحقائب !

– وليس من احد يحملها الى الفندق !

– المعلم طيب والصندوق كبير والبقشيش جيد ، اسرعا ! . .

وربما يبدو للنظرة العابرة انه لا يوجد ما يشغل بال هؤلاء الناس ، وانهم بلا هموم كالاطفال ، ولذلك يمزحون ويضحكون بلا حدود . اما الواقع فكان ابعد عن ذلك بكثير . كان الاهتمام بلقمة العيش للاقرباء ينشب مخالبه الحادة فى قلوبهم . ولذلك كانت المزحة ، والكلمة اللاذعة ، والخشونة الودود احيانا التى يرافقها ضحك جماعى ، الفرصة الوحيدة امامهم ربما للتخلص ولو لفترة قصيرة من الافكار المرهقة . وكان حاييم يدرك ذلك ، ولذلك لم يغضب بل ابتسم بحرج .

ولكن ها هو المزاح والضحك قد خفتا ، فقد وصلت سيارة ركاب متهالكة بسرعة كبيرة وتوقفت بحدة ، مثيرة حولها سحابة من الغبار .

واندفع الناس الى السيارة . ولكن لم تمر بضع ثوان حتى انطلقت السيارة بحدة ايضا ولم تاخذ معها سوى حمال واحد .

واثار مجيء السيارة جدالا حيا طويلا بين الحمالين المرهقين من البطالة .

وقال احدهم بنبرة لا تخلو من حسد :

– ما اشطر هؤلاء الناس ! هذا السائق كان يتسكع هنا بيننا ، كان حمالا ، والآن انظروا ، اصبح له سيارة خاصة . . . من اين ، وكيف ؟ يا له من محتال !

فقال آخر :

– ماذا تقول ! لولا ان العاهرة الحمراء الشعر التى كانت تجلس بجانبه الآن قد آوته لظل طوال حياته يلهث كما نلهث نحن الآن . ذات مرة كان يريد ان يصبح حاخاما . . . وعندما لم يفلح جاء الينا ، وجرجر الحقائب ، فلاحظتـــه العاهرة . كانت تتكسب غير بعيد عن الميناء آنذاك . اما الآن «فيعملان» معا ، ويقتسمـــان النقود . . . هو يبحث لها عن زبائن وينقلهم من يافا او تل ابيب الى حيفا . وفى طريق العودة «يلتقط» لها زبونا آخر . . . لديهما سيارة ، ارأيت ؟ بها ستائر كانما للوقاية من الشمس ، ولكنها فى الحقيقـــة لحجب «الركاب» عن الاعين . . . ومـــع ذلك يعتبرون انفسهم بشرا . ولِم لا ولديهم سيارة خاصة ! . .

وقال حمال عربى وهو يبصق بغضب :

– ولكننى افضل ان احمل اكياس الروث واجوع عن ان اقبل عملا كهذا ! فلتشهد السماء على انى اقول الحق . ستكون يداى اطهر ، وبالى اهدأ ، وضميرى نقى كقطرة الدمع ، اى والله ! ايشاى سيدق عنقه ، وتذكروا كلامى . . .

فعارضه حمال كهل قائلا :

– كلا يا ابا عبود . لن يدق ايشاى هذا عنقه . فرأس ايشاى غير رأسك ورأسى . انها كبيرة ، تتسع لمكر كثير . ولهذا اصبح لديه حصان حديدى ، ولهذا يعيش عيشة السادة !

وقاطع العجوزَ ذلك الحمال المعروف لحاييم ، ذو العمامة البيضاء ، والذى كان معلما من قبل وجاء الى هنا هو ايضا :

18—690

– انت يا اخى الكادح ابليت اسنانا كثيرة فى حياتك الطويلة ومع ذلك لا تدرك ان حصان ايشاى هذا غير متين . هناك من هم اشطر منه ومع ذلك سقطوا من السرج وهم يركضون باقصى سرعة . الطمع يجلب البلايا .

فاجاب العجوز وهو يهز رأسه بعناد :

– ها ، يا معلم ! الحصان الحديدى لا يمكن ان يلقى بسيده من السرج ! ايشاى الآن يدوس على النقود كما يدوس الجمل على رمال الصحراء . وعندما يكون لديك فضة وذهب فلا يهمك شىء ! فاذا كنت محتالا ستقول الشرطة نفسها انك اشرف انسان فى العالم . واذا كنت خبيثا مثل ايشاى فستنال الاحترام بدلا من اللعنات . . . انك شخص ذكى ، وكنت معلما ، وتعرف الكثير ، وخبرت الكثير فى حياتك ، ولكنك لا تدرك ان الدنيا كسفينة محملة من جانب واحد ، لا تمضى الى حيث يجب ان تمضى ! . . السعادة تهرب من الشرفاء كما يطير الدخان امام الريح . . . ربما كانت هذه مشيئة الله ؟

وقال حمال يدعى «الدب» بصوت غليظ :

– انا لا اعرف مشيئة من هذه ، ولكنى اعرف انهم قوادون وسيظلون قوادين . وماذا تنتظر منهم ؟ لقد كان رفيقنا جابوتينسكى محقا عندما قال ان الشعب الذكى الكبير ينبغى ان يكون لديه جنرالاته وقوادوه ، مومساته وعلماؤه ، خونته وسجانوه ! . . وهل نحن اسوأ من الآخرين ؟ اليوم ممرض وغدا طبيب ، اليوم خفير وغدا وزير ، وانا اليوم حمال ، وغدا . . .

– وغدا سجان ! – قاطع الحمال المعلم الدب وقهقه بتلذذ – ليس هذا بغريب عليك ، اليس كذلك ؟ لقد عملت شرطيا ، وكما كنت غير نظيف اليد فقد ظللت كذلك . لا تغضب ، فانا كالببغاء اردد فقط ما يقوله الناس . . . اسأل اى واحد من هؤلاء الواقفين !

– صحيح ، لقد خدمت فى الشرطة ، وماذا فى ذلك ؟ واستطيع ان اكون غدا سجانا ، لكى ابقى فى الحبس طويلا المتمردين امثالك . . . فلا تغضب انت ايضا . صحيح اننى لست ببغاء ،

ولا اتحدث بكلام الآخرين . . . فنحن يا معلم معارف قدامى ، اظن انك تذكر ؟

فصاح المعلم السابق :

— واه ، واه ! كيف لا اذكر ! وهل يمكن ان ينسى المرء شيئا كهذا ؟ كنا نقضى الايام تحت سقف واحد ، ولكننى كنت فى ذلك المنزل اجلس وراء القضبان ، ويضربوننى ثلاث مرات فى اليوم بالهراوات المطاطية ، ويبقون علىّ اياما فى الماء البارد حتى الركبة ، اما انت فكنت حارسا ، تتقاضى مرتبا من الذين امروا بتعذيبنا . . . اننا معارف قدامى ، كيف لا !

احاط الحمالون بهما حلقة محكمة ، وتهامسوا وهم ينظرون شزرا الى السجان السابق ويهزون رؤوسهم باستنكار .

— وقد القوا بى خلف القضبان لانى ، كما قال الآن «صديقى» القديم «الدب» ، كنت اتحدث بكلام الآخرين . . . كنت آنذاك معلما فى مدرسة ، وكانوا يجبروننى على ان امجد ملك بريطانيا فى قرية عربية . وكنت طبعا امجده واشرح للاطفال ان الملك رغم بطشه وجبروته لا يعرف اللغة العربية ولا يريد ان يعرفها ، ولا يفهم بنى قومنا ولا يريد ان يفهمهم ، وباختصار فهو غريب عنا ! وقلت للاطفال ايضا ان الملك يجلس على عرش من الذهب مرصع بالاحجار الكريمة ، ولكن اصغر مسمار فى هذا العرش اغلى من الحاكم المتربع عليه . . . فهل انا كذبت يا ناس ؟

فابتسم الحمالون ، وقال احدهم :

— مضبوط طبعا . . .

— انت قلت الحق يا معلم . . .

— ولهذا السبب ، كما ترون ، قبضوا علىّ . اخذونى الى عكا ، والقوا بى هناك فى السجن . . . عنـــد «صديقى» القديم «الدب» . . . وقبل ذلك بفترة قصيرة سافرت الى بلد بعيد وكبير جدا . . .

وقال واحد من الجمع :

— يقولون الى موسكو ؟ هل هذا صحيح ؟

— لن اخفى عنكم يا اخوان . صحيح . سافرت الى هناك ،

وتحدثت مع اشخاص طيبين عن حياة الفلسطينيين القاسية . . . ودفعت ثمن ذلك ايضا سجنا . . . و«صديقى» القديم يعـرف هذا . . . ولكن ما زال فى الدنيا اناس شرفاء . وهم موجودون بين العرب واليهود ايضا . وهم الذين ساعدونى واخرجونى . اما «الدب» فسرعان ما ركلوه فى مؤخرته . لم يقتسم الرشوة مع رؤسائه ، فطردوه من مكانه المريح ! والآن اصبح «صديقنا» !

وبصق «الدب» بغضب ، وانتحى جانبا مشيعـا بضحكات الحمالين الجماعية .

ودوت صفارة حادة من احد الحمالين تنذر اخوانه بوصول اتوبيس خط حيفا الى المحطة . واندفع الجميع الى محطة الاتوبيس يصرخون كسرب من الغربان الجائعة . كان يبدو من كثرة الحقائب فوق سطح الاتوبيس ان ركابه ليسوا قليلين . ورغم ان بعض الركاب كانوا سيواصلون الرحلة ، فقد خرج الجميع من صالون الاتوبيس الملتهب كالفرن . اندفع بعضهم الى المقهى ليبل زوره ، وبعضهم الى المطعم . وعلى الفور ظهر تجمع حول السيارة : كان هنا اقرباء ومعارف الركاب ، والسماسرة والوسطاء والعاهرات الباحثات عن زبائن ، ومندوبو الادارة الانجليزية العربية اليهودية والحراس الذين جعلتهم مقتضيات المهنة يستبدلون ببرنسهـم البوليسى حللا مدنية ، وكذلك مجرد الفضوليين .

وتابع حاييم بأسى كيف اصبح الحمالون ، الذين كانوا منذ لحظات يتحدثون فى سلام ومودة ، يتخاطفون الحقائب بغيظ من بعضهم البعض ، ويلقون الغنيمة على اكتافهم بصعوبة ويتبعون اصحاب المتاع وهم يختنقون ويتفصدون عرقا .

لم يرغب حاييم ولم يشعر انه قادر بدنيا على الدخول فيما يشبه المعركة مع الحمالين ذوى الخبرة ، فخرج من الحشد ، ومضى الى البيت مهموما دون ان يتلفت حواليه . ومع ذلك ظل عدة ايام يأتى الى محطة الاتوبيس ، ويتسكع هنا ساعات بدون عمل على امل التكسب .

كان المكان هنا صاخبا يعج بالحركة . وكان باعة الشطائر والحلويات الجائلون وصبية المقاهى وموزعو الصحف ، وماسحو

الاحذية ، والسباكون والسمكرية والسماسرة وشتى انواع الوسطاء يهرولون هنا من الفجر حتى هبوط الظلام ومعهم اكشاك ضخمة واباريق طويلة او غلايات شاى كبيرة واكواب صغيرة ، وصناديق وسلال او اكياس مدلاة من الكتف بها معدات ، ويمدحون بضاعتهم باصوات منغمة ويجهد كل منهم ان يعلو صوته على اصوات الآخرين :

– الحق الطازة ، الحق اللذيذ ، الحق المحمر ! . .

– كل العجوة ، العجوة الرخيصة ! . . .

– احسن تنظيف ، احسن تلميع ، ترجع مثل الجديدة !

– الحق الهريسة ، ألذ هريسة ، آخر قطعة !

وكان حاييم يزدرد لعابه فى كل مرة يسمع الصيحة القصيرة الثاقبة :

– اليكتريكو ! اليكتريكو !

ولم يكن يعرف ما هى العلاقة بين كلمة «اليكتريكو» وبين الشطائر المحشوة بالحمص المطبوخ مع الشبث . ولم يكن احد يعرف اسم بائعها . وخلافا عن بقية الباعة الجائلين كان هذا العجوز الاكتع يأتى بقفصه المعلق بسير فى كتفه بعد مضى نصف ساعة بالضبط من رحيل الاتوبيس . ففى هذا الوقت يكون الحمالون قد وضعوا فى جيوبهم القروش الاولى .

وتناهت اصوات مختلفة من المقهى المجاور لشباك التذاكر بمحطة الاتوبيس . فتحت شريط ضيق من المشمع القذر المشدود كسقيفة كان الرواد يجلسون الى طاولات مستديرة رصت بازدحام ولا يكفون عن الصخب . ويناور الجرسونات بمهارة بين الطاولات وهم يرفعون عاليا الصوانى ويرتدون سترات قصيرة كانت فى زمن ما بيضاء وهم يبلغون الطلبات بصوت عال الى المطبخ على الماشى :

– واحد قهوة ثقيلة !

– اثنان قهوة تركى !

– ثلاث اكواب ماء . . .

ومن الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل كانت

اصوات احجار الضامة تدوى عاليا . وحول اللاعبين يجتمع هواة الفرجة والالفاظ اللاذعة والمراهنـــة على هذا اللاعب او ذاك ، والتعليقات الحماسية والحدة والشجار . وكان مشجعو لاعبى النرد يتسمرون لحظة قبل القاء الزهر ، وينقطع الضحك والجدال الحاد . وعلى الفور يتفجر الصمت الواهى بصيحات الاعجاب الصاخبـــة واللعنات والسباب .

وكانت اصوات باعة الصحف الصبيان الرنانة تقتحم هذا الهرج والضجيج مرتين فى اليوم : فى الصباح وقبيل المساء . ومع ظهورهم تندلع فى المقهى من جديد التكهنات ومناقشـــة شتى الاحداث وخاصة الحرب فى اوربـــا بالطبع . وكان الخبر المثير الدورى الذى سمعه حاييم من صيحات باعة الصحف هو اتفـــاق الزعماء العرب مع القادة الصهاينة على وقف المنازعات ومساعدة الانجليز فى الحرب ضد دول المحور .

تذكر حاييم كل ما امكنه سماعه ومعرفته ، خلال فترة عمله القصيرة عند سيمـــون سلمونزون ، عن «الاهداف والاغراض الحقيقية لزعماء «أكسيونس كوميتى» ، وعن الاساليب التى لجؤوا اليها لبلوغ مراميهم . وقد افضت به تأملاته الى قناعة بأن الاتفاقية التى عقدها الصهاينة ليست سوى حلقة فى سلسلـــة الخداع . غير انه لم يجرؤ على مكاشفة الحمالين بذلك . فقد كان النظر الى اعين هؤلاء الرجال البسطـــاء يشعره بالخجل ، ولذا تسلل من الزحام على مهل . وناداه السائق الذى كان يعمل على اصـــلاح الاتوبيس ، وطلب منه المساعدة على رفع العجلة الاحتياطيـــة لوضعها على سقف الاتوبيس ، وفجأة عرض عليه ان يعمـــل مساعدا له .

— لكن بلا أجر . . بالاكراميات وحدها ، وهى مجزيـــة احيانا ، وتافهة احيانا اخرى . ولا بأس بالاتعاب عن نقل وتوصيل الرسائل . ما رأيك فى هذا العرض ؟

١٥

كان الاتوبيس الذى عمل عليه حاييم فولديتير مساعدا للسائق مجرد شاحنة عادية ادخلت عليها بعض التعديلات . اما الهيكل المصنوع من الخشب الحلبى المتين والمكسو بالصفيح فلم يكن يتسع لاكثر من عشرين راكبا .

لم تكن مهام حاييم تتطلب مهارة فائقة ، لكنها ايضا لم تكن بالسهلة . فقد كان من واجبه ان يضع الامتعة فوق السقف المعدنى المحاط بسياج ، وان يربط الامتعة بحبال تكفل لها السلامة ولا تحدث بها تلفا . وكان ذلك محفوفا بمخاطر لا يستهان بها . وقد دفع سلف حاييم حياته ثمنا لاهماله . فبعد يوم مضن غلبه النعاس فى الرحلة الليلية الاخيرة فنام ، كعادته ، على السقف . وبالقرب من القدس ، قبيل مرتفع حاد ذى انعطافة شديدة عند الاخدود الكبير هدأ السائق السرعة . وكان هذا ما يامله المهاجمون المختبئون وراء سواتر صخرية على حافتى الطريق . فقد تمكن احدهم من التشبث بالسلم المعلق على الجدار الخلفى للاتوبيس ثم صعد الى السقف والقى بالامتعة ومساعد السائق النائم . ومن بعدها ركب السلم على جانب الاتوبيس .

كان حاييم يشعر بالخجل والارتباك كلما مد يده لتناول الاكرامية فى نهاية كل رحلة . كان يحدث احيانا ان يحصل على اكرامية مجزية ، لكن الركاب كانوا فى معظم الاحوال يستغلون عدم الحاحه و«ينسون» شكره على خدماته وصيانته للامتعة .

ومن بين الحمالين الذين يتزاحمون عند محطات الاتوبيس ، ظهر كثيرون ممن يبدون اطيب التمنيات لحاييم ويحاولون استرضاءه بشتى السبل . وقد عرض بعضهم عليه ان يقاسمهم اجورهم على ان يفضلهم على الآخرين عند انزال الامتعة من فوق سقف الاتوبيس . لكن حاييم كان يابى ان يقاسم الحمالين اجورهم . كذلك فقد كان يرفض تعاطى الهدايا . ولذلك كان البعض يكن له الامتنان الصادق ، بينما كان الآخرون يعتبرونه مغفلا .

كان حاييم يخلص فى تنظيف الاتوبيس ، وكنسه ، ويرش

ارضيته بالماء لترطيب الصالون ، ويكثر من صب الماء فى الردياتير المثقوب ويحتفظ بصفيحة ماء احتياطية . ولشد ما كانت تضايقه حالات تثقيب اطارات الاتوبيس . بالطبع كانت هناك عدة اطارات احتياطية . بدونها لا يقوم الاتوبيس برحلته ، لكنها جميعها كانت جد مستهلكة . وبعد كل تغيير للعجلة كان الامر يتطلب الاعداد الفورى لغيرها . وبمشقة كبيرة كان يجرى ادخال الطوق الحديدى فى اطار «جوديار» صلب الحواف . وكان نفخ العجلة من العمليات الشاقة المضنية .

كان صاحب الاتوبيس ، الذى رآه حاييم مرة واحـــدة ، لا يتعجل شراء اطارات جديدة . وكان يصر على تحميـــل الاتوبيس بركاب اكثر مما ينبغى ، وذلك بوضع مقاعد متحركة فى الممر الفاصل بين الأرائك . ولطالما نبه متبرما الى الغلو الفاحش فى اسعار اطارات «جوديار» شاكيا من الضنك الذى يعانيه ، حتى بات لا يدرى ما الذى يتأتى عليه ان يدفعه اولا رسوم استخدام الطريق ، ام أجر السائق ، ام الضرائب المستحقة عن ملكيـــة الاتوبيس . وهكذا لم يكن قادراً على شراء اطارات خارجية او داخلية جديدة . كان صاحب الاتوبيس يتشكى ويدخر ليجمع من المال ما يشترى به اتوبيسا جديدا احدث واكثر اتساعا ، بينما كان على السائق ومساعده ان يلهثا فى نفخ الاطارات القديمـــة لانه من المستحيل بتاتا تأجيل رحلة الاتوبيس .

فى العادة ، كانت الرحلة الاولى الصباحية تتم براحة نسبية مما يتيح لحاييم فرصة الاستمتاع بالاسترخاء بين اكوام الامتعة .

كان الاتوبيس يتأرجح ويهتز عند المطبات ، وهو يتحرك على الطريق الضيق ، الذى لم يكتو بعد بلهيب الشمس ، والذى تمتد على جانبيه احراج الموالح والكروم ومزارع البطيخ وحقول الخضروات .

كانت الرحلة الاولى تبدأ مع بزوغ الفجر ، حين يكون الهواء مشبعا بالعطر الفواح لاشجار البرتقال ، التى ازهر بعضها ، والتى يتمايل بعضها الآخر تحت ثقل الثمار الذهبية . وكان ذلك دائما يفتن حاييم رغم معرفته بأن انواع البرتقال المختلفة تزهر وتثمر

فى اوقات مختلفة . وعلى نحو فريد من الجمال كانت تبدو نباتات الصبار الكثيفة التى تحجب الطريق فى بعض الاماكن باسوار فى ارتفاع قامة الانسان .

كل ذلك كان يذكر حاييم ببلاده ، حيث تمتـــد فى شرائط متساوية على جانبى الطريق اشجار السنط ، ومن ورائها تصطف شجيرات الكروم ، ومن بعيد تتراءى بحيرة يالبوج المزدانـــة بالعديد من اشرعة قوارب صيد الاسماك . وعندئذ ترتد افكاره الى بيته وابيه واخته . لقد تلقى منذ امد غير بعيد رسالة مطولة من والده يسأله فيها بلوم صريح وليس بالتلميحات كمـــا فى السابق عم اذا كان قد نسى ارسال الدعوة الموعودة .

عندما تذكر حاييم ذلك أحس برجفة تنتابه ، فمـــا الذى يستطيع ان يرد به على أبيه ؟ أيحدثه عم هو فيه من تعاسة ؟ عن انه هو ذاته يعيش على الماء والخبز دون ان يدرى ما يحمله له الغد ؟

كان حاييم يشفق على ابيه . فقد قضى الرجل عمره كلـــه يمسك حسابات صغار التجار لقاء أجر تافه وها هو فى مغيب العمر لا يملك شيئا . زوجته تحت الثرى وابنه هائم على وجهه بحثا عن السعادة . ومن حسن الحظ ان بقيت معه الابنة ميلكا . وقد ادرك حاييم من كتاباتها ان نضجها بعد رحيله قد صار يحسب بالايام لا بالاعوام . فلم تكن الخطابات تتضمن اية ايماءة الى لهو الطفولة. ورغم انها لم تكن تشكو ، الا انه كان واضحا ان الحياة فى الوطن اصبحت لا تطاق . ولقد كان هذا المعنى الدفين لرسائل الاخت يؤرق حاييم اكثر من اللوم الصريح لابيه . فكلما أمعن هتلر فى عدوانه ازدادت وقاحة اعضاء «الحرس الحديـدى» الفاشى . هذا ايضا يتضح من كتابات ميلكا . . . وما نهايـــة ذلك كله ؟ ما مصير الأب والأخت ؟ كيف يمكن مساعدتهما وجيبه خال تماما من النقود ! ثم ان أويـّا تتأهب للوضع بعد شهر او شهر ونصف . وما اكثر ما سوف يحتاجان اليه .. الاكراميات وحدها لا تكفى وليس فى الافق مخرج يلوح له . . .

اعتقد حاييم ان ما يمنعه من تركيز الفكر بحثا عن مخرج

هو مرأى المزارع الزاهرة ، ونباتات الصبار الساحرة ، التى حلت محل التلال التى الهبتها الشمس والتى تشبه محاجر مهجورة من مئات الاعوام وقد تكومت فيها احجار بيضاء ناصعة وصفراء مغبرة . . . رقد حاييم على ظهره واخذ ينظر الى السماء اللازوردية اللامحدودة كالمحيط والنائية واللامبالية بكل ما هو ارضى ، بما فى ذلك مصيبة حاييم . لم تكن حياة حاييم ابدا صافية كهذه السماء بل كانت صفحتها دائما داكنة لكثرة ما تكتنفها من غيوم ، وانّى له برياح تبددها !

وقد تذكر المهلة التى منحتها له الحاخامية . وبات عليه ان يرد فى خلال عدة ايام عم اذا كان يوافق على تطليق زوجته أويًا ، والا . . . تنهد حاييم متململا من انه لا يجرؤ على استئذان السائق بالذهاب الى الحاخامية ، فلا بد من تسوية الامر على اى حال ، والا تعرض لأذى . . . من يدرى ؟!

ابطأ السائق السرعة ، واخذت السيارة تصعد المرتفع بصعوبة . فقد كان الطريق هنا يمر عبر تلال حادة الميل ، تلوح من ورائها على مسافة بعيدة قمم جبال يهوذا .

قبل الوصول الى الاخدود الضيق اوقف السائق السيارة . نزل حاييم من السقف على عجل . . امسك بخرقة وراح يفتح غطاء الردياتير ، الذى كان يتسرب منه البخار بصفير . وعند اللفة الاخيرة لم يقدر حاييم على مواصلة القبض بيده على الغطاء ، الذى اطاح به بخار الماء المضغوط . واحضر حاييم صفيحة الماء بسعة العشرين لترا ، وصب الماء فى الردياتير ، بينما كان السائق يقيس منسوب الزيت ويتأكد من سلامة الاطارات .

غادر الركاب الاتوبيس لاستنشاق الهواء الطازج ، وللمشى قليلا والتدخين . وقد هل عليهم اطفال وصبيان من اهالى القرية المجاورة . وكان كل منهم يحمل سطل ماء ، وكأن الاتوبيس لا يحمل عشرين راكبا بل يحمل على الاقل قطيعا من الاغنام . وقد تنافس الاطفال على تقديم الماء للركاب فى مقابل علب الكبريت وبطاقات المعايدة الزاهية الالوان ، وطالبوا بشيء من العملات المعدنية او الماكولات .

وكان من الصعب مقاومة اغراء اطفاء الظمأ بالماء البارد الصافى الذى يتدفق من ينابيع الاخدود العميق ، لكن الرائحة النفاذة للبن الماعز الرائب ، التى تفوح من الاقداح الفخارية التى يغرفون بها الماء من الاسطال ، بل ومن الاسطال ذاتها ، كانت تضيع كل المتعة المنشودة من تحقيق هذا المطلب الملح . ولذلك فعند محاسبة السقائين كان الركاب يعلنون تأففهم الذى اثار لدى الاطفال ردود فعل متباينة فمنهم من قطب جبينه ، واسدل رموشه الطويلة السوداء كالسناج ، وانزوى فى ركن من الاركان ، ومنهم من ، على العكس من ذلك ، جادل ببشاشة ، وتقبل عن طيب خاطر ما ذكر من مآخذ على رائحة الماء ، وراح يقص تلقائيا بعض الأساطير التى تناقلتها عبر القرون ألسن الناس من جيل الى جيل ، ومنها ان المسيح صام الصيام خلال اربعين يوما وليلة فى هذا الاخدود الذى جلب منه الاطفال الماء ، ومنها ان ما وراء هذا التل العالى قد شهد كيف تأتى لداوود الذى كان فى قامة الاقزام ان يقتل بمقلاعه العملاق الفلسطينى جولياث .

كان اولئك الشطار الصغار ، الذين لا يعرفون ديانة من يحادثونهم ، يحرصون فى قصصهم المأثورة على استرضاء اليهود والمسيحيين على حد سواء .

وها هو السائق قد أطلق نفير السيارة منبها الى مواصلة الرحلة ، فسارع الركاب الى احتلال مقاعدهم ، وصب السقاؤون الماء فى الصفيحة الاحتياطية وسلموها للسائق ، ثم تخلصوا كالعادة من الماء المتبقى برشه على اطارات السيارة وهم يهللون :

– طريق السلامة !

– رحلة سعيدة !

انطلق الاتوبيس بسرعة متزايدة . كان المرتفع حادا مما جعل المحرك يزمجر حتى بدا أحيانا وكأنه يوشك ان يتناثر قطعا قطعا .

مر الاتوبيس باطلال غريبة لمبان حجرية لدير او قلعة . وظهرت فى الافق ضواحى القدس فتوقف الاتوبيس من جديد ، لا لشىء فى هذه المرة سوى ان يهبط حاييم من فوق سقف السيارة ليجلس بجوار السائق . اذ كان الانجليز فى القدس يحظرون

الركوب فوق سقف الاتوبيس . وكان على رجال الشرطـــة إيقاف السيارة المخالفة للتعليمات والزام السائق بدفع غرامة .

من بعيد تبدو عاصمة فلسطين كمقبرة غاصـــة بالتماثيل المقامة فوق القبور باحجـــام واشكال شتى . ما اكثر الكنائس والأديرة ، وقباب المساجد والمعابد ، والابراج والمنائر ، وهى كلها من الحجر ، حتى ليخيل للمرء ان المدينة كانت فى الاصل صخرة كبرى نحتت منها كل هذه البنايات العجيبة . ومع الاقتراب من المدينة تتضح اكثر من قبل الوانها ومن بينها اللون الابيض الناصع والرمادى المسود الذى تكتنفه الشقوق وبقـــع الطحلب الخضراء .

وبالقرب من وسط الحى الجديد للمدينة توجد بعض البنايات الحديثة . الشوارع مزدحمة : ثمة مارة يسيرون على مهل فى ثياب بيضاء ، ورهبان وبدو يتشحون بالســـواد من اعلى الراس حتى اخمص القدمين ، وسيدات عربيات محجبات . وممـــا يستوقف النظر منظر الراهبات الكاثوليكيات بقلنسواتهن البيضاء العريضة المنشاة .

تحرك الباص بحذر فى شارع يافا الرحيب ، ثم انعطف الى بوليفار الملك جورج الخامس ، وتوقف على مقربـــة من فندق «بالانتين» .

بسرعة تسلق حاييم الى سقف الاتوبيس . وتكرر كل شىء ولكنه فى الاتجاه العكسى : فك الحبال ، توزيع الامتعة ، صب الماء فى الردياتير ، تكملة زيت المحرك ، تنظيف صالون العربة . . .

بمجرد الانتهاء من تجهيز الاتوبيس لرحلة العودة ، ودون الارتياح ولو لدقيقة واحدة ، توجه حاييم لتنفيذ المهام المكلف بها ، وهى توصيل الرسائل والمستندات والطرود التى تسلمها فى تل ابيب . ولقد كان تحقيق هذه المهام بمثابة المورد الاساسى للرزق الذى يقاسمه فيه السائق الذى كان مسئولا عن سلامـــة وصول الامانات لاصحابها ، امام زبائن «البريد المهرب» وسلطات الانتداب البريطانى ، والادارة الثلاثية التى تطارد القائمين بهذه العمليات غير المشروعة . ورغم ما يتهددهم من غرامات فادحـــة

وغيرها من المتاعب ، كان سائقو الاتوبيس المحتاجون لدخل اضافى ، والتجار الحريصون على سرعة توصيل الطرود بل والمبالغ النقدية الكبرى التى يتم احيانا ارسالها بنفقات تقل كثيرا عن الرسوم البريدية التى تدفع نظير توصيل الحوالات المالية ، كان السائقون والتجار قد برعوا فى خداع المفتشين وتجاهلوا مصالح الخزينة العامة على ما فى ذلك من اخطار جسيمة . وقد ازدهرت هنا عمليات «البريد المهرب» .

فى ذاك اليوم كان طريق حاييم يمر تقريبا عبر المدينة كلها . فالرسالة التى تسلمها مساء الامس فى حيفا كان ينبغى توصيلها الى فرع شركة «لندن اكسبوك» القائم فى شمال المدينة بالقرب من كتدرائية القديس جيورجى ، ورسالة اخرى ينبغى توصيلها الى مستشفى روتشيلد القديمة الواقعة فى الناحية المضادة من المدينة العتيقة . وفى مقابل سرعة توصيل هاتين الرسالتين وطرد مرسل الى ادارة «جمعية الشبان المسيحيين» * كان أجر حاييم مضاعفا . هذا ما جاء على مظاريف الرسالتين والطرد وان كانت هناك ايضا اشارة الى وقت التوصيل المطلوب . اما بقية الرسائل فقد كان على اصحابها ان يأتوا بانفسهم لتسلمها فى فندق «الملك داوود» ، ولذا كان أجر التوصيل عاديا .

كان حاييم فى عجلة من أمره . وحرصا على الوقت الثمين فانه عقب توصيل الرسالة الاولى الى شركة «لندن اكسبوك» شق طريقه عبر الحى المسيحى ثم الحى الاسلامى ، برغم الضيق الذى كان يشعر به لمجرد تذكر مروره بهذه الاماكن من العاصمة الفلسطينية . فقد سار مرارا فى متاهة الشوارع الضيقة الملتوية التى تتشابه فيما بينها كالتوائم . وقد كان مرور احدى عربات الكارو كافيا لارغام من يسير فى مواجهتها على دخول بوابة اقرب بيت ريثما تمر العربة . الارصفة المبلطة تتناثر عليها الاحجار المخلوعة واكوام القمامة . والرطوبة والروائح الكريهة تهب من تحت البوابات القاتمة المفضية الى افنية حافلة بشتى المهملات . والبيوت

---

* جمعية امريكية .

واجهاتها مشققة رثة ، واسقفها متداعية ، ونوافذها مغطاة بسواتر او الواح خشبية مسمرة حتى لكأنها بيوت مهجورة خاوية .

كان حاييم كلما مر بحوارى وشوارع الحى يلاحظ دوما مظاهر جديدة غريبة لهذا الجانب من المدينة التى تعتبر مقدسة عند المسيحيين واليهود والمسلمين على حد سواء . لم يكن ازدحام «بيت المقدس» بكل هذا العدد من المعابد والاديرة والكنائس والمجامع والمساجد والهياكل يدل على التسامح الدينى المتبادل بين ذوى الديانات المختلفة الذين يعيشون فى المدينة العتيقة كما يعيشون فى المدينة الجديدة . كان حاييم ، على العكس ، يزداد اعتقادا بعد كل زيارة لعاصمة فلسطين بان الصراعات الدينية هى محور الحياة الروحية لاهالى البلاد .

وقد زار اكثر من مرة «حائط المبكى» الذى ظل على امتداد قرون عديدة ملتقى للمتدينين . وقد جرت العادة فى ايام الاعياد وما قبلها ان يتوافد المصلون من الرجال والنساء اللائى يخصص لهن مكان مسور بجوار الحائط حتى «لا يعرضن الرجال للغواية . . .» . هنا يتجمهر رجال الدين اليهودى على اختلاف وظائفهم الكهنوتية . وفى اوج الصلاة قبل ان يصدح صوت «الزمارة» يقبلون جميعا ، بصدق او بادعاء الحماس الدينى ، على ضرب انفسهم لكمات متواصلة وهم يبكون بحرقة .

كان الجزء السفلى من الحائط عند مستوى قامة الانسان مليئا بالثقوب والشقوق والفجوات التى يضع فيها المصلون رسائل الضراعة التى يؤمنون بان ملاك الرحمة سوف يهبط ليلا لينقلها الى الرب . . . ويظل المصلون يتلون الايات حتى تبح اصواتهم على امل ان تسمعهم السماء .

وبجوار حائط المبكى يقف طابور طويل من العميان والعجزة المتسولين الذين يمدون ايديهم وهم يستقبلون ويودعون المصلين بالرجاء :

— صدقة يا فاعل الخير !

كلهم يثيرون الشفقة والاسى . لكن ما ان يحصل احدهم على

عملة ما حتى يثب آخرون بالعشرات ، لا ليتوسلوا بل ليطالبوا فى الحاح ، ثم يمطرون فاعل الخير بالشتائم ويشيعونه باللعنات .

وعند رؤيتهم يتذكر حاييم ايامه الاولى فى «بنى بيراك» وكيف كان نوتسى يوناس يقول له :

«لا تحسب يا حاييم ان جمع الاموال لشراء السلاح سوف يكون عسيرا . . . يكفى ان يمد الرفاق من «الوكالة اليهودية» يدهم حتى يهرع اليهود من كل انحاء العالم للتبرع . . .»

قال حاييم فى سره : «فعلا ! الا توجد لدى اسر يهودية عديدة فى الدياسبورا حصالات معدنية زرقاء يتوجب على كل افراد الاسرة ان يضعوا فيها تبرعاتهم . . . وبصفة دورية يأتى الى هذه الاسرة ممثلو «كيرين-كايميت» * ليأخذوا «الحصالات» الممتلئة بالنقود ويعطوا بدلا منها حصالات جديدة مختومة ومغلقة باقفال . . . افلا يمكن تخصيص جزء ولو ضئيل من هذه التبرعات الطائلة لهؤلاء الناس الذين جردهم العوز واليأس من آدميتهم ؟ !»

وبالمناسبة ، فقد كان الصهاينة يهزون «الحصالات» الزرقاء المرسومة عليها النجمة السداسية لجمع التبرعات عند حائط المبكى ايضا . وكانوا عادة ما يفعلون ذلك وقت تأجير امكنة الصلاة التى تخصص للمؤمنين لمدة سنة . ويتم تأجير المكان عن طريق المزايدة بان يقف رئيس الهيكل وهو يدق بمطرقته الخشبية مرددا المبالغ التى يعرضها المصلون . ويصل أجر الامكنة الممتازة ارقاما عالية للغاية .

وكانت تنتشر هنا اساطير متناقضة حول حدوث معجزات منذ زمن طويل . وانتقلت من جيل الى جيل . ويذكر الكثيرون انه قد جرت مناقشات حادة حول هذه الاساطير بين المسيحيين والمسلمين ، وبين اليهود والمسيحيين وبين المسلمين واليهود .

وفى تلك المرة اتيح لحاييم ان يشهد جدلا حول صحة اسطورة شائعة فى تلك المنطقة .

---

* مؤسسة مالية لجمع التبرعات للصهاينة .

١٩٠

بالقرب من دير الراهبات اليونانيات كانت تقع ادارة شركة «جروساليم الكتريك آند بابليك سرفيس» ، حيث سلم حاييم رسالة من حيفا ، ثم كالعادة دخل الى مطعم متواضع يشتهر بارغفة الخبز الساخن الذى يخرج من الفرن امام اعين الرواد . وفى فناء هذا المبنى الوضيع ، الذى يلجأ اليه الغرباء ، يعج المكان تحت السقيفة بالمارة والضوضاء والحركة . ودائما ما يوجد باعة متجولون وفلاحون من القرى المجاورة وحرفيون ورهبان جوالون مطرودون من الكنيسة او فارون من الاديرة . وهنا بالذات استمع حاييم الى احد الرهبان الجوالين . وهو يروى لجمع من الحجاج كيف اصيب بالخزى ، على زمان خضوع فلسطين للامبراطورية العثمانية ، رجل تركى رفيع المقام لانه تشكك علنا فى معجزات يسوع المسيح .

فلما علم بذلك بطريرك القدس استشاط غضبا وبعث للتركى برسالة قال فيها ان ابن الرب يسوع المسيح لم يكن يأتى بالمعجزات فى الماضى فقط وهو يمشى بين الناس بلحمه ودمه ، لكنه لا يزال للآن يبهر العالم بمعجزاته . ولم يقنع هذا القول الوجيه التركى . عندئذ دعاه البطريرك ليؤدى صلاة العشاء فى الكنيسة حيث يوجد قبر المسيح حتى يتأكد بنفسه من القدرة الربانية ليسوع المسيح .

لبى التركى الدعوة . وصحبه البطريرك الى المعبد . وكان البطريرك يقيم الصلاة بخشوع بينما تربع التركى فى احد الاركان وجعل ينتظر مبتسما بمكر ما يؤكد صحة ادعاء البطريرك .

وفى وقت متأخر من الليل حدث انفجار مفاجئ ، ودوت قرقعة عنيفة واندلعت السنة لهب من تحت اللوح المرمرى الذى يغطى قبر المسيح .

سقط البطريرك والتركى والتصقا برأسيهما بالارض ، الاول فى خشوع واذعان ، والثانى فى فزع ورهبة . . . وفى الصباح رأى الاثنان ان اللوح المرمرى انشق نصفين . . .

ويختتم الراهب الجوال حكايته بزهو المنتصر :

— وفى نفس اليوم آمن الوجيه التركى بالقدرة الربانية

ليسوع المسيح فتبنى المسيحية وسار على طريق الرهبنة حتى مرتبة الاسقف !

وبعد بضع دقائق من سماع تلك الحكاية ، بينما هو يلتهم ارغفة الخبز بنهم اتيح لـــه ان يسمع كيف ينفى العرب هـــذه الاسطورة . فقد كان احد الشيوخ يروى ، وهو يغالب الضحك ، كيف المت بهذا الوجيه التركى مصيبة ، اذ ماتت اجمل زوجاتـــه واحبهن اليه . ولما كان التركى صاحب نفوذ عظيم فى القدس ، فقد اراد ان ينزع اللوح المرمرى من فوق قبر المسيح ليصنع منـــه تمثالا لزوجته المتوفية . فلما علم بذلك الرهبان اليونانيون سارعوا فى الليل الى تحطيم اللوح المرمرى حتى لا ينتقـــل الى مقابـــر المسلمين . . .

كان حاييم يصغى لهذه الاساطير بشغف . لكنه لا يؤمـن بصدقها ولا بالمعجزات اساسا ، وان اعتقد انها مبنية على بعض الوقائع فى التاريخ القديم لفلسطين وهذا الشعب المبتلى .

أكل حاييم الخبز حتى الشبع وعندما تأهب للانصراف لفت انتباهه راهب طويل القامة احمر اللحية يتحدث الى صاحبه باللغة الروسية . وكان حاييم يتقن الروسية بما لا يقل عن اليديش ومـا يزيد بالتأكيد عن العبرية . فمنذ كانت بيسارابيا جزءا مـــن الامبراطورية الروسية ، وكان والده جنديا فى الجيش القيصرى ، وافراد الاسرة يتحدثون كثيرا باللغة الروسية .

تقدم حاييم من الراهب ، وتكلم معه بالروسية ، فعلم منه ان بالقدس عددا كبيرا من الرهبان الروس وان لهم ديرا وكنيســة شديدة الثراء تنعم لسنوات طويلة بهدايا ثمينة من روسيا . وعلاوة على ذلك فان لهم عدة دساكر تعتبر مثل الكنيسة من الاملاك الخاصة لروسيا . كان ذلك كله جديدا على حاييم ، وقد ود لو يطيل الحديث مع الراهب ، لولا ان الاخير كان يتعجل الانصراف . وفى لحظة الوداع دعاه الراهب لزيارته فى الدير الروسى والسؤال هناك عنه باسم الآب فيكنتى اسماعيلسكى .

ارتعد حاييم لسماع هذا اللقب وتساءل :

19—690

- اتقول ان لقبك اسماعيلسكى ؟ الست بالمصادفة من مدينة اسماعيل ؟ اننى من مواليد بولجراد القريبة منها . . .

قال الراهب بفرحة :

- وانا من ماتروسكا التى لا تبعد عن بلدتك اكثر من خمسين فرسخا . . .

- لقد زرت مرارا ماتروسكا . انها بالقرب تماما من مدينة اسماعيل .

- وانا ايضا زرت بولجراد . - ابتسم الراهب . - ما دمنا ابناء مقاطعة واحدة ، فلا بد ياأخى ان تزورنى فى الدير عند سنوح الفرصة . . . مرحبا بك فى ضيافتى !

١٦

صاح نوتسى وهو يغادر المائدة :

- اسمع يا حاييم ! انتظر . الى اين تتعجل الذهاب ؟

توقف حاييم ، وحياه . والى المائدة كانت تجلس زوجة نوتسى وحماته التى سمع حاييم صوتها الرفيع وهو عند باب السور . وكان من عادة آل يوناس ان يطيلوا جلساتهم المسائية لتناول العشاء تحت شجرة فى الفناء ، حيث مد نوتسى سلكا كهربائيا ينتهى بلمبة ضعيفة الضوء . ولهذا السبب كان حاييم واويّا يضطران كثيرا الى البقاء على مضض فى حجرتهما الصغيرة الخانقة متحرجين من الخروج الى الهواء الطلق .

اقتاد نوتسى حاييم الى ركن ما وأخذ يربت على كتفه متسائلا :

- اننا لا نراك ولا نسمعك ! اين اختفيت ؟ ماذا فعلت عموما . . كيف حالك ؟

اجاب حاييم غير مكترث :

- انى اعمل . . . ما الذى يمكن ان يشغلنى غير العمل ؟

علق نوتسى على ذلك بقوله وهو يشير الى ما يحمله حاييم :

- واضح انك تعمل ولا تلهو . . . المشتروات تدل على انك وجدت عملا مجزيا .

- لا بأس .

وكان حاييم ، حقا ، قد حصل فى هذا اليوم على اجر عال ساعده على شراء بعض احتياجات المولود المقبل : نصف دستة من اللفات وغطاء من قماش البيكة .

كذا ! عظيم . . . ليتنى انا ايضا ارحل الى مكان مـــا . . فالحياة صارت مملة . . لكن خشية البدء من جديد تجعلنى ارضى بالواقع .

كان نوتسى يتحايل . وقد تحاشت عيناه الداكنتان اللقـــاء المباشر مع نظرات حاييم الذى شعر بذلك وتوجس شرا ، فما كان له ان ينتظر خيرا من نوتسى يوناس .

ثم استطرد نوتسى :

- آه . . نسيت اخبارك بان سلمونزون يستعد لترميم هذا البيت ! اظنك سمعت بذلك .

هز حاييم كتفيه قائلا :

- لا ابدا .

- كيف لا ؟ انهم على وشك احضار مواد البناء ، الا تعرف اين يزمعون تخزينها ؟ فى الجناح الذى تسكنه ! يالها من متاعـــب . وبالمناسبة شئنا ام أبينا سوف يتحتم علينا نحن ايضا الانتقال . . تصور ! من المرجح ان ننتقل الى تل ابيب . . . وهكذا فلتستعد انت واويَا ايضا . . .

قاطعه حاييم :

- يا نوتسى ، فهمت . . فهمت كل شىء . لا تقلق ! لن نتباطأ فى اخلاء المسكن . ابلغ بذلك ، اذا تفضلت ، الرفيق سيمون . فليست له هموم الا انا .

شعر نوتسى بخيبة الامل لان حاييم تلقى الخبر بهدوء وكأن المسألة تتعلق بامر تافه . وكان اخلاء البيت مسألة ملحة حتى قبل ان يخبره بذلك نوتسى ، فقد كان حاييم لا يكف عن التفكيـر فى الانتقال الى بيت آخر بعد ان علم الجيران كلهم بان اويَا ليست يهودية وبان الحاخامية تلح عليها فى دخول الديانة اليهودية بينما هى وزوجها الاشقر يرفضان ! . . وكان ذلك كافيا لتهب مجموعة من

الصبيان والبنات الى انتهاز كل فرصة لمضايقة اويّا . فقد اخذوا يتعقبونها ، ويخرجون لها السنتهم ، وينوحون فى وجهها كالغربان ، ويتحرشون بها بالسباب والوعيد . كان على رأس هذه العصبة الصبى ذو الشعر الاسود الذى سبق ان تسبب فى انتحار ابن موليا ، ومع ذلك فلا يزال هذا التلميذ المقبل للمدرسة الدينية – بحجة التعصب لدينه والمحافظة على وصايا الاسلاف – يتفنن فى ابتكار الاساليب لايذاء أويا .

فى قيظ الظهيرة الذى لا يطاق حين كانت أويا تسدل ستائر الشباك لترطيب جو الحجرة ثم تخلد الى الراحة ، كان الأولاد بزعامة هذا الصبى المصاب بالهوس الدينى يتسلقون سقف الكوخ فيجرون فوقه ويدقون الافريز المعدنى بالهراوات ويرفعون أحد الالواح ليقذفوا الى داخل الحجرة بالحجارة والزجاجات الفارغة التى ترتطم بالبلاط فتنفجر مدوية وتتطاير الشظايا فى كل الانحاء .

كانت أويا عندئذ تظل تبكى مرتجفة من الفزع حتى يعود حاييم من عمله . لكنها لم تكن تحاول ان تقص عليه ما يحدث هنا فى غيبته . . . لا لانها لم تكن غير قادرة على ذلك وانما ، ببساطة ، لانها لم تكن تود ان تحزنه وان تعطيه فرصة أخرى ليفكر فى انها هى بالذات السبب فى كل ما يصيبهما من تعاسة ، مع ادراكها التام بأنها صارت عبئا ثقيلا على حاييم .

الا ان حاييم كان يعرف بما يحدث فى غيبته دون ايضاح او شكوى من أويا . أخبره الجيران بما يجرى الكنه لم يكن يجد من يستمع لشكواه .

وذات مرة ، بينما كانت أويا راقدة بعد فترة الغداء ، تسلل الصبى الاسمر الى الكوخ على رأس عصابته وشدوا على الباب حبلا ثم صعدوا الى السقف ، ونزعوا قرميدا ثم ألقوا على سرير أويا قطة ميتة . وفى تلك الاثناء أشعل الصبية بأمر من زعيمهم نارا بالقرب من نافذة الكوخ للايهام بحدوث حريق . وتدخل الجيران فاطفأوا النار ، وفكوا الحبل ، ودخلوا الى الحجرة فوجدوا أويا غائبة عن الوعى وعلى الفور استدعوا عربة الاسعاف .

فى حالة يائسة ، جد حاييم فى البحث عن مسكن . وقد استأذن

من السائق أكثر من مرة ليقضى اليوم كله متنقلا من بيت الى بيت فى شتى انحاء المدينة باحثا دون جدوى عن حجرة للايجار . وفى حالة العثور على حجرة خالية كان أصحابها يطالبون بدفع مقدم الايجار عن ثلاثة أشهر . وعندما كانوا يعرفون بان الاسرة تنتظر طفلا ، كانوا يطالبون بزيادة مقدم الايجار عن سنة كاملة .

جاء تحذير نوتسى بمثابة حافز جديد لحاييم . صحيح ان مواد البناء لم تأت بعد وربما لن تأتى ابدا . لكن آل يوناس كانوا يعتزمون الرحيل حقا . فقد نزعوا الستائر من النوافذ ، وباعت العجوز لجاراتها الخزانة والبوفيه القديمين .

فى صباح السبت فجأة نزل على حاييم ضيفان شابان ، كانت معرفته بأحدهما ترجع الى أيام «الاكشارا» . ما كاد حاييم يفرح لهذه الزيارة حتى علم أنها لا ترجع الى الرغبة فى رؤية زميل قديم بل ترجع الى نقل تعليمات مشددة من قائد الفوج السابق «يوسف ترومبلدور» الى حاييم وزوجته بالحضور الفورى الى الكيبوتس .

ما ان غادر عتبة البيت مبعوثا الكيبوتس حتى جاء الديان ذو لحية من الحاخامية وهو يرغى ويزبد كأنه فى نوبة صرع ، مهددا حاييم ، وهو يطرق المائدة بعصا .

حدث ذلك كله فى حضور أويا التى رأى حاييم وجهها الشاحب الممتقع وعينيها المفتوحتين عن آخرهما والطافحتين بالذعر .

تضرع حاييم الى ديان الحاخامية :

— نسألك الرحمة بحق الرب . أمهلنا قليلا . فهى فى الشهر الثامن من الحمل ! ما وجه العجلة . . . هل أنتم مجردون من الانسانية . . .

بصق العجوز باستياء وغادر الكوخ ساحبا الباب وراءه فى عنف .

مهما حاول حاييم ان يظهر مرتاحا ، فقد غالبته الافكار المزعجة التى تفضى الى استنتاج وحيد : ان كل ما يعانيه ليس مجرد أحداث مؤسفة تجرى عفوا . لا ! فالطرد من المسكن الحقير ، والضغط من جانب الحاخامية والمطالبة الصارمة بوصوله هو وزوجته الى الكيبوتس . . . كل ذلك من تدبير نوتسى يوناس ومن يقفون

وراءه . وسرعان ما اقتنع تماما بصحة ذلك الاستنتاج . ففى صباح الاحد ذهب الى العمل كعادته . ولما كان يعرف عن السائق طيبته ورقته فقد أفضى اليه بما يؤرقه . ولا غرابة فى ان الانسان أحوج الى ان يبث همومه الى احد حينما تمزقه الآلام . أصغى السائق وهو يطرق رأسه فى أسى ، ويتحاشى النظر الى حاييم . وفى النهاية قال له :

– مفهوم كل شىء . انى افهم متاعبك واشفق عليك ، لكن ما الذى فى وسعى ان اساعدك به ؟ ماذا استطيع ان افعل لك ! انا لست بانسان حر ويجب على ان انفذ الاوامر ومع اننى فى غاية الضيق اذ ازيد متاعبك ، لكننى مضطر . . . صدقنى . . . اننى مضطر للاستغناء عنك ولا تسألنى عن السبب . بودى ان اقوله لك ، لكننى لا استطيع . .. أرأيت !! لا املك الا ان اقول لك : عليهم اللعنة أجمعين ! هل فهمتنى ؟ هكذا . . .

من جديد رجع حاييم الى بيته عاطلا . وحين جاءه فى اليوم نفسه مندوبا الكيبوتس كان على استعداد للرحيل الى آخر العالم ، المهم الا يقابل نوتسى يوناس او الديان من الحاخامية او الولد المتعصب الشرير ، والا يسمع شيئا عن سيمون سلمونزون .

نقل حاييم فولديتير وزوجته ، ليس الى المستوطنة التى يوجد بها فوج «يوسف ترومبيلدور» بل الى مستوطنة أخرى تقع على جبل تحيط به وديان صخرية . ذلك ان اولئك الذين اهتموا بتهجيرهما قد خافوا فى اللحظة الاخيرة ان يجد حاييم من يتعاطف معه فى الفوج الذى كان عضوا فيه من قبل . . . وبالطبع فقد كان لهذا التغيير المفاجىء وقعه السىء على نفسية حاييم ، لكنه توصل فى آخر الامر الى ان ذلك قد يكون أفضل .

وفى الكيبوتس منح الوافدان الجديدان حجرة مشرقة ذات أرضية وسقف عاديين وأثاث لا بأس به اطلاقا . كما تسلما المفروشات والمناشف بل والصابون . كل ذلك قد اثار الدهشة المبهجة لدى الاثنين ، ولا سيما أويا ، التى اقلقها الرحيل المفاجىء

الذى لم تعرف اسبابه او آفاقه . وارتاح حاييم لهذه الراحة السكنية رغم ما ساوره من تصورات عن المتاعب التى سيلاقيها هو واويـا خلال العمل بالكيبوتس . ومع ذلك لم يكن يعتزم البقاء هنا طويلا ، ولذا راح يفكر فى نفسه : «فلنصبر بعض الوقت . . . ولننتظر ما تتكشف عنه الايام . . . فقد تهدأ الاحوال بعد فترة» .

وبالفعل كانت الاحوال هادئة فى الايام الاولى . لكانهما صارا منسيين ، فلا أحد يسألهما عن شيء ، ولا يذكرهما أحد بشيء مجرد حديث قصير حول ضرورة تسجيل الزواج .

قال مدير الكيبوتس (المستوطنة) :

– فلنقم لكما حفل عرس . وما المانع اذا اعتنقت زوجتـك اليهودية . نحن بحاجة الى افراد !

قال حاييم فى حرج :

– لا داعى لاى عرس .

كانت اويا فى حالة ما قبل الولادة بالضبط ، ولذا رأى الجميع انه لا ضرورة الآن لازعاجها . لكن حاييم لاحظ ان أويا قلقة قلقا من نوع غريب ، وانها تلقى على حاييم ذاته نظرات قلقة تنم عن انتظار ما لا يسر وتخلو من الرقة والحنان المعتادين .

ما لبث حاييم ان عرف الحقيقة . كانت زوجة مدير الكيبوتس ايجول مائير هى تسيليا ابنة الحاخام بن صهيون هاجرا المحببة . فذات مرة سارت تسيليا بجوار البيت الذى نزل به حاييـــم فولديتير ، فعرفتها أويا . ومن يومها انتابها القلق . الا ان تسيليا التى لم تقل لأحد عن سابق معرفتها بحاييم وأويا ، سافرت لزيارة بعض الاقرباء . وكما أكد الجيران فقد كانت مثل هذه الزيارات غير نادرة ، فابنة الحاخام على ما يبدو لم تكن على علاقة طيبة بزوجها .

مع ذلك لم يتخلص حاييم من القلق . لدى ذهابه الى العمل كان دائما يقبل أويا بحنان ، ويمعن النظر الى عينيها الواسعتين الحزينتين ، ويبتسم على أمل ان يظفر منها ببسمة تجاوب . . . لكن بلا جدوى . كانت أويا تطأطىء رأسها مخفية الدموع الوشيكـة فتغطى وجنتيها بضفيرتيها الكثيفتين المنسدلتين على كتفيها . ما

كان أحوجه لان يبقى فى البيت ليهدأ روع زوجته لكن الحياة فى الكيبوتس لم تكن تسمح بالاستراحة .

عندما توجه حاييم للعمل شيعه المدير ايجول مائير بقوله :

– كل وافد على الكيبوتس يعمل فى تخصصه : السائق يعمل على عربة ، والطبيب يعمل بالمستشفى ، والموسيقى يلتحق بالاوركسترا ، والبناء يشيد المبانى . المستقبل عندنا رحيب ! والمشروعات ضخمة . قد تقول لى انه توجد بطالة . نعم لدينا بطالة . ولكن ، ما العمل اذا كان احد الوافدين من صناع الجسور ؟ ليست لدينا أنهار وليس من المتوقع وجودها فى المستقبل القريب . وان كنت اؤكد لك بانها سوف توجد فى المستقبل المنظور ! وغير الانهار ايضا . . . اما الآن ، فلا مفر من تعلم مهن جديدة . العمل عندنا ينبوع السعادة . هذا ما يتوجب عليك ادراكه وتذكره دواما ! فاذا كنت تريد ان تنعم بالسعادة عليك ان تشمر عن ساعديك عن آخرهما . . . ولتعلم ايضا يا فتى ، ان العمل هنا على الدوام فى المقام الاول ، اما الأسرة والزوجة والاطفال وصحتهم وما الى ذلك فهو فى المقام الثانى وليس الاول . . . ولنعتبر اننا وجدنا صيغة التفاهم المناسبة واننا متفقان تماما على مستوى عال . هل لديك اعتراض ما ؟

وشمر حاييم عن ساعديه . فقد ألحق بعربة نقل كان يسافر بها الى المدينة لاحضار العلف بوصفه مندوب استلام وحمالا ومساعد سائق . وفى الايام النادرة التى لم تكن فيها سفريات كان يعمل فى مستودع الاعلاف وفى الحظائر .

كان ايجول مائير يذكر دائما :

– لا يحق لأحد كان ، ان يبقى فى المزرعة بلا عمل . على الناس ان يكدحوا ، والدواب ان تنتج ، والمحركات ان تدور ، والضوء أن يشرق ، والماء أن ينساب ! الساعة هى الساعة لأنها تبين الوقت بدقة . ومزرعتنا قائمة لكى تعطى ما هو مطلوب منها ان تعطيه .

لم تكن غريبة على حاييم قواعد الحياة فى الكيبوتس كما فى الثكنات العسكرية ، أو أجواء التعصب القومى والدينى السائدة . وقد كان يبدو لحاييم أن أعضاء المستوطنة الزراعية فى معظمهم من

بسطاء الناس . فبعضهم قد جاء الى هنا ، كما جاء هو نفسه ، بحكم الاضطرار ، والآخرون ساقهم اعتقادهم الراسخ بأن انشاء وازدهار الكيبوتسات هو الطريق الوحيد السليم لجمع شمل أبناء الديانة الواحدة المتشتتين فى انحاء العالم ، ولاقامة الدولة اليهودية . ولذا كانوا يؤكدون بحماسة ان المسألة الاساسية فى الكيبوتس ليست المال ولا اللباس ولا الطعام بل العمل الذى تتجسد فيه كل سعادتهم والمساواة الحقة بينهم ، والأخوة العظيمة . كانت الحياة فى الكيبوتس تسير على النمط العسكرى . الطعام من اناء واحد ، والزى موحد : حلة للعمل واخرى للعيد ، والمساكن عامة ، والنقود لشراء الدخان او غيره من الاحتياجات البسيطة .

«اربايت ماخت جليكليخ !» * - تذكر حاييم اللافتة المعلقة عند مدخل العنبر التى استقر به المتطوعون . ومن قبيل تداعـــى الأفكار تذكر اللافتة التى كانت معلقة على مدخل المعتقل النـازى لليهود وعندئذ أصيب حاييم بغثيان : «اربايت ماخت فراى !» **

كان ايجول مائير يسافر مرة فى الشهر الى تل ابيب حيــث يشارك فى اجتماعات وجلسات ما ، وما ان يعود الى الكيبوتس فى وقت متأخر من الليل حتى يجمع الناس ويلقى عليهم خطابا .

كانت مثل هذه الاجتماعات تعقد فى الكيبوتس بصفة دورية ولم يكن يحق لأحد أن يتخلف عن حضورها . فلم يكن يستثنى مـن ذلك غير المشرف الاول على التدريب العسكرى وبعض الاشخـاص الذين ينتمون شكليا الى الكيبوتس ويحضرون بسياراتهم الخاصة أو الرسمية مرة أو مرتين فى الشهر لممارسة العمل ساعات مقررة . وفى العادة كان هؤلاء يتبوأون مراكز مرموقة فى المدينة ، لكنهم فى الكيبوتس يعملون على قدم المساواة مع الآخرين ، وبالطبع فقد كانوا يؤدون اعمالا أقل مشقة مما يؤديه الأعضاء المقيمون فى الكيبوتس .

وفى هذه المرة أيضا عقد ايجول مائير اجتماعا على أثــر عودته من تل أبيب . جلس حاييم فى الحجرة المكتومة التى تتسع

---

* «العمل يجلب السعادة !»

** «العمل يجلب التحرر !»

بالكاد للعاملين فى الكيبوتس . ولما كان الناس متعبين من عناء العمل طوال اليوم ، فقد غالب بعضهم النعاس وهم يسمعون للمرة المائة تعليمات المدير المملة . علاوة على ذلك فقد تفتق ذهن المدير عن اجراء مثل هذه «الاحاديث» حتى أثناء «التدريبات العسكرية» التى التحق بها حاييم فور وصوله الى الكيبوتس .

كان ايجول مائير يهوى ترديد القول :

– كل عضو فى الكيبوتس ، متطوع ، بغض النظر عن كونه رجلا أو امرأة ، ملزم بأن يتقن تماما استخدام ما فى حوزته من معدات ابتداء بالمحراث والجمل وانتهاء بالتراكتور او المدفع الرشاش . وفقط بمقدرتنا على استخدام ذلك كله نستطيع أن نظهر للعالم طبيعتنا ! . .

كان ايجول مائير يحرص فى محادثته للناس على الظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور : يزر عينه اليسرى ، ويهز رأسه يمينا نحو كتفه ، ويلوى شفتيه المبللتين بابتسامة سخرية . ولم يكن ايجول مائير يطيق اعتراضات المرؤوسين ، أو يثنى على من يبدى رأيه الخاص . ولطالما ردد عبارته المأثورة : «لا تعطونى نصائح ، من فضلكم ، فأنا نفسى أجيد الوقوع فى أخطاء» .

كان الجميع يعرف أن مدير الكيبوتس يبدى صرامة خاصة ازاء المهاجرين من آسيا وافريقيا . فهؤلاء الناس الذين قضوا العمر كله فى حياة بائسة لم يتقبلوا جديا قط لا بقلوبهم ولا بعقولهم مطالبة ايجول مائير بالتزام النظام والنظافة وفى كل الأمور . والآن أخذ ايجول مائير يوبخهم وهو يضيق عينه اليسرى وكأنه يقبض على البندقية ويصوبها نحو الهدف :

– نحن فى حاجة الى أفراد . هذا صحيح ! نحن فى حاجة الى ايد عاملة . لكن ، أفيدونى اذا تكرمتم ، ما الفائدة من كثرة عدد الأفراد فى الأسر المهاجرة من آسيا وافريقيا ؟ انهم يأكلون مثل فئران الحقول ، ويتوالدون مثل الصراصير . . . الأسرة الواحدة مكونة من عشرة اطفال ، أو اربعة عشر طفلا ! صغارهم أوباش ، وكبارهم جشعون ! لكن لا تقلقوا عليهم . . . فهم يحصلون على كل ما يحتاجونه بالصياح والصفاقة ، وما أكثر ما يشاغبون ويتشاجرون

بالمطاوى . . . اما البنات . . فهن لا يكدن يبلغن الخامسة عشرة حتى يتزوجن وهن تأخذن الأمور بنفاد صبر ! فعندما يكون موسم العمل فى ذروته تجدهن منتفخـات البطون . . متاهبات للولادة . . وهكذا بلا نهاية ! ولكن العمل . . وانى لأتساءل : من الذى يجب ان يعمل . . هذا لا يعنيهن فى شىء . . ولكنهن يخطئن كثيرا . . . ايجول مائير ليس بالرجل العاطفى . هذا أولا ! وثانيا ايجول مائير لن يسير ابدا فى ركابهن . وثالثا ، ماذا تحسبون ؟ ثالثا اما ان يعملن على قدم المساواة مع الآخرين واما انهن لن يحصلن عـلى الاكل .

وكان الاسيوى عزرا ، الذى زامل حاييم فولديتير فى انزال حمولات العلف من الشاحنة ، يتناول حصته من التوبيخات . فمهما حاول المحافظة على نظافة الحظيرة كان ايجول مائير يفلح دائما فى تصيد هفوة ما لكى يوبخ عزرا بقسوة . وكان هذا الجبار الـــذى تبلغ قامته المترين يرتجف من الخوف ويلوذ بالصمت .

كان عزرا من مواليد اليمن ، وقد عمل هناك منذ صغره ، عند أحد الأثرياء الانجليز فى دبغ الجلود وتحضير الأصباغ الكاوية . وبحكم اعتياده على مذلة العبودية ، كان يتقبل الاساءة والمهانـــة باذعان واستسلام كأن ذلك من طبائع الأمور . ولم يحدث قط ان تصور لنفسه مصيرا آخر . هكذا عاش اجداده الأبعدون ، وعاش أبوه ، وقد كان من مشيئة الرب أن يعيش هو الآخر .

لكنه حدث فى أحد الأيام أن أخذ المبشرون الصهاينة يدعون يهود بلاده باسم الله للعودة الى «ارض الاجداد» حيث يجدون الشهد جبالا ، والحليب أنهارا ، والمهلبية ضفافا . وقد تمتع الصهاينـة بتأييد الحاخامات من رؤساء الطائفة ذوى النفوذ الواسع بين اليهود اليمنيين .

استجاب عزرا «لنداء الرب» فركع تحت أقدام سيده متوسلا أن يسمح له بالرحيل الى «أرض الميعاد» .

رفض الانجليزى مجرد الاصغاء . وعندما نزع بعنف قدمه من يدى العبد الراكع تركت مقدمة الحذاء أثرا داميا على جبين عزرا . مع أن عزرا هذا هو بالذات الذى أنقذ سيده منذ بضع سنوات من الموت

المحقق غرقا . لكن الانجليزى بعد أسبوع استدعى عزرا . لعـل ضميره استيقظ ، ولعله لاحظ فى سلوك العبد الذليل والخانع على الدوام امارات التمرد . المهم أنه تركه يمضى لحال سبيله فى امان بل اهداه ساعة جيب مستديرة . وقد أصبحت الساعة بالاضافة الى الجرح المندمل فوق حاجبه الأيسر تذكرانه الآن بالوطن البعيد .

فى فلسطين أرسل عزرا مباشرة الى الكيبوتس وهو يعتقـد تماما بأنه سوف يجد هناك جنة الله فى أرضه كما صورها المبشرون الصهاينة ولذلك فبمجرد وصوله الى الموقع راح يسأل افـراد الكيبوتس القدامى عن أنهـار اللبن التى تسرى بين الشطئـان المهلبية .

وقد اتخذه أفراد الكيبوتس مادة للسخرية من سذاجة الأطفال التى تهيمن عليه . واذ شعر عزرا بالخديعة واليأس والمهانـة الشديدة فقد اعتزل الناس وتقوقع داخل ذاته . وفى أيام السبـت والأعياد كان يلوذ بمكان هادئ ، ويفتح العلبة التى يحفظ بداخلها الساعة ، ويستغرق فى تأمل حركة عقرب الثوانى النطاط .

وبعد أن شاعت عنه هذه المسألة كان الساخرون لا يكفون عن سؤاله عن الوقت . وهنا يلتقط عزرا العلبة من جيبه بكل جدية وتأن ثم يفتحها ليخرج الساعة وبشغف يتأمل هو أولا حركة العقرب النطاط ثم يدير ميناء الساعة تجاه من يسأله . ويعود بتأن وعناية لوضع الساعة فى العلبة . ولم يكن يخطر ببالـه أن السائلين يسخرون منه ، فقد كان يخيل اليه أن كل شخص يشعر بمتعـة عظيمة حين يشهد من جديد هذه الماكينة الحادة الذكاء . كانـت الساعة بالنسبة له بمثابة الفرحة الوحيدة والثروة الوحيدة .

فى اليوم الاول لعمل حاييم فولديتير مع عزرا فى الحظيرة مـر عليهما ايجول مائير وبصحبته أريه خيرسون الذى يحظى بمكانة خاصة لدى المدير . كان أريه الربعة ، القصير القامة ، العريض المنكبين ، ذو الوجه الحليق الناعم كالبيضة ، والشعر الكثيـف المدهون بالبرليانتين ، يشغل من الناحية الرسمية منصب رئيس النادى ، اما فى حقيقة الأمر فهو المشرف الاول على التدريب العسكرى مع أنه لا يمت للشئون العسكرية بأية صلة .

قبل وصول ايجول مائير وأريه خيرســـون الى الحظيرة كان حاييم وعزرا قد قضيا بضع ساعات من العمل المتواصل فى نقـــل العلف السيلاوى بالمذراة من المخزن الى الحظيرة . ولما اضناهما العمل جلسا طلبا للراحة . لكان المدير كان ينتظر هذه اللحظة : فقد ظهر عند العتبة ايجول مائير وأريه خيرسون . ضيق ايجـول مائير عينه اليسرى وأمال رأسه الى كتفه صائحا :

– يا كسلان انت وهو ! بمناسبة أى عيد ترتاحان . .

اندس فى الباب بجانبه وتفحص ما اذا كانت المعالف مليئة بالعلف ام لا . ولما كانت مكتظة عن آخرها فقد اطمأن مائير لكنه ما ان لمح على الارض بقايا التبن ، التى لم يتمكن الرجلان بعد من كنسها ، حتى صاح من جديد :

– ما هذا ؟ لماذا يتبعثر العلف على الأرض ؟ أتعرفون الثمن الذى ندفعه عن كل قشة تبن ؟ أتعرفــون من أين نحصل عــلى العلف ؟ !

وقف عزرا وهو يكاد يموت خوفا من المدير .

اما المشرف الأول على التدريب العسكرى أريه خيرسون فقد اقترب من حاييم وأخذ بطريقة تعليمية يدق بعصاه على ساقـــه السمينة الكثيفة الشعر البارزة من بنطلونه القصير وهو يقـــول بصوت أخن :

– هذا غير جائز ، يا فتى ! هذا السلوك لا يجوز هنا . . ابدا . . أبدا ! أنا لا أدرى أين تعلمت ممارسة العمل من قبـل ، لكننى أنبهك بكل جدية الى ضرورة التمسك هنا فى كل الأمور ، كبيرها وصغيرها ، بالدقة والجدية والاهتمام القلبى بكل ما يجرى فى الكيبوتس . . . وليكن فى علمك أنك ما لم تتحل بهذه الصفات ، فلا يمكن ان تأمل بأن تصبح متطوعا . وهذا شرف عظيم عندنا ! انك لا تزال فى باكورة الشباب ! . .

بنبرة هادئة أجاب حاييم بأنه يعتبر نفسه متطوعا منذ اكثر من عام .

– بالنسبة لى هذا لا يقدم ولا يؤخر . . .

وابتسم بسخرية . كان يشعر بالقرف من هذا الرجل المتأنق

المتعجرف ذى الوجه المنعم والشعر المدهون بالبريليانتين والساقين السمينتين . وقد كان اكثر ما يضايقه فيه غروره وتعاليه على امثال حاييم وعزرا وكانهم اقرب الى الدواب منهم الى البشر .

اذ لاحظ أريه خيرسون سخرية حاييم منه احمر وجهه غاضبا وقبضت يده على العصا بحركة تشنجية ترتجف ، وتذكر اريه انه سبق ان سمع شيئا ما عن هذا الوافد الجديد . . لقد سمع قصة مثيرة عن زوجة حاييم لكنه لم يستطع بل ولم يود تذكرها . ما له هو بهذا الفتى الذى حكمت عليه الأقدار بأن يتعامل مع روث البهائم . بأى حق يجلس ويبتسم بينما الرؤساء يتحدثون معه ! ورأى ان هذا الفتى الذى استطاع أن يخفى لفترة طويلة حقيقة اعتناق زوجته لديانة اخرى يستطيع بنفس القدر من النجاح اختلاق اية وقائع فى حياته . واذ اعتقد بأن رأيه حقيقة لا تقبل الجدل عزم على توبيخ حاييم . واذ تصور حاييم الوضع المزرى الذى وضع نفسه فيه هذا المتانق المتعجرف ، انفجر فى الضحك .

وصف اريه خيرسون حاييم بالوقح والمدعى الكاذب . وما ان سمع ايجول مائير صياح مساعده حتى اعتقد بأن حاييم لابد قد أظهر شيئا من الاستهزاء بالمشرف الاول على التدريب العسكرى . وعلى ذلك فقد أخذ ايجول مائير بدوره يهاجم الفتى :

— لماذا تتطاول ؟ أنسيت أنك متطوع ؟! وأنك لست مجرد متطوع عادى ، بل تدرب فى فوج «يوسف ترومبلدور» الشهير ، وهو شرف لا يحظى به كل شخص . . . وتتصرف كصبى غر بدلا من اعطاء القدوة للآخرين . . . تهزأ برئيس النادى . لا سيما وهو ايضا المشرف الاول على التدريب العسكرى ! ما الذى جرى بينكما ؟

— لا شىء يستحق الذكر . كل ما هناك أننى قلت للرفيق خيرسون عن نفسى ما ذكرته أنت ولا أدرى لماذا وصف سلوكى بالوقاحة والادعاء الكاذب . . .

نظر اريه خيرسون بارتباك الى المدير . وحاول المحافظة على هيبته بقوله :

— لم أكن أعرف عنه الا أنه ادعى أن زوجته اليونانية يهودية ولذلك فقد تصورت بالطبع . . .

ولكن المدير انصرف فلم يسمح له بالاستطراد .
وهنا صاح حاييم حتى يسمعه المدير .
- ايها الرفيق المدير مائير . التبن المبعثر الذى وبخت عليه عزرا ، أنا الذى بعثرته ولم أتمكن من جمعه قبل مجيئكم . ارجوكم المعذرة !

التفت ايجول مائير ، وكعادته ضيق عينه اليسرى وامال رأسه الى كتفه وهم بأن يقول شيئا ما ، لكنه هز يده بضجر ، ثم استدار بحدة وأسرع ليلحق بخيرسون .

كان لهذا المشهد أعمق التأثير فى نفس عزرا . فلأول مرة يجد انسانا يدافع عنه .

يوما بعد يوم ازداد عزرا احتراما لحاييم ، وثقة به ، وهو يرى ان ساكن الكيبوتس هذا والذى ادى «اكشارا» ما فى الفوج الشهير يعمل على قدم المساواة معه هو «الفرنك» عزرا حتى يتصبب عرقا دون أن يخدش كرامته الانسانية ولو مرة واحدة بكلمة نابية . بل لقد حدث مرارا ان أحرج حاييم أفراد الكيبوتس الذين يهزأون بعزرا وجعلهم يخجلون من أنفسهم ، كما كان يفرق الأولاد الذين يتخذون هذا العملاق الصامت الساذج الطيب مادة للهو الصبيانى .
أكثر فأكثر أيقن عزرا أن حاييم رغم كونه متطوعا بل وليس «بمتطوع عادى» ، كما قال المدير آنذاك ، فهو مثل عزرا يعتزل الناس . ولعل ذلك هو السبب فى توثق اواصر الصداقة بينهما . على ان عزرا لم يقدر على التخلص من الخنوع الذليل والخجل والانطوائية ، وقد دأب أن يرد على دعوة حاييم له بزيارته مساء فى مسكنه بالوعد بأن يقوم بهذه الزيارة فى فرصة أخرى . وذات مرة رأى حاييم وزوجته أويّا فتصنع أنه لم يلمحهما ، وحث خطاه ، وانعطف فى اتجاه آخر . وحينما أسر اليه حاييم بشعوره الذى تمتزج فيه الفرحة بالقلق لانتظاره مولودا ، أشرق وجه عزرا لأول مرة منذ تعارفهما ، ولاحت من بين الشفاه أسنانه البيضاء ، وارتسمت السعادة على محياه ، وكأنه هو ، عزرا ، الذى يوشك أن يصبح أبا .

واصيب عزرا بأسى بالغ حين علم بأن حاييم ضمن وحدة

عسكرية يجب أن يسافر الى مكان ما لبضعة أيام . كان الاستعداد للمهمة يجرى من فترة طويلة لكنه ظل طى الكتمان . لم يتطرق الحديث الى ذلك الا يوم أن وصلت الى الكيبوتس ثلاث شاحنات محملة بالكامل بشىء ما وبأفراد من مزارع أخرى . وقد انضم كل هؤلاء الى الوحدة العسكرية للكيبوتس المحلى وانخرطوا تحت قيادة المشرف الاول على التدريب العسكرى أريه خيرسون .

من الصباح الى المساء كان أعضاء الوحدة العسكرية ومن بينهم حاييم يقومون بتحميل الشاحنات . كانت المحاريث ومعدات البذار ، والمطبخ المتنقل وصناديق المؤن ، والخيام والمراتب ، وأدوات اللحام الكهربائى ، وأنابيب الاوكسجين ، وبراميل الزيت والسولار ومياه الشرب ، كانت كل هذه الشحنات وما شابهها لا تسمح لحاييم وغيره من المتطوعين الجدد بادراك الطابع الحقيقى للمهمة المقبلة .

فى نهاية يوم العمل انصرف أفراد الوحدة العسكرية من اعضاء الكيبوتس الى بيوتهم وقد أضناهم التعب . وكان حاييم يود لو يطلب اذنا بالبقاء فى الكيبوتس بسبب سوء حالة زوجته ، لكنه عدل عن ذلك . اذ كان واثقا من أن أريه خيرسون ، بل وايجول مائير سوف يسيئان تفسير طلبه ويرفضان السماح له بالبقاء ، رغم أن أويا كانت فى حاجة الى وجوده بجوارها أكثر من أى وقت مضى .

وصل حاييم الى مسكنه ، وما ان اغتسل وتناول طعام العشاء واراد الخروج مع اويا للتنزه بعض الوقت الى جوار المنزل ، حتى وصل رسول يحمل امرا بارتداء الزى الرسمى الذى تسلمه اليوم فى المخزن والتوجه فورا الى مكان التجمع على استعداد تام للرحيل .

والى مخزن العلف الذى تجمع عنده متطوعو الوحدة العسكرية ، وصلت شاحنة ديزل ليتضح على الفور وجود مخزن اسلحة تحت هذا التل الهائل من العلف . وراح اعضاء الوحدة العسكرية يتسلمون بنادق جديدة ورشاشين خفيفين وصناديق ذخيرة وادوات للحفر ومعدات عسكرية اخرى .

وهنا فقط ، ادرك حاييم السر الذى كان يكمن وراء زيارات اريه خيرسون وايجول مائير الدائمة لمخزن العلف . . .

وفى حلكة الظلام انطلقت خمس شاحنات محملة بالكامل اضافة الى خمسين متطوعا يراسهم اريه خيرسون تاركة اراضى الكيبوتس. ولم يستطع حاييم تحديد اتجاه الحركة وماهية هذه الرحلة، ولكنه كان يدرك ان كل ذلك لا علاقة له بمشروع تدريبى، وليس صدفة على الاطلاق ان يكون محاطا بالسرية التامة .

وعند منتصف الليل تقريبا انعطفت الشاحنات الى طريق زراعى، ثم سارت بدون طرق عبر اراض تلفها الظلمة، راحت تبحث فيها عن موقع ما . وفى صمت تام كأن البعض لم يعرف بعضا جلس المتطوعون يحتضن كل منهم بندقيته، بينما الرشاشان فى وضع استعداد . ذلك لان اريـــه خيرسون المشرف الاول على التدريب العسكرى حظر عليهم جميعا الحديث، وكذلك مبارحة الشاحنـة اثناء توقفاتها القصيرة، وعدم اشعال ثقاب وعدم التدخين باى حال من الاحوال . وهكذا كان الحال مثيرا للحذر والقلق كما هو قبيل المعركة .

واخيرا توقفت الشاحنـــات، ليصدر المشرف الاول اوامره بتفريغ الشاحنات على الفور وحفر الخنادق فى الاتجاهات التى اشار اليها ونصب الرشاشين على مرتفع .

وراح المتطوعون وهم يتصببون عرقا يعملون فى عجلة شديدة كما لو ان احدا يلاحقهم، الى ان فرغوا عند الفجر من حفر الخنادق . وشرعوا جميعا، عدا اربع فتيات مشغولات باعداد الطعام، يدقون فى حمية اسياخ الحديد ويشبتون بها الاسلاك الشائكة . وفى منتصف القطاع عند التل الذى تمركز به طاقم الرشاش، قامت مجموعة من المتطوعين بتركيب برج للمراقبة كان قد تم اعداده من قبل . وما ان انتصب البرج فى مكانه حتى اعتلاه مراقب يحمل منظارا مكبرا .

وعند شروق الشمس كانت الاسلاك الشائكة تحيط بمساحة من الارض تبلغ بضع عشرات الدونمات من الجهة المجاورة للقرية العربية، وشرعت شاحنتا الديزل تحرثان الارض بمحراثين ملحقين بهما .

وراح المشرف الاول يطوف بمجموعات المتطوعين ويحثهـم قائلا :

20—690

ـ يجب ان يكون كل شيء على ما يرام ! يجب العمل باقصى جهد يا رفاق ! والا فسوف تفشل عمليتنا . . . ارجو ان تسرعوا فى مد الاسلاك الشائكة ، فذلك اهم شيء !

وتذكر حاييم ما ذكره سلمونزون اثناء تفريغ احدى السفن الاوسترالية التى كانت تحمل اسلحة ، ليلا :

«يجب ان يكون كل شيء على ما يرام . ان هذه هى الوصية الاولى فى عملنا . . . والا فلن نحقق ما نصبوا اليه . . .»

ويتضح ان اريه خيرسون ايضا يعتبر «العمل على ما يرام» وصية اولى . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت ثمة «وصية اولى» اخرى لديه ، حيث كان يهوى فى كل مناسبة الاشارة الى ان التخاذل والتساهل او الشفقة بالاخرين الذين يعرقلون تنفيذ امر القيادة ليست سوى مظهر من مظاهر الضعف . ولقد كان ذلك هو السبب ، على ما يبدو ، فى ظهور لافتة «التساهل علامة الضعف !» على اعلى برج المراقبة .

كانت الشمس قد بزغت حين اعلن المتطوع الموجود على اعلى برج المراقبة عن تحرك جرارين فى اتجاه القطاع . وهرول اريه خيرسون ليعتلى البرج تغمره سعادة جارفة .

وعندما عبر الجراران حدود قطاع الارض المحددة بالاوتاد الصغيرة والتى يحتلها المتطوعون اصدر اريه خيرسون اوامره ليرفرف على البرج العلم الابيض ذو النجمة السداسية الزرقاء . وما ان شاهد المتطوعون هذه العلامة حتى ترك كل منهم عمله ليصطفوا جميعا صفا واحدا . واخرج احدهم ، وهو شاب فى مقتبل العمر ، من جيبه كتاب صلوات صغيرا وراح يتلو صلاة قصيرة ، صلاة تقديس الارض . وقام المتطوعون بعد ذلك وهم واقفون انتباه بترديد النشيد «اثيكفا» .

وانطلقت فى نفس اللحظة تقريبا الشاحنتان فى اتجاه العودة ، بينما قام عمال الجرارات بعد ان ثبتوا المحاريث باستئناف حرث الارض فى همة ونشاط . وعاد المتطوعون يمارس كل منهم عمله فى غبطة .

وذكر احد المتطوعين والذى كان يعمل برفقة حاييم تراوده مشاعر الدهشة والسرور :

— هكذا تظهر مستوطناتنا الزراعية . يبدو اننا لا نستطيع اقامة دولتنا على نحو آخر . . .

ولم يرد عليه حاييم ؛ فقد تذكر الفلاحين الرومانيين البؤساء الذين انتزع منهم متطوعو فوج يوسف ترومبلدور مرتباتهم ولقمة عيشهم ؛ لكن ذلك ولحسن الحظ كان لبعض الوقت . بيد ان المتطوعين هنا فى ارض الميعاد ، يفعلون نفس الشىء مع الفلاحين العرب لا لبعض الوقت ، بل الى الابد !

وقام المتطوعون بتناول طعام افطارهم بالتناوب حتى لا يتوقف العمل . ووصلت ثلاث شاحنات تحمل اسلاكا شائكة تناولها المتطوعون ليحيطوا بها على عجل الاراضى التى احتلوها ، ورحلت الشاحنات من جديد .

وكان العمل فى ذروته ، حين اعلن برج المراقبة عن ظهور مجموعة كبيرة من الفلاحين فيما وراء التل تحمل عصيا ومذار . . .

وصدر الامر ليترك المتطوعون العمل فورا ويتخذوا اماكنهم فى الخنادق . كما توقفت الجرارات عن العمل ، الا انها استانفت حرث الارض تنفيذا لامر صدر عن اريه خيرسون .

وعندما وصل الفلاحون الى مقربة من الاراضى المحاطة باسلاك شائكة اطلق المتطوعون النار دفعة واحدة فى الهواء بناء على امر اريه خيرسون . واحكم حاييم قبضته على البندقية فى تشنج وراح يطلب من الله ان يعود هؤلاء البؤساء الى قريتهم باسرع ما يمكن . فقد كان يرى ضمن هذا الحشد القادم شيوخا ، بل ونسوة يحملن اطفالا .

ونكص الفلاحون فى خوف ، والقوا بعصيهم ومذاريهم ليهرولوا بعيدا الى ما وراء التل . وتنفس حاييم الصعداء ، الا انه شعر فى ذات اللحظة بنفسه فاقد القوى تماما ، وجلس على الارض والقى بنظرة ناحية التل وقرر فيما بين نفسه انه اذا ما ظهر من هناك اولئك الفلاحون البؤساء مرة اخرى فلن يطلق عليهم النار باى حال من الاحوال .

وذكر رفيق حاييم كما لو كان يبحث لنفسه عن ذريعة :

— ان الامر ليس بيدنا . اننا هنا نطلق النار فى الهواء ،

بينما فى مكان آخر يطلقونها على مواطنينا . . . غير ان الدماء كان من الممكن ان تنسفك هنا لو واصل هؤلاء الفلاحون مسيرتهم نحونا ولم يخافوا . . . هذه سمات العصر . . . من يردى الاخر ؟ وبوجه عام ليست هذه هى المرة الاولى ولن تكون ، للاسف ، الاخيرة . . .

وحقا ، لم تكن هذه الارض ، اول قطعة يشتريهـــا تروست «كيرين - هايسود» من كبار الملاك العرب . كانت اجيال الفلاحين تستأجر هذه الارض لقاء ايجارات موسمية . بيد ان مالك الارض لم يهتم بكون ان هؤلاء الناس لا يملكون مصدرا اخر للعيش سوى هذه الارض التابعة له . لقد كان فى حاجة الى المال ، فباع الارض وليذهب الفلاحون الى حيثما تسوقهم اقدارهم .

وهذا ما حدث . فقد رحل كثير من الفلاحين بعد عدة ايام بعيدا عن تلك الاماكن التى استوطنوها سنين طويلة . واذ علم اريـــه خيرسون بذلك ، بعث مجموعة من المتطوعين الى القرية لنشر اشاعة فحواها ان الارض قد تم شراؤها من المالك بعلم الانجليز الذين يرغمون اليهود على بناء مستوطنة لهم فيها .

ولم يعر الفلاحون اى اهتمام لظهور المتطوعين الذين تظاهروا بزيارتهم للقرية بمحض الصدفة . وقد تجلى رد الفعل الوحيد لدى هؤلاء فى اخفـــاء النسوة لوجوههن تحت الحجاب ، وسوق الماعز والخرفان الهزيلة الى الحظائر ، ليرحن يواصلن تصريف شئونهن عند الافران الواقعة بعيدا عن الاكواخ الحقيرة التى تشققت جدرانها وتداعت لدرجة بدت معها آيلة للسقوط . ولم يبق بالقرية اكثر من عشر عائلات رفضت مبارحتها .

وحاول المتطوعون تجاذب اطراف الحديث مع الرجـــال الذين تربعوا الى جوار اكواخهم . واستجاب الفلاحون عن طيب خاطر وراحوا يلعنون المالك الذى كان يقطع منهم بعد جمع المحصول اربعـــة مكيالات بدلا من ثلاثة . . . اما الان فأخذ منهم الارض . . . فما العمل ، وما السبيل ؟ الامر هين بالنسبة لذوى العائلات الصغيرة ، حيث كان سهلا عليهم الرحيل الى حيث تقودهم اقدامهم ، لكنه خلاف ذلك بالنسبة لذوى العائلات الكبيرة . بل هو اكثر سوءا للعائلات

التى بها المسنون غير القادرين صحيا على الرحيل بعيدا . . فليس ثمة من ينتظرهم ، ما عدا المصائب . . .

وعرض المتطوعون على الفلاحين دخانا ، تناولوه فى نشاط وراحوا يحشون به غلايينهم . وقام هؤلاء بدورهم بتقديم الارغفة الطازجة ولبن الماعز الى المتطوعين . بيد انهم لم يتفوهوا بجديد . . . فللمصيبة طعم واحد لا يتغير ، وقد ألفوا ان يذوقوه كثيرا .

وبعد ان جاب رجال اريه خيرسون القرية المقفرة ، وتحادثوا بما فيه الكفاية مع الفلاحين دون ان يجدوا ثمة ما يدعو الى القلق عادوا الى مواقعهم .

واذ استمع المشرف الاول على التدريب العسكرى اريه خيرسون الى اقوال العائدين ، قال بلهجة احتفالية :

– التساهل علامة الضعف ! ان ذلك يؤكد صحة مواقف رجالنا . . . وهنا تلعثم اريه خيرسون ، وتململ المتطوعون ، فقد تعالى صوت انفجار قوى غير بعيد عنهم ، تبعه بعد عدة ثوان انفجاران اخران .

اعلنت «حالة الطوارئ» فى الاراضى المحيطة ؛ فلم تكن الانفجارات تنبئ بشئ طيب . وراحت الظلمة تسدل ستائرها . وفى هذا الوقت لاحظوا من برج المراقبة شخصا يجوب الطريق وحيدا .

وخرجت لاستقباله مجموعة مسلحة من المتطوعين عرفت فيه سائق احدى الشاحنات الثلاث التى كانت تنقل محطة الكهرباء المتنقلة والمحرك . لقد فجرت الشاحنات الثلاث بالالغام واطلق العرب النار عليها واحرقوها . ولم يدل السائق باية معلومات عن السائقين الاخرين .

وابتسم حاييم فى سخرية لاذعة ، حيث وردت الى خاطره عبارة «التساهل علامة الضعف !»

وكان على المتطوعين الانتظار حتى اليوم التالى ليعودوا ادراجهم الى الكيبوتس . ذلك لان استصلاح هذه المنطقة وتعميرها كان من مهام مجموعات اخرى .

وقضى المتطوعون تلك الليلة كما لو كانوا يقضونها فى

معسكر محاصر ، فقد كانوا جميعـــا يترقبون هجوما جديدا . ولم يغمض لاريه خيرسون جفن طوال الليل ، فقد كان يرى فى اى صوت او حفيف ان العرب يتسللون تحت كنف الليل . . . كما بدا الهدوء الرنان ، سكينة تنذر بالسوء .

١٧

وجد حاييم عند عودته الى منزله اويا فى حالة نفسية غاية فى التوتر ، ادرك على التو سرهـــا . . . فقد عادت تسيليـــا الى الكيبوتس ، حيث ما كاد نظر اويا يقع عليها فى المطعم حتى هرولت خارجة دون تناول الطعام عائدة ادراجها الى المنزل .

هذا علاوة على ان تسيليا نفسها حاولت جاهدة تحاشى مقابلة اويا وحايم ، ليس بالطبع لتخوفها من التعرض لاهانات من جانبهما . كل ما فى الامر ان قدوم هذه الاسرة الى الكيبوتس اثار معاناتهـــا الروحية التى كانت تتصور انها تخلصت منها الى الابد . فقد بعثت فى الذاكرة ذلك اليوم الذى شهد اعدادهـــا لاول مرة للوليمـــة ثم محاولاتها لتبدو على اكمل وجه ، دون ان تشك لحظة واحدة فى ان خطبتها سوف تتم فى هذا اليوم بالذات الى ذلك الشاب وان كان غير جميل الا انه ذكى ومرح وعلى العموم فهو على قدر من الوسامة . عادت مشاعرها تتأجج كما لو كان ذلك بالامس ، فراودها شعور الخجل والاهانة الذى راودها انذاك هى الحسناء الثرية ابنة الحاخام التى رفضها المتطوع ذو الشعر الاحمر مفضلا عليها الكافرة والفقيرة التى لا حسب او نسب لها والتى لا اقارب لها ولا بيت ، ناهيك عن انها بكماء صماء .

وراحت تسيليا تراقب فى حرص حاييم واويا ، وتحاول الا تبدى اية بادرة توحى باهتمامها بهما ، بينما احاطها ابوها وزوجها علما بكل جوانب حياتهما . وتأكدت من انه رغمـــا عن كل المحن والمصائب التى صبها على رأسيهما الحاخام ذو الطول والحول والذى تملكته مشاعر الانتقام ، فقد كانا يعيشان فى سعادة مرجعها حب

كل منهما للاخر . اما هى . . . تلك التى لم يكن ينقصها شيء . . . اى شيء . . . فكانت تفتقر الى السعادة .

نعم ، لم يسفر زواجها عن سعادة . فلم يكن ايجول مائير يشبه تلك الصورة التى رسمها خيال تسيليا طوال سنوات عذريتها الطويلة ، لا من حيث المظهر او الذكاء او الطباع . وغدت هى صاحبة المزاج المتقلب ، الانانية الطباع التى تعودت ان تكون محط انظار الجميع ، مجرد خادمة لزوجها .

فقد كان ايجول احد اولئك الذين يعتقدون ان المراة لم تخلق سوى من اجل ممارسة شؤون المنزل وتربية الاطفال والعناية بزوجها ، اما هو فكزوج ورب منزل ، مسؤول عن توفير كل ما يحتاجه منزله واسرته . ولذا فقد حظيت شؤون الكيبوتس بجل اهتمامه ، واقتصر تعامله مع قرينته على تلك الفترة القصيرة التى كان يجلس معها فيها حول المائدة فى صمت . اما فى المساء واحيانا ليلا فقد كانا يتبادلان الشتائم التى كانت تنتهى غالبا بهروب تسيليا من الكيبوتس لتلجأ تارة الى ابيها الذى انتقل مع اسرته الى ناتانيا واخرى الى اقاربها فى حيفا . فقد كانت تظن ان فترات الهجر هذه يمكن ان تعيد زوجها الى صوابه ، وان توقظ فيه مشاعر الغيرة والخوف من فقدانها . الا ان الامر كان على العكس من ذلك تماما . فقد كان ايجول يظل كما هو باردا لا يعيرها اهتماما ، ولا يجد جديد الا بواعث السخط على بعضهما البعض . ولوم الزوج للزوجة على هجرها للمنزل . لقد كان يصيح :

— لست ادرى الى اين ترحلين . . . والى من ؟ والاهم من ذلك . . . لماذا ؟ ابحث عنها عند الاب ، فيقال انها عند الاقارب ، فى مدينة اخرى . . . وهناك . . يقولون انها رحلت «منذ لحظات» فى طريقها الى ابيها ! اليس هناك ما افعله سوى ممارسة هذا البحث الاخرق . . . والناس ؟ اتظنينهم لا يرون ؟ ولكنك لا تعيرين ذلك اهتماما . . . بالطبع . . . يالك من زوجة !

واخيرا صعد هذا السخط وعدم الرضى المتبادل الذى تفاقم فى خفية منذ فترة طويلة الى السطح كالدمل .

وكان سكان الكيبوتس يستعدون لاحتفال عيد الحصاد ،

ويزينون غرفهم بالزهور والاغصان . وفى المطعم الذى اكتسى بالخضرة من الداخل ومن الخارج ، كانوا يقدمون الاطعمة المصنوعة من الحليب فقط . هذا وقد كان ذلك العيد فى الكيبوتس مكرسا لحصاد القمح . وكان سكان الكيبوتس فى ذلك اليوم ، طبقا للتقاليد السائدة ، يستطيعون زيارة ضريح داوود ، الذى كان يوما ميلاده ووفاته ، حسبما تقول الاساطير ، يوافقان يوم ذلك العيد . وكان تسجيل الراغبين فى هذه الزيارة يتم عند مدخل المطعم الذى اكتسى بالزهور .

كانت الظلمة قد راحت تلف المكان حين صدحت الاغانى وبدا الناس يتراقصون بجوار المطعم حيث توافد الشباب تجتاحه مشاعر الرضى والراحة نتيجة لعدم وجود ايجول مائير وقرينته . فقد كان الجميع يدركون ان المدير عدو سافر لمثل هذه الامسيات المرحة ، اذ كان يعتقد انها تتناقض مع تعليمات التوراة والتلمود ، علاوة على ان هذا العيد حل فى يوم سبت ، وفى هذا اليوم طبقا للتقاليد يحظر ارتياد دور السينما والمسارح واقامة الحفلات الراقصة . وكان هناك بعض من سكان الكيبوتس وخاصة الشباب منهم يتمسك بوجهات نظر عصرية ، لا يعير سخط مائير انتباها ، ويقيم الامسيات فى مثل هذه الايام . كما ان الكيبوتس لم يكن يشهد اية احتفالات اخرى .

وحاول حاييم اقناع اويا بالذهاب لمشاهدة هذا الحفل ولو من بعيد ، الا انها رفضت رفضا باتا . ولم يغضب حاييم ، فقد كان يدرك سر عدم مبارحتها الغرفة وتطلعها من النافذة فى خوف عند حلول الظلام . تعالت اغنية «شيبوليت باساديه» («السنبلة فى الحقل») من ناحية المطعم ، ترددها اصوات اطفال الكيبوتس الرنانة . ثم راحت جوقة الصبية تغنى اغنية «الماساد» العسكرية المكرسة تكريما لابطال العصور القديمة . وحين تعالت اغنية «مائيم – مائيم» («الماء – الماء») التى كانت تحكى قصة الفرحة الهائلة التى عمت كادحى الارض الذين وجدوا الماء بعد موسم جفاف ، مر اريه خيرسون تجتاحه مشاعر القلق ، الى جوار نافذة مسكن حاييم واويا المفتوحة ، وحيثما كانا يقفان . كان يسير

بخطوات سريعة يقصد المطعم . وادرك حاييم ان المشرف الاول غير راض عن ترديد سكان الكيبوتس لاغنيات غير مناسبة من وجهة نظره . وحقا ، كان الامر كذلك ، فقد انقطعت الاغنية فجاة ، ليتعالى صوت المشرف الاول الجهورى الاخن يردد تحت وقع الاوكرديون :

ال تيرا افدى ياكوف ! . . .*

وحين سمع حاييم هذه الاغنية تذكر لاارادیا ، اعضاء الحرس الحديدى الفاشى الرومانى الذين كانوا يرددون ليلا اغنية فلتستيقظ ايها الرومانى من سبات القرون ! . . .»

واجتاحت الذكريات حاييم حول بولجراد وابيه واخته واصدقائه الذين تركهم بعيدا عنه فى وطنه . ولم تجد هذه الافكار فى التخفيف عن روحه التى اثقلتها مشاعر القلق والهموم . واهم ما فى الامر انه لم يكن يرى ثمة مخرجا او املا فى مستقبل افضل ، فقد تكاثفت الغيوم ايذانا بالخطر .

هذا بينما كان منزل مدير الكيبوتس يشهد مشادة حامية كالعادة . فقد كانت تسيليا على ثقة من ان المتطوع ذا الشعر الاحمر وزوجته الحقيرة موجودان عند المطعم يستمعان الى الاغانى ، يمرحان ، بل وربما يمارسان الرقص مع الشباب هناك . وكانت تعلم جيد العلم ان ظهورها سوف يفسد عليهما بهجتهما ، وهذا ما كانت تبتغيه . نعم ، فليريا مدى الاحترام الذى تناله لدى سكان الكيبوتس ، ومدى اعجاب الرجال بها ، ومدى جمالها وحسن ملبسها . لقد كانت تدرك انها ما ان تظهر فى المطعم حتى يغرقها الحاضرون بنظراتهم النهمة . . .

فلير الاخرون ، على اقل تقدير ، مدى سعادتها ورضاها ، ما دامت هى لا تشعر بذلك . فلير المتطوع ذو الشعر الاحمر ذلك . ولتراوده مشاعر الحسد . . . ولم تكن ، بطبيعة الحال ، قادرة حتى على التلميح لزوجها بذلك . فقد كانت تسيليا تصاب بحرقة بالغة حين تراودها فكرة امكانية ان يعرف ايجول كيف تجاهلها فى

---

* تشجع يا ياكوف ! (حرفيا : لا تخف احدا ، يا عبدى يا ياكوف !)

حينه حاييم فولديتير ، ذلك المتطوع الهزيل . فلم يكن زوجها بالطبع ، ليهدر هذه الفرصة لاهانتها والتنديد بها . وكانت تسيليا تتخيله جيدا حين يعلو صوته الاخن مرددا : «ليس كل ما يبرق ذهبا» ، ويغمز بعينه اليسرى فى دهاء . فقد كان يهوى تكرار هذه الجملة تلميحا الى «هيئتها الجذابة الخادعة التى تخفى طباعها السخيفة والمشاكسة» .

واذ كان ايجول مائير يلوم على هذا النحو زوجته ، فقد كان يقصد عقوقها وعدم احترامها لزوجها ، وحبها المتناهى للملذات وتكاسلها واخيرا تدينها غير الكافى : فلم تكن تهوى اتباع كافة تعليمات التلمود .

وفى ذلك المساء ، ما كاد ايجول يخطو عتبة المسكن حتى راحت تسيليا تستعطفه ، ثم تطلب فى الحاح ان يرافقها لحضور حفل سكان الكيبوتس . بيد انه لم يستجب على الاطلاق ، واذ فقد السيطرة على نفسه صاح يقول :

– اننى فى هذه المسألة على حق ، مهما كان الامر . اننى اولا ، يهودى متدين وصيهونى حقيقى ، ثم فيما بعد زوج بل ورجل . . . واذا ما قلت «لا» فانها سوف تظل «لا» مهما كان سخطك .

هذا بينما اخذت اصوات المرح التى كانت تتعالى من عند المطعم تخفت بشكل واضح ، مما جعل تسيليا تدرك ان الجمع بدأ ينفض . واجتاحتها مشاعر الغضب الجياشة ، مما دفعها لان تلقى على المائدة بطبق لم تفرغ من غسيله بعد ومنشفة مطبخ ، وتخلع المريلة وتندفع فى حسم الى الباب وهى تصفف شعرها ، وتقول فى غضب :

– فلتذهب الى الشيطان ! يمكنك ان تلزم مكانك هنا وتؤدى التعليمات الدينية ، اما انا فذاهبة الى هناك ، مهما كان الامر !

– بل اننى لن اسمح بان تجدف ابنة الحاخام وزوجة مدير الكيبوتس على الله سوية مع «الفرنكيين» وامثالهم ! عار عليك ! اأنت مجنونة ؟

وبهذه الكلمات لحق بتسيليا عند الباب وجذبها من يدها فى عنف ، مما جعلهـــا من فرط المفاجـــاة ، تتعثر وتسقط عـــلى الارض . . .

وتدفقت الافكار والمشاعر تثير فى نفسها اضطرابا بالغا ، متمثلة فى غضب مرير وحقد بلا حول على زوجهـــا ، واسى وحزن لفقدانهـــا فرصة تكدير حياة الزوجين المحبين البغيضين ، واخيرا الاحساس بانه بينما تعانى من الاهانة والاذلال ، يرفل حاييم واويا فى النعيم . وراحت تبكى فى مرارة وهى تنوح وتنشج .

وحاول ايجول تهدئة تسيليا ومساعدتهـــا على النهوض ، الا انها دفعته بعيدا لتواصل البكاء . وفى نهاية الامر سمحت له بانهاضها واجلاسها على الفراش . هدأ روع تسيليا واستند رأسها الى كتف زوجها وهمست فيما بين تنهداتها على نحو مثير للشفقة :

— لماذا . . . لماذا نعيش على هذا النحو يا ايجول ؟ لماذا ؟ انظر كيف يعيش الاخرون ، وينعمون بالحيـــــاة . . . امـــا نحن . . .

ولم يشر ايجول ، كعادته ، الى صفات زوجته التى يرى انها سبب كل هذه الخلافات العائلية ، خوفـــاً من تجـــدد دموعهـــا . فاحتضنها وراح يمسح على رأسها وكتفيها فى رقة ، قائلا :

— هذه هى الحقيقة يا تسيليا ! فليهدأ روعك ، وســـوف يكون كل شىء على ما يرام . . . وليساعدنا الله !

ولما كان ايجول انسانا شحيح الحنان والكلمة الرقيقـــة ، وغارقا فى العمل على الدوام ، فقد تصورت تسيليا هذه الرقـــة انتصارا باهرا لكليهمـــا . وامسكت بيديها الدافئتين رأس ايجول واقتربت بوجهها الذى بللته الدموع الى وجهه ، وركزت عليـــه عينيها اللتين كانتا تعبران عن الفرحة والحنان . وهمست اليه وهى ما تزال تتنهد بصعوبة :

— ايجول . . . يا حبيبى ! اننى اعدك ، ولتعدنى بدورك ، بالا نتخاصم مستقبلا . قبلنى يا ايجول . . .

— حسنا . . . حسنا يا تسيليا ! اننى اعدك . . . هدئى من روعك . . — واذعن ايجول لرغبتها وقبلها كما يقبلون الطفـل

الذى لا يبكى من الالم بقدر بكائه من الخوف بعد السقوط - اتودين ان اقبلك مرة اخرى ؟

ولم يكن هناك ما يراود ذهن ايجول سوى الرغبة فى تهدئة زوجته . فقد كان يشك فى قرارة نفسه فى مدى صحة اقترابه من زوجته عشية يوم السبت ، مهما اصابتها من هستيرية . الا ان تسيليا لم تكن متدينة لدرجة كبيرة ، بل وكانت قد نسيت فى تلك اللحظات ان يوم السبت قد حل ولم تعد تذكر تعليمات التلمود فيما يخص مبادئ السلوك .

- مرة اخرى يا ايجول . . . مرة اخرى . . .

هذا ما همست به تسيليا وهى تحتضن زوجها وتقبله ، واستطردت تقول :

- هكذا ! . . . والان فلتقبلنى ! هيا !

وشرع ايجول فى التخلص فى حرص من احضان زوجته .

- تسيليا ! كيف يمكن ذلك ؟ هل نسيت ان يوم السبت قد حل ؟ اتركينى . . .

وشعرت تسيليا بهذا التحذير كما لو ان سوطا قد نزل بها .

- لا ! كفى ! لن اتركك ! . . .

- انه تجديف على الله ! افيقى يا تسيليا ! هل تسمعيننى ؟ اتركينى ! اننى مؤمن قبل كل شىء ، اما . . .

ولم يستطع ايجول تكملة حديثه ، فقد فقدت تسيليا السيطرة على نفسها ، وتعلقت برقبته ، لينوء هو تحت ثقل جسدها المدملج وينقلب على ظهره . وراحت تسيليا تصيح وهى تسد فم زوجها بيديها :

- اسكت يا معذبى ! اسكت يا صاحب السبت اللعين . . . اسكت !

ولم يكن ايجول ذو القوام القصير يتميز بقوة جسدية كبيرة ، فقد كان يشعر كثيرا بالضعف وبتزايد خفقان قلبه ، الا انه لم يكن يعير ذلك اهتماما . وشعر بضيق تنفس فراح يجاهد فى محاولة للتخلص من قبضات تسيليا وقد اجتاحته مشاعر الخوف والتشنج .

- لا . . . يا معذبى ! لن اتركك . . .

وحين شعرت تسيليا فى النهاية بان ايجول كف عن المقاومة ، نظرت الى وجهه الذى كسته الزرقـــة ، ونكصت خائفة الى الوراء بعيدا عن جسد ايجول مائير الذى فارقته الحياة وهى تصيح :

– ايجول ! ماذا بك ؟ هيه . . . ايجول ؟

اندفعت تهرول لتنبئ الناس بالمصيبة وهى مذهولة بما جرى. وما ان تخطت عتبة الباب حتى واجهتها سماء صافية تزينها النجوم ، وهدوء وقفر تام . ولم يكن ثمة ضوء ينبعث من النوافذ . واندفعت تجرى فى اتجاه ثم فى اتجاه اخر ، وتوقفت فى نهاية الامر . فقد اوحى اليها عقلها الانتظار حتى الصباح وعدم ايقاظ الناس ليلا .

وما ان اعلن الصباح عن نفسه حتى اندفعت تسيليا حافية ، نصف عاريـــة الى الشارع تصيح وهى تدق نافذة مسكن اريـــه خيرسون :

– اسرعــــوا ! انه يرقد كمـــا لو كان غير حى ! اننى لا ادرك . . . العون !

وحين توافد سكـــان الكيبوتس الى منزل المدير ، شاهدوه متمددا على الفراش المتجعد ويداه مفرودتان ، ورأســـه يتدلى عند طرف الوسادة ، وقد ازرق وجهه ، بينمـــا كانت عيناه تنظران الى اسفل عند اقدام الحشد . وراحت تسيليـــا تقول وهى تتردد بين سكان الكيبوتس المتجمعين :

– فلتقولوا لى ايها الناس ؟ هل ما يزال حيا ؟

والتزم سكان الكيبوتس الصمت . كمــــا لم ينبس اريه خيرسون ببنت شفة . ونظرت تسيليا الى اريه خيرسون تخاطبه فى توسل :

– هيه يا رفيق اريـــــه ، لماذا تلتزم الصمت ؟ ! قل لى اخيرا ! هل ما يزال حيا ؟

واغرورقت عينا المشرف الاول بالدموع ، وقال فى ارتباك :

– حتى الآن . . . لا .

تسلم اريه خيرسون المشرف الاول على التدريب العسكرى مقاليد سلطة ادارة الكيبوتس موقتا . وقد اعلن عن ذلـك ، حين

جمع سكان الكيبوتس ليعلن لهم ان «خالد الذكر ايجول بن ليفى مائير توفى فجاة نتيجة لسكتة قلبية اصابته وهو فى عنفوان شبابه واوج موهبته الفائقة فى مجال الادارة» .

وتوافد لحضور مراسم الدفن كبار القوم بمن فيهم بن صهيون هاجرا حمو المرحوم . وكأحسن مؤد للصلاة قام بنفسه بصلاة الرحمة عند القبر الحديث ذى الطين الاصفر وفى هذه الاثناء استطاع ان يذرف دمعة بمهارة فى اوج اداء الصلاة .

ووقفت الارملة الحزينة ترتدى ملابس الحداد ، يغطى وجهها شال من الدنتلا . وبدت تسيليا وقد حطمتها الكارثة لدرجة لم يجرؤ معها احد على ان يسألها لليوم الثالث عن ظروف رحيل ايجول مائير الفجائى .

وراحت والدة ايجول التى وصلت تندب وهى تمزق شعر رأسها وتنوح :

– ان ابنى لم يشك ابدا من قلبه . من اين له هذا المرض ؟ من اين ؟ اننى كنت دائما اخاف من ان يصاب ، لا قدر الله ، بنزلة برد ، لكن بسكتة قلبية ؟ هذا ما لا استطيع ادراك كنهه باى حال من الاحوال ، وما من احد يستطيع ان يشرح لى ذلك !

ولم يكن ثمة من لا يدرك فى نواحها العنيد اللوم المرير الموجه الى زوجة المرحوم . ربما يكون الحاخام بن صهيون هاجرا قد ادرك ذلك اكثر من تسيليا نفسها . وراح يقول مقلدا نبرة ام المرحوم :

– نعم ، انه لم يشك ابدا من قلبه . انه لم يكن يشكو لانه كرس نفسه وجل حياته بتفان لقضيتنا العامة . . . انكم تعلمون كيف كان يعمل كثيرا ، كيف كان يعانى كل كبيرة وصغيرة فى الكيبوتس ، كيف كان يثور عند وقوع اية هفوة . انكم تعلمون حجم الانجازات الضخمة التى حققها الكيبوتس تحت اشرافه ! ان قلب ابنك الفياض يعيش وسوف يعيش فيما حققه من انجازات !

وصدق اريه خيرسون على ذلك قائلا :

– فلتصدقونى . . . انه يعيش ايضا فى قلوبنا .

ومنذ لحظة وفاة المدير لم يستطع اريه نسيان مبلغ الاثنى عشر الف جنيه استرلينى الذى منحه الحاخام لايجول مائير «الخالد الذكر» يوم زواجه من تسيليا ، والذى ظل كما هو لم يمس .

واستطرد يقول :

– لقد كان يعنى بحياة كل منا ، يمنحه جزءا من قلبه . . . ياله من شخصية ! لقد كان يردد دائما انه قبل كل شىء يهودى مؤمن وصهيونى حقيقى . فهل من الممكن نسيان مثل هذا الشخص ؟

وراحت تسيليا ، وهى تغطى وجههـــا بالشال ، تصغى فى تمعن لما يقوله ابوها والمشرف الاول على التدريب العسكرى . واثناء بكائها اخذت تذكر نظرات اريه خيرسون النهمة التى كثيرا ما ضبطتها متركزة على جسدها ، ليتوقف قلبها عن الخفقان فى غبطة .

وبعد انتهاء مراسم دفن المدير الراحل شرع اريه خيرسون فى تنظيم المينين * . وفى همة ونشاط راح يصدر تعليماته الى جميع رجال الكيبوتس للتجمع فى غرفة الصلاة لاداء الصلاة حسبما تقضى التعاليم الدينية ، بينما يرمى الى تسيليا من آن لاخر بنظراته الحزينة .

ولم يستطع حاييم المشاركة فى الصلاة ، حيث شعرت اويا بوعكة صحية شديدة .

وقالت الممرضة بنبرات يكسوها الخوف :

– من المحتمل ان يكون ذلك بداية المخاض . ولست ادرى ما يجب عمله فى مثل هذه الاحوال . . . ومن الواجب نقلهـــا الى المستشفى .

وهرولت الممرضة الى اريه خيرسون ، الوحيد الذى يملك حق التصريح باستخدام السيارة . بيد انه كان من المحظور دخول النسوة الى الغرفة التى يمارس فيهـــا الرجال الطقوس الدينية . ولزمت الممرضة مكانها الى جوار باب الغرفة على امل ان يخرج احد

---

* مينين تعنى حرفيـــا العدد الشرعى ، وهى عبارة عن طقوس تجرى فى منزل الراحل ويشارك فيها ما لا يقل عن عشرة رجال بلغوا الثالثة عشرة من العمر .

لتطلب منه استدعاء المشرف الاول . الا انــــه لم يخرج احد ، ولم يلتفت اليها اى من الحاضرين وهى تدق باب الغرفة فى وجل .

وعادت ادراجها لتبلغ حاييم وهى تبكى :

– ما يزال المشرف الاول يؤدى المينين . فما العمل ؟

وهرول حاييم بنفسه الى غرفــــة الصلاة بالكيبوتس ، الا انه اتضح له ان اريه خيرسون يؤدى الصلاة فى منزل المرحوم . ولم يجرؤ على الذهاب الى هناك ، حيث توجد تسيليا وابوها الحاخام بن صهيون هاجرا . واضطر الى ان يقصـــــد حظيرة خيول الكيبوتس ، الا ان الحارس لم يستطع ان يصرف له حصانا دون اذن من المدير قائلا :

– تلك امور مثبتة عند المدير السابق . الا ان هذا المشرف العسكرى ليس افضل حالا . انه يحبنا نحن «الفرنكيين» ايضا لدرجة انه لن تكون مصيبة كبرى اذا ما رحل هو الاخر الى الجنة . . . بيد انه مـــا دام حيا فانــــا غير راغب فى اثارة خلافات معه . . . فليصدر اذنا ، ولاصرف لك ان شئت كل خيول الكيبوتس . . .

وجرى حاييم دون ان يستمع الى بقية حديث الحارس .

ووقع نظر عزرا الذى فرغ من ورديته فى حظيرة الابقار ، على حاييم وهو يجرى ، فراح يناديه دون ان يجد صدى لذلك . وهنا ادرك عزرا ان ثمة شيئا غير طبيعى قد حدث ، وانطلق فى اثره . وتجاسر هذه المرة على ان يعرج الى المنزل ، حيث ادرك الامر ، وقرر حمل اويا الى الطريق حيث يمكن نقلها الى المستشفى فى سيارة عابرة .

كانت اويّا تئن من الالم تكسو وجهها امارات تعكس معاناتها . واخذها عزرا بلا تردد بعناية مدثرا اياها بالملاءة التى كانت ترقد عليها . وراح يخطو الى الطريق فى خفة كما لو كان يحمل طفلا ، بينما حاييم والممرضة يلاحقانه بالكاد .

كان عزرا يعرف اقصر الطرق ، مما جعلهم يصلون الى الطريق فى اقل وقت ممكن . وراحوا جميعا ينتظرون . الا انه لم تكن هناك سيارات ، بينما راح المساء يخيم ، لتبدو اولى النجوم . واخيرا تراءت لهم اشعة مصابيح سيارة قادمة عن بعد .

كانت تلك شاحنة عسكرية يقودها انجليزى لم يدرك على

التو ماذا يطلبون منه . وما ان ادرك الامر حتى فرقع باصابعه على نحو يعنى مطالبته بالاجر .

وفى ارتباك راح كل منهم ينظر للاخر ، حيث لا احد يملك قرشا واحدا . واذ لاحظ السائق حالتهم هذه تمتم بكلمات غير مفهومة واغلق باب الكابينة فى عنف معتزما الرحيل . بيد ان عزرا قفز الى سلم الشاحنة ومد يده الى داخلها تحمل ساعته المستديرة الكبيرة .

. . . وبعد ساعة وصلت اويّا الى اول مستشفى ، حيث وضعت فى مساء اليوم التالى صبيا بعد آلام عصيبة .

ومنذ تلك اللحظة كانت بداية الايام السعيدة التى شهدها حاييم فولديتير . فقد توارت الامه واحزانه التى كان يظن استحالة نسيانها طيلة عمره ، ليشعر بنفسه كما لو كان قد ولد من جديد.

وقرر حاييم تسمية ابنه عزرا تكريما وعرفانا بجميـــل صديقه ، واعلنه بذلك فى لهجة احتفالية قائلا :

— سوف يكون لدينا اثنان عزرا : احدهما كبير اسمر ، والاخر صغير اشقر ! . .

ومن فرط المفاجأة والسعادة زر عزرا عينيه وتحركت شفتاه الغليظتان لتتمتم بالصلوات .

بيد ان اويّا كانت اسعد الجميع . فقد اكد الاطباء لها ان الصبى سوف يستطيع الكلام ، ولم يذكروا لها شيئا عن تخوفاتهم فيما يخص صحته ، فلم تكن هذه الولادة العسرة لتمر دون ان تترك اثرا .

وكان حاييم يزور زوجته مساء كل يوم . وقد تكرم اريـــه خيرسون بالسماح له بالتغيب ، بل واصدر اوامره بصرف بعض المال تعويضا له عن نفقات السفر يوميا .

وبعد بضعة ايام تحسنت صحة اويّا لدرجة انهـــا خرجت لاستقبال زوجها فى فناء المستشفى مما اضفى عليه قدرا كبيرا من السعادة . كانت عيناها تبرقان فرحا حين ذكرت له ان ابنهما سوف يكون قادرا على الحديث مثل كل النـــاس ، ومثل حاييم . كانت تومئ برأسها تجاه نوافذ المستشفى كما لو كانت تحـــاول

اقناعه بان هذا هو ما ذكره لها الاطباء ، الناس الطيبون ، الذين يعيشون فى ذلك المبنى الكبير العامر بالضوء . وعندما انصرفت اوينا بعد ان ودعت زوجهـــا ، قامت امرأة ترتدى رداء ابيض بمناداته ، طالبة منه الحضور الى مكتب الطبيب .

واستقبله طبيب متقدم فى السن ذو لحية مدببة تبدو على وجهه امارات النعمة ، وطلب اليه فى تأدب ، الجلوس . وراح الطبيب يسأله عن اصله وعن محل عمله ووظيفته ، ثم اشـــار تلميحا ، الى ان المستشفى الذى نزلت به زوجته ليس مجانيا . وقال وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه :

— اننا لا نستقبل حوامل فى الحالات المماثلة ، بيد انك حسن الحظ . لقد جئت بزوجتك على متـن سيـــارة عسكريـــة انجليزية ، فى الوقت الذى كان يقوم فيه بالمناوبة لاول مرة طبيب مهاجر ، ليس لديه خبرة ولا يعرف القواعد المعمول بها . ولذا فقد قرر انه ما دامت السيارة انجليزية علاوة على انها عسكريـــة ، فان من الواجب عليه استقبال زوجتك . . . والآن هل ادركتم كيف حدث ذلك ؟ — وابتسم الطبيب من جديد وواصل حديثه :

— الا اننى اعتقد ان زميلى لن يدفع تكاليف الولادة من ماله الخاص نظير خطأ ارتكبه عن غير قصد . وانني آمل ان يســدد الكيبوتس القيمة المطلوبة . . اليس ذلك صحيحا ؟ وهذا ما ارجو ان تبلغوه لمديركم . . .

وهنا دس الطبيب بورقة ما فى يد حاييـــم بلا اكتراث ، واستطرد يقول :

— لكن الامر ليس بطبيعة الحال ، فى موضوع دفع النفقات ، فذلك سوف يتم تسديده حسبما اعتقد . لقد دعوتكم لمخاطبتكم فى امور اخرى . . اعتقد ، انكم علمتم بان الصبى سوف يكون قادرا على الكلام . حقا ، سوف يكون كل شىء فى هذا الشأن على ما يرام . . . نعم . . على ما يرام ! اما فيما يخص القلب فتلك هى القضية . . . لقد كنا نعتقد فى البداية ان ثمة علة قلبيـــة بسيطة حدثت فى ظل هذه الولادة العسرة ، الا انه اتضح لنا فيما بعد ان الزرقة التى اصابت الصبى قد تضاعفت ، وهذا يعنـــى

لامعاوضة قلبية . . ويصعب التنبؤ بما سوف تسفـــر عنـــه مستقبلا . لكننا سوف نبذل كل ما فى وسعنا ، واؤكد لكم ذلك . واجـــد لزاما على ان ابلغك ، كاب للطفل ، بان حالـــة الطفـل ليســت على مـــا يرام . وســـوف نظل على أمـــل فى نهايـــة افضل ، الا اننا جميعا ، كما تعلمون رهن مشيئة الله ، ويجب علينا ان نتقبل قضاءه وحكمه . . .

وبارح حاييم المستشفى وهو يمسك دموعه بالكاد ، يفكر فى حزن : «ليس ثمة ما يجرى على ما يرام . اننى لم اجن شيئا فى حق احد بينما تنهال علىّ الكوارث ، الواحدة تلو الاخرى . قلب الطفل ليس على ما يرام ، «لامعاوضة» ما . . . اننى لست ادرى ماذا يعنى ذلك !» .

وفى اليوم التالى قضى حاييم الليل باكمله بالمستشفى . ولم تخرج آنذاك أويًا لاستقباله ، كما لم يكن هناك من يذكر شيئا ، اى شىء عن حالة الطفل . وكان كل ما سمعه هو ضرورة الانتظار حتى يستدعيه الطبيب ، وراح ينتظر على مضض ، تارة يحـــدوه امل ، واخرى يسيطر عليه اليأس .

ولم يدعوه الى غرفة الطبيب الا عند الصباح ، وظل يجلس فيها وحيدا فترة طويلة يغالب فيها هواجسه الداخلية ، الى ان دخل طبيب آخر لا يعرفه . وبدأ على الفور يقول له ان الصبى ولد مصابا بتشوه فى القلب . وانتابت حاييم حالة غير طبيعيـــة ودار رأسه ، كما لو كان يمتطى ارجوحة دوارة . ونظر الى الطبيب دون ان ينبس ببنت شفة ، وراح ينصت فى توتر اليـــه وهو ينطق مصطلحات طبية لا يعرف معناها ، وينتظر سماع ولو كلمة واحدة تعيد اليه الامل .

واختتم الطبيب حديثه مشوحا بيديه :

– ان الطب ، وللاسف الشديد ، عاجز حتى الآن فى مثل هذه الحالات . – وسكت الطيبب ، بينما اخذ حاييم يواصل النظر اليه ، يحدوه امل ، ويتجمد رعبا من الا يكون هنـــاك ما يمكن التعلق به ، ومن انه يجب عليه مبارحة مقعده ، الا انه كان فاقد

القوى غير قادر على النهوض . لا . . لا . . يجب ان يكافح . . يجب ان يفعل شيئا .

وقال حاييم :

– معذرة يا دكتور . . اننى لم افهم مما يعانى ابنى . ثم اليس من الممكن مساعدته ؟

ومط الطبيب رقبته الطويلة لتبدو من معطفـــه الابيض المنشى ، وقال فى دهشة :

– الم تفهم ؟ ان زوجتك تعلم كل شىء . . . اننا لم نستطع ان نفعل شيئا على الاطلاق . وليس الامر بيدنا . ولكن صدقنى انكما ستنجبان اطفالا ايضا ، فما زلتما فى ريعان الشباب .

وقضى حاييم طوال يومه ، كما لو كان يعانى من كابوس ، يتردد مـــا بين المستشفى والكيبوتس والحاخاميـــة ، يـــذرف الدمع طلبا من الديان ، ثم من الحاخام نفسه ، السماح بدفن ابنه فى المقابر .

واخذ ذوو اللحى والســـوالف القصيرة والطويلة الذين يرتدون الارواب الطويلة العريضة او السترات السوداء القصيرة ينظرون الى حاييم الذى ادركه التعب وحطمته الكارثة ، كما لو كان يطلب منهم الحصول على لبن العصفور .

وشرع الديان الاحمر الوجنتين يقول بلهجة ابوية تقريبا :

– انك ما تزال شابا ، الا انه من المفروض ان تعلم ان التاريخ اليهودى لم يشهد ابدا دفن صبى يعتنق ديانة اخرى فى المقابر التى تضم رفات اليهود الاتقياء الذين ولدوا من اب وام يهوديين . انك تود ان تفعل ما لم يحدث ابدا ، واؤكد لك ان ذلك لن يحدث باى حال من الاحوال ! ولتقل لى باى حق ، يجب ان يدفن ابنك الذى ولدته ام تعتنق ديانة اخرى ، ناهيك عن انه لم يجر ختانه ، فى غير المكان الذى يجب ان يدفن فيه ؟ ارجـــو الا تغضب ، لكن اى يهودى هو ؟ هل سترد بانك ابوه ، وانت يهودى . فلتسمح لى بان اقول ان هذه الحجة غير مقنعة ! اسمح لى ان اسألك الدليل على انك انت الاب الحقيقى . هناك كثير من الحالات التى كان يعتقد فيها الوالد بانه ابو الطفل ، بينما اثبت

الواقع ان الاب شخص آخر لا علاقة له باليهودية ولا بولادة الط . . .

وهنا قفز حاييم من مكانه ، ليقطع حديث الراعى ، ويمطرهم بوابل من الشتائم :

– انكم لستم يهودا ، بل حشرات بق نتنة ! انكم تمتصون دماء الشعب اليهودى . . عليكم اللعنة !

ولم يفق الحاخام والديان ورعاة الهيكل الآخرون من فرط الدهشة الا بعد ان تساقط الجص الذى كان يحيط باطار الباب فى ضجيج .

. . . وقام حاييم وأويًا برفقة عزرا الذى وصل من الكيبوتس بدفن ابنهما فى حفرة صغيرة عميقة جدا ، حفروها الى الناحية الاخرى من السور الذى يحيط بمقابر تل ابيب وسط مجموعة اخرى من مقابر الموتى الذين لم تعتبرهم الحاخامية يهودا.

وفى الكيبوتس وبناء على تعليمات الحاخامية احيط حاييم فولد يتير علما بوجوب جلوسه «شيفيه» * يوما واحدا ليس الا .

وذكر اريه خرسون يخاطب حاييم فى صرامة :

– ان ابنك ، ابن غير شرعى . وارجو الا تغضب ، لكنه يعتبر «مامزير» ** . . . هل تعرف ماذا يعنى ذلك ؟

لم ينبس حاييم ببنت شفة .

واستطرد خيرسون يقول :

– هذا اولا . . او بالاصح ثانيا . اما اولا فهو انه قد ولد من ابوين احدهما فقط هو الذى ينتمى الى امتنا . ولذا عليك ان تخرج الى العمل بعد غد . وسوف نعاود الحديث عن ذلك بعد اسبوع . وذلك ثالثا . اذ اننا عندئذ سوف نقرر موضوع ، لست ادرى كيف اسميها . . على اى حال تلك التى تعيش معك . لا يجوز ان تستمر الحالة هكذا . أليس كذلك ؟ ان الحيوانات وحدها

---

* طقوس دينية ، من تعاليم التلمود ، تقضى بان يجلس اقارب المتوفى اسبوعا باكمله على الارض يرتدون الجوارب وبلا احذية ، تعبيرا عن حزنهم .

** مولود من ام تعتنق ديانة اخرى (دليل على الاحتقار) .

تتعايش مع بعضها كيفمـــا اتفق . انك رغما عن كل شيء متطـــوع يهودى ! ولا يصح لك الاستمرار فى مثل هذا الوضـــع غير الطبيعى . اننا نبنى دولة عصرية ذات شعب مثقف متنور ، سامية اخلاقياته يحترم تقاليدنا الثرية القديمة قدم الزمان ، وهذا بينما تدوسها انت عن قصد او غير قصد . . . يجب الكف عن ذلك .

وقد استمع حاييم بلا مبالاة ايضـــا الى احد قدامى سكان الكيبوتس ، وهو عجوز يقوم بمهمة الشماس فى غرفة الصلاة ، والذى اعلن بشكل قاطع ان حاييم يستطيع ان يلبس السواد ويمتنع عن الحلاقة اسبوعا واحدا بدلا من شهر كامل كما تقضى الطقـــوس الدينية .

ولم يكن حاييم يفكر فى الحداد او فى الحلاقة او فى العادات ، بل وحتى فى حياته ، فقد هزته فاجعة موت ابنـــه ودفنه ككلب ضال . . . لا حق ولا عدالة فى هذا العالم . . لقد سماه احـــد الحكماء ، ولست ادرى على اى اساس ، «العالم الوضاء» ! وتذكر حاييم موليا وآخر كلمات تفوهت بها : «أهذه هى ارض الميعاد . لقد لعنتها اجيال بأكملها على مدى قرون طويلة . . هذه الارض الملعونة !» .

لقد تغيرت أويًا على نحو رهيب . كانت تجلس ايامـــا بأكملها بلا حراك . . لا تطلب شيئا ، لا تقرب الطعـــام ، ولا تفعل شيئا سوى النظر الى حاييم بعينيها الكبيرتين السوداوين سواد الليل واللتين تنطقـــان حزنا . فماذا كانت تود قوله وماذا كانت تود ان تسأله ؟ ولم يستطع حاييم مقاومـــة هذه النظرات الغريبة ، فقد كانت تمتلأ مآقيه بالدموع ليشيح بوجهـــه ، او يسرع بمغادرة الغرفة .

هكذا كان الامر لعدة ايام . حاول حاييم والممرضة وجارتهما التى كانت تعود أويًا تهدئـــة روعها وصرف افكارها بعيدا عن الكارثة . ولكن عبثـــا . وغرق حاييم فى بحـــار من اليأس ، حتى استيقظ ذات يوم ليرى أويًا تحمل دلو ماء ، تسير بجوار الشباك فى الصباح الباكر . وقد سعد بهذا الحادث ، ليس فقط لانه يعنى بادرة تحول فى حياتها نحو الافضل ، بل ولسبب آخر . فقد حدث

ايام كانا يعيشان فى جناح سلمونزون ان قامت حماة نوتسى يوناس حين عرفت بان أويًا يونانية الاصل ، باشاعة انها يمكن ان تدنس المياه فى حنفية عامة اذا ما واصلت اخذ الماء منها . وادركت أويًا آنذاك الامر وكفت عن التردد على الحنفية . كما انها ، تحاشيا لمواقف محرجة اخرى ، لم تقترب من البئر اثناء معيشتهما فى الكيبوتس . لكنها الآن تجاسرت وتجاوزت خوفها على حين غرة . . . وقد فرح حاييم ايضا ، لان أويًا ظهرت فى ذلك الصباح على نحو اجمل ، فقد مشطت شعرها وجدلت ضفيرتيها الطويلتين ، وارتدت بلوزة جديدة وحذاء كان قد تم شراؤها ايام كان حاييم يعمل فى مكتب التصدير والاستيراد .

وتنفس حاييم الصعداء لاول مرة منذ حلول هذه الايام الكئيبة . وقبل انصرافه الى عمله تقدم من أويًا وقبلها ، فامسكت براحتيها رأسه طويلا محدقة فى وجهه كما لو كانت تود ان تذكره طول العمر .

وفى تلك اللحظة دق عزرا النافذة يستعجل حاييم حتى لا يتأخرا عن العمل . وهنا فقط تهاوت يدا أويًا فى وهن . وغادر حاييم المكان ، ثم التفت فرأى أويًا تقف عند النافذة تلوح له وداعا ، فرد عليها وهو يبتسم .

وعند المخزن كان يجرى تفريغ الشاحنة التى وصلت بالامس تحمل الاعلاف . وفى المزرعة تعالت اصوات الفرازات وضجيج المحركات التى كانت تضخ المياه ، وخوار الابقار ، كما علت بعيدا اصوات جرار واحاديث وضحكات سكان الكيبوتس . واخذ حاييم يعمل بشكل آلى وهو يفكر فى أويًا ويعتريه القلق . ماذا حل بها ؟ لقد ودعته صباح اليوم على نحو غير مألوف . . . كانت نظرتها غريبة ، كما لو كانت تودعه الى الابد . واذ غرق حاييم فى هذه الافكار المزعجة لم يسمع الصراخ الهستيرى الذى تعالى :

— الى هنا ، يا رفاق . . الى هنا !

— لقد القت امرأة بنفسها فى البئر !

— البكماء ! لقد انتحرت البكماء غرقا !

القى نوتسى يوناس بالتحية على حاييم ، كواحد من افضل اصدقائه ، وعانقه واجلسه ، وراح يسأله عن صحته وعن احوال العمل فى الكيبوتس . ولم يرد حاييم بشىء ، الا انه من آن لآخر كان ينظر الى محدثه فى برودة . وراحت امارات الألم والمعاناة تكسو سحنة نوتسى البدينة وهو يقول :

– اننى افهمك يا عزيزى حاييم ، ادرك موقفك تماما . لقد سمعت عن ذلك . لقد اصابتك مصيبة كبرى . . لكن من كان يفترض ذلك ؟

وهز حاييم كتفيه وابتسم فى مرارة ، فقد كان يعرف قيمة هذه المشاطرة «الودية» ! بيد ان نوتسى تظاهر بانه لم يلحظ او يفهم شيئا واستطرد يقول وهو يواصل النظر فى اسى الى حاييم :

– لقد انقضى الامر . انك ما زلت يا عزيزى حاييم شابا فى مقتبل العمر ، ويجب عليك ان تفكر لا فى الماضى ، بل فى المستقبل . هذا علاوة على ان والدك العجوز واختك فى حاجة الى عونك ، ولا يجوز ان تنساهما . اذ انهما اقرب اقاربك على اى حال . أليس الامر كذلك ؟ اعتقد انه من الضرورى السعى من اجل دعوتهما الى هنا . وماذا فى ذلك ؟ اننى لا امزح ، فالآفاق امامك عريضة والحمد لله ، فقد زالت الاسباب التى دعت آنذاك الى اقالتك من مكتب التصدير والاستيراد ؛ واننى اعلم ان رفاقنا ، وانا اولهم ، سوف يرحبون جدا بعودتك . ارجو ان تصدقنى . اننى اخلص لك ، بالرغم من انك تعلم انه ليس هناك من لا يمكن الاستعاضة عنه . وهذا ما استطيع ان اؤكده لك . ان السبب الوحيد الذى ترجع اليه مشاعرى الطيبة نحوك هو اننا جميعا من فوج واحد . هذا علاوة على انك قضيت فترة «الاكشارا» الخاصة بك ، وكذلك بسيمون ايضا . انه يعنى بالنسبة لنا جميعا الكثير . . . واقول لك ، اضافة الى كل ما سبق ، وبمنتهى الاخلاص ، اننى لا اود دعوة موظف جديد لادرجه واحيطه علما بكل امورنا ويحدونى امل فى ان تفهمنى . فعلى اى حال فقد كنت تعلم خبايا عملنا ، وتدرك كل جوانبه . . .

وبالرغم من ان نوتسى يوناس كان يؤكد اخلاصه لحاييم ، فقد كان يكذب فى هذه المرة ايضا . ذلك لانه كان يود ان يعود حاييم الى مكتب التصدير والاستيراد لاسباب اخرى تماما : فمن الطبيعى ان يكون فقدان المساعد الشريف الساذج امرا غير مستحب ، لكن الاهم من ذلك هو امكانية فقدان ثقة وميل قيادة هيئـــــة «ارجون تسفاى ليومى» .

وكان يوناس يشكو لسيمون فى تلك الايام قائلا :

– من اين كان لى ان اعلم ان زوجة هذا المعتوه يونانيـــــة الاصل . هل انا جهاز اشعة ؟ !

لم يبق يوناس فى منصبه الا بفضل سيمون . بيد ان الرفاق القادة لم يكفوا عن لوم ليس فقط يوناس ، بل وسيمون سلمونزون ايضا . وبالرغم من ان شتيرن واصحابه كانوا يخضعون لسلطان سيمون ماليا ، فقد كانوا يضمرون له الشر ، ويتصدون لرغبته فى توسيع نفوذه فى «ارجون تسفاى ليومى» . وهذا هو ما دفع نوتسى يوناس ، حالما علم بانتحار أويّا ، لان يسرع لزيارة سيمون ليلا ، تجيش نفسه سعادة وهو يعلنه : «مهما كان الامر فثمة عدالة تسود العالم ،اى والله ! . . لقد رحلت البكماء ، امرأة هذا المعتوه !» .

بيد ان ما ذكره نوتسى لم يؤثر على اى نحو على سيمـــــون سلمونزون . فلم يكن يهمه على الاطلاق مصير زوجـــة المتطـــوع فولديتير . الا ان ذلك لم يربك نوتسى يوناس ، الذى راح يصيح :

– لماذا نترك الورقة الرابحة لكنوخ وشتيرن ، كما لو كنا قد اخطأنا فى حق المتطوع فولديتير حين استدعينـــــاه للعمل فى الميناء . انهما يستغلان هذه الحالة فى كل فرصة تحين لهما ! هذا بينما المتطوع فولديتير صالح لشغلنا من كافة الجوانب . فقد قضى فترة «الاكشارا» بدلا منك ، ومع ذلك لم يتفاخر ابدا بذلك . كما انه عمل فى الميناء على نحو رائع نال به مديح كنوخ نفسه ، علاوة على انه يعلم خبايا امورنا وحتى بظروف مقتل مايكل ، ولم ينبس ببنت شفة . لقد توالت عليه الكوارث الواحدة تلو الاخرى ، ومع ذلك يواصل صمته . اننا فى حاجة الى مثل هؤلاء بالذات ، ولسنا نريد الثرثارين . لقد وظفنا الكثيرين دون ادنى مراجعة ، ثم رحنا

نتساءل عن مصدر المعلومات التى وصلت الى الانجليز والعرب ، بينما كنا نظن ان الله وحده هو الذى يعرفها . اما عن كون زوجة فولديتير يونانية الاصل ، فتلك امور لا طاقة لنا حيالها . كما انها قد رحلت اليوم عن عالمنا . فماذا يمنعنا اليوم من استدعائه للعمل لتخرس حاسدينك .

وبدت هذه الحجة مقنعة دامغة لسيمون . فقد تأكد مرارا من ان كنوخ يشاطر شتيرن الرأى ويؤيده ويعتمد عليه . وكان ذلك يثير سخطه ، حيث ان كنوخ يعمل تحت رئاسته ، ويتلقى منه المال ومع ذلك يلعق اقدام هذا الهستيرى شتيرن . يا له من زعيم !

اعلن سيمون سلمونزون موافقته على اقتراح يوناس حـــول دعوة حاييم فولديتير للعمل ثانية فى مكتب التصدير والاستيراد فى وظيفة ثانوية الى حين . واشار الى ذلك قائلا :

– من يعش ير . بعد حين نعيده ثانية الى كنوخ . وهــذا يكفى كبداية .

وهكذا وبمباركة سيمون سلمونزون ، وصل نوتسى يوناس الى الكيبوتس ، بحجة مرافقة عربتى نقل تحملان السلاح . ولم يعلم حاييم بطبيعة الحال ، بذلك ، لكنه كان يخمن السر الذى دعا يوناس وخيرسون الى الجلوس طويلا فى مخزن الاعلاف ، حيث كان المدخل الذى يفضى الى مخزن الاسلحة والمموه بشكل جيد .

وبعد ان استمع حاييم الى يوناس ، اعلن عن رفضه للعودة ثانية الى مكتب التصدير والاستيراد .

وهنا ذكر يوناس وكان مظهره ينم عن الاستياء :

– ما هذا التكبر . افى وعيك انت يا حاييم ؟ ايمكن ان يكون وضعك هنا بالافضل ؟ ماذا كسبت ؟ – وهنا وخز سترته القديمة التى يرتديها – أهكذا سوف تظل تكدح طوال حياتك ؟ انــه ليس ثمة مستقبل لك فى الكيبوتس ! هل انت قادر على فهم ذلك عــلى الاقل ؟

– نعم . . . قادر . . .

– فى مثل هذه الحالة ، لست افهم شيئا ! حقا . . هل يمكنك ان تشرح لى كنه هذا الموقف .

ولم يرد حاييم ، ليواصل يوناس حديثه فى هذه المرة عن المسئولية حيال العصر الذى يعيشونه ، وعن المهام الهائلة التى تواجههم هم المتطوعين . واذ رأى يوناس ان حديثه لم يسفر عن اية نتائج قرر القاء الورقة الاخيرة ، فراح يقول وهو يستطلع رد الفعل على وجه حاييم :

— هل تعلم يا حاييم اننا انتقلنا منذ زمن بعيد الى تل ابيب ؟ لدينا هناك شقة سوف يدور رأسك حين تراها . فيها حمام ومياه ساخنة وباردة فى الصباح وفى المساء ، وتليفون ! هناك بمدخل المنزل الانوار تضيئها لتنطفأ بعد دقيقة واحدة تماما بعد الدخول او الخروج . . تلقائيا . عظيم . . . هيه ؟ وبالمناسبة ، فسوف تعيش بدورك فى المدينة . حقا اقول ، اعدك بشرفى يا حاييم !

واجاب حاييم فى حسم :

— لا . لست راغبا فى شىء على الاطلاق . . بتاتا .

واصاب الذهول يوناس ، الذى كان على ثقة بانه ما ان يلمح اليه بامكانية العودة الى عمله السابق ، حتى يتشبث بها دون ان يدع فرصة لفقدانها . لكن ها هو الامر ، حيث لا يجدى معه حتى الاغراء بسكن جيد فى تل ابيب ! نعم لم يكن يوناس يتوقع مثل رد الفعل هذا من المتطوع الخجول . ورغما عن ذلك فقد استطرد يقول :

— هيه . . لا يا حاييم . . انك تمزح . . . كما اننى ادرك حالتك هذه وعزوفك عن الحياة عموما . لقد عانيت هذه الحالة . لكنها عرضية ، ستزول كما يزول كل شىء فى هذه الحياة . انك لن تنتحر بالطبع حزنا على أويتا !

وهنا قاطعه حاييم فى حدة :

— لا داعى للحديث عن ذلك . كفى ، ارجوك !

فرد يوناس يقول فى ذهول :

— وماذا قلت يا حاييم ! اعتقد انك تعلم كم كنت اقدرها ! فلتقل لى من سواى آواكما ، واصطحبكما من «مركز التجمع ؟» ام تكون قد نسيت ان . . .

وقاطعه حاييم ثانية :

– ارجوك ان تكف عن الحديث ! ان هذا اشبه بمن يقطع رأس انسان ثم يروح يذرف الدمع على شعره بعد ذلك .

وتظاهر يوناس بانه لم يدرك مغزى ما ذكره حاييم وواصل حديثه :

– انني ادرك حالتك . هل تظن عكس ذلك ؟ انني افهمك بالشرف . انك حزين . موافق . . هذا حقك . فلتعمل بعض الوقت في الكيبوتس الى ان تتحسن نفسيتك . اما انا فسوف ازورك بعد فترة لنتجاذب اطراف الحديث .

وأومأ حاييم برأسه علامة عدم الموافقة وقال بحدة :

– لا داعي لان نتحادث !

واجاب يوناس في اصرار وهو يربت كتفيه :

– اننا سوف نتحادث . وحتما سيكون ذلك .

ثم اضاف على نحو حاد :

– انك متطوع في فوج يوسف ترومبلدور ، ولا يجوز اغفال ذلك ، يا عزيزي . . . اما الآن فوداعا .

اسفرت زيارة يوناس للكيبوتس عن تغيير اريه خيرسون المدير الجديد لمعاملته نحو حاييم فولديتير لتغدو على النقيض . فقد اقترح عليه الانتقال الى عمل اسهل وافضل ، واعفاه من المناوبة في حظيرة الابقار ليلا ، وسمح له بالتغيب عن الكيبوتس اذا ما اقتضت الضرورة ذلك . . . الا ان حاييم رفض كل هذه الصدقات وواصل عمله كما يعمل بقية سكان الكيبوتس . وكان طلبه الوحيد من اريه خيرسون هو الاذن له بزيارة مقبرتي أويًا وابنه في وقت فراغه .

– هذا طبيعي ، طبيعي ! لا مانع يا عزيزي حاييم ! ان هذا من حقك !

وطلب حاييم في نفس اليوم الاذن بالانتقال للسكنى مع عزرا في غرفة واحدة . وكان الشيء الوحيد الذي اخذه معه هو منديل أويًا واحتفظ به في حرص كما كان يحتفظ عزرا بساعته الكبيرة . وراح مثل عزرا يجلس وحيدا ، يقلب طويلا منديل زوجته وهو يتذكر حياته القصيرة معها .

وتابع سكان الكيبوتس فى دهشة واحترام سلـــوك حاييم ، واعلنوا عن مواساتهم له الا انه لم يتقارب مع اى منهم ، عدا موسى او كما يسمونه موشى . وكان موسى هذا يعمل سائق عربة نقل ، ويسافر برفقة حاييم كثيرا الى تل ابيب والقدس . وقد ولد موسى فى اوديسا واتسم كما يتسم ابناء هذه المدينة بحبـــه للمعاشرة وبسرعة البديهة . وراح دون كلل يمطر حاييم بوابل مـن النكات والاقاصيص عن حياته ، لتدب فيه الحياة وينصرف عـــن الافكار السوداء التى تقض مضاجعه ويتذكر وطنه - بيسارابيا ووالده ، وصديقه ايليا توموف الذى استحوز على جزء كبير من تفكيره .

وكانت تعيش فى القدس عمة موسى التى كان يعرج اليهـــا كثيرا بعد تسليمه لمنتجات الالبان الى مصنع الجبن .

وكانت عمته دورا امرأة عجوز ولكنها ما تزال خفيفة الروح تخاطبه عادة باللغة الروسية :

- موشى . . عليك ان تتناول اللحم والبطاطس من صنـع يدى . . . اننى لن اكون عمتك ان لم تأكله كله . هل تسمعنى يا موشى ؟ ثم لك ان تأخذ هذه اللفة . اننى اعلـم ان الفلوندين • كثير جدا عندكم فى الكيبوتس . لكنك سوف تأخذ اللفة رغما عـن ذلك .

وكثيرا ما كان يزور موسى حاييم وعزرا فى ذات المساء يحمل هدية عمته ، يتجاذبون ثلاثتهم ، اطراف الحديث حول قـــدح مـــن الشاى ، ليحوله موسى تدريجيا من كافة اشكال النكات والنوادر الى امور جدية .

- يحفل العالم باشكال من الظلم ، بالقدر الذى تحويه اكوام القمامة من بكتيريا . واذا ما استكنّا فى خنوع لذلك فسوف نتحول الى قمامة . ومن هو المستفيد من ذلك ؟ انهم اولئك الذين يملكون اكياس النقود .

وانصت حاييم فى احتراس الى مثل هذه الاحكام التى يدلى بها السائق موسى . فقد بدت غريبة حين تند عن ابن اوديسا المهذار .

• بسكويت محشو بالعسل المطبوخ الممزوج بالمكسرات .

وقد اتضح لحاييم ان ثمة ما لا يستطيع موسى الحديث عنه حتى النهاية ، لكنه لم يكن يدرى السبب . ربما يكون غير واثق منه ، خائفا من ان يمنحه اسراره ، ام يكون يحاول دفعه الى الحديث بصراحة . «لكن من يدرى ؟ . . فربما يكون من عصابة يوناس وشتيرن واضرابهما» .

بيد ان مخاوف حاييم كانت فى غير محلها ، فسرعان ما اقتنع بذلك . اصيب ذات مرة بوعكة العامل الذى رافق حاييم فى رحلاته مما دفعه للتوجه الى اريه خيرسون يطلب منه تعيين عزرا بدلا منه .

واجابه اريه بحماس مصطنع :

– ان طلبك مجاب يا عزيزى حاييم ! لا تهدهده ، ولتدعه يعمل بدلا منك ، فلن يصيبه شيء . كما اننا سوف نعفيه من التدريب العسكرى . فليس هناك امل فيه على اى حال . اننا لا نستطيع ان نسلمه سلاحا . فلربما يستخدمه ضد اناسنا ، نتيجة لغبائه .

وهكذا راح عزرا يذهب الى المدينة برفقة حاييم وموسى . وذات رحلة اقنع موسى كلا من حاييم وعزرا بالعروج لمدة ساعة واحدة ، الى عمته التى كانت تعيش غير بعيد عن فندق «الملك داوود» ، وتبيع المياه الغازية على مقربة من هناك ايضا . لم تكن عمته بالبيت لكنها كانت قد تركت المفتاح فى المكان المعهود . وفتح موسى الباب ليقود رفيقيه عبر ردهة ضيقة مظلمة الى حجرة صغيرة متخمة بالاثاث القديم . ثم اعتذر قائلا :

– فلتبقيا هنا ، وسوف اغيب عنكما لحظات ليس الا . لكن اذا ما وصلت فى غيابى عمتى دورا ، فيمكن ان تكونا واثقين من انها لن تخافكما ، فليست هذه هى المرة الاولى التى تستقبل فيها ضيوفا . ولما كنت انت يا حاييم تتكلم الروسية ، فسوف يضفى عليها ذلك قدرا كبيرا من السعادة ، اكثر مما لو هبط اليها الله من السماء . هذا حق . . ولتصدقانى . اننا اوديسيا الاصل . ولذا لكما ان تأخذا راحتكما كما لو كنتما فى بيتكما . . .

وما ان غادر موسى المسكن حتى وصلت بالفعل العمة دورا . ولم تندهش فعلا من وجودهما ، بل على العكس راحت وهى ما تزال

عند عتبة الغرفة تحادثهما كما لو كانت قد تركتهما منذ لحظات ، تقول بالروسية التى تطغى عليها اللهجة الاوكرانية :

— اننى اعلم انه يوجد هنا رفيق من روسيا . اليس ذلك صحيحا ؟

وانحنى حاييم مؤكدا انه قدم فعلا من بيسارابيا .

— لقد شاهدت شاحنة تقف امام مسكنى ، قبل ان يعرج الى موشى يخبرنى بوجودكما . ولذا فقد اغلقت على التو «تجارة القطاعى». فليذهب مثل هؤلاء الزبائن الى الشيطان ! ان رحت ابيع العصير يطلبون مياه غازية ، وان رحت ابيع المياه الغازية ، يطلبون العصير . ليتهم يصابون بمرض ، وعندئذ يكفون عن طلب العصير . اما زلتما واقفين ؟ اليست اقدامكما ملككما ؟ على اى حال . . سواء وقفتما ام جلستما . . فلا وجود للحقيقة * . ولذا فلمَ لا تجلسان ؟ اننى سوف اذهب لتجهيز شىء على الطريقة المنزلية ، لم تذوقا مثله فى الكيبوتس . ولكما ان تصدقانى .

وتبادلت العجوز بعض الكلمات مع عزرا ، تسأله عن موطنه ، وما اذا كان قد وصل الى فلسطين منذ زمن بعيد . وعندما عرفت انه من اليمن تساءلت فى دهشة عن كونه فارع القامة قوى البنية ، بينما اليمنيون قصار ضعفاء . ثم راحت تصب على حاييم وابلا من الاسئلة فى نهم واضح حول بيسارابيا ومعيشة اهلها وعما اذا كان قد زار اوديسا . واستطردت تقول :

— ان موشى ، ابن اخى ، فقد امه ولم يبلغ من العمر بعد التاسعة او العاشرة . اما اباه فقد قتله افراد عصابة «القطة السوداء» ، ولذا فقد توليت تربيته منذ الصغر . اما شقيقتى الكبرى فقد كانت تعيش فى القدس ، على قدر متوسط من اليسر . فيما مضى ، كانت تملك حانة فى اوديسا ، اما هنا فاصبحت تملك مقهى . فانتما تدركان انه ليس هناك فى فلسطين عربجية يشربون حتى الثمالة ! . ولذا فلم يحالفها التوفيق فى حياتها هنا . ولو لم تكن شقيقتى ، رحمها الله ، لما كنا قد وصلنا نحن الى هنا باى حال من

---

* يقصد هنا المثل الروسى القائل حرفيا «لا وجود للحقيقة فى الاقدام !» .

٢٢*

الاحوال . ولكنا واصلنا العيش فى شارع مولدوفانكا كما كنـــا نعيش ، ولكنت واصلت ممارسة التجارة فى السوق كما كنت افعل . فلتقولا لى ماذا كان ينقصنا هناك ! الامراض ؟ آه . . لقد اصابتنـا هنا بما فيه الكفاية . وكانت حياتنا فى اوديسا غير ما هى عليـه هنا . هل لكما ، ان تتصورا ولو للحظة واحدة حجم سوق اوديسا ؟ انه بالشرف، يعادل نصف مساحة فلسطين ، لا اقل من ذلك بـاى حال من الاحوال ! فقد كان المولدافيون من تراسبول والاوكرانيون من جميرينكا ما يكاد يطلع النهار حتى يكونوا ببضائعهم فى السوق ، لتعلو ضوضاء تستيقظ عليها المدينة بأسرها . فما السر فى ذلك ؟ ذلك لاننا كنا نشترى منهم كل ما يحملونه جملة . آه . . كم كان هناك من اشياء ! واية رائحة عبقة كانت تملأ المكان ، فلم تكن احسن الروائح فى احسن صالونات الحلاقة لتصمد امامها . وايـــة خضرة !! اما الفلفل او «الامريكية» الباكورة !! هل تعلمـون ماذا تعنى . . انهـــا بطاطس وردية اللون مستطيلة . عـــن الطماطم اقول انها افضل مذاقا الف مرة من البرتقال غير اللذيذ الذى ينمـو هنا. لكن ما الذوق فى ذلك . . هذا ما لا اعلمه . ولذا اقول . . لقد كانت هناك طماطم بالسوق ، اذا ما وقعت احدى ثمارها ، لا قـــدر الله ، على قدمك ، فمن الممكن ان تظل اعرج طوال حياتـــك . والسمك هناك . . . هل سمعتما فى يوم من الايام عن الاسقمرى او البورى . ناهيكما عن اننى لا اتحدث عن البيتشكى . لقد كانت تقرقش فى الفم ، عندما كنت اشويها فى مقلاة اكبر من هذا الطست على موقد البريموس . . . لقد كانت حياة رائعة !

كان حاييم يستمع الى العمة دورا ، بينما يختلس النظر من آن لآخر الى عزرا الذى وان لم يكن يفهمها ، الا انـــه كان مـــن الواضح انه ينصت فى سعادة الى لهجتها الطيبة الرقيقة . اما هـى التى كان قد غلبها الحنين الى اللغة الروسية والى مدينتها الحبيبة فقد راحت تواصل حديثها :

— وهل من الممكن ان تجد رصيفا فى العالم مثل رصيـــف شارع ريشيليه آه . . لو نظرتما حين يرشـــون الارصفـــة فى الصباح ، بينما تتعالى اصوات اولى عربات الحنطور ! ان المرء

يمكن ان يعشق هذه المدينة بمجرد سماع اصوات حدوات الخيول وهى تدق ارض الشوارع . اننى لن اكون آسفة ان منحت نصف عمرى لقاء نظرة واحدة على حدائقها المطلـــة على البحر . واننـــى لاسألكما بعد كل ذلك ، ماذا جاء بنا الى هنا ؟ ولماذا ولاى هدف ؟ شقيقتى . نعم ، انها شقيقتى الكبرى . لقد جاءت الى فلسطين قبـل الحرب العالمية . لقد كانت تظن انه يوجد هنا «عربجية» . انهم طبعا موجودون ، لكنهم ليسوا «كعربجية» اوديسا الذين يغدقون الاموال ويشربون لدرجة انهم كانوا يقولون فى السوق عنهم انه لو كانت مياه البحر الاسود من فودكا لكانوا قد شربوه حتى النهاية . انهم ناس ممتازون ! كانت التجارة معهم تجارة حقيقية ، وليست بيـــع العصير والمياه الغازية . انها اوديسا . . وكفى ! لقد راحت شقيقتى تكتب كى اسافر اليها لنبدأ مشروعا تجاريا ضخما . راحت تكتـب وتكتب الىّ حتى اذعنت للامر وكان معى آنذاك رأس مال طيب وذهب والماس . . فالعمة دورا تفهم فى هذه القضايا ايضا الى حد ما . لكن كيف نقلت ذلك الى هنا ، تلك امور لا يعلمها الا الله ! لقـد نقلتها رغما عن كل شىء . لقد دفسته فى الصابون الذى وضعته فى السلة الى جانب اسمالى ، وحملت موشى الصغير على يدىّ وقلت : «السلام يا اهل اوديسا !» لنصل الى القدس . . . يالنا من اسعد اهل الارض . . ولا تسألانى . . .

وحين سمعت العمة دورا ان ابا حاييم عاش وعمل بائعا لبعض الوقت فى اوديسا وان المدينة كانت تحوز اعجابه ، صاحـت تقول :

– اننا لا يمكن ان نرى اوديسا اليوم سوى فى احلامنا . . . يا لها من مدينة ! اننى لو استطيع الوصول اليها سيرا على الاقدام ، لكنت بدأت رحلتى فى هذه اللحظة ! انها ليست مدينة بل عالم بأكمله .

وصفق الباب الخارجى ، لتنصت العمة دورا اليه ، ثم تواصل حديثها :

– وها هو موشى قد وصل ، فليباركه الله . انه شـــاب طيب ، الا ان السعادة ليست فى صفه . كما انه عازف عن الزواج ! لقد ملك الكيبوتس جل حياته ، بينما لا يملك مليما واحدا ، رغما

عن ان السنين تمر . . . كما سيارة الاجرة تقريبا ، ما تكاد تتحرك حتى يبدأ العداد يعد بالقروش ، ثم بعد قليل بالشلنات ، امـا عندما تصل الى مقصدك ، فعليك ان تدفع جنيها ! وهكذا حالى معكم.. اردت ان اعد لكم شيئا تتناولونه ، الا اننا ضيعنـا الوقت فى الحديث ، لكننى رغما عن ذلك سوف اقوم الآن باعداد . . .

وطلب حاييم من العمة دورا الا تشغل نفسها بشىء . فقد بدا له ان التعب قد اصابها ، بعد ان تحدثت بما فيه الكفاية وبدا عليها الحزن ولذا فسوف تلتزم الصمت . لكن ما كاد موسى يخرج الى الردهة كى يغسل يديه حتى راحت تثرثر بصوت طيب رقيق :

– هل تعلمان اية اغنية يرددها المهاجرون عن الكيبوتس ؟ الا تعرفانها ؟ اننى سوف اقول لكما كلماتها :

ايتها المستوطنة الذهبية ذات الجدران الحجرية . . .
كان من الافضل ان تلتهمك النار ،
من قبل ان تقع عليك عيناى .

وغرق حاييم وعزرا فى الضحك ، بينما قامت العمة دورا وقد داخلها الارتياح لتسلية ضيفيها باعداد شىء على الطريقة المنزلية .

ودخل موسى ليضع على المائدة امام حاييم ورقة صغيرة تسجل نصا مكتوبا بخط دقيق . وادرك حاييم على التو ، وقبل ان يطالع هذه الورقة ، انه حيال نشرة سرية : ورقة صغيرة متخمة بنص كبير ، ذلك ما اعاد الى اذهانه على الفور المنشورات البلشفية التى وجدوها ايام سنوات الدراسة فى علية المنزل فى بولجراد ، والتى ساعـدت قراءتها واعادة طبعها وتوزيعها على تقاربه مع ايليا توموف بشكـل اقوى مما فعلته سنوات الدراسة المشتركة .

وتساءل موسى بعد لحظة انتظار :

– ماذا تقول فى ذلك يا رفيق فولديتير ؟ انك اليوم تستطيع ان تكون مطمئنا على مصير ابيك وشقيقتك . انك هنا تكد وتضنى نفسك كى تستطيع العيش على نحو ما ودعوتهما الى هنا ، بينما هما وبدون «دعوتك» موجودان فى حقيقة الامر فى ارض الميعاد !

ولم يرفع حاييم بصره عن موسى وقال بلهجة تنم عن غضب :

– ماذا تهذى ؟ هل هذا مادة للضحـــك ؟ الفاشيـــة فى بيسارابيا . . هل تدرك معنى ذلك ؟

– اوه . . انك ، كما ارى تستطيع ان تغضب !! بيد انه لا مجال هنا للمزاح . عليك ان تقرأ ما هو مكتوب ولا تكتفى بالبحلقة فى الورقة كما الخروف الذى يتمعن النظر فى البوابـــة الجديدة . فلتقرأ ! لقد دخل الحمر الى بيسارابيا ! هل فهمت ؟ لقد قضى هناك على الفاشية . لكنه ليست ثمة انهار من اللبن تجرى اليوم ، لكنها حتما سوف تجرى لكافة البسطاء ، وليس كما الحال عندنا – للاغنياء فقط !

وامعن حاييم النظر فى الجريدة وراح يطالع ، وامارات القلق تبدو عليه ، وصف استقبال اهل بيسارابيا لمحرريهم ، واخوانهم القائمين فى ضفة دنيستر الشرقية الذين ابعدوا عنهم قسرا منذ اثنين وعشرين عاما . وعندما بلغ الاسطر التى تحكى عن تخليص الشيوعيين الذين كانوا حبيسى سجن كيشينيوف ، غص حلقــه وامتلأت مآقيه بدموع الفرح .

اخذ حاييم يعيد قراءة هذه الاسطر مرات ومرات . وحملته الذكريات الى وطنه الحبيب ، الى تلك الفترة التى اختار فيها هـو وايليا توموف طريق الثورة . الا انه انعطف فيما بعد عن هـــذا الطريق ، ليجد نفسه على حافة الحياة . امـا ايليـا ، احســـن اصدقائه ، فقد بقى وفيا مخلصا لمبادئه ، يسير فى ثبات فى طريق النضال . انه انسان حقيقى . اما حاييم فقد غدا شريكا لاإراديا ، فى جرائم الصهاينة الذين وجهوا الضربة اليه فى نهاية الامر عـــلى نحو وحشى حين اهلكوا اسرته .

واصاب الخجل حاييم الى اقصى الحدود لما عليه من ضعف فى الارادة واستكانة وعدم مقدرة على التصدى لضربات الصهاينة . وماذا عليه ان يفعل اليوم حين تحاول هذه العصابة مرة اخرى توريطه مثل الحيوان الاعجم ، ولم يفعل شيئا سوى ان هز كتفيه فى صمت .

وقطع موسى عليه افكاره :

– لماذا لا تتكلم يا حاييم ؟ هل يروق لك رجوع الشيوعيين الى بيسارابيا ؟

ورفع حاييم نظره عن الجريدة وراح يتمعن فى عينى السائق قائلا :

ـ انه لا تكفى كلمة «تروق» . . . انها فرحة كبيرة لكل كادح بيسارابى ! لقد كان الناس يحلمون بذلك طوال سنوات السلطة السوفييتية فى روسيا ! وتسألنى عما اذا كان ذلك يعجبنى ام لا !

ـ اننى وللحقيقة ، لم اكن انتظر اجابة اخرى منك غير هذه يا حاييم ! وهل لنا ان نفرح من اجل سكان بيسارابيا وننتظر دون ان نفعل شيئا ، الى ان يأتى من يخلصنا من كافة انصار سلمونزون وشتيرن ؟ أ هكذا الامر يا حاييم ؟

ـ اننى افهم ما تعنيه . افهم ماذا تقصد . وللحقيقة اقول لك اننى كنت اود محادثتك فى ذلك . انك بالطبع محق مائة فى المائة ! فمن المستحيل الانتظار الى ان تأتى الرياح بما تشتهى السفن . يجب التصدى لكل هؤلاء الاوغاد ! لكن كيف ؟ ومع من ؟

ـ اوه . . ان هذه كلمات رجل حقيقى . انه يمكن الاعتماد عليك ، حيث جربت بنفسك احسان هؤلاء الصهاينة . لكن اذا ما كان الامر كذلك فسوف اقوم بتعريفك باحد رفاقنا لتتفق معه . هل انت موافق ؟

ورد حاييم فى حسم :

ـ موافق ، اننى على استعداد . ولأكف عن ان اكون خرقة بالية . . . لقد سأمت هذا الحال !

لم يكن عزرا يفهم الروسية ، لكنه استطاع ادراك جدية الامر من لهجة الحديث ومن تعبيرات وجه حاييم . وقد اكد صمت حاييم هذا التخمين . وفى طريق العودة الى الكيبوتس سأل عزرا حاييم عما كان مكتوبا فى تلك الورقة التى استغرق فى قراءتها وقتا طويلا ، تبعته مناقشته مع السائق . لكن حاييم واجه صعوبة فى الاجابة على السؤال ، وليس بالطبع لانه لا يثق فى عزرا ، بل لان الاجابة لم تكن بالشىء السهل . ذلك لان عزرا لا يعرف شيئا عن روسيا السوفييتية ، وعن السلطة السوفييتية وعن الشيوعيين . الا انه

وجد لزاما عليه ان يجيبه ، ولذا راح يشرح له الامر فى صبر . وراودته سعادة بالغة حين سمع صديقه الجاهل البائس المخلص الشريف يقول :

– ان عزرا لا يصدق انه يمكن ان يكون عالمنا حافلا بمثل هذه الاشياء . لكن ما دام حاييم يؤكد ذلك ، فاننى اصدقه . آمل بانهم اناس طيبون . لكن السيىء انهم بعيدون عنا .

وقام حاييم وعزرا بتفريغ الشاحنة فى الكيبوتس ، وتناولا طعام العشاء وانصرفا للراحة . ولم يغمض لحاييم جفن ، كما كان الحال عقب وفاة أويًا ، لكن فى هذه المرة ليس بسبب الكارثة التى حاقت به ، بل لانه بدأ يشعر بنفسه كأنما حمل على كاهله ثقلا كبيرا فترة طويلة وآن الأوان ليتخلص منه ، ويقف منتصب القامـــة ويتنهد بارتياح . نعم ، انه اليوم يستطيع ان يقول ويفعل ما كان يفكر فيه . لقد ذهب الى الابد ازدواج الشخصيــة الذى كان يقض مضاجعه . ذهب شعوره باليأس الذى كان يعانيه اثنـــاء فترة «الاكشارا» ، وفى آخر ايامه بمكتب التصدير والاستيراد ، حيث كان يعمل تحت رئاسة سيمون سلمونزون .

لقد شعر حاييم بنفسه انسانا آخر تماما ، كما لو كانت قـد واتته قوة لا يستطيع اى خوف حيالها ان ينال منه . حقا . . . ان هذه العصابة من الصهاينة قضت على زوجته ، وابنه ، وسعادته ونغصت حياته . . . هل بعد ذلك كله يمكن الخوف منها ؟ لقـد شعر بنفسه اكثر ثقة عندمـا اجاب على موسى بالموافقـة على الاشتراك فى هذا النضال الصعب والخطير والشريف ، وفى العمل الذى يخوضه بتفان الشيوعيون فى الظروف السرية . وراح يخاطب فيما بين نفسه ، صديقه توموف البعيد : «هيه يا ايليا ، اننى اود ان اسير معك مرة اخرى جنبا الى جنب ! حقا . . . لست ادرى كيف يمكننى ان افعل ذلك هنا . بيد انه يجب الا يساورك الشك فى انه ما من قوة سوف تستطيع ان تحيد بى عن هذا الطريق . لقد جربت مذاق هذه الجنة التى يحكون عنها هنا !»

كان ثمة ما يجعل حاييم على ثقة فى أن ايليا توموف ما يزال يعيش فى مدينته ، وحاول تخيل ما يفعله هناك . من المؤكد أن

يكون الأمر فيها قد غدا على النقيض تماما . ولربما يكون قد حل محل افراد «عصبة الدفاع عن المسيحيين» الذين كانوا يذرعون طرقات المدينة وشارة الصليب المعقوف على بزاتهم ، الكادحون الشرفاء يحملون الرايات الحمراء ويرددون الأغاني الثورية . ومن المؤكد ، ان يكون رجال الشرطة قد اختفوا الى الأبد . ولربما تكون قد اختفت ايضا اللافتات المكتوب عليها «تحدث فقط بالرومانية ، او بالألمانية !» والتي كانت تخز الأعين عند النظر اليها . لقد حاول حاييم تخيل مشاعر ابيه وشقيقته حيال هذه التغيرات ، وكيف يعيشان وماذا يعملان . وأخذ يفكر : «ان موسى ، بطبيعة الحال ، على حق . فلن تجرى الأنهار حليبا ما بين يوم وليلة . اعتقد ان حياتهما غير سهلة بعد . لكنه لا داعي رغما من كل شئ لدعوتهما . فتلك أمور واضحة وضوح الشمس . فلن يكون بانتظارهما هنا سوى الاهانات والسخرية ، بينما هما هناك بشر يعيشان معيشة البشر . . فهناك السلطة السوفييتية ، على كل حال !»

ولأول مرة منذ فترة طويلة يدرك النعاس حاييم وهو هادئ الجنان ، لا تقض مضجعه الأحزان والأفكار السوداء . ولكن في اليوم التالي حدث ما يمكن أن يبدو للوهلة الأولى بسيطا ، وما لم يستطع حاييم ادراك عواقبه في حينه . فقد عرج نوتسى يوناس الى الكيبوتس في طريق عودته من المزرعة المجاورة ، واستدعى حاييم الى المدير .

وعند مجيء حاييم قال خيرسون :

– هذا هو متطوعنا حاييم فولديتير . أما أنا فبعد اذنك يا رفيق يوناس فسوف انصرف لتصريف بعض الأمور العاجلة .

وانصرف أريه خيرسون ، تاركا يوناس يجلس على انفراد مع حاييم :

– شد حيلك ، يا حاييم !

– مرحبا .

وأصابت الدهشة يوناس حيث لم يجبه حاييم بالجملة التقليدية «شد حيلك» ، لكنه تظاهر بأنه لم يلحظ ذلك .

– لدى متسع من الوقت لا يزيد عن عشر دقائق . وبالأدق فقد بقى لدى خمس دقائق . هكذا الأمر ! هل فكرت في عرضى ؟

ـ نعم ، لقد فكرت .

ـ هيه ما هو ردك ؟ انك موافق بالطبع على العودة الى عملك السابق ؟

ـ لا ، اننى لست موافقا بالطبع .

ونطق يوناس من بين أسنانه :

ـ هيه . . . هيه ! فلتسمح لى ايها المتطوع فولديتير ان أسألك عما لا يعجب سعادتك فى مكتب التصدير والاستيراد ؟ ماذا بالتحديد يحول بينك وبين العمل عالى الأجر ، ذى المستقبل والذى يشرف بكل تأكيد كل يهودى مؤمن ؟

ولم يجرؤ حاييم على ذكر السبب ، واكتفى ، كالعادة ، بهز كتفيه فى صمت . وتساءل نوتسى مرة أخرى :

ـ اننى أسألك ياحاييم . فلتجبنى من فضلك ! اننا كبار لا نلعب الاستغماية !

وسعل حاييم وحملق فى عينى يوناس واندفع يقول :

ـ ان كل ما عندكم لا يعجبنى . . كلّه بلا استثناء .

ـ لكن ، الا تستطيع أن تكون أكثر تحديدا ؟

ـ اننى لا أود الاشتراك فى شؤون التهريب ولا فى اعمـــال التنكيل الدموى . . . اننى لم أقض فترة «الاكشارا» الشاقة من أجل ذلك ، كما أننى وصلت الى هنـــــا ، وكـــدت افقد حياتى ، ليس من اجل ذلك . كفى عذابا ! وان أردت أن تعلم فاننى لست قادرا على الابتسام لأناس اهلكوا زوجتى وابنى ! وبوجه عام يمكننى أن أقول لك الكثير ، ولكننى لا أود ذلك . لا داعى . .

وأصاب الذهول نوتسى يوناس للحظة ، فلم يكن يتوقع أبدا مثل هذا الرد الحاد الصريح من ذلك المتطوع الذى كان يعتبره هادئا خجولا ريفيا شديد الحياء . لم يكن يتوقع أن يعلن هذا الاحمر عداءه ليس فقط لأولئك الذين كان يعتبرهم يوناس أولياء نعمته ، بل ولكل ما يفعله هؤلاء المحسنون .

ـ آه . . اهكذا تتحدث أخيرا ؟ هيــــه . . يا حاييم بن اسرائيل فولديتير ، متطوع فوج يوسف ترومبلدور ! . . يالك من انسان . . لكن . . عليك الا تلوم الاّ نفسك . فليس لدى

وقت أو رغبة فى الحديث معك . لكن عليك أن تراعى أنك تعلم الكثير ، وما تفعله الآن يعد خيانة . خيانة حقيقية لمُثل الصهيونية ! وتلك امور لا تبقى بلا عقاب ، كما قد تتصور . ولتذكر ذلـــك جيدا !

وقفز يوناس من مكانه وخرج دون أن يودع حاييم .

لم يدرك حاييم على التو التهديد الذى تشير اليه آخر كلمات نوتسى يوناس ؛ وكان مبعث ارتياحه أنه تحدث مع نوتسى لأول مرة فى حياته حديث الند للند ، وذكر له بصراحة ماذا كان يدور بخاطره حول نشاط مكتب التصدير والاستيراد ، وحول اولئـــك الذين كان يوناس يتملقهم ويداهنهم ويدور فى فلكهم . لكن حاييم ما كاد يتخلص من هيجان مشاعره حتى راح يفكر فيما ذكره يوناس : «انك تعلم الكثير جدا . . ان ما تفعله خيانة !» . وتذكّر كيـــف انتقم فى وحشية كنوخ . وشتيرن وكل اعضاء العصابة من كل مـــن لم يعلن انصياعه ، وكل من فضح أسرارهم عن قصد أو غيـــر قصد . وتخيل حاييم كيف انتقمت كل هذه العصابة من مايكل . «نعم لقد كان مايكل شخصية ذات وزن . أما أنا فمن اكون ؟» . . وهز حاييم كتفيه «اننى لا أعنى شيئا ! بيد أن يوناس لم يقل بمحض الصدفة أنه مثل هذه الأمور لا تبقى بلا عقاب . . .»

واذ سيطرت هذه الأفكار على حاييم ، راح يبحث عن موسى الى ان وجده وقص عليه ما جرى فى لقائه مع يوناس . واتفق موسى مع وجهة نظر حاييم القائلة أن يوناس يعنى ما يقول . فما قاله هو تهديد . وحاول تهدئة روع صديقه قائلا :

– فلتكن على يقين من أنه سوف يوجد من يبذل كل ما هـــو ممكن لمساعدتك . لكننى لا أعلم بعد أى نوع من المساعدة ، وكيف سيتم ذلك . لكننى أعلم أنك لن تكون متروكا . بيد أنه مـــن الواجب عليك أيضا أن تكون حذرا . وعلى عزرا الا يتركك وحيدا . فالتهاون مع عصابة شتيرن أمر خطير !

وعندما عاد حاييم الى حظيرة الابقار استقبله عزرا بنظرات تحمل معنى التساؤل . فقد اقلقه استدعاء المدير فجاة لرفيقه . وبعد أن قام حاييم وعزرا بالقاء العلف الى الأبقار ، قص حاييم

على عزرا كل ما جرى ، وكانت تكسو وجهه امارات التوتر والغضب كما عند الطفل . وبعد صمت طويل سأل عزرا :

– وماذا فى وسعهم أن يفعلوه ؟ انهم لن يقتلوك . اليس هكذا ؟

فأجابه حاييم بنبرات اسى :

– لست أدرى . ان هؤلاء أناس أشرار قادرون على كل شيء .

– لا . . ان عزرا لن يسمح بذلك فهو رفيق جيد لن يسمح بالاساءة الى حاييم . وان كلفه ذلك حياته . انه سوف يلازم حاييم كظله ولن يتركه لحظة .

وقضى حاييم وعزرا اليوم بأكمله فى قلق ينتظران عودة موسى من رحلته . وعاد موسى ليزورهما فى وقت متأخر من الليل .

– هناك من على استعداد لمساعدتك . لكنك لست على حق يا حاييم فى أنك فقدت أعصابك مع ذلك الشخص ، فأنت تعلم حقيقة هؤلاء «الرفاق» ، وتعلم ضرورة التزام الحذر حيالهم . لكن ما العمل ؟ لقد نفذ السهم وقضى الأمر . ان المهم هو الصمود حتى الرحلة التالية التى تعلم أنها لن تكون قبل بعد غد . ان هؤلاء الأشرار قادرون على اتيان الكثير فى مدى يوم واحد .

وتساءل حاييم :

– وماذا يمكن لرجالك تقديمه لى ؟ هل سوف يقومون بتدبير هروبى ؟ والى أين ؟

– اننا لن نقوم بالتخمين . ربما كان الأمر كذلك . . .

وهنا تساءل عزرا الذى كان يجلس الى جوار حاييم فى صمت لا يرفع نظره عنه :

– وأنا ؟ ان المدير الجديد سوف يكدر حياة عزرا حتى الموت . ان عزرا سوف يذهب الى حيثما يذهب حاييم .

وهنا ربت موسى فى حنان على كتف عزرا وقال :

– لا داعى للاضطراب . فلننتظر ما سوف يحمله لنا الغد .

وعندما ابتعدوا عن المنزل ، ضحك موسى فى مرارة وقال :

– يالكما من ساذجين ! هل من الممكن اخفاء انسان ببساطة ؟ انه ليس ابرة على اى حال . علاوة على أنكما اثنان . أم أنك تظن

اننا لا نستطيع أن نجد لعزرا عملا هنا ؟ اننا لن نتركه فى مهب الأقدار ! اننى سوف أظل فى الكيبوتس . . واذا ما تحدثنا بصراحة فاننى أقول لك أنك ابديت عجلة فى الحديث مع يوناس هذا . لقد كان يمكن الاستفادة من عملك فى مكتب التصدير والاستيراد .

واصابت الدهشة حاييم ، ليشحذ انتباهه متسائلا :

– عملى فى مكتب التصدير والاستيراد ؟ وماذا يجدى هـذا العمل ؟

– أننى كنت اعتقد أنك تدرك الأمر . اننا يجب أن نعلم ماذا يفعل هؤلاء المجرمون الصهاينة ، والأهم من ذلك ، ماذا يعتزمون عمله . انها معركة حياة أو موت بيننا وبينهم . أو ربما تعتقد اننى أعمل هنا بالكيبوتس بمحض ارادتى ؟

وتوقف موسى عن مواصلة حديثه ونظر الى حاييم ، ثم استطرد يقول :

– اننا سوف نعود للحديث عن هذا الموضوع فيما بعد . أما الآن فهيا بنا الى النوم . . .

ولم يغمض لحاييم جفن طوال الليل ، اذ راح يفكر فيما تحدث عنه مع موسى وأخذ يزن حججه ، ويضرب أخماسا فى أسداس .

فى اليوم التالى أخذ يعيش حالة من التوتر فى انتظار شىء رهيب ، يرى أنه واقع ، آت لا ريب ، اذ ان سلمونزون وأتباعه ، لن يتورعوا بطبيعة الحال عن التخلص منه ، وهو الشاهد ليس فقط على عملياتهم المحرمة المتعلقة بالاسلحة بل وعلى اغتيالهم لمايكل على نحو دنىء .

وبينما كان حاييم على هذا الحال من التوتر ، قابل مدير الكيبوتس وهو فى طريقه الى المطعم . واذ نظر أريه خيرسون الى حاييم الذى بدا وجهه شاحبا تعلوه أمارات الارهاق ، قال :

– ماذا يا رفيق فولديتير ؟ هل تنوى الرحيل بعيدا عنا ؟

وتوقف حاييم من فرط المفاجأة كما لو كان قد اصطدم بحائط .

واستطرد أريه يقول ، مفسرا ارتباك حاييم بشكل غير صحيح :

– اننى اعلم كافة اسرارك . لقد ذكر لى يوناس ذلك . لقد كنت للحقيقة سعيدا حين علمت انك لا تود الرحيل عن الكيبوتس ، الا ان يوناس ذكر لى انهم رغما عن رغبتك ، سوف يأخذونك . ولذا فلك أن تعتبر نفسك فى تل أبيب ، تشغل منصبا مرموقا فى مكتب التصدير والاستيراد .

واطمأن قلب حاييم . ان هذا يعنى أن يوناس عازم على «اخذه» من هنا ، بصرف النظر عن اى شىء . وقد أكد ذلك مرة اخرى ، ان «المحسنين» القدامى لن يتورعوا عن أشد الاجراءات تطرفا .

عاد موسى من رحلته مبكرا عن موعده المعتاد ، وقال لحاييم :

– ان كل شىء على ما يرام . غدا نغادر هذا المكان قبل طلوع الفجر ، وربما الى الأبد . . .

وتساءل حاييم فى قلق :

– وماذا عن عزرا ؟

وابتسم موسى فى أسى :

– لقد أعلن الرفاق استعدادهم لمساعدته . رغم انه من الأفضل أن يبقى هنا . انك سوف تعود الى وطنك ، حيث ولدت وترعرعت وتلقيت تعليمك ، حيث أبوك وشقيقتك وأصدقاؤك . اما هو فلا يعرف اللغة ولا يعرف الناس . ولك أن تفكر !

لكن عزرا طلب عدم التفريق بينه وبين حاييم ، أقرب الناس اليه .

وفى الصباح الباكر انطلقوا فى رحلتهم ، كالعادة ، الى مصنع الجبن . واخذ حاييم يتطلع الى جانبى الطريق ، يراوده حنين . . فهذا هو المنزل الذى عاش فيه مع أويًا . أحقا يراه للمرة الأخيرة ؟ احقا هذه هى المرة الأخيرة التى يقطع فيها هذا الطريق ، تاركا وراءه ذكريات عزيزة لديه ، وآماله ، وسعادته القصيرة التى احتوتها الى الأبد مقبرتان وحيدتان وتظلهما شجرة ، تاركا زوجته وابنه . . .

وتحسس حاييم منديل أويًا فى جيبه ، ومسح عليه فى رقة . ومست الذكريات قلبه لتنزل دموعه على خديه دون أن يلحظ ذلك .

كان موسى يقود عربته فى هذه المرة بسرعة أكبر من المعتاد ، فقد كان من المفروض ان يصل الى القدس فى أسرع وقت ممكن حتى يتمكن من تسليم منتجات الالبان الى المصنع قبل الآخرين .

وصاح ، حين رأى عن بعد عدم وجود أية عربات تنتظر عند البوابة :

– آه . . كم أحب الرحابة !

وأخذ حاييم وعزرا يفرغان العربة فى صمت . وحين فرغا من ذلك صاح موسى عن قصد يقول فى اثر الموظف الذى تسلم منه حمولته :

– والآن هيا بنا يا شباب الى مخزن الدقيق لاحضار العلف .

بيد أن موسى عرج بالعربة الى أول زقاق صادفهم ليسير فى الاتجاه المعاكس لمخزن الدقيق ، مما أثار دهشة حاييم وعزرا . وسرعان ما وصلوا الى شارع باتى هابوخاريم ليتوقفوا عند المنزل الذى كانت تقطن فيه العمة دورا .

– عليكما الانتظار عند عمتى ، وسوف أعود حالا .

وحقا ، لم يغب موسى طويلا ، فقد عاد يرافقه شخص ذو وجه قمحى وشعر غزير وخطه بعض الشيب ، عيناه داكنتان عرف فيهما حاييم مهندس البناء جوردون الذى استقبل شيللى بيكر يوم وصول «ترانس اطلانطيك» الى حيفا . وعندما تبسط الجميع فى الحديث أخرج حاييم من حافظته مظروفا كان قد احتفظ به مكتوبا عليه عنوان المهندس ، كانت شيللى قد أعطته اياه ، وذكره بظروف اللقاء فى ميناء حيفا .

وعلت امارات الدهشة وجه جوردون وهو ينظر الى المظروف :

– حقا . . انه خطى . نعم ، لقد كنا نعيش آنذاك فى يافا . . كل ذلك صحيح . لكننى أراك وقد تغيرت ملامحك . هذا طبيعى . فلم تكن تطلق لحيتك فى تلك الأيام .

وتحدث جوردون باختصار عن أن شيللى قضت فترة طويلة بالمستشفى ، وتعيش الآن مع الصبى فى كنفه فى القدس ، لكنها لا تشاطر أحدا الحديث ، حتى ابنها . وقال بلهجة تنم عن مواساة :

– لقد سمعت عن احزانك . اننى افهم موقفك . . لكنها

الحياة ، ويجب الصمود . . فلن نبعث الأموات . بيد أنه من الواجب ايضا عدم الاستكانة للأسباب والظروف التى تجلب الشقاء للناس . ولقد كنت سعيدا حين عرفت أنك أيضا توصلت الى هذا الاستنتاج .

وأكد حاييم وهو ينظر فى عينى المهندس :

– نعم . . ان الأمر كذلك . اننى لا أستطيع الوقوف مكتوف الأيدى . كفى ، فقد وقفت طويلا .

وسرعان ما تأكد حاييم بشكل لا يرقى اليه الشك من ان المهندس جوردون شيوعى ورجل على قدر كبير من الجسارة . واتضح من مجرى الحديث أن جوردون كان يعلم بتهريب مكتب التصدير والاستيراد للسلاح ، وكان يعلم بانتقام كنوخ وعصابة شتيرن من كل من كان يبدو لهم غير أمين على أسرارهم . كما وصلته اشاعات مختلفة ، لم تتعد حد كونها اشاعات . بيد أنه لم يكن يعلم ما قصّه عليه حاييم حول الاجتماعات السرية للصهاينة ، وخاصة الجلسة التى كانت تجرى فى مكتب سلمونزون والتى كانوا يتحدثون فيها بصراحة دنيئة عن الاتصالات بين زعماء الصهاينة وحكام «الرايخ الثالث» النازيين ، وأخيرا عن مقتل مايكل ، مبعوث واشنطن ، فى مكتب سلمونزون ؛ وتلك معلومات أصابت بالذهول جوردون الذى راح يحملق فى عينى حاييم وهو يقول له :

– حاول أن تتذكر كل التفاصيل . ان هذا هام للغاية . . ولتصدقنى !

وأخذ حاييم يحكى دون أن يخفى شيئا . فقد كان يثق فى هذا الشخص ، ليس فقط لأن موسى هو الذى أحضره ، بل ولأنه كان قد شاهد بنفسه كارثة «ترانس أطلانطيك» . وكان حاييم يدرك أن هذه المعلومات حول نشاط عصابة سلمونزون لا تهم جوردون وحده ، بل وأصدقاءه ، الشيوعيين فى نضالهم ضد الصهاينة لفضح جرائمهم على الملأ .

وهذا ما ذكره جوردون لحاييم :

– انك تدرك أن بقاءك فى فلسطين بعد ذلك امر مستحيل . ان عصابة شتيرن سوف تعلم بسهولة مصدرنا الذى استقينا منه

هذه المعلومات ، وسوف تقرر التخلص منك . ولذا فلن تعود الى الكيبوتس ، فليس من المستبعد أن يزوره ان لم يكن اليوم ، ففى الغد ، شريك سلمونزون ، ولكن ليس من أجل اقناعك فى هـــذه المرة . ان السفينة التى يمكن ان تسافر على متنها أنت وصديقك سوف تبحر بعد غد الى رومانيا . ومثل هذه الفرصة لا تتاح لنــا كثيرا . كما أنه ليست لدينا أية فرصة أخرى . بيد أننى اعتقد انه يمكنك من هناك السفر الى بيسارابيا السوفييتية .

وذكر جوردون لحاييم أن موسى سوف يرافقهما الى ميناء تل ابيب فى يوم ابحار السفينة ، ويقوم بتعريفهما بالرفيق أحمد .

– ان أحمد سوف يرافقكما الى الرصيف ليسلمكما الى بحار . وبالمناسبة فان الباخـــرة رومانية . ويمكنكمـــا الاعتماد على طاقم السفينة حيث ليس من المستبعد أن يساعدكما فى الوصول الى بيسارابيا . هذا هو كل ما اود أن أقوله ، على ما أعتقد . وسوف يعنى الرفيق موسى ببعض اجراءات الأمان . كما أنه سوف يمدكما ببعض المال . وللاسف فان امكانياتنا فى هذا المجال محدود للغاية . والآن أتمنى لكما رحلة طيبة .

وخرج جوردون بعد أن طلب من موسى الحضور الى المكان المتفق عليه بعد اعداد حاييم وعزرا للسفر . وشرع موسى على الفور فى العمل . فقد أخرج من جيبه مبلغا صغيرا من المال كان ملفوفا فى ورقة من أوراق الصحف ، وسلمه الى حاييم قائلا :

– يوجد مقصف بالباخرة لركاب الدرجة الثالثة . يمكنك أن تقيم الولائم حين تصل الى بيتك ، أما هذه النقود فيجب أن تكفيك حتى ميناء الوصول . . اما بعد فيجب شد الأحزمة على البطون !

وأجابه حاييم فى مرح :

– لا بأس . . سوف نتمكن من العيش ! فالعالم ما يزال حافلا بالناس الطيبين . أليس كذلك يا عزرا ؟

– ان عزرا يملك يدين . . وسوف يستطيع كسب الخبــز لحاييم وعزرا !

وذكر حاييم :

– ان كل ما تقوله يا موسى أمور غير ذات شأن . يقلقنى

امر آخر ، حيث ان اريه خيرسون سوف يثير ضجة فى الكيبوتس بحثا عن العربة وعنا .

— لا تقلق يا حاييم . . ان كل شىء معد اعدادا جيدا . فسوف ادبر تعطيلا لعربة النقل ثم أجرها الى الورشة ، وأبلّغ المديـر بذلك وسيتم التصليح ليس على الفور . اننى على ثقة من ذلك . أما عنك أنت وعزرا فسوف أقول أنكما سافرتمـا الى الكيبوتس فى الأوتوبيس . ولـن يبحث عنكما أحد بالليل ، بل ولن يكتشف أحد فى الصباح غيابكما الا بعد فترة من الوقت . وعلى كل حال فسوف يرسل اريه خيرسون احدا الى الورشة لمعرفة سر غيابكما . ومن أين لى أن أعرف ؟ لقد استقليتما الأوتوبيس وسافرتما . . هذا كل ما أعرفه وحسب . أما الآن فسوف أذهب ، ولكما الا تنتظرانى فى القريب العاجل ، الا أننى سوف أعود لقضـاء الليل معكما . ولتبلغا عمتى بذلك .

وعند المساء وصلت العمة دورا ، وكانت قد عرفت بان ضيوفا سوف يقضون الليل عندها .

— والآن فسوف أطعمكما وأفرش لكما شيئا لتنامان عليه . أما عن نفسى فسوف أذهب الى احدى معارفى كى أبيت عندها . انهـا أيضا من أوديسا ! ولكما أن تتخيلاننا . نثرثر كيفما يحلو لنا . فلدينا ، والحمد لله ، ما يمكن تذكره .

وبعد أن قدمت العمة دورا لهما طعام العشاء ، وفرشت لهما ليناما ، قالت لحاييم :

— بلغ موشى بأنه يوجد بالردهة وعاء به لحم . . فهو يحبه . أما الآن فانى ذاهبة .

وخرجت العمة بعد أن صفقت الباب الذى أغلقه حاييم من الداخل ليخيم الهدوء على المكان . وكانت الأنوار مطفأة ، ولذا بدأ الرعب كما لو كان قد زحف ، كمخلوق رهيب ، الى المكان مع الظلام .

ودقت الساعة الحادية عشرة .

وخيم الهدوء على الشارع ، بينما تعالت دقات ساعة الحائط القديمة ، وطنين ذبابة ترتطم بزجاج النافذة .

ودقت الثانية عشرة !

وغلب النعاس عزرا بينما كان لا يزال جالسا على مقعده . لقد حان ميعاد النوم ، الا أن موسى ما يزال بالخارج . «فماذا حدث له ، ومتى سيعود ، ان كان سيعود ؟ وماذا لو كانوا قد قبضوا عليه ؟ ماذا يمكن أن يفعلاه هما الجالسان فى هذه الغرفة ، كالفــأر فى المصيدة ؟ علاوة على أن احمد سوف ينتظرهما فى الميناء بعد غد ، فكيف لهما أن يعرفاه ؟ - هكذا كان يفكر حاييم .

ودقت الواحدة .

- عزرا ، عليك أن تنام . يجب النوم .

- عزيزى حاييم ينام ، عزرا أيضا ينام . عزيزى حاييم لا ينام . . عزرا سوف ينتظر .

وهنا تأكد حاييم من أن ظروفا طارئة حالت دون عودة موسى . لكن أية ظروف ؟

واخيرا خلد حاييم للنوم ، ارضاء لعزرا الذى كاد يسقط من على الكرسى حين غلبه النعاس . بيد أن حاييم لم يستطع النوم ، فقد تسللت الى خاطره أفكار مزعجة : «أين موسى ؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث ؟ وماذا لو لم يحضر فى الصباح ؟ وعند الظهر ؟ لا . . ان هذا مستحيل . وماذا لو حدث ذلك فعلا ؟ عندئذ سوف يأتى ، على ما أعتقد ، المهندس جوردون . . لكن ما العمل ان لم يحضر ؟ ماذا يمكن عمله فى مثل هذه الحالة ؟ هل لنـــا أن نعـــود الى الكيبوتس ؟»

وفى وقت مبكر من الصباح دق الباب ، ليهرع حاييم يفتحه . . لقد كانت العمة دورا التى لم يقلقها غياب ابن أخيها .

- الا يعلم فى أى قصر أعيش ؟ لقد قضى ليلتــه فى مكان آخر . ماذا ورد بخاطركما ؟ طبعا . . انه لم يود أزعاجكما . انه انسان ذو نفس من الجوهر ! ان الجميع يحبونه بدون استثناء . لا يوجد انسان فى العالم ، الا ونال اعجابه ! لكن ماذا لقى هو جزاء ذلك . . لكما أن تسألاه . . ليس سوى قميصه وسرواله . فلتحاولا أن تشرحا له معنى الحياة وكيفية ممارستها ! حفظكما الله !

راحت العمة دورا تثرثر طويلا ، الا أنها لم تستطع انتظار ابن اخيها لتنصرف قائلة وهى تبتسم فى سخرية تتسم بالحزن :

— سوف أذهب لأمارس «التجارة» ! فلتذهب الى الشيطان ، فقد سئمتها ! وأرجو ابلاغ موشى عندما يعود بضرورة تناول اللحم الموجود فى الردهة والأ فسوف يفسد ، فلست أملك ثلاجة !

لكن ما كادت العمة دورا تنصرف ، حتى عادت بعد ربع ساعة تقول فى قلق :

— جاءنى الآن شاب يركب دراجة ، أبلغنى بأنهم قبضوا على موشى مساء الأمس . كيف يروق لكما ذلك ؟

لم يدرك حاييم على التو ما تقوله العمـــة دورا . وأراد ان يسألها ، الا أنها واصلت ثرثرتها تقول :

— ان هذا الشاب لم أره طول حياتى ولا أعرف عنه شيئا على الاطلاق . بينما يعلم أن موشى ابن اخى . وكنت أود السؤال عن مصدر كل هذه المعلومات الا أنه قفز يمتطى دراجته وانصرف . ما العمل ؟ لقد كنت أود التوجه الى الشرطة حيث أعرف هنـــاك وغدا طيبا يمكن أن يبيع أقرب الناس اليه لقاء المال ، لكننى فكرت فى أنه من المحتمل أن يكونوا قد قبضوا على موشى لأسباب لا تتعلق بالعربة . ولما كان الأمر كذلـــك ، كيف لى أن أقف هكـــذا كالبلهاء العجوز ؟! فان رفيقيه يقبعان فى عقر دارى ! . .

وقام حاييم وعزرا بمعاونة العمة دورا فى نقل بعض رزم الجرائد والمنشورات السرية باللغتين العبرية والعربية الى أعلى الجمالون ، وفى تغطيتها بكافة النفايات . وذكرت العجوز لحاييم مودعة اياه عنوان شخص «سوف يقوم باللازم» على حد قولها . وقالت وهـــى تنفض الغبار عن مريلتها :

— انه بجوار الدير اليونانى خلف المحطة . فلتسألا عن شارع جيثات هانانيا . وسوف تجدان على الناصية صيدلية صغيرة الى جوارها محل لبيع الخبز . هناك فى ذلك المنزل يعيش هذا الشخص ويدعى جوردون ويعمل مهندسا . هل تستطيعان تذكر ذلك ؟ أما عن كونهم قد ألقوا القبض على موشى فسوف يذرفون الدمع ندما .

23—690

انهم سوف يعرفون من تكون العمة دورا ! سوف أنغص عليهم حياتهم ..

بيد أن الوضع كان أكثر تعقيدا ، مما كانت تتصور العجوز دورا . فقد قامت الشرطة مساء أمس بتفتيش منزل جوردون واقتياده الى مركزها . وقد ذكر ذلك ، العجوز الذى سأله حاييم عن منزل جوردون .

وقرر حاييم العودة الى العمة دورا وابلاغها بالقبض على جوردون وطلب عنوان آخر . لكنه ما كاد وعزرا يقتربان من المنزل حتى شاهدا أمام مدخله عربة شرطة راح رجالها يلقون فيها برزم الجرائد والمنشورات التى بذل حاييم والعمة دورا جهدهما فى اخفائها صباح ذلك اليوم . ودلف حاييم وعزرا على الفور الى مدخل المنزل الواقع على ناصية الشارع . فقد تأكدا من انه يجرى تفتيش منزل العجوز ، ومن انهما سلما من القبض عليهما باعجوبة . وسرعان ما اقتاد رجال الشرطة الى الشارع العمة دورا التى راحت تصيح ، وتدفعهم بعيدا وتطلب مواساة جيرانها الذين تجمعوا فضولا يشاهدون ما يجرى . وما كاد يلقى رجال الشرطة بالعمة دورا فى عربتهم ، حتى وصلت الى هناك عربة ركوب عرف فيها حاييم على التو سيارة سلمونزون . ونزل منها نوتسى يوناس واريه خيرسون . «ان ذلك يعنى انهم ابلغوا الكيبوتس امس بالقبض على موسى . .» — هذا ما ورد بخاطر حاييم .

كان يجب مبارحة حى بوخاريم على وجه السرعة . لكن الى أين ؟ لم يكن حاييم يشك فى ان يوناس وخيرسون يبحثان عنه وعن عزرا ، وسوف يلجآن الى الشرطة ان لم يجداهما عند العمة دورا . أين لهما قضاء الليل حتى صباح اليوم التالى ؟

راح عزرا الفارع القامة يسير فى اثر حاييم الضعيف البنية كما الجمل الذى يتبع الحمار الصغير . وشرعا لبضع ساعات يجولان شوارع الضاحية المتربة تحت اشعة الشمس الحارقة ، يجفلان من كل ما يبدو لهما مبعث شك . وكثيرا ما كانا يندفعان فى عجلة الى اقرب فناء وهما يحبسان أنفاسهما ، حين كانا يصادفان فى طريقهما الشرطة .

وفى آخر النهار عندما وصلا الى مقربة من ديـر نوتردام دى فرانس ، تذكر حاييم احد الرهبان من مدينة اسماعيل الذى تعرف عليه فى مطعم صغير ، ورحّب به جدا عندما عرف انه من بيسارابيا ، ودعاه الى زيارته فى الدسكرة التابعة للكنيسة الروسية .

واسرع حاييم الخطى ، ليعبر وعزرا بوابة حيفا فى المدينـة القديمة ، ويتجاوزا البطريركية اللاتينية ويصلا الى معبد البعث ، حيث كما كان يعتقد حاييم ، توجد تلك الدسكرة . بيد انه كان قد أخطأ العنوان . وبعد ان سأل حاييم بعض عابرى الطريق ، اتضح له ضرورة عودتهما الى بوابة القدس القديمة العالية الحجريـــة ، والسير قليلا فى طريق يافا ، ثم الانعطاف الى ضاحيـــة مجراش خاروسيم .

واخيرا وصلا بالكاد الى الابنية الروسية . لكنهما ضلا الطريق ايضا وسط مبانى الكنائس والمؤسسات الدنيوية . واضطرا الى السير بيـن بنايات الرهبـــان ، ثم الى الدار «الرسمية» ، والى المدرسة ، واخيرا الى الورش حتى استطاع أحد الرهبان ، ردا على سؤال حاييم حول مكان كاهن من اسماعيل ، ان يخمن ان فيكينتى اسماعيلسكى هو المقصود .

وما ان سمع حاييم هذا الاسم الذى كان يعرفه ونسيه حتى صاح فى فرح :

– هو . . نعم هو . . فيكينتى اسماعيلسكى !

واقتاد الراهب القادمين الى جناح الرجال وذهب ليبلغ الراهب اسماعيلسكى بوجودهمـــا . وعرف حاييم على الفور فيكينتـــى اسماعيلسكى حين خرج من منزله . ذكّره حاييم بحديثهما فى المطعم الصغير ، فتهلل وجه الراهب وقال :

– حقا ! ابن بلدى ! يبدو أننى نسيت . لقد أطلقت لحيتك كما أرى . . . وهذا هو ما جعلنى لا أستطيع معرفتك من الوهلة الاولى . عفوا ومعذرة . . . اننى يجب ان أتركتكما لبعض الوقت . فسوف تبدأ الآن صلوات المساء .

وقاد فيكينتى ضيفيه الى الحديقة ، حيث طلب منهما الانتظار . وقد كان حاييم سعيدا لانه وجد فرصة للتفكير فى حديثه مع رجل

الدين . وهل كان من الممكن ان يقصا عليه ما حدث لهما ؟ من المشكوك فيه ان يبارك فيكينتى علاقاتهما بالشيوعيين المحبوسين ، علاوة على رغبتهما فى الهروب ، وخاصة الى بيسارابيا السوفييتية . كما كان من الضرورى ايضا التفكير فى حجة دامغة لاضطرارهما الى طلب قضاء الليل عنده .

الا ان حاييم لم يتوصل الى قرار حتى وصل فيكينتى وطلب منهما ان يتبعاه . ودخل ثلاثتهم الى قاعة استقبال قديمة ذات سقف مقبب وأرضية حجرية . وقد زاد من كآبة المكان الذى يشبه الضريح الارائك الثقيلة ذات الارجل المصنوعة على شكل صليب ، والمساند العالية ، والمائدة الضيقة الطويلة الموضوع عليها انجيل ضخم ، والنقش البارز على الحائط الذى يمثل المسيح المصلوب ، وصورة العذراء فى الركن تبدو فى ضوء المصباح الخافت .

وأجلس فيكينتى ضيفيه دون ان يسألهما عن سبب هذه الزيارة ، بالرغم من انه كان يعلم انهما لم يأتيا من باب حب الاستطلاع . وكان الدليل على ذلك امارات الانهاك والقلق التى علت وجهيهما ، ولاسيما وجه حاييم . كما ان الوقت لم يكن مناسبا للتزاور .

وتوجه الراهب الى حاييم يقول له :

– هكذا الامر يا ابن بلدى ! ليست الامور فى بلدنا على ما يرام ! لقد كان الرومانيون يتحكمون فى بيسارابيا ، بينما ، ولعلكما سمعتما بذلك ، وصل البلاشفة الملحدون اليوم الى هناك . يبدو انه محكوم علىّ بقضاء حياتى فى الصلاة الى جوار التابوت الالهى ، ومعاناة الحنين الابدى لأرضنا الحبيبة .

وبعد فترة من الصمت قصيرة ، ذكر حاييم فى وجل :

– وحتى هذا غير ميسور لنا ، لا يمكن لنا التفكير فى العودة الى الوطن ، كما انه من المستحيل ايضا البقاء هنا . لقد رحلنا عن الكيبوتس . هربنا ! انها اشغال شاقة هناك ، وليست حياة على الاطلاق ! لقد كنّا غرباء وسط ذوينا . لم يكونوا يعتبروننا بشرا ، يعاملوننا كعبيد . لم نستطع الصبر ، واختلفنا مع رؤسائنا هناك . ولذا قررنا الهرب الى حيثما تقودنا اقدامنا . فأى مصير ينتظرنا ؟ تلك امور تبعث على الرعب .

وأعلن فيكينتى استحسانه لهروب ضيفيه من الكيبوتس ولجوئهما الى دير الله . بيد ان حاييم ادرك من الحديث ان الراهب يرغب فى الاستفادة من وضعهما الحرج ، لاقناعهما بالبقاء فى الدير الى الابد وباعتناق المسيحية . وشعر بالحرج وراح يفكر : «نفس الصورة التى شهدناها فى الحاخامية ، ان الارض تميد تحت اقدامنا بينما هو لا يهتم الا بما يود التوصل اليه . . .»

أخذ حاييم يستمع الى الراهب فى صمت بينما يفكر : «فليظن انه يبذر بذوره فى أرض صالحة ، ما دام سوف يوفر لنا فرصة قضاء الليل عنده . اما فى الغد فسوف نقول له «شكرا» ، وننطلق اقدامنا للريح . . .»

وقطع فيكينتى حديثه عن حياة الرهبنة المباركة ليقول :

— لكن يجب ان تتناولا طعامكما فى البداية . هذا هو قانون الدير . . . لا حديث مع الضيف الا بعد تقديم الطعام له .

ورافق حاييم وعزرا الى حجرة الطعام ، بينما راح يحدثهما عن تاريخ تلك المبانى الشهيرة التى كانوا يمرون بها . كان يتحدث بفخر عن اهمية كنيسة الثالوث المقدس ذات القباب الخمس ، والمبنى الذى كان يعيش فيه فيما مضى القنصل العام للامبراطورية الروسية .

وكان الظلام قد خيّم حين وصل ثلاثتهم الى المطعم ، وهو عبارة عن بناية طويلة كئيبة ذات نوافذ كثيرة غير كبيرة مثل نوافذ السجون .

— وهذا هو مطعم جناح الرجال . تفضلا لتناول طعام العشاء . ولست اتفاخر حين اقول ان اخوتنا فى المسيح مضيافون بالقدر نفسه سواء حيال رعيتهم والحجاج ام حيال ابناء الديانات الاخرى الذين يزوروننا بسلام وحب . . .

واثناء تناول طعام العشاء عاد الراهب فيكينتى ، على نحو اكثر صراحة ليعرض على ضيفيه البقاء فى الدير ، والانضمام الى صلواتهم التى ، كما يقول «تحمى الانسان من السقوط وتحرر روحه بقوة عجيبة من آلام ومعاناة الدنيا» .

وأجابه حاييم فى هذه المرة :

– اننى اصدقك . . . ان اناسكم يعيشون على نحو جيـــد ويتناولون طعاما جيد المذاق . جيد جدا ! واقسم على ذلك ! لكن المرء لا يستطيع الموافقة هكذا سريعا على تلك الامور التى تتحدث عنها . يجب التفكير اولا ، حتى لا يكون هناك مجال للندم فيمـــا بعد .

– هذا شىء طبيعى . فلا داعى للعجلة فى كافة الامـــور ! فلتعيشا بيننا ، وتشاهدا على الطبيعة مجريات الامور ، ثم لكما فيما بعد ان تقررا . . انها قضية جدية !

– هذا طبيعى . . يجب التفكير . ويجب ان احكى لرفيقى عن كل شىء ، وان افطنه ، اذ انه لا يعرف الروسية ولا يفهم عمـا نتحدث .

وقال فيكينتى بموافقة :

– ان هذا صحيح . فكرا فى الامر ، وتشاوروا فيما بينكما ، ثم ان الامر سيجد حلا له من كل بد . . .

وبعد عشاء حافل ، رافق فيكينتى ضيفيه الى جناح الرجـال ، بينما لم يتوقف لحظة عن الحديث حول حياة الاخوة الروس الوديعة البارة فى الدير . وقبل انصرافه صار يذكر :

– وكما يقول المتنورون فان للصباح عيونا . فلتناما نوما هادئا ولتنالا قسطكما من الراحة ، ولتشاهدا كيف يعيش اخواننا فى الدير ، ومن ثم نتحدث . ولدينا متسع من الوقت ، ولا داعى للعجلة . وصدق المثل القائل : فى التأنى السلامة وفى العجلـــة الندامة .

وفى اليوم التالى ، ما كاد فيكينتى يفرغ من اداء صلاة الصباح ، حتى استدعى لمقابلة حاييم وعزرا اللذين كانا يقفان عند مدخل المعبد . وذكر حاييم على الفور انهما قررا السفر الى حيفا ، حيث من المحتمل ان يجدا عملا على متن احدى السفن .

– سوف نذهب للعمل كوقّادين او حمّالين ، او للالتحاق باية وظيفة اخرى تكفل لنا الرحيل عن «ارض الميعاد» هذه . شكرا لكم على انكم قدمتم لنا الطعام والمأوى . شكرا لرغبتكم فى ضمّنا اليكم ، الاّ ان القدر لا يحتم ذلك . ان اعداءنا سوف يعرفون ان آجلا

او عاجلا مكاننا ، وعندئذ لن يكون هناك مجال لتلافى الكارثة . بل ويمكن حينئذ ان تلوموا أنفسكم على انكم اقنعتمونا بالبقاء . هذا رغما عن اننا ، ونقسم على ذلك ، لم نرتكب اثما .

عقدت الدهشة لسان فيكينتى نتيجة لتطور الاوضاع على هذا النحو . اما حاييم وقد كان يود التعجيل بشرح حيثيات قراره ، ما ان لاحظ التأثير الذى تركته كلماته على ابن بلده الراهب ، حتى تجرأ على ان يطلب منه بعضا من المال ، ولو ما يكفى لتغطية نفقات سفرهما بالسكة الحديد .

وما كاد الحديث يتطرق الى المال حتى عاد الراهب الى وعيه ليقول :

— لقد استقبلكما هذا الدير وآواكما دون ان تدفعا لقاء ذلك اى مبلغ من المال . هذه هى العادة . ويمكن ان نمنحكما فرصة السفر الى يافا فى احدى عرباتنا التى تسافر الى هناك . بيد أننى ، عبد الله ، لا املك مالا ، كما الحال عند اخوانكم البؤساء فى الكيبوتس الذين يكدحون ليل نهار . ويشهد الله على أننى لا أملك مليما واحدا !

وعلق حاييم على ذلك قائلا :

— ما العمل اذن ، ما دام الامر كذلك فلنذهب سيرا على الاقدام ، والمهم ان نبارح هذا المكان على وجه السرعة . نشكركم مرة اخرى ووداعا .

واجابه الراهب وقد خاب أمله ورسم علامة الصليب على كل منهما ثلاث مرات :

— مع السلامة . لربما من الافضل ان يكون المرء ندا بين الغرباء ، عن ان يكون غريبا بين ذويه فى ارض الميعاد . كل شئ ممكن فى هذا العصر . وان ضاق بكما الحال ، لكما ان تعودا فابوابنا مفتوحة لكما مثلها مثل قلوبنا التى تستقبل كل بائس طريد .

وفى الطريق الى تل أبيب أخذ حاييم يفكر والألم يعتصر قلبه فى كيفية مقابلة أحمد الذى لم يره طوال حياته . بيد ان الامر كان أبسط مما كان يتصور . فقد لاحظ حاييم عند مدخل الميناء وسط الحمّالين شخصا يرتدى عقالا عرف فيه ذلك العربى الذى

كان كثيرا ما يقابله ايام كان يعمل مساعدا لسائق الاوتوبيس . كان الحمالون ينادونه «بالمعلم» احتراما له ، او باسمه «أحمد» .
والتقط حاييم انفاسه فقد كان على يقين ان هذا الشخص هو احمد الذى ينتظرهما . وكان أحمد بدوره ، بعد ان علم بالقبض على موسى ، يراقب فى تمعن حاييم وعزرا اللذين كانا يسيران نحوه فى وجل . وسارع يستقبلهما ، حتى يتبين جلية الموقف بعيدا عن الانظار . ولم يتطلب الامر شرحا على اى حال . فقد عرف أحمد حاييم وفى محاولة للتأكد من أنهما هما اللذان كان يجب على موسى مرافقتهما ، سأله :

– واين صاحبكما ؟

– السائق ؟

– نعم . سائق عربة النقل . هل اصابته وعكة ؟

وأجاب حاييم بنبرة تتسم بالحزن :

– نعم . . . ويبدو أنها وعكة عصيبة !

– حقا ، لقد وقعت كارثة . . . لكن . . . لا بأس ! عليكما ان تتبعانى . . . لقد كنت أنتظركما منذ وقت طويل ، وراودنى تفكير فى انه ربما انتما ايضا قد تعرضتما لمثل هذا الموقف .

وقاد أحمد الهاربين الى الرصيف ، بينما كانت السفينة قد أرست مراسيها بعيدا عن الرصيف . وسرعان ما وصل زورق بخارى ، توجه أحمد ناحيته ليتبادل بعض الكلمات مع أحد بحارته ، ثم أشار الى حاييم وعزرا . ونظر البحار الى حاييم ونصحه بحلاقة ذقنه حتى لا يكون متميزا بين الركاب . وكان هناك صالون حلاقة على مقربة من المكان ، كما كان هناك متسع من الوقت . اما هو فذكر انه سوف يتوجه الى الجمارك لتنفيذ مهمة اوكلها اليه القبطان .

وأعطى أحمد حاييم قرشا وأشار اليه ان يذهب لحلاقة ذقنه ، بينما وقف ينتظره مع عزرا .

وأخذ حاييم ، وهو جالس على كرسى الحلاقة ، يفكر بارتياح : «بعد نصف ساعة سوف نكون على متن السفينة لننطلق بعيدا عن الاهوال والمصائب» . ولم يود التفكير فيما ينتظرهما فى

الميناء الرومانى ، فقد كان المهم هو الرحيل بعيدا عن هنا . وحين نظر الى المرآة ، لم يعرف نفسه حيث بدا وجهه هزيلا يغطيه النمش ، وأذناه طويلتين بشكل يدعو الى الضحك . وتذكر رغما عنه آخر مرة حلق فيها ذقنه حين ذهب يعود اويا بالمستشفى ، وحين خرجت اليه لاول مرة بعد الولادة ، تبدو عليها أمارات السعادة والفرحة التى ارتسمت فى عينيها . تذكرها حين اندفع اليها وضمها الى صدره وراح يمسح طويلا على رأسها الذى سندته الى كتفه . وتخيل حاييم أويا الحبيبة صغيرة هزيلة لا حول لها ولا قوة ، تذكرها هى حبيبته الوحيدة . وها هو اليوم يسافر بعيدا عن مقبرتها .

وظلت الذكريات الحزينة تسيطر على حاييم ، الذى دفع حساب الحلاق ، دون ان يعير انتباها لتلك الاصوات المنبعثة من ناحية الميناء ، ولمغادرة الحلّاقين الآخرين للصالون . وجمد حاييم فى مكانه حين غادر الصالون ووقع نظره على عزرا الذى يركض ويلاحقه اريه خيرسون وشبان يرتدون قمصانا زرقاء ، ولم يدر ماذا عليه ان يفعل . واذ سمع نداء أحمد ، اندفع حاييم اليه لا يلوى على شىء فى اتجاه الرصيف حيث قفز الى الزورق البخارى الذى كان ينتظره . وقام البحارة الذين اصابهم الرعب حيال كل ما يجرى ، «بوضعه» فى قاع الزورق وتغطيته بالمشمع .

وتوقف عزرا فجأة والتفت الى مطارديه وهوى بقبضته ليطيح باول من تعرض له منهم ، لدرجة ان بقية ذوى القمصان الزرقاء لم يتجاسروا على الاقتراب منه ، ووقفوا يشكلون نصف دائرة وهم يلهثون كما قطيع الكلاب الذى احاط بفريسته .

وصاح خيرسون يهيب بالواقفين للامساك به ، وراح اولهم يتقدم اليه قائلا :

— اياك يا عزرا . . اياك ! سوف يكون جزاءك اشد . . .

بيد ان عزرا تقدم فى خفة الى اريه خيرسون ووجه اليه ضربة طرحته ارضا ، ثم اندفع يجرى الى المرسى . وحين شاهد الزورق يبتعد عن الشاطىء متجها الى السفينة ، القى بنفسه فى البحر .

وأصابت الحيرة مطارديه . فما العمل ؟ هل يحاولون اللحاق

بعزرا سباحة ، بعد ان غدا بعيدا عن الشاطئ ، ام يقدمون العون الى اريه خيرسون الذى يرقد فاقد الوعى . وفى تلك اللحظة غادر الرصيف زورق حراسة انجليزى ظن ربانه ان هناك مجرما هاربا من العدالة يحاول الفرار .

لم يكد الزورق البخارى يقترب من السفينة الرومانية حينما اندفع زورق الحراسة بسرعة متزائدة نحو الرجل السابح . بيد ان الامساك به كان امرا صعبا ، فقد كان عزرا سبّاحا ماهرا . فما أن شاهد الزورق يقترب منه حتى غطس تحت الماء واختفى بعيدا عن مطارديه . وعندما بدا رأسه الاسود بعيدا ، تحول الزورق اليه ، الا انه غطس ثانية وراح يسبح فى اتجاه لم يتوقعه مطاردوه . وظل عزرا يناضل هكذا ، حتى شاهدهم يرفعون الزورق الذى كان يحمل حاييم الى متن السفينة الرومانية . ولوّح بيده تحية للسفينة الرومانية الراحلة ثم غطس ليغرق .

وقف حاييم طويلا عند الكوة المستديرة بجانب السفينة وقد جفت مآقيه كمدا ، ينظر الى البحر الهادىء الرقيق ، والى الزورق الذى يدور كالصقر بين الرصيف والسفينة الرومانية ، والى اضواء المدينة الخافتة التى تتألق ضعيفة فى الغسق ، والى السماء الحافلة بالنجوم الكبيرة . لقد ترك هناك «أرض الميعاد» .

وابتسم حاييم فى مرارة :

– «اى ميعاد !» ، «ولمن ؟» وتذكر كلمات موليا :

– «بلد النجوم الكبيرة ، والدموع المريرة !»

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو ــ الاتحاد السوفييتي

دار التقـــــدم

يعـــد للطبـــع

نمط الحياة السوفييتى

ما هو نمط الحياة السوفييتى ؟ فيم تتجلى عناية الدولة السوفييتية المتواصلة بمواطنيها ؟

يجيب الكتاب على هذين السؤالين وكثير غيرهما. وهو يتحدث عن الحياة التى ولدها النظام الاشتراكى الجديد .

يضم الكتاب بحوثا وتحقيقات صحفية ومقـالات اجتماعية بقلم قسطنطين سيمونوف ورسول حمزاتوف واناتولى اغرانوفسكى ويفغينى كريغير وغيرهم مـن الكتاب والصحفيين الذين يتحدثـــون عن مصائــــر المواطنين السوفييت ويطلعون القراء على اعمالهـــم وافكارهم وآمالهم .

الكتاب مزود بصور .

دار التقـــــدم

يعـــد للطبـــع

دزاسوخوف . فى سبيل التضامن ضد الامبريالية

ظهرت منظمة تضامن شعوب آسيا وافريقيا فى اواخر الخمسينات ، فى فترة تصاعد النشاط الاجتماعى والسياسى والموجة العارمة من ثورات التحرر الوطنى فى بلدان هاتين القارتين .

يتضمن هذا الكتاب استعراضا تاريخيا لتطـور حركة التضامن ، ويكشف عن دور هذه المنظمة فى رص صفوف اوسع التيارات التحررية الوطنية فى بلـــدان القارتين .

دار التقــــــدم

صـــــــدر

الطبقة العاملة لبلاد السوفييتات

(سـلسلـة
«التقدم . كتب عن الاتحاد السوفييتى»)

تتكون هذه المجموعة من ثلاثة ابواب مكرسة لاكثر القضايا الحاحا فى حياة العامل السوفييتى فى السبعينات .

يتناول باب «القوة القائدة للمجتمع السوفييتى» مراحل تطور الطبقة العاملة والتغيرات الجارية فى بنيتها بتأثير الثورة العلمية التكنيكية .

ويتحدث الباب الثانى عن عناية المجتمع بالمرأة الكادحة فى الاتحاد السوفييتى .

ويكرس البـاب الثالث لقضية الخلف العمالى واشكال وطرق التعليم المهنى وتربية الشباب .